الاستاذ الدكتور سالم الدملوجي

الكلية الطبية الملكية العراقية

من خلال سيرة ذاتية



الجزء الأول

١٩٤٠ - ١٩٤٦



الكلية الطبية الملكية

العراقية

من خلال سيرة ذاتية

الكلية الطبية الملكية

العراقية

من خلال سيرة ذاتية

الكلية الطبية الملكية العراقية / من خلال سيرة ذاتية : طب
د. سالم الدملوجي/ مؤلّف من العراق
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣
حقوق الطبع محفوظة



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص. ب :٩١٥٧ ، هاتف : ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس ٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali @ nets. com. jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
ناظم رمزي
الصفّ الضوئيّ :
مطبعة الجامعة الأردنيّة ، عمّان

ISBN : 9953-441-51-0

الأستاذ الدكتور سالم الدملوجي

الكلية الطبية الملكية العراقية

من خلال سيرة ذاتية

الجزء الأول

١٩٤٠ ـ ١٩٤٦



محتويات الكتاب

الإهداء

إلى كليتي التي علمتني وأهّلتني للدخول إلى معترك الحياة مزودا بالعلم والأخلاق ،

إلى أرواح أساتذتي الأفاضل بناة الطب الحديث في العراق ،

إلى خريجي الكلية الطبية العراقية وتلاميذها اللاحقين كي يحفظوا الود والعرفان لكليتهم الأم ،

إلى رفيقة العمر التي كانت مرشدتي وساعدي الراحلة الغالية الأستاذة لمعان أمين زكي عميدة طب الأطفال في العراق .



مقدمة

مضى على إنشاء الكلية الطبية ما يقرب من ثمانين عاماً لم يوثّق من تاريخها إلا مرحلة تأسيسها وفترة زمنية قصيرة ، امتدت أكثر من عقد واحد بقليل ، وقد تم ذلك بجهود عميدها السابق الأستاذ الدكتور هاشم الوتري ومعاونه الدكتور معمر خالد الشابندر ، في كتابهما المعنون «تاريخ الطب في العراق مع نشوء وارتقاء الكلية الطبية العراقية» والمنشور سنة 1939 .

ومنذ ذلك التاريخ لم يكتب عن الكلية الطبية وتطورها وبلوغها ، باعتراف الجهات الدولية والطبية والعلمية ، مرتبة مرموقة ، فأصبحت من أبرز الكليات الطبية في الشرق الأوسط ، وتخرج منها عشرات الألوف من الأطباء الأكفاء ، كان منهم الممارسون والاستشاريون والأساتذة والأكاديميون في داخل العراق وخارجه ، وانبعث منها ، وهي الكلية الأم ما لا يقل عن عشر كليات طبية زودتهم بأساتذة من خريجيها وأصلحت بذلك ما كان يعاني منه العراق من نقص في الكادر الطبي .

ولقد وجدت ، منذ أن كنت أقوم بالتدريس في الكلية ، جهلاً من طلابها بتاريخ كليتهم ، ومراحل تقدمها والتطورات التي جرت على مناهج وأساليب التدريس فيها ، علاوة على أن معلوماتهم كانت سطحية بل ومعدومة عن الأطباء الرواد مؤسسي كليتهم ، إذ طمس أثرهم ولم يعودوا يذكروا إلا لماماً في أحاديث القدامى منهم . لذا عزمت على الكتابة عن الكلية في مرحلة من عمرها ، عشتها فيها طالباً وطبيباً سريرياً وأستاذاً ، مرحلة امتدت أربعين عاما ، بدأت سنة 1940 ، وانتهت بإحالتي وزملاء آخرين على التقاعد في أواخر سنة 1979 .

بين يدي القارئ القسم الأول ، وهو مرحلة دراستي (1940- 1946) ، وأرجو أن أوفق في كتابة القسم الثاني ، عن المرحلة التي كنت فيها معيداً ومدرساً (1946-1965) ، ثم القسم الثالث إذ كنت أستاذاً ولفترة منها رئيساً لقسم الطب (1965- 1979) .

وعودة إلى أيام الدراسة يوم ذاك فإن الحياة لم تكن سهلة ومتيسرة ، فقد بدأنا بها والحرب العالمية في مستهلها ، وانتهت ونحن في الصف المنتهي . وخلال ست سنوات مرت بنا أحداث جسام منها ثورة مايس 1941 ودخول جيش الحلفاء إلى العراق وانقطاع المواصلات مع العالم الخارجي ، وارتفاع تكاليف المعيشة ، وظهور السوق السوداء وأغنياء الحرب ، وإنشاء وزارة التموين لسد حاجات المواطنين من

مستلزمات الحياة اليومية ، كل ذلك إضافة إلى النقص الحاصل في مستلزمات الدراسة من كتب طبية ومراجع وأدوات مختبرية واتصال علمي بالمراكز الطبية العالمية . ومع كل هذا فقد كنا يومها سعداء بانتمائنا إلى الكلية الطبية ، ونحترم ونقدر أساتذتنا ومعلمينا ، متطلعين إلى غد مشرق نساهم فيه بإرساء نهضة علمية وطبية في وطننا العراق .

ولما كانت الكلية ناشئة ، فقد استعانت في بادئ الأمر بالأساتذة الأجانب والعرب ، ونخبة من العراقيين المميزين ، حرص القسم الأكبر منهم على القيام بالواجب التدريسي خير قيام . غير أن قلة منهم لم تكن بالمستوى الذي نتمناه ونتوخاه وكانت الفائدة منهم محدودة إن لم تكن عقيمة أحياناً . لذا حرصت ، يعلم الله ، أن أكون منصفاً في الحكم عليهم في هذه المذكرات وأعطيت كل ذي حق حقه .

إن هذا العمل لم يكن ليرى النور لولا التشجيع والمساعدة والتفحص الدقيق في كل ما جاء فيه ، خصتني به رفيقة حياتي ، زوجتي الراحلة ، الأستاذة الدكتورة لمعان أمين زكي التي سبق لها أن كتبت فصلاً ، بناءً على طلب أحد طلاب الكلية الطبية العراقية في نهاية سني الثمانينات ، عن الحياة الدراسية والاجتماعية والثقافية ، وذكريات عن الأساتذة والتدريس ، بصفتها من أوائل الفتيات اللواتي انتمين إلى الكلية الطبية ، لغرض نشره في عدد خاص من مجلة الكلية الطبية . وقد أرسلته إلى بغداد ولكنه لم ينشر لظروف مؤلمة مر بها أستاذه المشرف . وكنت يومها قد قطعت شوطاً في مشروعي بالكتابة فلم تطلعني على ما كتبت هي ، كي لا يؤثر ذلك في كتابة ذكرياتي ، إلا قبيل انتقالها إلى الرفيق الأعلى بشهر واحد ويجده القارئ ملحقا أولاً في هذا الكتاب .

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من صديقَي العمر ، زميلي الأستاذ الدكتور خالد عبد العزيز القصاب الذي قرأ مسودة الكتاب وأبدى تعليقاته الثمينة وسجل ذكرياته العطرة عن كليتنا أيام زمان التي يجدها القارئ ملحقاً ثانياً بهذا الكتاب ، والأستاذ نجدة فتحي صفوة الذي راجع لغة الكتاب وأضاف بعض المعلومات عن تاريخ تلك الفترة الزمنية . وأشكر بصورة خاصة الأصدقاء الأعزاء كلاً من الأستاذ عطا عبد الوهاب و الفنان ناظم رمزي والسيدة بشرى برتو وولدي عمر الفاروق وابنتي ميسون للعون الذي أبدوه في الإخراج النهائي للكتاب ، والله الموفق .

سالم فاروق الدملوجي

لندن 2001

الفصل الأول

الدراســة

استهــلال

ولدت في مدينة الموصل في التاسع من نيسان (ابريل) 1924 لأسرة سكنت الموصل منذ 1635م ونشطت أجيالها المتعاقبة في الفقه وعلوم الدين . دخلت «مدرسة الوطن الابتدائية للبنين» في سن الخامسة . ولما نقل والدي إلى بغداد وعيّن مديراً لشؤون البيطرة في وزارة الأشغال والمواصلات سنة 1933 ، انتسبت إلى «المدرسة المأمونية» أولاً ثم داومت في «مدرسة الباردوية الابتدائية للبنين» . وأذكر من المعلمين الذين درّسوني كلاً من رؤوف الخطيب ، وعبد العزيز الصانع ، وناصر النقشبندي ، وحسن الخطيب ، وإبراهيم حلمي حسن ، وكان مدير المدرسة المربي القدير إسماعيل حقي .

كنت أثناء مرحلة الدراسة الابتدائية مبرزاً في الرياضيات والعلوم وأحصل على درجات عالية وأنال الأولية على الصف في نهاية السنة . وأذكر من زملائي توفيق عبد الجبار ، وشكيب ناجي الكروي ، وناجي الراوي ، ومصطفى سيد حسين ، وعلي الطالباني .

بعد نجاحي في الامتحان الوزاري للدراسة الابتدائية ، انتقلت إلى «المدرسة الغربية المتوسطة» المشيّدة حديثاً في منطقة «الكرنتينة» قرب باب المعظم . وكانت من خيرة المدارس الحكومية ، اهتمت وزارة المعارف بجعلها مدرسة نموذجية فاختارت للتدريس فيها لفيفاً من المدرسين الأكفاء ، أذكر منهم الأستاذ عبد الفتاح إبراهيم مدرس التاريخ ، والأستاذ ذو النون أيوب مدرس الرياضيات ، والأساتذة فؤاد جميل وعبد الكريم الكيلاني وعلي حيدر الركابي لتدريس اللغة الإنكليزية ، والأساتذة عبد المنعم خلاف ومحمد علي الخطيب ورشيد علي العبيدي للغة العربية ، وجواد الجصاني لتدريس الكيمياء ، وإبراهيم شوكت لتدريس الجغرافية ، وكان مدير المدرسة الأستاذ المربي القدير طه مكي .

وعلى مقاعد الدراسة في المدرسة الغربية ، زاملني العديد من الطلبة النابهين الذين حققوا بعد سنين نجاحاً مرموقاً في مجالات تخصصهم أذكر منهم سليم جميل دلالي طبيب أمراض نسائية ، ونجدة فتحي صفوة دبلوماسي ومؤرخ ، وزيد محمد صالح ضابط مهندس فنان ، وزكي حسين حلمي معاون رئيس أركان الجيش ، ووديع خوندة موسيقار ، وهاشم البرزنجي مهندس ، ومحمد عبد الوهاب محام ، وعطا عبد

الوهاب قانوني ، وشامل الشيخلي قانوني ، ومحمد زينل قانوني ، وإحسان سامي إداري .

بعد اجتيازي امتحان البكالوريا الوزاري للدراسة المتوسطة قبلت في القسم العلمي في المدرسة الثانوية المركزية ببغداد ، وفيها قام بتدريسنا صفوة أخرى من المدرسين الأكفاء أذكر منهم مصطفى جواد ، وناجي معروف ، وصادق الأعرجي في اللغة العربية ، والشريف محمد أمين حيدر في اللغة الإنكليزية ، وأوهان دنحو في مادة الرياضيات ، وجميل جموعة في الكيمياء ، وجان جبور (لبناني الجنسية) في مادة الفيزياء ، ورشيد رؤوف في موضوع الأحياء والنبات .

من هؤلاء الأساتذة أذكر بصورة خاصة الأستاذ زكي الأرسوزي (1900-1968) مدرس مادة تاريخ أوروبا الحديث . كان لأسلوبه اللامنهجي ، وسماحه لنا بمقاطعته أثناء الدرس ، ومناقشة أقواله أثره العميق فينا . وقد ألهب مشاعرنا الفتية بحماسته وأفكاره في تفسير صناعة التاريخ ومستقبل الأمة العربية مستشهدا بأحداث الثورة الفرنسية وتاريخ الوحدتين الألمانية والإيطالية وبتعابير كان يستعملها بكثرة مثل «وجدان الأمة» و«انبعاث القومية العربية» و«عبقرية الأمة العربية» و«مقارعة الاستعمار بالعلم» التي كانت تلقى صدىً رحباً في جوارحنا ، وكانت محاضراته تجذب طلاب صفوف أخرى فتكتّظ قاعة درسه بالمستمعين من الطلبة وتفرغ قاعات أخرى لتسرب الطلاب منها .

وأذكر أن مدير المدرسة الثانوية المركزية يومها كان الأستاذ الفاضل عبد الهادي المختار ، وتلاه في السنة الأخيرة الأستاذ مصطفى علي ثروت .

وكان من زملاء الدراسة في هذه المرحلة طه حسين فوزي (محام) ، وشوكت شاكر علي (صيدلي) ، ومحمود جعفر الأوقاتي (صيدلي) ، ومزيز محمود شكري (أستاذ الجراحة) وسليم جميل دلالي (طبيب الأمراض النسائية) ، وسعدي إبراهيم (وزير المالية) ، ونوري مصطفى بهجت (طبيب وفنان) ، وقتيبة الشيخ نوري (طبيب أنف وأذن وحنجرة) ، وسلمان داود تاج الدين (أستاذ طب الأطفال) ، وصلاح الدين النفطجي (محام) ، وعباس تويج (صيدلي) ، وأكرم عثمان (مدير شرطة) ، وطه الشيخلي (مدير الشرطة العام) .

كانت مناهج الدراسة الثانوية تشمل تدريس لغة أوروبية ثانية إلى جانب اللغة الإنكليزية التي بدأنا دراستها في الصف الخامس ابتدائي . كان للطالب أن يختار

إحدى اللغتين الألمانية أو الفرنسية ، وقد اخترت اللغة الألمانية وأجدتها خلال فترة وجيزة ، بفضل الأسلوب الشيّق في تدريسها إيانا من قبل شاب ألماني هو الهر هوبر ، الذي أجبر في السنة التالية على مغادرة العراق بعد أن قطعت الحكومة العراقية العلاقات الدبلوماسية مع ألمانيا في سنة 1940 .

لقد حبّب لي المدرس المذكور دراسة الكيمياء في ألمانيا وكنت أعلل نفسي بالسفر والدراسة في الخارج بعد التخرج من الثانوية . وأذكر هنا أن غالبية الطلاب في القسم العلمي اختاروا تعلم اللغة الألمانية بينما اختار معظم طلاب القسم الأدبي تعلم اللغة الفرنسية . وكان هناك شعبة واحدة في القسم العلمي تدرس اللغة الفرنسية وكان من منتسبيها زميلي في دراسة الطب مصطفى إبراهيم أدهم وعدد كبير من الطلاب اليهود .

ومن الدروس التي كنت شغوفاً بها كذلك مادة الفيزياء وكنت أنال درجات كاملة خلال الامتحانات الشهرية والفصلية ، إلا أن سوء الطالع أصابني في امتحان البكالوريا فكانت إجاباتي للأسئلة القائمة على المسائل الرياضية خاطئة بالرغم من سهولتها . ولم ينقذني من الرسوب إلا إجاباتي الكاملة على الأسئلة التي تعتمد على الشروح والتفسير والتعليل ، فحصلت على معدل 50٪ (خمسين بالمائة) وكان كافياً للنجاح لكنه خفّض مجموع الدرجات الكلي والمعدل العام (73 بالمائة) ، ولم يكن ذلك كافياً للقبول في كلية الطب على حصة لواء بغداد كما سيأتي ذكره فيما بعد .

ولا يفوتني قبل الانتهاء من هذه المرحلة الإشارة إلى الجو العسكري الذي رافق عملية التدريس يوم ذاك ، فقد أدخلت وزارة المعارف في أواسط الثلاثينيات نظام الفتوة وطبّقته على كافة الطلاب (والطالبات) في الصفوف الثالثة المتوسطة والرابعة والخامسة الثانوية . وكنا نرتدي زياً موحداً من مادة الخاكي يتشكل من سترة ذات ياقة مغلقة عند العنق ونطاق وسروال طويل يشد في أسفل الركبة كي يتهدل الباقي إلى ما فوق الحذاء . وعيّن لكل صف عريف ونائب عريف ، وللمدرسة رئيس عرفاء (عبد الكريم كنة) ونسّب الأستاذ محمد علي صدقي ، مدرس الرياضة ، مسؤولاً إدارياً للتدريب العسكري .

كان جو الفتوة العسكري معبراً عن تطلّع الشباب القومي للاستقلال والتخلص من الهيمنة البريطانية على العراق ، وإنقاذ فلسطين من الصهيونية وتحرير البلاد

العربية من براثن الاستعمار ، لذا فإن للقارئ أن يتخيل مدى تعاستي وشعوري بخيبة الأمل عندما لحني ضابط التدريب ، لما كنت في الرابعة عشرة من عمري وأنا طالب في الصف الثالث ، قصير القامة نحيل الجسم حاملاً للمرة الأولى البندقية وتكاد الحربة المعلقة في النطاق إلى جنبي أن تلامس الأرض ، وأمرني بإعادة البندقية والحربة إلى المشجب وإعفائي من التدريب العسكري بصورة نهائية . غير أني عدت إلى التدريب في الحصة التالية فتغاضى الآمر المذكور عن حضوري ولم يصرفني بعدها .

ومن ذكرياتي عن التدريب العسكري أننا اصطففنا على جانبي شارع الإمام الأعظم عند مرور جثمان الملك غازي من البلاط الملكي إلى المقبرة الملكية يوم 5 نيسان 1939 ، حاملين السلاح و مؤدين التحية العسكرية للملك الراحل . وعندما أنهينا تدريبنا العسكري في نيسان 1940 قام آمرنا بترتيب استعراض عسكري لمدرستنا فتوجهنا من الثانوية المركزية ، بمحلة البقجة قرب «الميدان» ، حاملين السلاح واخترقنا شارع الرشيد بمسيرة عسكرية نظامية . وكان أهالي بغداد قد تجمعوا على جانبي الطريق وكنت ترى النساء يزغردن لمرأى شباب الفتوة . ومضينا إلى منطقة الكرادة الشرقية داخل ، على ضفاف دجلة ما يقابل منطقة المسبح حالياً ، وكانت لا تزال أرضاً بكراً لم يصل إليها العمران . وقضينا نهاراً كاملاً فيها قبل عودتنا في المساء .

القبول في الكلية الطبية

كان صيف بغداد عام 1940 قائظاً ، وبعد قضائي بعضاً منه في الموصل مع أسرتي ، عدت إلى بغداد لتقديم طلب الانتماء إلى الكلية الطبية الملكية العراقية . وكنت في الحقيقة أرغب بالحصول على بعثة علمية للدراسة في الخارج أسوة بأخي فيصل الذي كان يدرس يومها الاقتصاد في بريطانيا طالباً في بعثة وزارة المعارف . إلا أن نشوب الحرب العالمية الثانية ودخول العراق إلى جانب الحلفاء واشتداد وطيس الحرب في أوروبا حمل الوزارة على إيقاف كافة البعثات إلى الدول الغربية .

أكملت المعاملات والوثائق المطلوبة في فترة وجيزة ، بما فيها إقامة دعوى على مدير النفوس ، فقد كان عمري 16 سنة في حين تشترط الكلية بلوغ 17 سنة كحد أدنى للقبول في كلية الطب .

وتوجهت إلى مبنى الكلية لأقدم الوثائق المطلوبة إلى سكرتير الكلية السيد فرج عبد الأحد ، فناولني استمارة فحص طبي وأخرى لفحص العيون وتوجهت إلى المستشفى الملكي حيث أجرى لنا الدكتور جلال العزاوي وطبيب آخر لا أذكر اسمه الفحص وعدت بالنتيجة إلى سكرتير اللجنة .

كتبت في مذكراتي التي دوّنتها تلك الأيام والتي عدت إليها مؤخراً ، أن عدد الطلاب الذين تقدموا بطلباتهم للانتماء إلى كلية الطب بلغ 361 طالبا وطالبة . وكانت مديرية الصحة العامة قد قررت قبول 58 طالبا من كافة الألوية العراقية ، وذلك حسب أفضلية درجاتهم التي حصلوا عليها في الامتحان الوزاري بعدد يتناسب مع مجموع سكان ذلك اللواء ، وعدم إجراء مقابلة شفهية للمتقدمين كما كان جارياً في السنوات السابقة .

وفي هذه الأثناء علمت من معاون العميد الدكتور عبد المجيد القصاب أن مجموع درجاتي لا يؤهلني للقبول محسوباً على لواء بغداد ، ولكن قبولي محسوباً على حصة لواء الموصل (مسقط رأسي) هو أمر مضمون . لذا قمت بتقديم شهادة ميلادي الصادرة في مدينة الموصل ضمن الوثائق المطلوبة . ومع هذا ودرءً لاحتمال عدم قبولي في الكلية الطبية ، اخترت كلية الصيدلة كبديل ثان .

وبهذه المناسبة أذكر أن الكليات والمدارس العالية يومها لم تكن تستوعب كافة خريجي المرحلة الثانوية في العراق . فانصرف البعض من زملائي في الدراسة إلى العمل الحر وآخرون إلى الوظائف الحكومية . وكان عدد المقبولين في كلية الحقوق ودار المعلمين العالية بفروعها العلمية والأدبية يفوق عدد من تقرر قبولهم في كليتي الطب والصيدلة في وقت لم تكن فيه كلية الهندسة قد افتتحت بعد ، بل كان هناك مدرسة للهندسة أمد الدراسة فيها سنتان أو ثلاث بعد المتوسطة .

كان لميلي للعلوم وخلفيتي العائلية ولتشجيع والدي الأثر المهم في اختياري الطب مهنة المستقبل . فوالدي محمد فاروق الدملوجي درس الطب البيطري في جامعة إستانبول وتخرج منها عام 1900 ، ثم تدرج وظيفياً حتى شغل منصب مدير الشؤون البيطرية في العراق . وكان يتابع سير دراستي ويلحظ فيّ الجدية والصبر وقابليتي للاستذكار والجلوس إلى دراستي ساعات طويلة ، ويذكر دوما أمامنا ، ربما تشجيعاً لي ، أن روبرت كوخ الذي خلّد اسمه باكتشافه عصيّة مرض السل سبباً لذلك المرض الوبيل الذي كان يفتك بالبشرية ولـمّا يهتدي العلماء بعد لاكتشاف

دواء للقضاء عليه ، قد نجح بقوة الملاحظة والمثابرة والصبر وهي صفات تتوفر في ولده ، فهل إن درس الطب سوف يكتشف هو الآخر دواءً لعلاج ذلك المرض المستعصي ويقدمه للبشرية!! كما أنه كان يردد أمامنا أن الطبابة مهنة حرة وفيها الاستقلال الذاتي والمادي وربما نفع للناس ، «وخير الناس من ينفع الناس» .

وفي المحيط العائلي كان عمي عبد الله الدملوجي قد تخرج طبيباً من كلية طب حيدر باشا العسكرية في إستانبول (1913) وزاول الطب والجراحة لفترة قصيرة ، لكنه انصرف بعدها إلى العمل السياسي[1] . كما إن شقيقي الأكبر زهير الدملوجي كان ، عند انتسابي إلى الكلية (1940) ، طالباً في الصف المنتهي من الكلية الطبية في بغداد وعلى وشك التخرج طبيباً . وكنت معجباً به وبرفاقه الذين كثيراً ما حضروا إلى دارنا للدراسة والمراجعة ، وأذكر منهم محمد حسين السعدي ، وسامي خياط ، والبير قليان ، وشوكت الدهان ، وعبد الجبار العماري ، وحسن السباك .

وربما كان هناك عامل آخر رغّبني في أن أكون طبيباً وهو إعجابي وتقديري الشديد للدكتور (جارلس مكاتي Charles McCattie) وكان طبيباً من سكوتلندة يعمل خبيراً في الأمراض الوبائية بصحبة والدي في مديرية البيطرة وأستاذاً لعلم البكتريولوجي في الكلية الطبية . وكنت أزوره في مختبره المجاور لمكتب والدي في مديرية البيطرة الواقع في الباب الشرقي . وهو الذي علّمني استعمال المجهر (المكروسكوب) ، وعرّفني على عالم البكتريا والطفيليات . وأهداني مستلاً ، موقعاً بإمضائه ، من مقال كتبه بالاشتراك مع الأستاذ ملز Mills والأستاذ سندرسن Sinderson ونشره في مجلة الأمراض المتوطنة والصحة الصادرة في لندن (1937) ، عن مرض «التوكسو بلازموسز» في الكلاب السائبة في بغداد . ولا أزال أحتفظ به ذكرى لذلك الأستاذ الجليل الذي كنت أرجو أن أحذو حذوه في البحث العلمي والتأليف .

يضاف إلى كل ما ذكر أعلاه ما كان للكلية الطبية من سمعة محمودة ومستوى تدريسي عال بفضل الأساتذة البريطانيين والعراقيين من أمثال صائب شوكت وهاشم الوتري وللمكانة المحترمة التي يتحلى بها الطبيبان السالفان في المجتمع .

---

(١) في السعودية أولا وزيرا للخارجية ثم في العراق ، واستوزر عددا من المرات . إضافة إلى توليه منصب مدير الصحة العام في العراق أكثر من مرة .

بعد أيام قلائل ظهرت نتائج القبول إلى الصف الأول وعلّقت القائمة على شجرة السدر (النبك) في ساحة الكلية وتهافت المهتمون لقراءتها ، ثم نقلت إلى لوحة الإعلانات في بناية الكلية ، وظهر اسمي ضمن المقبولين على حصة لواء الموصل ، بتسلسل الثاني في القائمة وبعد اسم زميلي سالم فتحي الصائغ . كما ظهرت فيها أسماء زملاء لي في الثانوية المركزية في بغداد وكان منهم خالد القصاب وسليم جميل دلالي وعزيز محمود شكري وقتيبة الشيخ نوري ونوري مصطفى بهجت وشوكت شاكر علي وطه حسين فوزي وفخري الحاج سري ومحمد محسن أبو طبيخ ومصطفى إبراهيم أدهم .

كان عدد الطلاب الجدد المقبولين 68 ، منهم 30 طالبا يدرسون على نفقة الحكومة ، و38 طالبا نفقة خاصة . وضمّت دورتنا الرابعة عشرة سبع(*) طالبات (إحداهن معيدة من السنة السابقة) وأصبح مجموع طلاب الصف يناهز ثمانين طالباً ، بعد انضمام من رسب في الامتحانات من الدورة التي سبقتنا .

اليوم الأول في الكلية

صباح اليوم العاشر من تشرين الأول (اكتوبر) 1940 كان يوماً خريفياً جميلاً ، وكنت ترى طلبة الكلية من مختلف الصفوف متجمعين في الساحة الكبيرة أمام مبنى الكلية ، التي تتوسطها حديقة دائرية وبركة مرتفعة قليلا ومزدانة بالزهور وعلى أرصفتها مصاطب أعدت للجلوس وهم فرحون بلقاء زملائهم بعد عطلة الصيف وبداية العام الدراسي الجديد . وبعد قليل سوف ينادى عليهم للدخول إلى قاعات المحاضرات .

في مدخل الكلية كان هناك تمثالان على جانبي الباب الوسطي المؤدي إلى غرفة سكرتير الكلية ، أحدهما لـ«أبوقراط» والآخر لـ «ابن سينا» . المدخل يتفرع إلى ممرين طويلين يؤديان إلى قاعات المحاضرات والمختبرات المختلفة . وعلى الجدران الداخلية للمدخل علقت لوحات خشبية على علو مرتفع حملت أسماء الطلبة المميّزين في الدراسة الذين نالوا جوائز الأساتذة والأولية على الصفوف في السنوات الماضية ومنذ تأسيس الكلية .

(*) الطالبات المقبولات : ماركريت كساب ، سعاد توفيق ، نزيهة مخلص ، أيماتاديوس ، صبرية نوشي ، علية الراوي والمعيدة إقبال خليل آغا .

نادى الفراش سلمان بأعلى صوته «صف الأول» .

فدخلنا إلى القاعة المدرَّجة رقم «1» ، واتخذت لي مكاناً بأعلى القاعة من الجهة اليمنى تتسع لطالبين فقط وشاركني في الجلوس فيها صديقي شبلي كامل حسن . كانت القاعة قد شيِّدت حديثاً وهي على شكل نصف دائرة بإضاءة جيدة وهيئت لاستيعاب مائة طالب تقريباً ، تتوسطها في المقدمة منضدة خزفية لفحص مريض ووضع نماذج التشريح عليها . وفي المقدمة إلى اليسار منصة عالية لاستعمال المحاضر يجاورها هيكل عظمي لإنسان كامل .

بعد أن انتظمنا في أماكننا ، دخل السيد نعمة صبور وقرأ أسماءنا (اسم العائلة أو الاسم الأخير ، حسب الطريقة الإنكليزية) ، وكنا نجيب بكلمة Yes . ثم خرج ودخل بعده الأستاذ بوزويل Boswell وقد لبس الروب الجامعي الأسود . وتعجبت أننا لم نقف احتراماً كما كنا نفعل في المدارس سابقاً .

وبدأ بوزويل يلقي علينا المحاضرة الأولى في موضوع البايولوجي «علم الحياة» بلهجة إنكليزية مهذبة ومفهومة وبسرعة معتدلة ، شارحاً لنا مكونات الخلية ومعززاً كلامه بالرسم على اللوحة بالطباشير الملوّن . وكان يكتب الكلمات العلمية بالحروف المتقطعة . شعرت ساعتها أني أعرف مادة الدرس جيداً لأنني تعلمتها في دروس علم الحيوان والنبات سابقاً وأستوعبها الآن ثانية ولكن باللغة الإنجليزية بدلاً من العربية . وقد أعجبتني السبورة السوداء الموجودة في هذه القاعة ، والتي لم أكن رأيت مثلها في السابق ، فقد كانت مكونة من قسمين وحين يملأ الأستاذ القسم الأسفل منها أولاً بما يريد من رؤوس أقلام ورسوم ، يسحب الحبل الخاص فيرتفع القسم الأسفل إلى الأعلى ويهبط القسم الثاني ليكون في متناول يده فيستمر الأستاذ في كتابة ما يريد على هذا القسم ، وتصبح المعلومات على شكل لوحة متكاملة بما فيها من رسوم بالطباشير الملوّن .

انتهت الحصة الأولى بعد ساعة زمنية وبقينا في أماكننا ، أما الأستاذ فوقف هنيهة بانتظار من يتقدم من الطلاب للاستفسار عما فاتهم من معلومات أو لشرح أمور لم يفهموها . ولكنه غادر القاعة حيث أن أحداً لم يتقدم بالسؤال إليه ، ربما لأن الدرس كان مفهوماً أو لرهبة إلقاء المحاضرة .

كان هذا الأسلوب في التدريس نموذجاً جديداً علينا لم نألفه في دراستنا في المرحلة الثانوية أو قبلها . فالمحاضر هنا يلقي محاضرته دون مقاطعة من أحد ولكنه

يترك لمستمعيه فرصة السؤال عما يرغبون بعد انتهاء الحصة المقررة . أما الطلاب فينصتون بدون ضجة ولا أحد يتحدث إلى جاره .

في الحصة التالية ، في مادة الكيمياء ، دخل الأستاذ هوكنز Hawkins ، بقامته الطويلة وجسده النحيف ونظراته الثاقبة ، مرتدياً صدرية بيضاء قصيرة ووقف في وسط القاعة وأجال نظره فينا . وكانت سمعته قد سبقت حضوره ، أنه أستاذ مخيف صعب المراس ومتشدد بالدرجات لا يرحم من يخطئ ولا ينسى حادثاً ، وأنه قال لمن سبقنا في الدراسة أنه «مصفاة أو Filter» الكلية الأولى وواجبه فصل من لا يصلح أن يكون طبيباً في بداية الدراسة . وقد صح ما توقعناه ، فكانت أول جملة نطق بها «أرى القاعة مزدحمة ، نصفكم سوف يرسب ويفصل والنصف الآخر يبقى في الكلية» . ثم انتقل إلى محاضرته فمسك الطباشير وبلله بلسانه . ومن خلال تلك اللحظات المرعبة التي عشناها مهددين بالفصل من الكلية ؛ استمعنا إليه يتكلم عن الذرة والألكترونات والبروتونات ويرسم الجدول الدوري «Periodic Table» والأوزان الذرية لعناصر الفلّزات واللافلّزات وترتيبها بدءاً من الهيدروجين وانتهاءً باليورانيوم ، وهو موضوع لم تتطرق إليه دراستنا في المرحلة الثانوية .

ألقى الأستاذ هوكنز المحاضرة بطريقة عشوائية متنقلاً من موضوع إلى آخر وبسرعة غريبة وبلهجة إنجليزية شعبية غير مفهومة جيداً ولم نتعوّد على سماعها سابقا . ومما زاد الجو رهبة وأفكارنا تيهاً ، أنه لمح أحد الطلبة المعيدين من السنة التي سبقتنا معنا فقطع محاضرته وتقدم منه قائلاً «ألم أقل لوالدك أنك لا تصلح أن تكون طبيباً ، وأنك تضيع وقتك سدى بدوامك في كلية الطب سنة أخرى؟» . أصابنا الوجوم من تلك العبارات الفجة ، فقد ذاب المسكين خجلاً وعلمنا فيما بعد أنه نجل أحد الوزراء البارزين .

لم نستوعب أو ندرك نصف المعلومات التي ذكرها الأستاذ هوكنز في محاضرته الأولى ، لذا كان علينا أن نتساءل فيما بيننا بعد المحاضرة عن كلمة قالها هنا أو جملة فاه بها هناك ، وماذا يقصد بكذا وكذا . ولم يجرؤ أحد منا أن يتقدم بسؤال بعد المحاضرة إلا زميل لنا عرفنا فيما بعد أن اسمه صلاح تحسين علي ، الذي كلمه على انفراد ، فتوقعنا أن تكون بينهما معرفة سابقة .

في الحصة الثالثة ألقى علينا الأستاذ أمين بك عبد الرحمن ، أستاذ مادة التشريح ، محاضرة في علم الأجنّة . وعلى عكس المحاضر الذي سبقه ، كان أستاذنا

العربي طلق المحيا بشوشا لا تخلو محاضرته من النكات . يتكلم الإنجليزية بلهجة مصرية شارحاً الخلية والنواة والكروموسومات ومبادئ علم الوراثة ومعلومات أخرى نعرفها . وكانت تعليقاته المسلّية على المادة التي يحاضر فيها تلطّف من الجو المتكهرب الذي عشناه في الحصة السابقة ، منهياً محاضرته قبل انتهاء الوقت المقرر ، ربما عطفا علينا من زحام وتراكم المعلومات التي تلقيناها في يومنا الأول .

غادرنا بعد ذلك مبنى الكلية وتوجهنا إلى قاعة المطعم حيث أعدت العمادة للطلاب خزائن حديدية لحفظ الكتب والملابس ، وارتدينا الصداري البيضاء ثم عدنا إلى مختبر البايولوجي المجاور للقاعة رقم واحد .

وكانت العمادة قد وزعت طلاب صفنا على شعبتين تتناوبان حضور الحصص العملية في مختبرات البايولوجي والكيمياء والفيزياء . وبعد أن انتظمنا وأخذ كل مكانه في قاعة المختبر ، دخل الأستاذ بوزويل لابساً ، هذه المرة ، معطفاً «صدرية» بيضاء وتبعه مساعده السيد نعمة صبور . وبدأ الأستاذ يشرح لنا كيفية استعمال المجهر «المكروسكوب» . وبعد انتهائه ، وزعت علينا شرائح مجهرية وراح هو ومساعده يدوران علينا ويكلمانا فرداً فرداً . وقد أنسنا لمعاملته الجيدة لنا .

في الواحدة بعد الظهر ، انتهت فترة الدوام الصباحية وتمتعنا بساعة زمنية للراحة وتناول الطعام عدنا بعدها إلى صالة التشريح الكبرى الواقعة في نهاية الممر الأيسر لبناية الكلية . فوجئت عند دخولي بالرائحة النفاذة لمادة الفورمالين التي ملأت القاعة وبمرأى الجثث سوداء اللون بسبب طول وجودها في أحواض الفورمالين . شعرت بحكة شديدة في عيوني وأنفي ولكنني تشجعت إلى حد ما لمرأى عدد كبير من طلاب الصف الثاني بصداريهم البيضاء منكبين على الجثث وآخرين يقرؤون في كتاب أزرق اللون متوسط الحجم هو كتاب Cunningham في التشريح العملي . وهنا دخل القاعة الأستاذ أمين بك عبد الرحمن يتبعه مساعداه الدكتور بيشون رسام والدكتور عبد القادر سرّي ، فتوزعنا على الجثث لتشريحها وكانت مجموعتي مكونة من خالد عبد الله الدملوجي وشبلي كامل حسن وأحمد توفيق جلميران ومحمد محسن أبو طبيخ .

وكان واجب طلبة الصف الأول مقتصراً على تشريح الذراع والساق في حين يقوم طلبة الصف الثاني بتشريح باقي أعضاء الجسد . وكان من حسن حظي أن زميل دراستي داود سلمان علي ، مع مجموعة صغيرة من طلبة الصف الثاني ، قد بدؤوا

بتشريح الصدر على نفس الجثة ، وكان خير مرشد ومشجع لنا في بداية تطبيقنا العملي لتشريح الجثة . داود زاملني في كافة المدارس التي تعلمنا فيها ، أي البارودية والغربية المتوسطة والثانوية المركزية ، يسبقني بالدراسة بصف واحد . وكان طالبا مجداً ومجتهداً وعصامياً . وقد علمني كيف أمسك السكين بيد والملقط بالأخرى ، وشجعني على قص الجلد بمنطقة العضد والوصول إلى طبقة الـ«fascia» ، وكان فنانا في عمله وتعليمه .

في الرابعة عصراً غادرنا قاعة التشريح واتجهنا إلى صالة المطعم وقضينا مع زملائنا بعض الوقت لمراجعة ما دوّناه في دفاترنا وملء الفراغات للكلمات والجمل التي فاتتنا أو لم نفهم معناها . وانتهى اليوم الأول الذي كان مليئاً بكل شيء جديد علينا ، لتتوالى الأيام تباعاً في رحلة دامت ست سنوات فيها الكثير من الجهد والدرس والمثابرة والعمل في المختبرات والردهات وإجراء الامتحانات ، كما كان فيها الكثير من الفكاهة والعبث واللعب وبداية الصداقات الوثيقة ، مع التطلع إلى مستقبل يوّفر لنا الحياة الحرة الكريمة .

في تلك الليلة حلمت بصاحب الجثة ، التي بدأنا بتشريح الطرف الأعلى منها ، ينهض من المنضدة ويعاتبني على ما فعلت بعضده الأيمن ، فقمت مذعوراً من فراشي . ولكنني وزملائي الآخرين تعوّدنا فيما بعد على مرأى الجثث وأصبح تشريحها ورائحة الفورمالين في القاعة شيئاً مألوفاً واعتيادياً بالنسبة لنا .

الأيــام التاليــة

في اليوم التالي بكّرنا بالقدوم إلى الكلية . وفي تمام الثامنة نادى مروكي ، فراش قسم التشريح ، طلبة صفنا للدخول إلى قاعة المحاضرات ، فانتظمنا في القاعة . وهذه المرة ، اخترت لي مكاناً في المدرج في الصف الثاني من جهة اليسار ، وسيكون بالمستقبل محلي المفضل في تلك السنة والسنوات التي تلتها .

وكانت محاضرة الأستاذ أمين بك عبد الرحمن* الثانية تتمة لما سبق أن ألقاه في اليوم السابق ، تلتها محاضرة أخرى في موضوع الفيزياء فدخل الأستاذ يوسف عزيز ، وهو شاب عراقي درس في فرنسا ونال شهادة في التحليلات الكيميائية ثم عمل في المختبر الكيمياوي بمعية الأستاذ هوكنز الذي توسط بنقله إلى ملاك الكلية ليدرس الفيزياء والكيمياء العملي تحت إشرافه . وكانت المادة التي استهل بها المحاضرة مألوفة

لدينا من دراستنا في المرحلة الثانوية .

وفي حصة الكيمياء العملي توجهنا إلى المختبر الواقع قبالة مختبر البايولوجي وتوزعنا على المناضد وأخذنا أماكننا حسب جدول أعدّه السيد ألبير عباجي ، المساعد في قسم الكيمياء العملي . ثم ناول كلاً منا عدداً من أنابيب الاختبار والدوارق والقناني والمحاليل ، وأخذ منا تعهداً يقضي بدفع ثمن أي آلة أو جهاز يتلف خلال عملنا في المختبر . وبعد حين وصل الأستاذ يوسف عزيز وشرح لنا الطرق العملية في إجراء التحليلات الكيميائية Analytical Chemistry .

كان درس الكيمياء العملي ممتعاً إلى حد كبير ، فقد سبق لنا أن درسنا الكيمياء العامة ، أي عناصر الفلزات واللافلزات في المدرسة الثانوية نظرياً مع تطبيق بسيط في المختبر . أما هنا ، فنحن نقف وأمامنا الأنابيب والمحاليل ونجري التجارب الكيميائية ونقيس الكميات ونضيف هذه المادة إلى الأخرى ثم نرسّبها ونرشّحها ونجري عليها عمليات أخرى في سبيل معرفة تركيب تلك المادة . وتفوح رائحة الغازات أحياناً ويمتلئ بها جو المختبر ، وربما أصابنا السعال أو الشعور بالاختناق جراء استنشاق تلك الغازات . وإذ يتكاثر السعال هنا وهناك يسرع الفراشون لتشغيل ساحبات الهواء الضخمة لتخليصنا من الغازات المثيرة .

وتنتهي الحصة وقد تلوثت صداريننا البيضاء بالمحاليل وربما انثقبت من جراء سقوط بعض المحاليل الحامضية أو القاعدية عليها ، فنعطيها آخر الأسبوع إلى مروكي ، فراش قسم التشريح ، الذي يجمعها ويأخذها إلى داره وتقوم زوجته بغسلها وكيّها ويعيدها لنا صباح يوم السبت أول الأسبوع لقاء أجرة عشرين فلساً لكل صدرية .

وتتعاقب الأيام ونألف الروتين اليومي الحافل الذي يبدأ في الثامنة صباحاً وينتهي في الرابعة عصراً بين محاضرات نظرية ودروس عملية في المختبرات ، كنت خلالها شديد الانتباه للدروس لا تفوتني محاضرة ولا حصة عملية . وبعد كل نهار مضن ، كنت اجتمع مساءً مع زملائي خالد الدملوجي وشبلي كامل حسن وأحمد توفيق جلميران في دارنا الواقعة في محلة العيواضية المجاورة لكلية الطب فنعيد قراءة المحاضرات ونصحح الأخطاء ونناقش المادة . ولم تكن لدينا مراجع أو كتب ، كما أننا لم نستعن بكراسات أو دفاتر زملائنا الطلاب الذين سبقونا في الدراسة كما كان يفعل بعض رفاقنا .

وبعد أيام قليلة من بدء الدراسة ، دعينا لاجتماع في قاعة الدرس لانتخاب ممثل

الصف لدى العمادة . وحضر السيد فرج عبد الأحد ، سكرتير العميد ، وشرح لنا أن الممثل المنتخب سوف يكون حلقة الاتصال بين الطلبة والإدارة . فتقدم صلاح تحسين علي لترشيح نفسه وثنّى على ترشيحه زميلنا سعد الله جردق . كما تقدم طالب آخر هو زميلنا في الدراسة الثانوية المرحوم إبراهيم عبد الله بترشيح نفسه كذلك وثنّى عليه آخر ربما كان صادق الهلالي . ثم وزعت الأوراق علينا وبعد ملئها وجمعها وفرزها ، أعلن السيد فرج فوز صلاح تحسين علي بتمثيل الصف . وأذكر أنه لم يقم بأي فعالية في مجال تمثيله الصف إضافة إلى أنه كان قليل الكلام والاختلاط مع الزملاء في الصف . بعدها طلب إلينا ترشيح زميل آخر ليمثل الصف في لجنة الرياضة ففاز بعضوية اللجنة رشيد الغبان ، وكان معروفاً لدينا أنه رياضي بدناً وخلقاً .

وفي تلك الآونة كذلك ، طلب إلينا سكرتير العميد توقيع تعهد يقضي بخدمة مديرية الصحة العامة ، بعد تخرجنا من الكلية ، لمدة ست سنوات . كما أُلغيت الأقساط واجبة الدفع من قبل الطلاب الذين قبلوا على نفقتهم الخاصة ، وكنت واحداً منهم ، بعد أيام . وأعلنت وزارة الدفاع استعدادها لدراسة عدد محدود من الطلاب على نفقتها ، يمنحون بعد تخرجهم من الكلية رتبة عسكرية ويزودون بالملابس العسكرية والمخصصات الشهرية طيلة فترة الدراسة على أن يتعهدوا بالخدمة في الجيش مدة خمسة عشر عاماً . وحسب ما أتذكر فإن أحداً من زملاء صفنا لم يستجب لتلك الدعوة .

هكذا مضت الأيام والأسابيع العشرة الأولى والتدريسات منتظمة والأساتذة يحضرون إلى قاعات الدرس بالأوقات المحددة ، وقد ألفنا أسلوب كل منهم في الإلقاء واللهجة وأصبحنا نفهم المادة بشكل أفضل يوماً بعد آخر . وكنا نشعر بالزهو لانتمائنا إلى هذا الوسط وتميّزنا عن زملائنا في باقي الكليات راجين أن يحالفنا الحظ وننجح بالامتحانات ونتخرج يوماً ما أطباء .

الامتحانــات

الخوف من الامتحانات جزء أصيل من حياة الطلبة في كافة مراحل الدراسة ، يتساوى في ذلك الطلبة الضعفاء مع المتميزين والمبرزين . وكان خوفي من تشدد الأساتذة وصعوبة الامتحانات وما يتبع ذلك من رسوب وفصل من الكلية ، أو إعادة السنة على أحسن احتمال ، يسيطر على أفكاري منذ اليوم الأول لدوامي في الكلية .

عشت حالة رعب شديدة خاصة في الفصل الأول من تلك السنة بسبب ما كنت أسمعه من البعض من زملائنا المعيدين الذين لم يوفقوا في الامتحان ، وآخرين رقن قيدهم بسبب رسوبهم في كافة الدروس بينما كانوا من الطلاب المتميزين في مرحلة الدراسة الثانوية ، حتى أن أحدهم قال لي حرفياً «لن يعبر من بين أصابع الأستاذ هوكنز إلا أحد اثنين : عبقري أو محظوظ»!

وعندما أخذنا صورة تذكارية مع العميد والأساتذة والمدرسين ، اخترت الجلوس على الأرض ربما ،لا شعورياً ، بأنني سوف أكون قريباً من الباب الخارجي وتمهيداً لمغادرة الكلية ، بينما جلس على الكراسي بجوار الأساتذة آخرون فصلوا جميعاً ما عدا زميلتنا ماركريت كساب .

وتكرار كلمة الحظ من الأمور التي تدور على لسان كل طالب في الامتحانات ، ولربما كان لتجربتي المريرة وخطئي في إجابتي في امتحان مادة الفيزياء في البكالوريا الثانوية ، رغم كوني من الأوائل في كافة مراحل الدراسة ، وخيبة أملي في الحصول على معدل أعلى من درجات النجاح الدنيا التي حصلت عليها ، دور في اهتزاز ثقتي بنفسي كذلك .

ذلك الإحساس جعلني أشعر أن وجودي ودوامي في الكلية ما هو إلا أمر مؤقت ، فسرعان ما تنتهي السنة الدراسية وأرسب في الامتحان . حينئذ علي أن أنقل دراستي إلى كلية أخرى أقل تشدداً من الكلية الطبية .

وكان تخرجي طبيبا هو حلم عزيز المنال لا أستطيع تخيله ، ففقدت الطمأنينة ليس بسبب أقوال تلك الزمرة من زملائنا فحسب ، بل لأن الأساتذة الذين كان بيدهم مصيرنا ، كانوا محافظين في تصرفاتهم تجاهنا . فهم لا يعرفون أسماءنا ولا يكلفون أنفسهم المرور بنا في الحصص العملية إلا لماماً . وافتقدنا تلك العلاقة الوثيقة بين التلميذ والمعلم في مرحلة الدراسة الابتدائية والمدرس في مرحلة الثانوية ، الذين كانوا يدورون بيننا ويعرفوننا فرداً فرداً ، نناقشهم ونرفع إصبعنا بالسؤال عما يخفى أو يصعب علينا وأحياناً نقاطعهم لشرح ما لم نفهم من المادة .

أما من ناحيتنا ، فقد كنا نهاب الأساتذة ولا نجرؤ أن نسألهم بعد الدرس أو نراجعهم في مكاتبهم خوفاً من أن يكتشفوا نقاط الضعف فينا ، وهو أمر مؤسف ذلك لأننا وجدنا فيما بعد أن أكثر الأساتذة كانوا يتلقون زياراتنا النادرة لهم بترحاب ويردون على تساؤلاتنا بلطف وصبر وطول أناة ، بل وبتشجيع أحياناً .

يضاف إلى ما سبق عدم الإلمام الكافي باللغة الإنجليزية ، وهي لغة التدريس في الكلية . ويعود ذلك إلى تردي أساليب تدريسها في المدارس الثانوية . وقد فطنت *العمادة إلى تلك المشكلة ، التي كانت تعد من الأسباب الجوهرية لرسوب نسبة كبيرة* من الطلبة ، فطلبت من إدارة المعهد الثقافي البريطاني في بغداد تنظيم دروس تقوية تشمل استعمال المصطلحات العلمية ويقوم بها بريطانيون . ولما كان حضورها غير إلزامي ولا يخضع لامتحانات تقرر مصير الطالب ، أسوة بالمواضيع الأخرى ، لم يداوم فيها إلا عدد قليل من الطلاب . على أننا كنا نلجأ إلى المعجم لترجمة ما يصعب علينا فهمه في الكتاب الوحيد المقرر وهو كتاب التشريح العملي .

استمرت الدراسة دون انقطاع إلى نهاية الأسبوع العاشر . وفي يوم السبت التالي بدأت الامتحانات الفصلية النظرية والعملية ودامت أسبوعاً كاملاً . وأذكر أن الأسئلة في كافة المواضيع تضمنت المواد التي تلقيناها خلال ذلك الفصل ، وعلى العموم لم تكن صعبة .

في امتحان الكيمياء العملي ناولني مساعد المختبر السيد ألبير عباجي مسحوقاً أبيض اللون للتحليل والكشف عن طبيعته ، فأجريت التجارب الكيمياوية على المسحوق وتوصلت إلى تركيبه وكان مادة كربونات الكالسيوم .

أما في امتحان البايولوجي العملي فقد طلب مني تشريح جهاز الدوران للضفدع ، وقد أخفقت في البداية بإجراء التشريح بصورة جيدة لصغر حجم الحيوان ، ووافق السيد صبور مساعد المختبر على إعطائي ضفدعاً أكبر حجماً فقمت بتشريحه وأظهرت جهاز الدوران بصورة أفضل .

تلى أسبوع الامتحانات أسبوع آخر كان بين أيامه عيد ميلاد السيد المسيح ورأس السنة الجديدة 1940-1941 . وبينما كان من المفترض أن أقضي ذلك الأسبوع براحة واستجمام من عناء وزحمة الدروس ثم الامتحانات ، إلا أنني كنت قلقاً بانتظار بدء الدراسة لأتعرف على إجاباتي والدرجات التي حصلت عليها متوقعاً بالطبع أسوأ النتائج .

وفي أول محاضرة من الفصل الثاني ، دخل الأستاذ هوكنز إلى القاعة رقم واحد حاملاً دفاتر الامتحان في موضوع الكيمياء ووضعها على طاولة التشريح الوسطية ، وظهر لنا فيما بعد أنه قد رتّبها بحيث يبدأ بأقل الدرجات .

استعرض الأسئلة وشرح لنا الإجابات الصحيحة وبعدها بدأ بالدفتر الامتحاني

الأول ، وكان لأحد زملائنا القادمين من الألوية الشمالية الذي لم يحصل على 51٪ في أي من الدروس الثلاثة . وكان موقف صاحبنا المسكين مؤلماً ومرعباً لنا جميعاً ، خاصة عندما نصحه الأستاذ بترك الكلية قبل فوات الأوان وتضييع الوقت . وفعلاً فقد فصل زميلنا قبل إجراء الامتحانات النهائية لأنه لم يحصل على معدل 40٪ في الامتحانات الفصلية بكافة الدروس التي تؤهله للمشاركة في الامتحانات النهائية ، فانتقل بعدها إلى كلية الحقوق وتخرج محامياً ثم كان حاكماً بارزاً فيما بعد .

بعد ذلك ، توالى استعراض الدفاتر الامتحانية ومعها كنا نستمع إلى تعليقات الأستاذ اللاذعة . ونال أصحاب الدرجات الواطئة تأنيباً وتقريعاً ، ومن ضمنهم طالبان كان والد أحدهما من رؤساء الوزراء السابقين ، فأعاد نصيحته المعهودة وفعلاً رسب كلاهما ورقن قيدهما من الكلية بنهاية السنة الأولى .

في هذه الأثناء ، كان قلبي يدق مسرعاً بشدة وأنا أترقب مناداة اسمي خائفاً من عدم حصولي على درجة الأربعين المرتجاة ، لكنه هدأ قليلا بعد أن تجاوز ذلك الرقم ووصل العد التصاعدي إلى خمسين درجة وستين . إذ ذاك ، عاد قلبي إلى سرعته وخفقانه خوفاً من ضياع الدفتر ، إذ لم أصدق أنني قد حصلت على درجة مقبولة . وتصببت عرقاً عندما وصلت الدرجات إلى سبعين ولم يعد سوى ثلاثة أو أربعة دفاتر على الطاولة . وحصلت المعجزة عندما نادى اسمي قائلاً أنني حصلت على 71 من مائة ، وتطلع في داخل الدفتر وقلّبه والتفت إلي وكنت قريباً منه . ولم أسلم أنا الآخر من التوبيخ الذي سببه رداءة خطي ، قائلاً لي أنه لولا عدم فهمه كتابتي العنكبوتية لنلت درجة أعلى .

وكان ذلك التوبيخ أحلى توبيخ في حياتي ، إذ لم أتوقع أنني أجبت وحصلت على درجة عالية ، كما لم أفطن أن الدفتر التالي كان لزميلي عزيز محمود شكري وقد نال 72 درجة من مائة ولا إلى الدفتر الأخير وكان صاحبه صلاح تحسين علي الذي نال 76 درجة من مائة .

وكان الأستاذ يسلّم كلاً منا دفتره بعد «فضيحته» أمام الجميع لكي يطلّع على التصحيحات والتعليقات التي وضعها على الدفتر الذي قام بتصحيحه بدقة واهتمام .

وعلى غرار نتيجتي الجيدة في الكيمياء كانت درجاتي في الفيزياء والبيولوجي جيدة كذلك . وقد سررت كثيرا من النتيجة التي حصلت عليها في أول امتحان في الكلية وارتفعت معنوياتي ، إذ اعتبرت نفسي الثالث بين زملائي ، لكن الخوف من

الامتحان والرسوب لازمني لفترة طويلة بعدها .

أحـــداث مايـــس

في الفصل الثاني ثابرت على الدراسة الجدية وحضور المحاضرات والحصص العملية . واستمرت المذاكرة ومراجعة محاضراتنا مساءً مع زملائي خالد وشبلي وأحمد جلميران بصورة منتظمة عدا أماسي الخميس وأيام الجمعة ، فكنا نروّح عن أنفسنا بالذهاب إلى دور السينما أو القيام بسفرات خارج بغداد . وكانت معنوياتي قد ارتفعت قليلاً لحصولي على معدلات جيدة في امتحانات الفصل الأول . وخلالها كانت أخبار الحرب وانتصارات الألمان على الحلفاء في كافة الجبهات تطغى على الأحداث .

أما في الساحة الداخلية ، أي العراق ، فكان الجو السياسي متوتراً وظهرت على السطح علامات الصراع بين ولي العهد الوصي على عرش العراق الأمير عبد الإله ومعه بعض الساسة المدنيين المؤيدين للحلفاء من جهة ، والحكومة القائمة برئاسة السيد رشيد عالي الكيلاني وقادة الجيش المؤيدين لدول المحور ،أي ألمانيا ، من جهة أخرى .

وعندما تفاقمت الأمور غادر الوصي بغداد متوجهاً إلى الديوانية ، وعندها اضطر الكيلاني إلى تقديم استقالة الوزارة . أذيع صباح يوم 1941/1/31 نبأ الاستقالة من دار الإذاعة وتكليف السيد طه الهاشمي بتأليف وزارة جديدة لم يقبل بها قادة الجيش . وساعتها ، كنت ترى طلاب الكلية في حلقات متناثرة في الساحة الواسعة وتسمع صوت الطلبة القوميين منهم عالياً منددين بالوصي على العرش ورئيس الوزراء المكلف طه الهاشمي .

لم نعر تلك الأحداث أهمية كبرى ، بل حرصنا على حضور المحاضرات والدروس العملية كالمعتاد . وانتهى الفصل الثاني بعد عشرة أسابيع أخرى من الدراسة .

وأثناء ما كنا في خضمّ الامتحانات الفصلية تأزم الوضع بصورة حادة إثر قرار الحكومة نقل قادة الجيش الكبار إلى خارج بغداد . وسرت بين الناس إشاعة احتمال تمرد القادة العسكريين أو سقوط الوزارة .

انتهت الامتحانات وتمتعنا بعطلة دامت أسبوعاً واحداً . عندما عدنا إلى مقاعد الدراسة في الأسبوع الأخير من شهر آذار «مارس» 1941 كنا ، في الواقع ، قد ألفنا

نمط الحياة في الكلية فكنا نتراكض من قاعة محاضرات إلى أخرى ومن مختبر إلى آخر .

غير أننا فوجئنا بأزمة أخرى أشد من الأولى عندما ظهرت المدرعات العسكرية في شوارع بغداد وعلى جسورها فجأة وأذيع من الراديو الحكومي أن الوصي على العرش الأمير عبد الإله وبعض الساسة العراقيين قد هربوا إلى الحبانية ومن هناك نقلتهم القوات البريطانية إلى البصرة ، وعن إقامة حكومة دفاع وطني في بغداد برئاسة السيد رشيد عالي الكيلاني . أما الأمير عبد الإله فقد أعلن هو الآخر ، من على طرادة بريطانية راسية في ميناء البصرة ، إدانة التمرد ومطالباً الشعب في بيانه بالقضاء على تلك الحركة . وفي تلك الأثناء علمنا أن الملك فيصل الثاني ووالدته الملكة عالية قد نقلا إلى مدينة أربيل ونزلا في دار «ملا أفنذي» أحد وجهاء المدينة .

كان شعورنا القومي يزداد حماساً ونحن نرى وطننا في مفترق الطرق ، فإما عودة إلى الانتداب البريطاني وجيوش الاحتلال وإما التحرر وبسط السيادة الوطنية على البلاد والوقوف على الحياد في الحرب الطاحنة بين الحلفاء ودول المحور .

ولكن ، وبالرغم من تلك التطورات السريعة فقد استمرت الدراسة بصورة منتظمة في كافة صفوف الكلية . وكان الأساتذة البريطانيون يلقون محاضراتهم علينا كالمعتاد ويحضرون أحياناً في حصص المختبرات العملية . ولم يبد منهم ما يثير شعورنا القومي ، كما لم يبد من الطلبة أي تصرف غير لائق تجاههم .

وفي يوم 10 نيسان ، علمنا أن المجلس النيابي اجتمع بناءً على دعوة حكومة الدفاع الوطني وقرر تنحية الوصي على العرش الأمير عبد الإله وانتخاب الشريف شرف ، وهو من الأسرة الهاشمية ، وصياً على العرش .

وأصيب العراقيون جميعاً بالهلع إثر إنزال القوات البريطانية في البصرة يوم 19 نيسان «ابريل» 1944 . وتردد احتمال المواجهة العسكرية مع الجيش العراقي . وطغت إشاعات عن تقدم الجيش العراقي إلى تلال الحبانية ومحاصرة البريطانيين في قاعدة «سن الذبان» .

ومع هذا ، استمر دوامنا في الكلية بشكل اعتيادي بينما توقف الدوام في كلية الحقوق ودار المعلمين العالية ، مما أزعج طلابها وصاروا يحضرون إلى الكلية الطبية ويوبخون طلبتها لالتزامهم بالدوام .

وفي صبيحة الثاني من أيار «مايس» تبادل الجانبان العراقي والبريطاني النيران

والقصف المدفعي ، وأخذت دار الإذاعة تذيع البيانات العسكرية والأناشيد الوطنية . وأذكر أنه في ذلك اليوم وأثناء ما كان الأستاذ هوكنز يلقي محاضرته علينا في القاعة رقم واحد ، دفعت مجموعة من طلاب كلية الحقوق ، كان بينهم الطالب عباس الخرسان والطالب عبد الكريم كنة ، باب القاعة وطلبوا منا التوقف عن الدراسة ومغادرة القاعة . لم يستجب أحد لندائهم واستمرت المحاضرة إلى نهاية الساعة ، ثم توقفت الدراسة كلياً في باقي الصفوف . وكان الطلاب يتجمعون في ساحات الكلية المختلفة ويستمعون إلى البيانات الحكومية من الراديو في مطعم الكلية .

اشتد حماس طلاب كلية الطب وتقرر أن نرتدي الملابس العسكرية الخاكي بدلا من بدلاتنا الاعتيادية أو «البليزر الزرقاء وعليها شعار الكلية» . ولحسن الحظ كنا لا نزال نحتفظ بملابس الفتوة التي ارتديناها لثلاث سنوات خلت ، في نهاية مرحلة الدراسة المتوسطة والدراسة الثانوية ، كما ارتدت طالبات الكلية ملابس الخاكي المكوّنة من جاكيت وتنورة كذلك .

في صبيحة اليوم الرابع من أيار «مايس» ، دعانا الدكتور عبد المجيد القصاب ، معاون عميد الكلية إلى اجتماع عام في ساحة الكلية وألقى فينا خطاباً حماسياً ندد فيه ببريطانيا ودعانا إلى تنظيم أنفسنا والانخراط في الجيش الشعبي للدفاع عن الوطن وحراسة المستشفى ، وأعلن نفسه «المسؤول العسكري في الكلية الطبية» . ودعا طلبة الصفوف المتقدمة للالتحاق بالمستشفيات ومعاونة الأطباء والقيام بالإسعافات الأولية والتضميد ، وأعلن عن فتح دورات في الإسعافات التي يحتاجها المدنيون في حالة قصف بغداد من قبل الطائرات البريطانية وكذلك عن فتح دورتين لتعلم اللغة الألمانية والثانية لتعلم اللغة الروسية . وفي الختام قال إنه يعتبرنا جنوداً مدنيين في حالة إنذار دائم بإمرته .

ولتنفيذ هذه الأوامر أوعز أن يقوم طلبة كل صف بانتخاب طالبين ليكونا عرفاء على ذلك الصف ، ومسؤولين عن الضبط وتبليغ الأوامر الصادرة منه باعتباره مسؤول الكلية . فتقدم الطلبة الذين سبق انتخابهم ممثلين للصفوف ، وكانوا اثنين أحدهما للأمور الطلابية العامة والآخر للرياضة البدنية ، وأذكر منهم صلاح تحسين علي ورشيد الغبان من الصف الأول ، وفيضي الزهاوي من الصف الثاني ، وغازي حلمي من الصف الثالث ، ومحمود الجليلي من الصف الرابع . لكن ذلك أثار اعتراض عدد كبير من الطلاب وخاصة القوميين ، ومنهم زميلنا في الصف الأول طلال ناجي

شوكت، وطالبوا بانتخابات جديدة بدعوى أن تلك الانتخابات كانت بإشراف الإدارة البريطانية! ولضيق الوقت نصّب البعض من أنفسهم عرفاء. وكثر عددهم وأصبحوا يعدون بالعشرات. وشاهدنا خصاماً بالكلام ثم بالأيدي بين بعضهم.

وفي هذه الفوضى ظهر الدكتور القصاب ثانية وقادنا في مسيرة شبه عسكرية بنظام أربعة طلاب متتالين إلى ساحة باب المعظم ثم شارع الرشيد وصولاً إلى ساحة الميدان، وفيها نصب طوب أبو خزامة، ثم عدنا إلى الكلية بانتظار أوامر القائد.

في اليوم التالي، وربما كان الخامس من أيار «مايس»، ظهرت طائرات بريطانية في سماء بغداد فعلت الهتافات بسقوط بريطانيا. وتنادى الطلبة بوجوب إحضار أكياس من الرمل لوضعها في مدخل الكلية، فهب الكثير طلاباً وطالبات لملأ أكياس «جنفاص» بالرمل، وكان معداً لبناء بعض الإنشاءات في دار سكن طالبات مدرسة التمريض المجاورة لبناية وساحة الكلية. وكنت أشاهد الطالبة أمة العزيز الزهاوي، وكانت في الصف الرابع، وبيدها «المسحاة» تملأ الأكياس بكل همة واندفاع بكميات من الرمل يصعب على الطالب حملها.

كانت أوامر الدكتور القصاب تقضي ببقائنا في الكلية والمبيت فيها تحسباً للطوارئ، لكنه سمح لنا بالذهاب إلى دورنا لإحضار بطانيات. وعندما حل المساء، كان في الكلية عدد غفير من الطلاب والطالبات وبقينا نتحادث ونتسامر في ظلام دامس بسبب أوامر التعتيم. وفوجئنا حوالي الساعة التاسعة ليلاً بحضور العميد الأستاذ صائب شوكت، الذي قدم إلى المستشفى الملكي لتفقد مجريات الأمور، غير أنه فوجئ بوجود طلبة الكلية في ساحتها وفي قاعة المطعم. خاطبنا بهدوء وشكرنا على شعورنا الوطني وطلب منا الانصراف إلى دورنا.

وفي الصباح عدنا للتردد على الكلية ولم يكن هناك أي نشاط يذكر سوى دوام عدد محدود من الطلاب في دورة تعليم اللغة الألمانية وكان يديرها الطالب غازي درويش والطالب خيري الدباغ، وكلاهما ابتدأ دراسة الطب في ألمانيا قبل عودتهما إلى العراق بسبب نشوب الحرب. أما تعلم اللغة الروسية فكان المبرز فيها الطالب عبد الفتاح عبد القادر من الصف الرابع.

وأذكر أننا دعينا إلى قاعة السينما الواسعة التي غصّت بالطلاب والطالبات بلباسهم الخاكي للاستماع إلى خطاب وطني ألقاه فينا أستاذ مصري هو الدكتور مصطفى الوكيل، من الإخوان المسلمين، يعمل مدرساً في دار المعلمين العالية وكان

مرتديا اللباس الخاكي . ألهبنا حماساً ودعانا للتطوع لقتال البريطانيين ، وقد علمنا فيما بعد أنه التحق بالجيش العربي المناصر للألمان واستشهد في إحدى المعارك الحربية في أوروبا .

في تلك الأيام الأولى من شهر مايس المذكور تألفت «كتائب الشباب» ، وانضم إليها عدد كبير من الشباب العراقي القومي وآخرون من طلاب البعثات العربية وآخرون قدموا إلى بغداد من الأقطار العربية للمشاركة في الدفاع عن العراق ، وألقيت على عاتقها مُهام الدفاع المدني والخدمات المدنية وتنظيم الحياة الاقتصادية . وكان بينهم طلاب من كلية الطب .

وعلى الرغم من البيانات العسكرية العراقية التي كانت توحي لنا بالانتصار ، إلا أن أنباء الخسائر الناتجة عن الاقتتال ترامت إلينا ، وخاصة ما اطّلعنا عليه من قريب لنا هو العقيد عبد الله زهدي الدملوجي ، الذي قمت بزيارته مع ابن عمي خالد الدملوجي في دار التمريض الخاص . كان مصاباً بكسور وجروح حصلت له إثر إصابته بشظايا قنبلة في تلال سن الذبان .

وفي بغداد تكرر ظهور الطائرات الحربية البريطانية التي قصفت معسكر الرشيد وأحرقت مستودعاً للبنزين في ضواحي العاصمة . أما في الموصل فألقيت قنبلة أثناء غارة جوية ، على مقهى يغص بالرواد وأدت إلى استشهاد ما ينيف على خمسين شخصاً .

ولاحتمال حصول معارك حربية في بغداد وضواحيها قرر والدي إرسالنا وإخوتي إلى الموصل ، وتوجهنا إليها بالقطار وكان التعتيم ومنع التجول ليلاً سارياً .

وبينما كنا نتوقع وصول المساعدات العسكرية من ألمانيا ، فوجئنا بحضور زميل الدراسة شبلي كامل حسن يصحبه السيد عبد الأحد داود ، صاحب محل العوينات البغدادية ، وهما على أهبة السفر إلى ألمانيا بالطائرة مع مجموعة من الضباط والجنود والطيارين الألمان كانوا قد قدموا للمساعدة ، إلا أن تردي الأوضاع على جبهة القتال ومغادرة رئيس الوزراء السيد رشيد عالي الكيلاني والوزراء إلى إيران أوجب رحيلهم عن العراق . وكانت تلك آخر قافلة من مساعدات دول المحور إلى حكومة رشيد عالي الكيلاني .

بعد قضاء أيام في الموصل قرر والدي عودتنا إلى بغداد فأخذنا القطار النازل . وبعد ليلة كاملة توقف بنا صباحاً في محطة سميكة قرب العاصمة ثم عاد بنا إلى

الموصل لوجود معارك وصدامات عسكرية في تلك المنطقة . أخذنا هذه المرة الطريق البري إلى كركوك ثم إلى بغداد بالقطار ، فوصلنا صباح 29 مايس .

وفي مساء ذلك اليوم ظهرت في سماء بغداد أعداد كبيرة من طائرات بريطانية هائلة الحجم سوداء اللون من نوع «Wellington» ، تطير على ارتفاع واطئ أوقعت الرعب والخوف في نفوسنا .

في اليوم التالي وقعت حوادث مؤسفة من نهب وسلب وقتل راح ضحيتها ما ينيف على مائة شخص ، أعلن على أثرها منع التجول في العاصمة وضواحيها . وعندما توجهت إلى الكلية بعد انتهاء المنع ، شاهدت عدداً كبيراً من الجثث في فناء معهد الطب العدلي استعداداً لدفنها .

تشكلت الوزارة الجديدة برئاسة السيد جميل المدفعي وأعادت الأمن إلى نصابه . وكان من جملة قراراتها الأولية اعتبار كافة الطلاب في جميع مراحل الدراسة ، من الابتدائية إلى الكليات ، ناجحين بدون امتحان باستثناء طلبة كلية الطب التي تقرر إنجاز متطلبات الدراسة في الفصل الثالث في فترة لاحقة وقبل إجراء الامتحان . كما حصل تغيير في إدارة الكلية إذ تولى الأستاذ هاشم الوتري عمادة الكلية بالوكالة موقتاً . ثم أنيطت للمرة الثانية بالأستاذ سندرسن . أما زمرة الأطباء ذوي الميول القومية فقد أبعدوا عنْ الكلية والمستشفى إلى حيث نقل العميد السابق الأستاذ صائب شوكت ، إلى وظيفة رئيس صحة في مديرية الصحة العامة . كما نقل كل من الأستاذ المساعد صبيح الوهبي إلى مستشفى الكرخ والدكتور علي حسن مساعد عميد الكلية إلى رئاسة صحة لواء البصرة والأطباء عبد السلام عوني وأكرم القيماقجي وأشرف محمود وكمال السامرائي وموفق الزهاوي إلى مستشفيات أخرى في بغداد وخارجها ، كما استقال الدكتور عبد المجيد القصاب من وظيفة معاون العميد وانصرف إلى العمل في عيادة خاصة .

بعد عطلة صيفية دامت ثلاثة أشهر ، استؤنفت الدراسة في الكلية يوم 20 أيلول 1941 وعدنا إلى قاعات الكلية والعمل في المختبرات . وحاضرنا أساتذتنا البريطانيون كالسابق وأنهينا المقرر الدراسي وجرت بعدها الامتحانات النهائية النظرية والعملية في الأسبوع الثالث من تشرين الأول وظهرت بعدها النتائج .

كانت نتيجتي ناجحاً في الدروس الثلاثة ، ولم أكن أدري يومها أنني حصلت على درجة 88 بالمائة في موضوعي الكيمياء والفيزياء و85 في موضوع علم الأحياء

«البـايولوجي» ، حـيث أن النتـائج التي ظهـرت في لوحـة الإعـلانات أشـارت إلى كلمتي : Fail «راسب» و Paś «ناجح» فقط . وفيما بعد استدعاني الأستاذ بوزويل وأخبرني أنني حصلت على أعلى معدل في موضوع البايولوجي إلا أن العمادة قررت دمج نتـائج كـافـة المواضيع ونال زميلي صـلاح تحسين على جوائز المواد الأسـاسـيـة الثلاث .

كانت نسبة النجاح ضئيلة وقد رسب ما يقارب ثلث طلاب صفنا ، 32 طالبا ، ورقن قيدهم من الكلية . ولم تقتصر نسبة الرسوب العالية في الامتحان على صفنا . فللمرة الأولى كان الفشل بين طلبة الصف السادس ، خاصة في موضوع الأمراض النسائية والتوليد ، يثير الانتباه . وكانت الامتحانات في الصف المنتهي يومها تقتصر على الفحوص السريرية والمقابلات الشفوية فقط ، حيث أن الامتحانات النظرية والكتابية تجرى في نهاية الفصل الثالث من السنة الخامسة .

مرحلة علوم الطب الأساسية

بدأت الدراسة في الكلية يوم 10 تشرين الثاني «نوفمبر» 1941 متأخرة عن الموعد المعتاد في كل سنة ، وأعلن عن التقويم الدراسي للصف الثاني وكان مكتظاً بالمحاضرات النظرية صباحاً والحصص العملية لفترة ما بعد الظهر في علوم الطب الأساسية وهي الفسيولوجي والتشريح والكيمياء الحيوية يضاف إليها علم السريريات الابتدائية ، الذي يعتبر مقدمة لدراسة الطب العام .

تقلص عدد طلاب دورتنا نتيجة لفصل الراسبين في امتحان الصف الأول ، وكانوا كثرة كما سبق أن ذكرت . وانضم إلينا المعيدون من طلاب الدورة التي سبقتنا وأصبح عدد الطالبات ثلاثة بعد أن كن ست عشرة في السنة المنصرمة ، وهن كل من ماركريت فتح الله كسّاب وسعاد توفيق محمود إضافة إلى إقبال خليل آغا ، التي أعادت السنة لرسوبها في موضوعي الفسيولوجي والتشريح . والأخيرة لم يصادفها التوفيق في السنة الثانية أيضاً فتركت الكلية والتحقت بكلية الطب في دمشق وتخرجت طبيبة منها فيما بعد . أما زميلتنا الثانية ، سعاد توفيق محمود ، فقد تركت الدراسة بعد فترة وجيزة من بداية الدوام في الكلية وفضّلت أن تكون ربة بيت ، بزواجها من الدكتور قاسم البزركان ، على أن تصبح طبيبة .

في الحصة الأولى دخل علينا في القاعة رقم (4) الأستاذ الدكتورمحمد طلعت ،

وهو مصري الجنسية ، وشرع يحاضرنا في موضوع الفسيولوجي بكلام واضح وأسلوب سلس . ورحنا نسطّر في دفاترنا كل كلمة يقولها . فقد سبقت أخبار علمه الغزير وكونه تلميذاً لـ«أنريب Anrep» أستاذ الفسيولوجي الشهير . وقد عرّف لنا علم الفسيولوجي كما يلي :

Physiology is a science that deals with the phenomena presented with living organisms. It answers what is the function of each organ in the body, how it performs its functions, what factors influence its functions, whether in the form of stimulation or inhibition.

ثم يضيف ، أن من أهم وظائف الأجسام الحية هي إنتاج الطاقة . وينطلق في محاضراته التالية إلى فسلجة جهاز الهضم شارحاً بإسهاب عملية الهضم ودور الهرمونات والجهاز العصبي . وفي الحصة العملية كان يدعونا إلى مختبره لمشاهدة الحيوانات والتجارب التي يجريها على الكلاب . فنرى حيواناً قد أجرى عليه عملية فتحة من المعدة إلى الخارج ، وثانياً أجرى له فتحة من المريء إلى الخارج وقد أوصلها بالأنابيب والمؤشرات التي تسجل حركات المعدة على الطبول السوداء ، ويشرح لنا مفعول الأغذية والعقاقير التي يطعمها أو يزرقها إلى الحيوان . وكانت دروسه ممتعة واستنتاجاته تفتح لنا أبواباً في فهم الوظائف الحيوية في الإنسان الصحيح .

وضمّت دروس التشريح النظرية محاضرات في علم الأجنة كذلك ، ولكن بتركيز على التغييرات التشريحية غير الطبيعية . وكان الأستاذ أمين بك عبدالرحمن يرسم الأعضاء والأجهزة بالطباشير الملون على اللوحة ، ويركز على النواحي العملية للتشريح وخاصة على المظهر السطحي الخارجي للأعضاء . وفي الدروس العملية ، كان يدور بيننا ويتفقد كل واحد منا ويجيب على أسئلتنا ويرفع عنا شعور الجهد النفسي والتعب الفكري بنكتة هنا وتشجيع هناك . ولما كان الامتحان النهائي عاملنا بلطف ورفق كبير .

وفي هذه السنة أنجزنا على مدى الفصول الثلاثة تشريح الصدر والبطن والرأس . وكان الأساتذة المساعدون ، وهم الدكتور بيثون رسام والدكتور عبد القادر سرّي يراقبان ويساعدان الطلاب ويقيّمان تقدمنا في سجل خاص بكل منا . وشاركنا في تشريح

الجثث عدد من الأطباء الخريجين الذين تقدموا لنيل درجة الماجستير في الجراحة ، وأذكر منهم الدكتور نجيب اليعقوبي والدكتور عزت عارف ، وكانوا يعلموننا في نفس الوقت . وقد ألفنا منظر الجثث العارية والمقطعة ورائحة الفورمالين النفّاذة ووجود الملا خضر بقامته الفارهة وملابسه الشعبية وصوته الهادئ وهو يلقي بالجثث الجديدة في حوض الفورمالين الواقع في نهاية القاعة ، وكذلك الفراش مروكي وهو يقطع القاعة جيئة وذهاباً يلبي طلبات الأساتذة والطلاب بكل لطف وطيب خاطر .

زملائي في حصص التشريح العملي كانوا عزيز محمود شكري وحمزة ابراهيم منيب وعبد الصمد نعمان الأعظمي ، والأخير سبق أن انتمى إلى كلية الحقوق طالباً ونجح في امتحانات الصف الأول والثاني وقرر أن يترك مقاعد الدراسة فيها ويبدأ دراسة الطب معنا في الصف الأول . أما زميلنا حمزة فكان فناناً في تشريحه وكان مرجعنا بالتعرف على هذا الشريان أو ذلك العصب . وقد نال جائزة الأستاذ أمين بك عبد الرحمن للطالب المتميز في التشريح في نهاية السنة . وكان عزيز هو الآخر يجيد التشريح وقد أفاده ذلك بعد التخرج فأصبح من أشهر الجراحين في العراق . ولا بد من الإشارة هنا إلى الجو الهادئ الذي تسنى لنا عند قيامنا بالتشريح والعدد المحدود من الطلاب على الجثة الواحدة .

الساعات الطويلة التي كنا نقضيها حول منضدة التشريح لم تكن تخلو من مناقشات بين مجموعتنا الصغيرة في أمور خارج الدرس أثناء ما كان حمزة منغمساً بالتشريح ، وكنا نعتبرها آنذاك سياسية وفلسفية لأنها تدور حول مستقبل العالم . فقد كانت الحرب العالمية في أوجها والجيش الألماني في العلمين يستعد لغزو مصر يقابله الجيش البريطاني الثامن ، وفي القفقاس يحاصر الألمان الجيش الروسي في معركة ستالينغراد . كنا نتابع الأخبار بشغف ، فبينما كان زملائي حمزة وعبد الصمد من المتحمسين لانتصار الألمان ، كنت أجادلهم مرتعباً من احتمال التسلط الفاشستي لو ربحت دول المحور . أما زميلنا عزيز فكان يضيق ذرعاً بالسياسة والجدال إذ كان قومي الهوى ومن المتحمسين لحركة رشيد عالي الكيلاني ويفضل عدم التدخل أو التحدث بالسياسة .

في موضوع الكيمياء الحيوية ، ألقى الأستاذ هوكنز محاضراته النظرية علينا في القاعة رقم (4) ولم تكن مشوّقة لنا مثل دروس الفسيولوجي . وفي هذه السنة تحسنت معاملته إيانا وكان يجاملنا بعض الشيء مما خفف عنا شعور الخوف منه .

وفي درس الطب السريري ألقى الأستاذ عبد الهادي الباجه جي محاضراته باللغة العربية . وكانت المادة غزيرة جداً احتوت بصورة وافية ومفصلة مبادئ الطب العام وتصنيف الأمراض وأسبابها والتغييرات الفسلجية فيها إضافة إلى طرق الفحص السريري ووسائل التشخيص وأساليب العلاج والوقاية . ولكننا مع الأسف لم نفهم الكثير منها بسبب كونها محاضرات نظرية بدون إيضاحات عملية أو حتى تقديم نماذج حية عن المادة التي ألقاها ، وكانت طويلة حفظناها عن ظهر قلب ونجحنا فيها ، ولكنني وجدت فيها فائدة كبيرة في مراحل الدراسة الطبية المتقدمة وبعد تخرجي من الكلية الطبية .

قبل نهاية الفصل الأول من هذه السنة ، فوجئنا بمغادرة الأستاذ محمد طلعت ، أستاذ الفسيولوجي ، العراق عائداً إلى القاهرة ومنهياً الانتداب الذي دام حوالي سنتين في العراق وقام الدكتور كرجي ربيع (1907-1998) ، الأستاذ المساعد في القسم ، بإكمال المنهج المقرر .

كان الدكتور كرجي ربيع طبيباً باطنياً من خريجي الدورة الأولى من كلية الطب ببغداد ، ذا سمعة طيبةبين الناس خاصة في الأوساط الموسرة . ومع انشغاله بعيادته الخاصة ، قام بتدريسنا بكفاءة وإن لم يقتف سيرة الأستاذ محمد طلعت في إجراء التجارب العملية على الحيوانات في دروس الفسيولوجي التطبيقية ، بل أوكلها إلى الدكتور محمد علي عبد الفتاح . وكان إضافة إلى ذلك يدرسنا علم الأنسجة «الهستولوجي» نظرياً ويساعده في الحصص العملية طالب الطب من الصف الخامس هو أنور جعفر الأوقاتي .

امتدت الدراسة ، ومن ثم الامتحانات ، في هذه السنة إلى شهري تموز وآب وأصبنا بالإعياء والإنهاك ، ولكن لا أزال أتذكر ، ونحن في غمرة المحاضرات غناء المعتوه «حمندوش» ، نزيل دار الشفاء والموكل إليه تنظيف شوارع الكلية والمستشفى من أوراق الشجر والنفايات ، مقام الأورفه يلقيه بصوت جهوري ورخيم فنلقي الأقلام ونتمنى أن يدوم شدوه إلى ما لا نهاية .

في الأماسي كنت أذاكر الدروس التي تلقيتها في الصباح ويشاركني في القراءة واسترجاع المحاضرات زميلي أحمد جلميران ، وكنا نوّجه بعد الانتهاء أسئلة لبعضنا عن المادة التي درسناها لغرض التأكد من فهمنا إياها كي ترسخ في أذهاننا . وكنت أستعين في مراجعة دروس التشريح بجمجمة وعظام الساق والفخذ والحوض ورثتها

من شقيقي زهير وبقيت بعدها في دارنا ليدرس عليها شقيقي الأصغر عصام ثم ابنة شقيقتي خالدة النائب في سنوات تالية .

وتعودت أن أعيد القراءة والاستظهار وأنا أمشي في غرفتي فترات طويلة بلا انقطاع ، وربما قطعت بها عشرات الكيلومترات مما أصابني بآلام في مفاصل الركبتين اضطرتني لمراجعة الدكتور كرجي ربيع في قسم الفسيولوجي الذي وصف لي دواءً سائلاً يحوي مادة الساليسيلات المركزة خفف من أوجاعي لكنه أصابني بوشة في آذاني وطنين استمر سنوات طويلة بعدها .

كان صيف 1942 قائظاً بصورة غير مألوفة واستمرت الدراسة بالكلية حتى نهاية شهر تموز . ولما حل موعد الامتحانات النهائية كان الإجهاد والتعب قد أخذ منا مأخذاً كبيراً . ولكنني حمدت الله أنني اجتزت تلك الامتحانات كذلك بنجاح باهر وحصلت على أعلى مستوى للدرجات وكنت الطالب الأول على الصف The most distinguished student ومنحت جائزة الجمعية الطبية البغدادية وهي ميدالية مع كتب طبية وعلّق اسمي للمرة الأولى على اللوحة الخشبية في ممرات الكلية ونال صلاح تحسين على جائزة الفسيولوجي .

قضيت شطراً من العطلة الصيفية المختصرة مع عائلتي في الموصل وعدت إلى بغداد في وقت مبكر والتحقت بالعيادة الخارجية في المستشفى الملكي برفقة الأستاذ بيثون رسام وكان يدربنا في التضميد وإجراء العمليات الصغيرة ومنها عمليات الختان وفتح الخراجات .

مرحلة الدراسة السريرية

في أواسط أيلول بدأت الدراسة في الكلية وانتظم سيرها . وقد تناقص عدد طلاب الصف مرة أخرى بسبب رسوب البعض من زملائنا في الصف الثاني بالرغم من انضمام عدد آخر من طلاب رسبوا في مادة أو أكثر في الدورة التي سبقتنا .

شمل المقرر للصف الثالث ، مفردات الطب «الفارماكولوجي» ، وعلم الأمراض «الباثولوجي» ، والطفيليات «باراسايتولوجي» ، والجراثيم «بكتريولوجي» ، وكلها دروس منتهية بامتحان دروس أساسية علاوة على محاضرات في الطب الباطني والجراحة العامة والتي سوف تمتد للسنوات القادمة من الدراسة .

كانت المحاضرات النظرية تلقى في إحدى قاعات الكلية (1) و(2) و(3) ، أو في

مختبر الباثولوجي .

في القاعة رقم واحد كان يحاضرنا طبيب عجوز يتكلم بدون انقطاع وكأنه يخاطب نفسه هو الأستاذ كروكشانك Cruckshank . وهو كندي الجنسية سبق له التدريس في كليتنا أستاذاً للأمراض النسائية والتوليد ، وقبلها في بريطانيا وكندا والجامعة الأمريكية في بيروت .

قال لنا الأستاذ أنه سوف يبحث موضوع الالتهاب ولكن سرعان ما تحول الموضوع إلى شرح للقوى الجسدية والروحية التي تتحكم.في الالتهاب وانتقل إلى الأورام والسرطان الذي اعتبره جزءاً من الحياة وتجديداً لحياة الخلايا واستمر في تفسيره الفلسفي للحياة والموت . ولم نكن قد تعودنا بعد على سماع هذا النوع من المحاضرات ، فوضعنا أقلامنا جانباً ورحنا ننتظر نهاية الساعة التدريسية . وقد داوم على النهج الفلسفي في محاضراته التالية . وأذكر أنه قال يوما إن مفعول السموم والسموم الذاتية «توكسين» Toxins بكميات ضئيلة تنشط حيوية الإنسان . وضرب على ذلك مثلاً هو أن المصاب بالزكام الفيروسي يشعر في الساعات الأولى من الإصابة بحيوية غير طبيعية ، لكنه يصاب بالهوان والإنهاك عندما تزداد كمية التوكسينات ، وإن السمّية من مرض السفلس المزمن تنشط الذهن وضرب مثالاً على ذلك عبقرية كل من الفيلسوف نيتشه والموسيقارين بيتهوفن وشومان ، وكلاهما كانا مصابين بالسفلس .

وإني لا أنسى أن الأستاذ كروكشانك كتب على اللوحة حكمة ينصحون بها الأطباء أتذكرها دائماً Premium non nocere (first of all do not make worse) . لم نتعلم من هذا الأستاذ القدير ، الذي مارس الجراحة خمسين عاماً والتدريس لسنوات أقل منها ، الكثير من الجراحة العامة . عودنا أساتذتنا على التركيز في المعلومات والحقائق الطبية ، نكتبها في دفاترنا ونحفظها عن ظهر قلب ، ولكن كلمات الأستاذ وخبرته العملية جاءت في وقت مبكر من الدراسة . وكان ذلك على عكس ما حدث في السنة التالية عندما تولى الميجر دوغلاس Major Douglas تدريسنا الجراحة الخاصة .

انتقلنا إلى القاعة رقم (4) التي تقع على اليسار في أقصى الجناح الأيمن لمبنى الكلية وقرأ «السيد أنيس» المساعد في قسم الفارماكولوجي أسماءنا وسجل الحضور ، وبعده دلف علينا الأستاذ ستيسي Stacey لابساً صدرية بيضاء يعلوها الروب

الأسود . بدأ محاضرته الأولى ، بإنجليزية سلسة وكلام واضح ونطق مهذب ، بدون مقدمات وكأنها كانت استمراراً لمحاضرة ألقاها علينا في اليوم السابق ، وداوم على هذا النهج حتى نهاية الساعة المقررة . وكان يروح ويجيء بخطوات بطيئة خلف المنضدة الطويلة التي تمتد عبر القاعة ويكتب على السبورة رؤوس الأقلام التي يريد أن نتذكرها بخط جميل واضح .

دروس مفردات الطب كانت شيّقة هي الأخرى ومفيدة جداً ، وترادفت زمنيا مع توسع مداركنا واطلاعنا على الحالات المرضية التي شاهدناها أثناء تدريبنا في الردهات الباطنية . واستمرت بمعدل أربع محاضرات أسبوعياً خلال الفصلين الأول والثاني . وعندما اطلعت على ما دوّنت في دفاتري عن العقاقير والأدوية التي درسناها ، في ثمانين محاضرة بالتمام ، وجدت أن أكثر من النصف كانت عشبية المنشأ وما تبقى فعن العقاقير ذات المنشأ الكيمياوي الحديثة .

أما في الفصل الثالث فتناقصت المحاضرات إلى اثنتين أسبوعياً وتضمنت القسم الأول من مادة «فن التداوي Therapeutics» وأكملنا القسم الثاني منها في السنة الرابعة .

وكانت حصص «الصيدلة العملي» تعقد في المختبر المجاور للقاعة نفسها . وقام بتدريسنا إياها أساتذة من كلية الصيدلة ، وهم كل من عبد الله قصاب باشي وفخري توفيق وأستاذ صيدلاني مصري لا أتذكر اسمه . تدربنا فيها على تحضير الوصفات الطبية بمزج المحاليل والعقاقير ووضعها بالقناني المعدة ولصق التعليمات عليها . وفي تلك الحصص كنا نجرب مفعول بعض العقاقير على أنفسنا مثل حقن الأدرينالين تحت الجلد أو وضع قطرة هوماتروبين في العين .

وكان الأستاذ ستيسي يقوم بتجارب على الحيوانات بإعطائها عقاقير مختلفة ويسجل النتائج . وكان يشرح لنا أحياناً مفعولها على أجهزة الدوران أو التنفس أو الهضم حسبما تقتضي التجربة .

في مختبر الفارماكولوجي وعلى الرفوف ، كنا نرى قناني تحوي مختلف المواد الكيمياوية والعقاقير الطبية والأعشاب المعروفة والمتداولة . وكان يتوجب علينا معرفة وتعيين نوع تلك المواد العقاقيرية بالمشاهدة أو الشم فقط ، وكانت تقدم لنا ضمن الامتحان الشفهي لمعرفتها وتمييزها كذلك .

وأذكر أن في تلك الحصص العملية كان بعض الزملاء يترك القنينة التي تحوي

مادة Asa Fetida مفتوحة فتنبعث رائحة كريهة جداً تملأ جو المختبر ، فيهرع الفراش هاشم أو ابن أخته الفراش «زغيّر» لفتح الشبابيك وتهوية المختبر ثم تبدأ عملية اتهام بعضنا الآخر بفتح القنينة وسط الضحك .

أما درس البكتريولوجي ، علم الجراثيم ، فقد كان مفيداً وممتعاً هو الآخر . وكان الأستاذ بيتي Beattie يحاضرنا في قاعة المختبر الخاص به . وكان صوته «الباريتوني» العميق لا يتناسب مع قصر قامته وضآلة حجمه . شرحه مبسط ومفهوم وتعلمنا من محاضراته التفكير الواضح والاستنتاج العلمي . وكان رفيقاً بنا ويتفقدنا فرداً فرداً في الحصص العملية يساعده فيها الأطباء نجدة سامي سليمان وناجي جيتايات ورؤوف سيمح .

وقام الأستاذ شوكت الزهاوي بإلقاء المحاضرات في علم الأمراض ، الباثولوجي . ولم تكن تستهوينا ، حيث أنه كان يملي علينا من دفتر أعده مسبقاً ولغته الإنجليزية محدودة وشرحه مقتضب ، مفترضاً في نفس الوقت أن الطلبة الأحداث هم دون المستوى الذهني لتلك المحاضرات . ولطالما توقف عن الكلام أثناء الإلقاء ليوجه سؤالاً إلى أحدنا لا يعرف له جواباً فيرميه بنظرة فاحصة ونرتعد منه خوفاً . ومع الأسف ، لم تكن لدينا مصادر للقراءة ، ولم يكن كتاب Boyd متوفراً في المكتبات آنذاك . شخصياً ، كان عندي كتاب لعلم الأمراض لمؤلفه Green لكنني لم أرغب بقراءته ولم أجد متعة يومها في موضوع الباثولوجي .

وعلى عكس المحاضرات النظرية الجافة في مادة الباثولوجي ، كانت الحصص العملية مسلية ويسودها المرح بفضل خفة دم المساعد في قسم الباثولوجي الدكتور يوسف دانيال ، وهو طبيب يهودي من خريجي الدورات الأولى . كان يجيد شرح النماذج المرضية والشرائح المجهرية . وتولى «خضوري» مساعد المختبر ، وهو يهودي أيضاً ، تهيئة النماذج المرضية والشرائح المجهرية . وقد علمنا أن الأخير يكتب أغاني للمطربة العراقية الشهيرة «سليمة باشا» ، فكنا نداعبه على كلماته العاطفية والغرامية التي تشدو بها تلك المغنية .

وفي موضوع الطفيليات وأمراض المناطق الحارة كان الأستاذ المصري الدكتور أحمد الحلواني يلقي محاضراته علينا في مختبر البكتريولوجي . والأستاذ الحلواني خبير عالمي بالبلهارزيا والملاريا والطفيليات المرضية . وكانت دروسه تبدأ متأخرة عن موعدها في الصباح فترة لا تقل عن عشرين دقيقة ، ولكنه متى ما بدأ بإلقاء

المحاضرة ، فإنه يستمر بطلاقة لامتناهية ومعلومات وفيرة تنم عن علم غزير في ميدانه . فقد أوسع موضوعي الملاريا والبلهارزيا شرحاً وكذلك أمراض الطفيليات والديدان والأمراض الاستوائية . وكان لا يتوقف عند انتهاء الوقت إلا بعد تنبيهنا له بشحط أقدامنا أو حضور الأستاذ التالي لشغل القاعة وإلقاء محاضرته .

في حصة الطب الباطني ، كنا نرقب حضور الأستاذ هاري سندرسن ، أستاذ الطب الباطني وعميد الكلية ، لإلقاء محاضراته في القاعة رقم (4) . ولكنه لم يكن يلتزم بالحضور بسبب كثرة مشاغله الإدارية وارتباطاته الحكومية وغير الحكومية خارج الكلية . وكان يفترض أن يلقي دروسه علينا مرتين أسبوعياً لكنه ألقى أقل من أربعين محاضرة بنهاية السنة ، بينما يفترض أن تكون ستين محاضرة .

كان الأستاذ يتلو محاضراته بطريقة الإملاء البطيء بلهجة إنكليزية تنم عن علو الثقافة والتهذيب ، متطلعاً بين الفينة والأخرى إلى دفتر كبير بلت أوراقه من كثرة ما قلب فيه وهو يدرس الدورات التي سبقتنا في الكلية . ومع هذا كان درس الطب الباطني مشوقاً وشرحه للمواضيع التي بحثها وافياً وكانت مختصرة من كتاب Price للطب الباطني .

إن أهم حدث في هذه السنة بالنسبة لنا كان توزيعنا على الردهات الباطنية والجراحية في المستشفى الملكي الذي يقع بجوار الكلية . وكانت تلك أولى التجارب لتعرفنا على الأمراض المختلفة بصفتنا أطباء المستقبل . وكان تدريبنا يتم بإشراف الأساتذة والمساعدين والمعيدين . وكانت مجموعتنا وعددها 15 طالبا تداوم 15 أسبوعاً في الردهة التاسعة الباطنية تليها مدة مماثلة في الردهة الخامسة الجراحية .

وللمرة الأولى ارتدينا المعاطف البيضاء النظيفة ووضعنا السماعات في جيب وكتاب Hutchinson's Clinical Methods في الجيب الآخر وتوجهنا جماعات إلى الأجنحة الباطنية . وفي الردهة كان بانتظارنا الدكتور عادل الدوغرامه جي ليقرأ أسماءنا ويتعرف على كل واحد منا .

الردهة التاسعة الباطنية بدت نظيفة ومرتبة وواسعة تمتد على مسافة لا تقل عن أربعين متراً ، توزعت على جانبيها أسرة المرضى الحديدية بأغطية بيضاء ويرقد فيها المرضى الذين يعالجون بالمجان ، وهم عادة من الطبقات الشعبية والفقيرة . أما الموسرون وكبار موظفي الدولة فكانوا يعالجون في دار التمريض الخاص الذي يقع مقابل نهر دجلة وعبر حدائق المستشفى الوارفة بأشجار الحمضيات ، ويتسع لحوالي عشرين غرفة

كبيرة ، وفي السنوات الأخيرة أضيف إليه جناح ضم اثنتي عشرة غرفة إضافية . وتفرض على الراقدين فيه أجور زهيدة ويعفى الموظفون من ثلثي الأجور . على أن هناك في أجنحة المستشفى الملكي غرف جانبية خصصت لرقود المرضى بأجور من الدرجة الثانية . وكلا الصنفين ، أي المرضى الراقدون في الدرجة الأولى ، أي دار التمريض الخاص ، أو الدرجة الثانية لا يسمح للطلاب بمراجعتهم أو التدريب عليهم(*) .

في القسم الأمامي من الردهة أربع غرف صغيرة الحجم أعدت إحداها للطبيب

(*) يعود بناء المستشفى الملكي إلى عام 1870م عندما أشاده والي بغداد العثماني مدحت باشا ليكون معداً لإقامة شاه إيران ناصر الدين مدة زيارته الرسمية لبغداد . وقد شغل البناية بعد مغادرة الشاه بعض المتنفذين سكنا لهم ولحاشيتهم . ثم اتخذ مستشفى للجيش يعالج فيه الضباط والجنود ويسمى المستشفى الجيدي نسبة إلى السلطان عبد الجيد ، ويسميه الناس «الجيدية» . ولما دخل الجيش البريطاني بغداد عام 1917م ، اتخذته القيادة العسكرية للجيش البريطاني مقراً لمستشفاها العسكري . ثم تسلمته وزارة الصحة عند تشكيل الحكومة الوطنية سنة 1922م وجمعت فيه المعاهد الفنية المتممة وهي المختبر المركزي والمختبر الكيميائي ومعهد الأشعة ومعهد باستور ودار التمريض الخاص وأطلقت عليه اسم «المستشفى الملكي» ، ووسعت الردهات لقبول المرضى الراقدين .

وعند إنشاء الكلية الطبية في سنة 1927م تلقت الدورة الأولى من الطلاب دروسها في جناح مؤقت (الردهة 10-11) قبل إكمال تشييد بناية الكلية الأساسية عام 1930م والتي ما تزال قائمة حتى الآن .

وقد كان لجهود الأطباء العراقيين ، وفي مقدمتهم الأستاذ الدكتور صائب شوكت ، الفضل في توسيع مرافق المستشفى ومتابعة إنشاء الردهات 12-20 ، المخصصة لأقسام الجراحة ، في الثلاثينيات واستحصاله موافقة مجلس الإعمار على إنشاء مدينة الطب الحالية في أواسط الخمسينات .

وعلى الرغم من تقادم بناء أجنحة الردهات في بناية المستشفى الملكي التي أشادها المصلح مدحت باشا ، فإنها كانت المدرسة التي تدرب فيها المئات بل الآلاف من طلاب كلية الطب على مدى أربعة وأربعين عاماً ، وتلقوا بين جدرانها السميكة العلوم الطبية على الواقع وطبقوا ما تعلموه نظرياً في قاعة المحاضرات ، وتعرفوا عملياً على الآدميين المصابين بالأمراض العضوية والنفسية ولمسوا معنى الصحة والشفاء وكذلك الموت لمن لم ينفعه دواء ومن ذلك كله اكتسبوا خبرة أهلتهم ليكونوا أطباء أكفاء نافعين في مجتمعهم الذي كان يسوده يوم ذاك الفقر والجهل والمرض .

الأقدم والثانية للممرضات والثالثة للفحص السريري والرابعة لطلبة الكلية المتدربين ، مزودة بمختبر يجري فيه الأطباء والطلاب الفحوص المخبرية الأولية .

كان بعض المرضى راقدين وآخرون جالسين على أسرتهم وفي عيونهم حب استطلاع لمرأى التلاميذ صغار السن الذين سوف يتوزعون عليهم ليسألونهم عن أحوالهم الصحية وأمراضهم وعلاجهم .

وفي وسط الردهة وقف الدكتور عادل الدوغرامه جي يتفرس في وجوهنا مرحباً بنا . وألقى كلمة حثّنا فيها على وجوب الحضور بانتظام وتحضير الواجبات اليومية مسترشدين بكتاب الأساليب السريرية ، Clinical Methods ، وقال إنه يريد منا أن نكون أطباء جيدين وسوف يرعى كل مجّد فينا ويلاحق كل من لا يحضر الدروس . ثم وزع أسرة الردهة على أساس سريرين لكل طالب . لقد سبقت سمعة الدكتور الدوغرامه جي بأنه شديد المراس وحريص في تدريس الطلاب . وغمرتني سعادة وأنا أسمعه يبدأ بسؤال مريض ، انتخبه للتدريس عن شكواه ، وآليت على نفسي أن أنال تقديره بالجدية والمثابرة .

وقبل أن تنتهي فترة الساعتين المخصصة للدرس الكلينيكي صرفنا الدكتور الدوغرامه جي لنعود إلى متابعة المحاضرات النظرية في الكلية .

بدأت الدراسة مجدداً يوم 2 كانون الثاني 1943 . وبعد أيام قليلة أعلنت نتائج امتحانات الفصل الأول ، فكانت بالنسبة لي مرضية إلى حد كبير .

كان تدريبنا السريري يسير على ما يرام ، وكنا قد بلغنا شوطاً متقدماً في إجراء الفحص السريري لأجهزة الجسم المختلفة وألمنا ، بفضل الجهود الحثيثة في تعليمنا من قبل الدكتور عادل الدوغرامه جي والدكتور مهدي فوزي ، بفهم التغييرات السريرية للحالات المرضية المختلفة . وبدت لنا الدروس النظرية متكاملة مع مشاهداتنا للحالات السريرية في الردهات .

وفي أواسط الفصل ، وبعد أن قضينا خمسة عشر أسبوعاً في الردهة الباطنية ، أجرى لنا الدكتور عادل امتحاناً شمل طرق الفحص السريري لكافة الأجهزة ، ثم انتقلت مجموعتنا للتدريب السريري في موضوع الجراحة في الردهة الخامسة بإشراف الدكتور محمد صالح عبد المنعم . وقد كان لحسن تدريبنا في الردهة الباطنية وإلمامنا الجيد بطرق الفحص الباطني ما ساعدنا كثيراً عند فحص مثيلاتها من الحالات الجراحية . على أن الدكتور محمد صالح عبد المنعم كان متساهلا معنا متواضعاً مع

المرضى والمراجعين ، يرعانا دون ملاحقة الدكتور عادل اليومية في تعليمنا . وقد سمح لنا بمراقبة العمليات الجراحية الكبرى التي كان يجريها على مرضى الردهة من خلال الشرفة المطلة على قاعة العمليات . كما كان يدربنا على تنظيف الجروح وعلى مساعدته عند إجراء العمليات الصغرى وتحت إشرافه المباشر .

وفي العطلة التي تلت امتحانات الفصل الثاني توجهت إلى الموصل لقضاء بعض الوقت في ربوعها وصحبني زميل دراستي في الكلية والمراجعة اليومية أحمد جلميران . وصادف حلول عيد مار كوركيس لإخواننا المسيحيين فذهبنا سوية مع أفراد عائلته إلى الدير في ضواحي الموصل وتمتعنا بنهار ربيعي جميل ضم أهالي الموصل من كافة الأديان والطوائف ، وكان احتفالاً شعبياً زاهياً قضينا فيه وقتاً طيباً .

كان زميلي وقريبي أحمد ، كما ذكرت آنفاً ، يرافقني بالدراسة ومراجعة المحاضرات يومياً في المساء . وكان نعم الرفيق والصديق . لكنه لم يكن يبغي التفوق ، ويقنع بدرجة النجاح . ويظهر أنه ملّ من المثابرة والدراسة الجدية اليومية وبدون انقطاع فصرح لي في ذلك النهار الربيعي البهيج أنه سوف ينقطع عن الدراسة المسائية والمراجعة معي حالما نجتاز الامتحان العام في نهاية تلك السنة ، إذ سوف تكون مواضيع الدروس للسنوات الثلاث القادمة سهلة والنجاح فيها مضموناً ، مؤملاً أن نلتقي على خير في امتحانات السنة السادسة بعد ثلاث سنوات .

مع هذا ، استمرت مذاكرتنا المسائية بعد عودتنا إلى بغداد كالمعتاد بالرغم من تأخره في المواعيد التي نتفق عليها . وعندما كنت أظهر له احتجاجي كان يرد علي بنكتة وقصة مختلفة عن مغامرات مختلقة فأشاركه المرح وأسامحه متذكراً ما أوصتني به خالتي أم أحمد ، طيّب الله ثراها ، من وجوب مراعاتي له والأخذ بيده في الدراسة .

في هذه السنة شعرت بنوع من الاطمئنان إلى دراستي ومستقبلي في الكلية ، وزال عني الخوف الذي لازمني في السنتين الأوليتين . فعمّا قريب وعندما أنجح إلى الصف الرابع ، سوف أصبح من قدامى طلبة الكلية Senior Medical Student . وكنت أنظر بإعجاب إلى غانم عقراوي وسالم الحيدري وأمة العزيز الزهاوي وسانحة أمين زكي الذين كانوا على وشك التخرج وأن يصبحوا أطباء مرموقين .

ولطالما حلمت ، وأنا في قاعة الدرس جالساً على ذلك الكرسي الخشبي ذي

اللون الأصفر أصغي إلى أساتذتي ، هل يا ترى سأكون أنا يوماً ما معلماً وأستاذاً مثل سندرسن وستيسي أو مدرساً في الجناح الباطني مثل عادل الدوغرامه جي؟ وإن تحقق ذلك الحلم ، فكيف سأبدأ محاضرتي؟ هل بسؤالي الطلبة «ما هو آخر موضوع تكلمنا فيه؟» كما يفعل الأستاذ سندرسن أم بالدخول إلى صلب الموضوع مباشرة وبدون مقدمات مثلما يفعل الأستاذ ستيسي؟

في هذه السنة كذلك شاركت في الفعاليات الاجتماعية واللجان اللاصفية التي شكّلت في الكلية . وكنت أحضر اجتماعات لجنة الموسيقى في قاعة السينما ، وكان من أعضائها الفعّالين الأخوان غانم ويوسف عقراوي وفيضي الزهاوي وأمة العزيز الزهاوي وأرمان بحوشي وأدور عباجي وآرتين قنطارجيان (الصغير) وسامي الشيخ قاسم ونوري مصطفى بهجت وخالد القصاب ومصطفى أدهم وقتيبة الشيخ نوري وسهيل طه الهاشمي وفيصل صبيح نشأت . وكان الاجتماع يبدأ بقراءة نبذة عن حياة الموسيقار المؤلف ثم تدار الاسطوانات ذات سرعة 78 أو 45 ونستمع بهدوء وصمت تام حتى نهاية المقطوعة التي قد تدوم ساعة أو أكثر تعقبها المناقشات حول الموسيقى والمؤلف .

وفي هذه الاجتماعات تعرفت إلى موسيقى باخ وموزارت وبيتهوفن وبرامز ورمسكي كورساكوف ورافيل . وأذكر جيداً تذوّقي مقطوعة شهرزاد لرمسكي كورساكوف وصعوبة فهمي مقطوعة «البحر La Mer» للموسيقار الفرنسي دي بوسي .

وفي لجنة النشاط الاجتماعي والسفرات قمنا بجولات على الدراجات إلى البساتين التي كانت عامرة في ضواحي بغداد مثل الراشدية والرستمية وسلمان باك ، أو في بساتين الجادرية والزوية في الكرادة خارج .

وانضممت إلى فريق الكرة الطائرة ، وكانت المباريات بين فرق الصفوف تجري بعد انتهاء الدوام . وكان صديقنا وزميلنا في الدراسة الثانوية الأستاذ صادق علي «أبو غاندي» مشرفاً على الفعاليات الرياضية ويقوم بتحكيم المباريات .

وعلى ذكر زملائنا الطلاب ، فقد انضم إلى صفنا في هذه السنة عدد من الطلاب نقلوا دراستهم من كليات أخرى إلى كليتنا ، وكان منهم عزيز كرجية ويعقوب كوهين . والأخير قدم من كلية طب الجامعة الأمريكية في بيروت وكان يبدو أكبر منا سناً ولطيف المعشر وهادئ الطباع لا تنم تصرفاته عن أي شيء غريب .

ولكننا علمنا في سنوات الخمسينات والستينات المتأخرة أنه كان ناشطاً في الحزب الشيوعي العراقي ومقرباً من الحزب الوطني الديمقراطي . وكان معلوما لدينا أن الاشتغال بالسياسة ممنوع في الكلية وقد يتعرض المخالف إلى عقوبة الطرد منها .

ولا يفوتني أن أذكر هنا أن الأمير عبد الإله ، الوصي على العرش وولي العهد ، زار الكلية في صباح يوم ربيعي من هذه السنة . وكان الطلاب قد تجمعوا في فناء الساحة عندما وصل سائراً على الأقدام يصحبه الأستاذ سندرسن قادماً من جهة معهد الأشعة . وفجأة رأينا أحد زملائنا في الصف وهو ضياء الدخيلي يتقدم منه ويخاطبه بصوت عال شاكياً له ومدعياً سوء معاملة واضطهاد بعض الأساتذة له مما سبب له الرسوب في الامتحان وإعادة السنة . وطالب بتدخل الوصي لإنصافه . وهنا انبرى الأستاذ سندرسن فشرح للوصي قرارات مجلس الكلية وقضية الدخيلي وسبب رسوبه . ثم وجدناهما يتوجهان إلى مبنى الكلية بين تصفيق بعض الطلاب ، ربما للاجتماع بالأساتذة وتفقد شؤون الكلية .

في الفصل الدراسي الثالث كانت الدراسة تسير بانتظام وكان الأستاذ ستيسي قد أكمل محاضراته في المنهج المقرر لمادة مفردات الطب «الفارماكولوجي» وبدأ بعلم فن التداوي السريري Therapeutics بمعدل ساعتين أسبوعياً . كانت تلك الدروس ممتعة للغاية ، تناول فيها الأستاذ أمراض الأجهزة المختلفة الواحد بعد الآخر . وبعد مقدمة بسيطة ومختصرة عن أعراض وعلامات وتشخيص المرض ، الأمر الذي رسّخ معلوماتنا التي اكتسبناها من دروس الطب الباطني ، كان يوضح بإسهاب بأسلوبه السلس و طرق المعالجة مبتدئا بالوسائل الأساسية العامة التي ينصح بها المريض مثل الراحة وملازمة الفراش والحالة النفسية أولاً ثم نمط التغذية الصحية لذلك المرض ثانياً فالعقاقير النوعية التي ينصح بتناولها ثالثاً وأخيراً الأساليب العلاجية المتخصصة كالجراحة أو العلاج الفيزيائي أو العلاج بالإشعاع وغيرها إن اقتضت الحاجة . رسخ هذا الترتيب المنظم والمنهجي في وضع خطة العلاج في ذاكرتي ، وأني ما عالجت مريضاً خلال ممارستي الطبية الطويلة إلا وعاد إلى ذاكرتي ما تعلمت من الأستاذ ستيسي عن تنظيم المعالجة وترتيبها حسب ذلك المنهج .

أكملنا المنهج الدراسي في أوائل حزيران 1943 ، وتقدمنا للامتحانات التحريرية ثم الامتحانات العملية والشفهية بالتتالي . وأعلنت النتائج وكان النجاح حليفي هذه المرة أيضاً وبتفوق وإن لم أحصل على جوائز كما حصل في السنة الماضية .

قضيت بعض الوقت من العطلة الصيفية في الموصل ومصائف الشمال ، ثم عدت إلى بغداد ووزعت وقتي بين الدوام في العيادة الخارجية الجراحية بمعية الأستاذ بيثون رسام والدوام في مختبر الأستاذ بيتي الذي رحّب بي وأفرد لي مجهراً خاصاً بي في غرفته . وكان يناولني الشرائح المجهرية لدراستها ، ويأخذني إلى غرفة الحيوانات التي يجري عليها التجارب والفحوص المخبرية ، وقدمني إلى الدكتور كمال رشيد الذي كان يعمل في شعبة الأمصال وداء الكلب .

ولابد لي أن أذكر هنا أن فكرة الدوام خلال العطلة الصيفية في المستشفى والمختبرات لغرض الاستفادة والتعلم كان بتشجيع من صديقي داوود سلمان علي كذلك .

ملاحظتي الأخيرة في هذه السنة الدراسية المصيرية كان الاهتمام الشخصي الذي كنا نلقاه من مساعدي الأساتذة في الردهات وفي المختبرات وتتبعهم المستمر لدوامنا سواء في المحاضرات النظرية أو المختبرات العملية . وربما كان لقلة عدد الطلاب في كل مجموعة أثر واضح في ذلك .

السنة الرابعة

الآن حقاً أصبحت Senior Medical Student وبدأت عهداً جديداً في الدراسة كانت فاتحته أني شعرت ، وهو شعور كافة طلبة الكلية في هذه المرحلة ، وفي مقدمتهم صديقي أحمد جلميران ، أن فترة الشدّة والدراسة المنهجية واحتمال الرسوب بل والطرد من الكلية قد تضاءل بعد أن أنهينا السنوات الثلاث العجاف الصعبة بنجاح . لقد فقدت دورتنا رعيلاً آخر من الزملاء الذين رسبوا سنتين متتاليتين في الصف الثالث . ولكنهم كانوا أقل عدداً ممن رقن قيدهم في السنتين الأوليتين .

أما الآن ونحن في الصف الرابع فالنجاح شبه مضمون في هذه السنة ، ذلك لأننا ألفنا الأساتذة والتدريسيين في الكلية وتعوّدنا على أساليب الامتحان إضافة إلى أن الدروس في هذه المرحلة الدراسية تنتهي بامتحان نهائي ، وهي الصحة العامة والأمراض السارية والطب العدلي وتعتبر من الدروس السهلة نسبياً ولا تحتاج إلى جهود شاقة للنجاح فيها . أما امتحانات الدروس السريرية الثلاثة ، وهي الطب الباطني والجراحة والأمراض النسائية والتوليد فكانت فصلية تحسب نتائجها في

المعدل النهائي لامتحان التخرج مجتمعة للسنوات السريرية الأربع . وكنا نرى أن هذا يعطينا فرصة كافية لتعلم هذه المواد والحصول على درجات جيدة فيما بعد .

وعلى ذلك ، تغيرت نفسيتي وارتاحت أعصابي وخف القلق الذي لازمني في السنوات السابقة ولم أعد أكرس جلّ وقتي للقراءة والمراجعة اليومية . وانقطع أحمد جلميران عن زياراتي البيتية وأصبح لقائي مع أصدقائي خالد القصاب ومصطفى إبراهيم أدهم وقتيبة الشيخ نوري ونوري مصطفى بهجت بعد أوقات الدوام وفي نهايات الأسبوع شبه مستمر . وكنت ألعب التنس في ساحات النادي الأولمبي في الأعظمية وأراجع محاضراتي في حدائقه النظرة .

تدريس موضوع الصحة العامة والأمراض السارية كان من نصيب أستاذنا المفضل الدكتور آرنولد ميلز Arnold Mills . وكنا ننتظر قدومه في باحة الكلية متوجهاً من مختبره في بناية المعهد الباثولوجي المركزي المقابلة للكلية ، مرتدياً الروب الأسود فوق صدرية بيضاء ملطخة بالأصباغ التي يستعملها لتلوين النماذج الباثولوجية . فنسرع بالدخول إلى قاعة المحاضرات رقم (2) القريبة من مدخل الكلية ، ونأخذ أماكننا . وبعد انتظامنا ، يدخل ويجول ببصره فينا من فوق نظاراته النصفية واحدا بعد آخر ثم يستهل المحاضرة بقوله Lady and gentlemen ، فقد بقيت معنا بعد التصفية السنوية للطلاب طالبة واحدة فقط هي الآنسة ماركريت فتح الله كساب . ثم يتناول موضوع الدرس . وكان يردد على الدوام Please don't forget محاولاً بذلك التركيز على النقاط المهمة الواجب تذكرها عندما نمارس الطب في المستقبل .

كانت محاضراته مرتبة وكان يملي علينا الفقرات المهمة ويقص علينا قصصاً من خبرته الشخصية عن حالات مرضية خاصة وأمثلة متنوعة تنم عن خبرة واسعة وعريضة في تشخيص وعلاج الأمراض الوبائية السارية ومن ذلك وافدات الانفلونزا المميتة بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ووافدات مرض الكوليرا في بغداد وكربلاء والنجف في العشرينات ووافدات الطاعون في شمال العراق علاوة على حالات مرض الجدري والسحايا الدماغية وشلل الأطفال .

كان الأستاذ ميلز Mills ودوداً ويحب طلبته مثل أبنائه دون استثناء أو تمييز . ولم ينقطع عن إلقاء دروسه يوماً حتى عندما أصيب بمرض اليرقان ، وكنا نطالبه بالخلود إلى الراحة وتأجيل محاضراته حتى يبّل من المرض . لكنه أصر على إلقاء

المحاضرات والعمل في المختبر كالمعتاد . وكان يقول عن مرضه أنه «زكام في الكبد» يشفى تلقائياً خلال أسبوعين أو ثلاثة ، وهو ما حصل فعلاً .

وضمن موضوع الصحة العامة ألقى علينا الأستاذ سامي شوكت محاضرات في القوانين الصحية وكان يومها وزيراً للمعارف وسبق أن كان مفتشاً عاماً ومديراً للصحة العامة .

الموضوع الدراسي الثاني في هذه السنة كان الطب العدلي ، وهو الدرس الأساسي الوحيد الذي كان يدرس باللغة العربية . وقد بدأ الأستاذ الدكتور حنا خياط بإلقاء محاضراته علينا في القاعة الكبرى رقم (1) في ساعات ما بعد الظهر . وكان منظر الأستاذ بقامته الفارهة ولحيته القصيرة مهيباً . وكان يحاضرنا بلغة عربية فصيحة لا يشوبها أي غلط نحوي ولا يستعمل خلالها كلمات أجنبية بالرغم من إتقانه اللغتين الإنجليزية والفرنسية كأحد أبنائهما .

علمنا الأستاذ حنا خياط كتابة التقرير الطبي للمريض وانتقل بعدها إلى المواضيع الطبية العدلية الأخرى . وكنا جد سعيدين بالاستماع إلى هذا الأستاذ العالم . لكن سعادتنا لم تدم طويلاً ، إذ توقف عن إتمام المنهج في بداية الفصل الثاني بعد أن اضطر على ملازمة الفراش إثر إصابته بالتهاب المفاصل المزمن فأكمل مساعده الدكتور أحمد عزت القيسي المنهج لتلك السنة .

محاضرات الدكتور القيسي ، النظرية التي كان يلقيها في القاعة المدرجة رقم (1) والعملية في قاعة التشريح ببناية مديرية معهد الطب العدلي المجاورة للكلية ، كانت شاملة ومفيدة للممارس الطبي . وفيها تعلمنا الكثير عن القوانين العدلية وعن الجروح والطلقات النارية والاغتصاب واللواطة والتسمم والقتل والانتحار .

وفي هذه السنة ، وكما كان الحال في السنة الماضية ، ألقى علينا الأستاذ سندرسن محاضراته في الطب الباطني وحاول أن يلّم بكافة أمراض أجهزة الجسم . لكن انقطاعه بين الحين والآخر وعدم حضوره لانشغاله بأمور أخرى كان أمراً مؤسفاً خاصة وأن هذه المادة تعتبر من أهم المواضيع في الدراسة الطبية . على أنه كان يحاضر في دروس الطب الباطني السريرية التي تعقد في غرفة الدرس الملحقة بالردهة الثامنة ويناقشنا في أسلوب أخذ التاريخ المرضي والفحص السريري وتحليل النتائج المختبرية والشعاعية وكيفية التوصل إلى التشخيص فالعلاج الصحيح . وفي هذه الدروس القليلة كان الأستاذ سندرسن من خيرة المدرسين السريريين وخاصة بأسلوبه

الحضاري مع المريض في الاستجواب وبالسلوك المهذب عند إجراء الفحص الطبي السريري . ومنه تعلمنا مبادئ الأدب الطبي والسلوك المهني أكثر مما تعلمنا في النواحي الطبية النظرية . كان منظره وهو يسأل المريض عن شكواه بلغة عربية مفهومة ثم يفحصه بيدين هادئتين متجنباً إثارة أي ألم أو إزعاج مما يهدئ من روعه ويعطيه ثقة كبيرة بحسن الرعاية .

وقد شارك الأستاذ هاشم الوتري في تدريسنا الطب الباطني السريري كذلك ، وكان مساعدوه وهم الدكتور معمر خالد الشابندر والدكتور شوكت الدهان والدكتور عبد السلام سهيل يحضرون المريض إلى غرفة الدرس قبل قدوم الأستاذ ويقفون جانباً للاستماع إلى تدريسه . وغالباً ما كان يستدعي زميلنا صلاح تحسين علي أو محمد ياسين أمين آغا لفحص المريض بعد الاستماع إلى شكواه المرضية .

وفي التدريب السريري للأمراض الباطنية قام الدكتور عبد الرحمن الجوربه جي ، الأستاذ المشارك في قسم الأمراض الباطنية ، بتدريبنا على الفحص وتشخيص الأمراض في الردهة الأولى للنساء . وحيث أنه كان مشغولاً بإدارة المستشفى الملكي فلم تكن الاستفادة العلمية من تدريسه كما نبتغي . وكنا ندور مع مساعده الدكتور عبد الجبار العماري في زيارته اليومية للمرضى ثم نقضي ما تبقى من الوقت بمراجعة طبلات المرضى وفحصهم ومعاينة التحريات المختبرية والشعاعية التي أجريت لهم . وقد امتد الدوام لفصل كامل ، أي عشرة أسابيع ، اعتمدنا فيه على أنفسنا أكثر مما تعلمنا من مدرسينا .

كان تدريس الأمراض النسائية والتوليد من نصيب الأستاذة السيدة ماكداول McDowell ، وهي أخت الجراح الأستاذ ماكداول أستاذ الجراحة السابق . كان تدريسها مملاً وخطابها رتيباً وصوتها لا يكاد يسمع . ولطالما جلبت معها كتاب Mc Donald في الأمراض النسائية لتقرأ منه علينا فقرات كاملة . وقد قاطع محاضراتها البعض من زملائنا ولكننا لم نجرؤ على مفاتحة العمادة بالشكوى من سوء تدريسها .

أثناء هذه المحاضرات نشأت فكرة كتابة تعليقات وطرائف ونكت على أوراق تدور بين الطلاب في قاعة الدرس . وقد لاقت الفكرة نجاحاً ثم تطورت إلى نشرة مكتوبة باليد عن المحاضرين والزملاء الطلاب وضمت رسوماً كاريكاتورية وبعض التصاوير . وكان يحررها زملاؤنا صادق الهلالي وخليل جميل وعبد الأمير عبد الكريم وفاضل

السعيدي ومهدي مرتضى . وأصبحت فيما بعد نواة لنشرة تطبع بالمطابع الخارجية ، بموافقة العمادة ومديرية الإعلام ، وأصبح مديرها المسؤول علاء الدين الخالدي خريج كلية الصيدلة وأحد طلاب الكلية الطبية . وكانت توزع داخل الكلية وخارجها .

أما التدريس السريري للأمراض النسائية ، والذي كرس له فصل كامل أسوة بالجراحة والباطنية ، فقد كان هو الآخر ذا فائدة محدودة . وفي الردهة العاشرة تدربنا تحت إشراف الأستاذ المشارك فؤاد مراد الشيخ والدكتور كمال السامرائي . كان الدكتور فؤاد يأخذنا في دورته اليومية على المريضات ويشرح لنا ويجيب على أسئلتنا . وكان يتمتع بخلق رفيع ورحابة صدر ويبدي عطفاً على الطلاب . وقد هيأ لنا الفرصة للإطلاع على الولادات الطبيعية التي يجريها الأطباء المقيمون والممرضات القدامى .

أما الأستاذ المساعد الدكتور كمال السامرائي فلم نجد منه الاندفاع المرتجى في تدريسنا إذ شغلته عيادته الخاصة ومريضاته الكثر من الطبقة الموسرة عن الانصراف الجدي للتدريس . على أنه غيّر من نهجه في سنوات لاحقة عندما تسلم رئاسة قسم الأمراض النسائية والتوليد فانصرف إلى التدريس وتطوير القسم والكتابة والبحث العلمي .

الأمر البارز في هذه السنة من تاريخ الكلية الطبية العراقية ، عام 1943-1944 ، كان الاستعانة بعدد من الجراحين البريطانيين ، الذين رافقوا الجيش البريطاني الذي دخل العراق بعد حركة 1941 ، لتدريس موضوع الجراحة العامة . هؤلاء الجراحون أحدثوا تغييراً جذرياً في أسلوب ومحتوى التدريس الطبي في الكلية .

كان الأول ، وهو الميجر دونالد دوغلاس D. Douglas ، شاباً في أواسط الثلاثينات يطفح حيوية ونشاطاً وعلماً غزيراً . فهو من جيل الأساتذة الشبان الذين درسوا وتدربوا في بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية واكتسبوا خبرة واسعة من الممارسة العملية في المجال المدني وساحات الحروب وميادين القتال في شتى أنحاء العالم .

كان رشيقاً مستقيم القامة نشيط المظهر يمشي من باب المعظم إلى الكلية مرتديا الزي العسكري ويلقي محاضراته شفاهاً مستعيناً ببطاقات صغيرة تحوي رؤوس أقلام المواضيع التي ينوي بحثها ويعطي كل موضوع وكل مرض يطرقه نصيبه الوافي من الشرح . ومنه تعلمنا ، ليس الأمراض الجراحية فحسب ، بل أنه كان يلم بكافة أمراض الأجهزة وتحوي محاضراته كل شيء جديد في الطب والجراحة .

كان الأستاذ الثاني هو الكولونيل ولفريد باربرW.Barber ، وكان يدرسنا الجراحة السريرية بأسلوب عصري وعلمي يتطرق فيها إلى كل النواحي المهمة ويستعرض باثولوجية الأمراض الجراحية والمظاهر الشعاعية وطرق العلاج .

كلا الأستاذين ومن بعدهما الأستاذ روجرز L. Rogers ، الذي حرص على التدريب العملي للجراحين بأن يجعل أحد مساعديه يتولى مسؤولية العملية الجراحية ويقوم هو بدور المساعد له . واشتهر بيننا بأنه الرجل الذي شارك في حرب العصابات اليوغسلافية مع الزعيم تيتو ضد الاحتلال النازي ، هؤلاء الثلاثة كانوا نواة حركة تعليمية رائعة في الكلية الطبية ونهضة شاملة جددت في طلبة صفوفها المتقدمة وفي هيئتها التدريسية ما سارت عليه الكلية من تدريس نمطي ومحافظ منذ تأسيسها . وكانت ثمرتها جيلاً جديداً من الجراحين العراقيين الشباب تعلموا منهم وتدربوا بإشرافهم وأصبحوا فيما بعد قادة الجراحة في العراق وأذكر منهم عبد اللطيف البدري وخالد ناجي وغانم عقراوي وعزيز محمود شكري وخالد القصاب وخالد الجلبي . كما كان من حسن حظنا أن يقوم الدكتور نجيب اليعقوبي بالتدريس السريري لمجموعات صغيرة من طلاب صفنا ، وكان يومها من أبرز الجراحين الشبان حصل قبل فترة وجيزة على شهادة الاختصاص في الجراحة العامة بعد نجاحه في الامتحان ونيله شهادة الماجستير بالجراحة من الكلية . وكان يتبسط في المناقشة وأساليب التشخيص والتشخيص التفريقي وطرائق العلاج الجراحي ولطالما أخذنا إلى قاعة العمليات الكبرى نراقبه من الشرفة المطلة على طاولة العمليات وهو يشرح بإسهاب كل مرحلة يقوم بها أثناء إجرائه العمليات .

والحق يقال أن تدريس الجراحة نظريا وسريريا في هذه السنة فاق تدريس الأمراض الباطنية وأمراض النسائية والتوليد .

ولا يفوتني بهذه المناسبة أن أذكر أن البريغادير نوتن مورغان Naughton Morgan كان من جملة الجراحين البريطانيين المشهورين الذين عملوا في المستشفى الملكي يوم ذاك وأجرى عمليات كبرى للمرضى العراقيين وتركت محاضراته للأطباء والخريجين أثرا يذكره كل من عاصر تلك الفترة .

قراءات وهوايات خاصة

في هذه السنة تهيأت لي الفرصة والوقت الكافي للانصراف إلى قراءات

خارجية قد لا تمت إلى العلوم الطبية التي كنت أدرسها . وساعدني إلمامي باللغة الإنجليزية على قراءة الكتب الأدبية والاجتماعية والتاريخية والسيّر الذاتية . وتعرفت فيها على أوسكار وايلد وبرنارد شو وأبتون سنكلير ورومان رولان وفرويد . وكنت أعيرها إلى صديقي قتيبة الشيخ نوري ونناقشها بكل حماس واندفاع . وقد توفرت لي تلك الكتب من مكتبة شقيقي فيصل وأخرى بالشراء من مكتبة مكنزي في شارع الرشيد . كما قرأت كتب طه حسين والعقاد وأحمد أمين وعبد الرحمن بدوي وغيرهم من الكتاب العرب من مكتبة المرحوم والدي .

على أن الكتاب الذي شغفت به وأعدت قراءته مراراً وترك أثراً عميقاً في نفسي لازمني فيما بعد في حياتي الطبية وسلوكي تجاه المرضى فكان كتاب «قصة سانت ميشيل» The Story of Saint Michele للطبيب السويدي أكسل مونتي Axel Munthe . هذا الكتاب طبع ونشر في لندن سنة 1929 . ونظراً لإقبال القراء عليه أعيدت طبعاته حتى وصلت ، في أوائل الأربعينات ، إلى 42 طبعة اعتيادية وثمان طبعات بريل للعميان ، وترجم إلى 44 لغة عالمية . وقد وصلتني نسخة منه بالبريد من شقيقي فيصل في لندن .

لقد كتب النقاد كثيراً عن الكتاب ، وقال بعضهم أنه سيرة ذاتية مثيرة وقال آخرون أنه مذكرات طبيب سبر غور الطبيعة البشرية من خلال ممارسة طبية دامت خمسين عاماً قضاها مختلطاً مع كافة طبقات المجتمع وامتدت من أشدها فقراً ، وهم متسولو الشوارع العريضة وغانيات الأحياء الضيقة في باريس ، إلى أكثرها ترفاً في صالونات روما ومنتجعات السويد وقصور نبلاء أوروبا . وقال آخرون أنه كتاب عن الألم والعذاب والموت وما بعد الموت الذي كاد أن يخطفه هو نفسه يوم أن أصيب بداء السل وراْح يبصق الدم الغزير من صدره عندما كان طالباً معدماً في جامعة مونبيليه ، ثم مشاهدته احتضار المرضى المصابين بالسفلس وحالات الجنون في مستشفيات باريس العتيقة وأجنحتها المظلمة ووصفه النهاية البشعة لعشرات الفلاحين الجيكوسلوفاكيين الذين عضتهم الذئاب المسعورة وأصابتهم بداء الكلب وهم يتلقون العلاج التجريبي تحت إشراف العالم باستور .

ثم أقرؤه بعد تخرجه وهو يعمل طبيباً ويتطوع للعلاج في الوافدات التي اجتاحت أوروبا ويرى صديقه الموت يخطف الآلاف بالكوليرا في نابولي وبالتيفوس في كابري وبالهزة الأرضية من بركان فيزوف وبالغنغرينا Gangrene في حرب

السبعين وفي خنادق فردان في الحرب العالمية العظمى ، فيكتب النقاد عن مدى تعلقه بالأمل والحياة من خلال معايشته المستمرة للموت .

الكاتب يروي قصة حياته وقد بلغ الثمانين من العمر وفقد البصر في كلتا عينيه ، ويستعرض سيرته منذ أن بدأ بدراسة الطب في الستينات من القرن التاسع عشر طالباً مبتدئاً يعمل لإعالة نفسه بين ساعات الدراسة وبعدها مساعداً للمضمدين والراهبات الممرضات في مستشفى دي لا سالبيتيير يتعلم منهن ترتيب الفراش ودفع أسرة المرضى الفقراء ثم يدور بين المرضى يواسي المتألمين ويراقب المحتضرين ويهيء حقنة المورفين لإنهاء عذاب من لا يرجى شفاؤه . ويكتب أنه عندما يشم رائحة الفورمالين يدرك أن وفاة جديدة قد حدثت في الجناح .

وهو ينتقل بنا إلى أساتذته العظام بناة الطب الحديث الذين ارتبطت أسماؤهم بالأمراض التي ندرسها . ويحكي لنا عن شاركو Charcot وهويحاضر في قاعة الأكاديمية أو يدور على مرضى الأعصاب في مستشفى «هوتيل ديو» الشهير وعن تلميذ شاركو النجيب بابنسكي Babinski ، الذي خالف أستاذه فيما بعد ، حيث أنه فرق ما بين أمراض الأعصاب العضوية والشلل الهستيري متحملاً ثورة الأستاذ الكبير بصبر وأناة ، وعن تجارب براون سيكوارد Brown Seqward في مختبرات الباثولوجي وتجارب كلود بيرنار Claude Bernard على القطط والكلاب والضفادع وعن محاضرات تروسو Trousseau في الطب الباطني وفورنييه Fournier عن السفلس وباستور عن اكتشافه بكتريا الكوليرا وتحضيره اللقاح الخاص بالمرض .

كان الكتاب بالنسبة لي قطعة شعرية متكاملة فيها المأساة وفيها الملهاة تتخللها حكم وعبر مستقاة من خبرة عميقة بالحياة ، عن المثابرة والجهد ، الاحتمال والصبر ، الأمل والرجاء ، الخلق والفناء . وكانت دراسة في فلسفة الحياة تعلمت منها مباديء السلوك الطبي وكيفية التعامل الصحيح مع المريض ، ومنها تعلمت أيضاً أكثر مما تعلمت من محاضرات الأدب الطبي والسلوك المهني التي ألقيت في قاعات الدرس قبل التخرج من الكلية .

حل صيف 1944 وبدأت الامتحانات النهائية في موضوعي الصحة العامة والأمراض السريرية والطب العدلي . وسبقت ذلك امتحانات فصلية في الدروس غير المنتهية . وعندما فرغت من الامتحان أصابتني حمى عالية والتهاب في المجاري التنفسية ألزمني الفراش أياماً . وعندما عادت لي العافية توجهت إلى الكلية فوجدت

أن النتائج قد أعلنت وأنني ناجح في الموضوعين الأساسيين ، وفرحت لذلك وذهبت إلى نادي الكلية لأجتمع بأصدقائي ، وهناك أخبرت أن مكتب العميد قد أرسل في طلبي .

فتوجهت لأستطلع الأمر . وعلمت بالأخبار السارة : جائزتان من جوائز التفوق وهما جائزة الأستاذ ميلز للطالب المتميز في موضوع الصحة العامة والأمراض السارية ، وجائزة بنك إيران الإمبراطوري للأول على الصف الرابع . وطلب إلي الحضور في اليوم التالي موعد حفلة التخرج للصف المنتهي 1944 برعاية ولي العهد الأمير عبد الإله ، لأتسلم الجائزة .

عدت إلى البيت لأخبر والديّ وأخوتي بهذه النتيجة التي لم أكن أتوقعها ، فأثنى والدي عليّ ومنحتني والدتي بركتها وتمنياتها الطيبة .

في اليوم التالي وفي حفلة التخرج التي جرت في حديقة قاعة الملك فيصل في باب المعظم ، تسلمت المداليات من الوصي على العرش مع شهادتين . وفي اليوم التالي ناولني سكرتير الكلية عشرة دنانير هي جائزة بنك إيران وأنفقت نصف المبلغ في حفلة أنس وعشاء أقمتها لأصدقائي المقربين .

الصف الخامس

ها أنا قد أصبحت من الطلبة المتميزين في الكلية وقد خط اسمي على أكثر من لوحة من اللوحات الخشبية المعلقة في ممرات الكلية . وعما قريب سوف أتخرج طبيباً ، فهل أقدم نفسي إلى من لا يعرفني بـ دكتور سالم؟ ترددت كثيراً ولم أفعل ذلك سوى مرة واحدة عندما سألني بائع الأحذية في شارع الرشيد عن اسمي وعنواني . ولما تركت المخزن خجلت وآليت على نفسي أن لا أكرر ما فعلت حتى أتسلم الشهادة . فقد لا يصدقني البعض ، خاصة وأن مظهري ووجهي الطفولي لم يكن يوحي بأني «حكيم» و«دكتور» ، وكنت في العشرين من العمر ولست في أواسطه كما يبدو الطبيب المتخرج حديثاً عادة .

مهما يكن ، أنا الآن في الصف الخامس ومن شيوخ طلبة الكلية . والدراسة في هذا الصف سهلة ومريحة وموادها فرعية تنتهي بامتحانات فصلية ولا يترتب على عدم النجاح فيها إعادة السنة الدراسية . ولدي متسع من الوقت للدراسة والمذاكرة قبل التقدم للامتحانات النهائية في السنة القادمة .

مع هذا كان حضورنا الدروس النظرية منتظماً . ففي موضوع الأمراض النفسية كان الدكتور جاك عبودي مدرسا ذا مستوى علمي رفيع ، تنم محاضراته عن خبرة واسعة واطلاع على التطورات الحديثة في الطب العام والأمراض العصبية والعقلية مع ثقافة عريضة ليس بالطب فحسب ، بل في الآداب وشتى العلوم أيضاً . وفي تحليل الأمراض النفسية كان الدكتور جاك ينحو نحو مدرسة العالم «يونغ» ، على عكس الأستاذ السابق للأمراض العقلية في كليتنا ، الدكتور هانز هوف ، الذي كان من المدرسة الفرويدية في التحليل النفسي .

وفي موضوع الأذن والأنف والحنجرة ، أسبغ الدكتور قاسم البزركان على محاضراته مظاهر الجد أكثر من اللزوم ، وإن لم تكن تخلو من نكتة هنا أو طرفة هناك . وكان يبدو متشددا ويراقب الطلبة ويحب أن يتعرف عليهم فرداً فرداً .

وكان الأستاذ فتح الله عقراوي يحاضرنا في القاعة رقم (1) ويشرح لنا الأمراض الزهرية والتناسلية . وكانت له خبرة واسعة في مرض السفلس وداء البجل (أو السفلس القديم الذي ينتقل دون ملامسة جنسية وكان منتشرا في العراق) ، وكتب عنه مقالات عديدة في الدوريات العالمية .

ومثل باقي الأساتذة العراقيين كان الدكتور عبد الله قصير يملي علينا محاضراته في طب الأطفال . وقد كرس ساعات عديدة لتدريسنا تغذية الرضّع وكيفية استعمال الحليب المجفف والحليب الطري .

أما محاضرات الأستاذ جلال العزاوي في أمراض العيون فكانت بمستوى علمي ضعيف ويلقيها بلغة هي مزيج من العربية والإنجليزية والتركية وتتخللها النكات والقصص والأحاديث الجانبية والذكريات .

دروس الأستاذ جوبانيان في الأمراض الجلدية كانت ذات فائدة محدودة للغاية بسبب عدم إجادته اللغتين العربية والإنجليزية وإلقائه السريع ولهجته غير المفهومة .

ومحاضرات الأمراض البولية التي ألقاها علينا الدكتور علي البير ، كانت هي الأخرى بمستوى دون المتوسط إذا ما قورنت بمحاضرات الجراحة العامة التي تلقيناها من أستاذنا بمادة الجراحة في السنة المنصرمة ، الميجر دوغلاس ، الذي غادر العراق في الصيف الفائت .

وأود أخيراً أن أذكر أننا لم نعر اهتماماً لتلك المحاضرات التي ألقاها علينا الدكتور يعقوب وذّن في طب الأسنان .

وزعت العمادة طلاب صفنا على مجموعات صغيرة للتدريب السريري في العيادات الخارجية لمختلف فروع الطب والجراحة . وترك لنا خيار تكوينها ، فكانت مجموعتي مكونة مني ومن خالد القصاب ومصطفى إبراهيم أدهم وجورج أوسي وتامي نعوم صخريا وجميل رؤوف حداد وعبد السلام شعيا . وكنا متجانسين في المشارب والأذواق ولكن بمستوى علمي متفاوت .

وجدنا فائدة ومتعة بالتدريب في شعبة أمراض الأذن والأنف والحنجرة بإشراف الدكتور قاسم البزركان وفي شعبة الأمراض الزهرية بإشراف الدكتور فتح الله عقراوي ، فكل منهما كان مهتماً بطلبته ممتعاً في تدريسه . وفي الشعبة الأخيرة كان المضمد «كامل» يدربنا على إجراء حقن المرضى بالعضل والوريد .

وفي مستشفى الحميات تدربنا تحت إشراف الدكتور ألبير حكيم والدكتور حسين علي مبارك ولكن العناية بالمرضى في ذلك المستشفى كانت دون الحد المطلوب مما أثار استياءنا وألمنا .

وتجلت خيبة الأمل في التدريس السريري عندما داومنا في عيادة أمراض العيون بإشراف الدكتور أحمد سهيل ، الذي كان متعالياً على المرضى وأبعد الناس عن التواضع .

أما التدريب العملي في قسم الأمراض العقلية فقد كان كارثة . كان منظر المرضى المصابين بالأمراض العقلية والمحشورين في مستشفى المجانين ، الواقع في خان كولبنكيان والممتد من باب المعظم حتى مدخل كلية الصيدلة ، وهم يرتدون الأسمال البالية ويغطون أنفسهم بأكياس من «كواني الجنفاص» يثير الشفقة والحزن فينا . وقد قمنا بجولة اطلاعية واحدة بحماية حراس أشداء ، وما عداها كان دوامنا يقتصر على حضور جلسات المعالجة بالصدمة الكهربائية لمرضى المستشفى والعيادة الخارجية والتي كانت تجرى دون تخدير سابق .

لتلك الأسباب ولقلة الفائدة من التدريب السريري ، أخذنا ننقطع عن الدوام في العيادات الخارجية أو نداوم فيها لفترات قصيرة . فحالما يصرفنا الأستاذ نترك المستشفى ونتوجه إلى دكان بائع طرشي ، هو عبارة عن كهف صغير مظلم في سوق الأقمشة قريب من الجامعة المستنصرية العباسية ولصاحبه «أحمد» المشهور بصنع المخللات والمقبلات العراقية التي يخلطها حسب الطلب ، قبل أن نعود إلى الكلية ونستأنف حضور المحاضرات النظرية .

وأذكر أن تعليمات العمادة أوجبت الإقامة في شعبة الأمراض النسائية بعد الدوام . وهناك قضينا أسبوعين مقيمين في دار الأطباء . وعند حصول حالة ولادة كانت الممرضة المسؤولة تقوم باستدعائنا تلفونيا فنخف لمشاركة الأطباء والممرضات في عملية التوليد . وقد استمتعت بتلك الإقامة مع زميلي سليم جميل دلالي وأتيحت لي الفرصة بمساعدة سيدتين من الحوامل في ولادة طبيعية تمتا بإشراف الممرضة فكتوريا .

كنت على العموم خلال هذه السنة في وضع نفسي مريح لولا حصول حادث لي في نهاية السنة عكّر مزاجي . فقد جرت عادة الأستاذ فتح الله عقراوي ، أستاذ الأمراض الجلدية والزهرية ، أن يجري لطلابه امتحاناً سريرياً في نهاية السنة إضافة إلى الامتحان التحريري المقرر . وعندما تقدمت للامتحان طلب مني فحص وتشخيص مريض كان يشكو من «الذئبة» Lupus Vulgaris . وكان جوابي صحيحاً . ثم طلب مني فحص المريض الثاني وكان مصاباً بالايكزيما وكان راضيا عن إجابتي . وقرر أن أفحص مريضاً ثالثاً ، بينما جرت العادة أن يكتفي بمريضين . وبعد فحصه ملّياً قلت له أنه ربما يكون «الهربس الصناري H. Zoster» . وهنا طلب مني عدم مغادرة غرفته وأن أتنحى جانباً . ونادى على زميلي جميل رؤوف حداد وطلب منه فحص المريض الأخير . وبينما انشغل الأستاذ بمحادثة تلفونية طارئة ، راح جميل حداد يسألني بإلحاح وبصوت خافت عن تشخيص الحالة . ترددت بالإجابة عليه إلا أنني قلت له بعد أن عاد يطالبني مجدداً وبهمس أنه ربما يكون «هربس صناري» . في تلك اللحظة التفت الأستاذ إلينا وسمع همسي فاعتبر ذلك محاولة غش وصرفنا من لدنه قائلاً إننا حاولنا الغش وإننا راسبون في الامتحان .

خرجت من غرفة الأستاذ يائسا لغباوتي وبقيت معذب الضمير . وفي المساء توجهت إلى عيادته الخاصة لأعتذر له ، وقد أنّبني وقال لي أنه نحّاني جانباً بعد أن قرر إعطائي درجة كاملة وجائزة الدرس إذا ما نجحت في تشخيص مريض رابع ولكنه ، وبعد محاولة مساعدة زميلي ، قرر أن يعطيني درجة النجاح الأدنى وهي 50٪ . وهنا تركت عيادته وأنا ألعن تلك الساعة التي كلمت فيها زميلي ، وآليت على نفسي أن لا أكرر ذلك مرة أخرى . وقد حرمني هذا العمل الطائش من جائزة الأستاذ وجائزة الطالب المتميز (الأول) في الصف الخامس . وفاز بها بدلاً مني زميلي صلاح تحسين علي .

وقبل أن أختم حوادث هذه السنة ، فإني أذكر أن وفداً طلابياً من كلية طب دمشق قدم إلى بغداد في خريف عام 1944 ، بعد أن نالت الدولة الشقيقة سوريا استقلالها ، لتوثيق أواصر الصداقة بين البلدين العربيين وزار الكلية للتعارف ، فاحتفينا بزملائنا السوريين وطفنا بهم في مرافق الكلية وأطلعناهم على منهج دراستنا باعتبارنا من قدامى الطلاب في الكلية ، وأخذنا الصور التذكارية على مدخل بناية الكلية وتصادقت مع عدد منهم ولا أزال احتفظ بمراسلاتي مع الزملاء أكرم العنبري ومأمون الجلاد بعد عودتهما إلى سوريا ثم انقطعت أخبارهما عني .

كما أذكر أن فريقنا في لعبة كرة الطائرة ، والمكوّن من رشيد الغبان وفخري الحكيم وخالد القصاب وعزيز محمود شكري وحسين المشاط وسالم الدملوجي ، فاز في هذه السنة في سباق التصفيات بين صفوف الكلية على فريق الصف السادس ، وكان من أبرز لاعبيه علي غالب ياسين وفاضل يوسف كمال . وجرى السباق على ملعب الكلية المجاور للمطعم برعاية زوجة العميد مسز سندرسن (التي وزعت علينا المداليات الفضية) ، وتحكيم السيد صادق علي «أبو غاندي» .

الصف السادس (أو سنة «ستاج») ستاجير أو طبيب تحت التمرين

وهكذا ، وبدون امتحانات نهائية ولا عطلة صيفية ، انتقلنا إلى المرحلة الأخيرة من الدراسة في الكلية الطبية التي تدوم سنة واحدة للتدريب السريري والعملي في أقسام الطب والجراحة المختلفة موزعة بشكل يعطي كلاً من التدريب في الطب الباطني وفي الجراحة العامة فترة ثلاثة أشهر وللأمراض النسائية والتوليد فترة شهرين ، وشهراً واحداً لكل من الدروس الفرعية وهي طب الأطفال والطب العدلي والإقامة في مستشفى الحميات(العزل) وأسبوعين لكل من جراحة المسالك البولية والأشعة . وأضيف إلى التدريب العملي عدد محدود من المحاضرات النظرية تلقى علينا في موضوع الأمراض العصبية من قبل الأستاذ هاشم الوتري ، إضافة إلى أخرى في آداب الطب والسلوك المهني من قبل الدكتور إبراهيم عاكف الآلوسي والأشعة من قبل الدكتور إحسان القيماقجي وجراحة العمليات Operative Surgery من قبل الدكتور نجيب اليعقوبي .

كانت مجاميع الطلاب في هذه السنة صغيرة العدد . وضمت مجموعتي ،

بالإضافة إلى شخصي ، كلاً من خالد القصاب ومصطفى إبراهيم أدهم . واتفقنا في البداية أن نبرمج الدراسة بمراجعة المحاضرات وقراءة الكتب المقررة بصورة منهجية ، وأن نذاكر سوية في أوقات الفراغ في الصباح ، وفي دار أحدنا ، بالتعاقب ، في الأماسي ، وأن نكمل المناهج كافة قبل موعد الامتحان النهائي بثلاثة أشهر ، ونكرس باقي الوقت للإعادة والمراجعة النهائية .

وأذكر أننا تقيّدنا إلى حد كبير بما اتفقنا عليه ، لكن ذلك لم يعقنا عن ترتيب لقاءات صباحية مع زملائنا جورج أوسي وتامي نعوم صخريّا وزميلتنا الجديدة كريستين رسام في مكتب صديقنا غانم الطويل بقسم الصحة العامة بمبنى الكلية ، ولا مع أصدقائنا الآخرين في نهاية الأسبوع ومنهم فائق حسن ، أستاذ الرسم في معهد الفنون الجميلة ، ومسيو جميل سعيد (الفرنسي الجنسية والمولود في الجزائر) ، أستاذ الموسيقى في المعهد ، وآرام بابوخيان وسامي الشيخ قاسم ونوري مصطفى بهجت وقتيبة الشيخ نوري .

كان استهلال تدريبنا السريري في معهد الطب العدلي ، وكنا نقضي معظم ساعات الدوام في غرفة جانبية أعدت للأطباء المتمرنين نقرأ في كتاب كونيبير Conybiere للطب الباطني وهو كتاب أوصى به أستاذنا الدكتور هاشم الوتري ، الذي كانت له معرفة بالمؤلف . وهو أستاذ الطب في مستشفى كايز Guys في لندن وسبق له العمل في العراق في أوائل العشرينات طبيبا في الجيش البريطاني المحتل .

كنا نحضر مع الدكتور أحمد عزت القيسي عرض الوقعات الطبية العدلية ونرافق الدكتور وصفي محمد علي الذي يشرح لنا النماذج الطبية العدلية في متحف المديرية ، ولكننا خلدنا في معظم الوقت إلى المراجعة والمذاكرة في غرفتنا ، وإن كان الدكتور صبحي منيب ، الطبيب في المعهد يتطفل علينا بين الحين والحين مبددا وقتنا بقصص وأحاديث جانبية .

في نهاية الشهر توجهنا إلى محاسب العمادة السيد يوسف بزوعي في مقره ببناية إدارة المستشفى الملكي . وبعد أن تأكد من وجود أسمائنا في قائمة مستخدمي العمادة ، طلب منا التوقيع على استمارة الرواتب وناول كلاً منا اثني عشر ديناراً من فئة الدينار الواحد . عدّها مرتين ، ولاحظنا أن عضلات وجهه تتقلص بصورة غير إرادية كلما ناول أحدنا الدنانير . وشخصّنا حالته ، Spot Diagnosis ، بكونها «عرة» Tic .

كانت تلك الدنانير أول راتب نتقاضاه من الدولة نظير أتعابنا! ، وكانت منحة تصرف لطلبة الصف السادس منذ أن مددّت الدراسة في الكلية إلى ست سنوات بعد أن كانت خمس سنوات . والمبلغ المذكور يعادل نصف راتب الطبيب المتخرج حديثاً .

أقمنا وليمة عشاء احتفالاً بالمناسبة ودعونا إليها أصدقاءنا من خارج الوسط الطبي . كما أعطيت نصف الراتب إكرامية إلى مربيتي في الطفولة «سارة» عملاً بالتقليد المتبع يوم ذاك . وبعد أيام قليلة وزعت الحكومة علينا قطع أقمشة قطنية إحداها ذات لون أزرق تصلح لعمل قميص وأخرى مقلمة تكفي لعمل منامة «بيجامة» ، وكانت بأسعار مدعومة . وأذكر أن الموظف المسؤول عن التوزيع كان السيد فكتور ناصر ، خريج كلية الحقوق ، والمعيّن حديثاً على ملاك إدارة المستشفى الملكي ، وهو الذي سوف ينقل فيما بعد ليشغل وظيفة سكرتير العميد ومسجّل محاضر مجلس الأساتذة ويبقى في منصبه أكثر من ثلاثة عقود من الزمان ، كان فيها موضع ثقة واحترام كافة منتسبي الكلية من أساتذة وإداريين وطلاب .

انتقلنا في الشهر التالي ، آب 1945 ، الى الردهة الرابعة في المستشفى الملكي الخاصة للتدريب في موضوع الجراحة البولية تحت إشراف الدكتور علي البير والدكتور عبد العزيز شنشل . وكان معظم المرضى الراقدين في الردهة مصابين إما بحصاة المثانة أو تضخم البروستات ، وهم من الطبقات الفقيرة والريفية . وكانت تكثر بينهم اختلاطات مرض البلهارزيا .

وللمرة الأولى دعانا الدكتور علي البير لحضور العمليات الجراحية ، فغسلنا أيدينا بالفرشاة وارتدينا صدرية العمليات البيضاء والأقنعة وساعدناه ببعض العمليات التي أجراها على المرضى . أما في الردهة فكنا نرافق الدكتور عبد العزيز شنشل في زيارته اليومية للمرضى التي لم تكن تستغرق طويلاً . وعلى ذلك كان لنا متسع من الوقت لمراجعة كتاب Illingworth في الجراحة العامة واستعادة قراءة المحاضرات القيّمة التي ألقاها علينا الميجر دوغلاس .

في هذا الشهر وبتاريخ السادس من آب 1945 ، صعقنا بحصول أمر يمكن أن نسميه لحظة حاسمة بل هائلة في تاريخ الإنسانية . فقد تناقلت محطات الإذاعة في الصباح الباكر خبر إلقاء الأمريكان قنبلة ذرية على مدينة هيروشيما اليابانية . وجاءت الأخبار تترى عن مصرع عشرات الألوف من ضحايا الانفجار المروع ، إضافة

إلى تدمير المدينة وضواحيها تدميراً كاملاً بشكل لم يسبق له مثيل في التاريخ. ورحت وزملائي نستعرض ونستعيد ما كان يقوله الأستاذ هوكنز من أن العلماء لو تمكنوا من تفجير الذرة فسوف ينتج من ذلك طاقة حرارية وإشعاعية هائلة، وإن لم يسيطر عليها فربما يؤدي إلى نهاية الحضارة والعالم. وقد شعرنا بالغضب العارم من هذا الأمر المريع. قدمت اليابان طلباً لوقف القتال والاستسلام إلى أمريكا، إلا أننا فوجئنا بعد ثلاثة أيام بنبأ إلقاء قنبلة ثانية على مدينة ناغازاكي. ويومها طلبت حكومة اليابان ثانية وقف القتال و إنهاء حالة الحرب بينها وبين دول الحلفاء.

أمضينا الأشهر الثلاثة التالية في ردهات الجراحة 17 للرجال و18 للنساء التي كان يشرف عليها الدكتور سلمان فائق.

والدكتور سلمان فائق، وإن كان جراحاً بارعاً ويعتبر من أبرز الجراحين العراقيين، ويتحلى بسلوك طبي رزين ويعامل المرضى وأهاليهم بكل لطف واحترام، إلا أنه لم يقم معنا بما كنا نرجوه منه من تدريس وشرح ومناقشة كما كان يفعل أساتذة الجراحة الأجانب مثل الميجر روجرز والكولونيل باربر. بل أني أتذكر إنه لم يرافقنا في الدورة على المرضى طيلة فترة تدريبنا إلا مرة واحدة فقط. على أنه كان يحضر إلى مكتبه في الردهة صباحا ويستدعينا نحن الثلاثة، خالد ومصطفى وأنا، لدرج أسماء المرضى لعمليات اليوم التالي، ثم نحضر صالة العمليات الكبرى ونقف بجواره لمشاهدته يعمل ببراعة متناهية، تساعده رئيسة الممرضات «نزهت» ويقضي الوقت برواية الملح والنكات.

وفي الردهتين المذكورتين كان كل من الدكتور حسن الحسني والدكتور موسى النقاش يقومان بزيارة المرضى مرتين في الأسبوع لكل منهما. والدكتور الحسني من خريجي الكلية الطبية الدورة الثانية، عمل جراحاً في المستشفيات العسكرية وإدارياً في مديرية الصحة العامة. ولأنه انقطع عن الوسط الأكاديمي لفترة طويلة، فإنه لم يكن يتردد في مشاركتنا بالدراسة. وكان يراجع معنا العلوم الأساسية وكتب الجراحة العامة. وكان دقيقاً في ملاحظاته واستنتاجاته وفي أسلوب إجراء العمليات الكبرى كذلك.

أما الدكتور موسى النقاش، الذي كان جاداً في تنفيذ الواجبات، فكان حديث العهد بالتخرج من الكلية ويروم التخصص بالجراحة العامة. وسافر فيما بعد إلى المملكة المتحدة واجتاز الامتحانات المطلوبة في كلية الجراحين الملكية بلندن ونال

شهادة الزمالة فيها ثم عاد إلى العراق ليعمل جراحاً اختصاصياً ثم أستاذاً للتشريح في كلية الطب العراقية ببغداد .

وخلال تواجدنا في قسم الجراحة كنا نحرص على حضور الدورات اليومية الكبرى في ردهتي 12 و13 التي يقوم بها الأستاذ روجرز ، وكان مدرسا ممتازاً يحب التدريس ويشجع الطلاب ويرعاهم . وكانت زياراته للمرضى تستقطب الطلاب من كافة الأقسام الأخرى ويربو عدد الحاضرين على ثلاثين طالباً تزدحم الردهة بهم . وكان الدكتور خالد ناجي ، الذي تخرج في السنة المنصرمة أحد أبرز الأطباء المقيمين من مساعديه . وأكرر هنا ما كتبته سابقاً أن الأساتذة الكبار ، الميجر دوغلاس والميجر روجرز والكولونيل باربر ، كان لهم الفضل الأكبر في إدخال أساليب الجراحة الحديثة في العراق وفي خلق جيل محلي ناشط ومتميز من الجراحين .

مستشفى الحميات - دراسة في حقائق الحياة

إن خيبة الأمل من العمل والتدريب المرجو في ردهتي الجراحة 17 و18 كان له أبعد الأثر في عدم اختياري الجراحة للتخصص بعد التخرج . وتمنيت يوم ذاك أن أجد التدريب في الردهات الباطنية أكثر فائدة ومتعة مما هو الحال في الجراحة .

انتقلت مجموعتنا في الأول من شهر ديسمبر (كانون الأول) 1945 للإقامة في مستشفى الحميات (العزل) في الكرخ . قدمنا أنفسنا إلى مدير المستشفى الدكتور حسين علي مبارك ، الذي استقبلنا خير استقبال ودار بنا هو ومرافقه في ردهات المستشفى للتعرف على الأطباء والعاملين في الأقسام المختلفة ، وقدمنا إلى مساعده الأقدم الدكتور أشرف محمود الذي تقرر أن نتدرب ونعمل بإشرافه .

الدكتور أشرف محمود من خريجي الدورة الخامسة في كلية الطب العراقية ، وكان وسيماً أنيق الملبس ومهذب الحديث ويحسن التصرف مع المرضى وذويهم . وكان خير مرشد لنا للتدريب في المستشفى ، حيث أنه يبدأ الدورة على كافة الردهات التي يشرف عليها صباحاً ويطلب منا قراءة الملاحظات التي دوّناها عنهم وكذلك عن المرضى الداخلين إلى المستشفى بعد أوقات الدوام الرسمي . وكان يقرأ الملاحظات في دفتر الخفارة للنهار السابق ويناقشنا في التشخيص والعلاج . وهو الذي دربنا على عمليات بزل النخاع الشوكي والسائل البلوري من الجوف الصدري وزرق الأدوية في الوريد أو النخاع الشوكي .

وبعد كل دورة صباحية على المرضى كان يدعونا إلى مكتبه لبعض الوقت للتحدث في أمور شتى ، فوجدناه رجلاً مثقفاً ذوّاقة للأدب والشعر والموسيقى الكلاسيكية .

كان العمل في المستشفى ومراقبة المرضى عن كثب نقطة تحول في حياتي . فقد كانت مواجهة الواقع المر لأوضاع المرضى البؤساء المصابين بالسل الرئوي المتقدم ورداءة العناية الصحية والتمريض بعد أوقات الدوام النهاري والغذاء الرديء الذي يقدم لهم قد أصابني بصدمة فتحت مداركي على واقع الحياة وآثار التخلف الاجتماعي بسبب الفقر والجهل .

كانت ردهات مرضى السل معزولة عن باقي الردهات ، وكنا نرى المرضى جالسين القرفصاء أو راقدين في أسرتهم خلال ساعات الدوام الرسمي . بجانب كل منهم «مبصقة» حديدية مدوّرة ذات غطاء معدني . هذا يسعل وذاك يبصق دماً وآخر في نزعه الأخير . كنا ندور أنا وزملائي خالد ومصطفى عليهم صباحا ومساءً نفحص صدورهم ونجد فيها متحفاً من العلامات السريرية التي تعلمناها في الردهة التاسعة بإشراف الدكتور عادل الدوغرامجي ، ونستمع إلى شكاواهم عن نقص الأدوية وسوء التغذية وتردي حالتهم الصحية .

كان علاج السل يوم ذاك يقتصر على توفير الراحة الجسدية التامة وتناول المقويات والفيتامينات وإجراء عملية الاسترواح الصدري في حالات معينة .

كان هذا حال المرضى الفقراء ، أما من كان موسراً أو كانت لديه حظوة لدى الحكومة فيجري تسفيره للعلاج في مصحات لبنان لاعتقادهم أن الجو المعتدل والهواء النقي في الأماكن العالية والجبال يساعد على التغلب على مرض التدرن الرئوي . وفي لبنان كان الأطباء يجرون عمليات سحق عصب الحجاب الحاجز وقص الأضلاع واستئصال الفص الرئوي أو الرئة المصابة . وقد وجدت في سنوات لاحقة بعد تخرجي أن عدداً لا يستهان به من المرضى الذين عولجوا في مصحات لبنان أصبح ، بعد شفائه مدمناً على المورفين أو البثدين ، ذلك لأن زرق إبر المورفين او البثدين بعد العمليات الجراحية كان ميسوراً وبمتناول الممرضين بل والمرضى أنفسهم ، يزرق بعضهم الآخر متى ما رغب بذلك .

وطالما كنا ، أثناء إقامتنا في مستشفى العزل ، نستدعى في ساعات الليل البهيم من قبل الممرضات لمراقبة محتضر ينازع للبقاء على قيد الحياة ويتوقف التنفس

وضربات القلب ونملأ استمارة شهادة الوفاة بالمعلومات المطلوبة ويتناولها ذووه بينما تتعالى صرخات النحيب والبكاء في باحة المستشفى .

وهكذا تعرضنا في مستشفى «العزل» لجرعة مركزة من حقائق الحياة وآلام البشر ومعاناة الأطباء أيضاً . ولكنني وجدت العمل يوم ذاك مفيداً ، فلم تكن نهاية كل مريض شاهدناه وفحصناه وعالجناه كما أسلفت ، بل إن شعوري بنجاح مسعاي لإنقاذ طفل نقل إلى المستشفى بين الحياة والموت لإصابته بالخناق «الدفتريا» وشفاؤه التام ومغادرته المستشفى سليماً بين الهلاهل وسعادة والديه ، كانت تعوّض حزني لمشاهد الاحتضار . وهي بنفس الوقت هيأتني لأعرف معنى المسؤولية ولأشعر أن من واجبي أن أفحص بعناية ثم أشخص وأعالج وأواجه قلق المريض وذويه برباطة جأش . ولن أنسى ذلك الطفل ، واسمه مقداد عبد الله وعمره خمس سنوات ، الذي نقل إلى المستشفى ليلاً مصاباً بحشرجة التنفس وضيق الصدْر وارتفاع الحرارة منذ ساعات قليلة ، فرحت أستذكر دروس الطب والجراحة ومحاضرات الأذن والأنف والحنجرة علّني أتوصل إلى التشخيص الصحيح لإنقاذه من الموت اختناقاً . ولما رأيت في بلعومه وعلى اللوزتين غشاءً أبيض اللون داكناً يكاد يسد مجرى التنفس ، أخذت مسحة من ذلك الغشاء . وبينما كان زميلي خالد القصاب يفحص الشريحة مجهرياً بعد صبغها ، زرقته بالمصل المضاد للخناق عن طريق العضلة إضافة إلى حقن البنسلين كذلك ، ودعوت الله في قلبي أن يشفْى مقداد فاستجاب الله لدعائي ، إذ بدت عليه علامات التحسن بعد أيام وغادر المستشفى بعد أن استعاد عافيته وصحته .

وكان في المستشفى تحت إشرافي طفل آخر يهذي ويتصبب عرقاً ، وحرارته تتجاوز 42 درجة مئوية ، مصاب بالحمى التيفوئيدية يحيط به أهلوه وهم قلقون على مصيره ، وثالث أدخل المستشفى وهو فاقد الشعور وفي سبات عميق لإصابته بالتهاب السحايا الشوكية الدماغية وقد قضى بعد ساعات من وصوله ، ورابع كان يشكو من إسهال شديد وهو يرتجف ويرتعش وحرارته ترتفع باطراد إثر علاجه بالسوائل الوريدية . وأسأل الممرضة المسؤولة فتخبرني أن الرجفة والارتعاش وارتفاع الحرارة أمر مألوف بعد إعطاء السوائل بالوريد لوجود شوائب في تلك المحاليل المحضّرة محلياً .

كان ذلك في زمن لم تكن المضادات الحيوية في متناولنا ، بل كان البنسلين (ويعطى كل ثلاث ساعات عند توفره) وعقارات السلفونامايد هي كل ما لدينا

لعلاجات الأمراض الجرثومية .

وفي الجناح الخاص بالمستشفى ، تعرفنا على صبي يبلغ من العمر اثني عشر عاماً واسمه سامي . كان يشكو من حمى عالية دون انقطاع منذ ثلاثة أسابيع . قام الدكتور أشرف محمود بإجراء الفحص الطبي عليه وأجرى له التحاليل المختبرية . وكان تشخيصه المبدئي حالة حمى تيفوئيدية . وبالرغم من حقن البنسلين وحبوب السلفونامايد وإعطائه المحاليل بطريق الوريد ، ساءت حالته الصحية ثم راح في شبه سبات ، وظهرت عليه علامات التهاب السحايا الشوكية الدماغية . فأجرينا له سحب السائل الشوكي الذي أشار إلى وجود التهاب في السحايا ، ثم وجدنا في أشعة صدره علامات مرضية منتشرة . وبالرغم من العلاجات المتوفرة دخل الطفل في غيبوبة طويلة لم يفق منها . وبين بكاء والديه وإخوانه الأطفال ، أسلم الروح إلى بارئها . وخرجت أنا من غرفته بعد أن ذرفت أول دمعة على مريض انتصر فيه الموت على الطب .

ذهبت وخالد ومصطفى إلى مجلس العزاء الذي أقامه والدا سامي في دارهم في كرادة مريم ، وقدمنا تعازينا إلى العائلة المنكوبة . وكان ذلك بداية تعارف مع الوالد والأقارب ، وقد أشرفت في سنوات لاحقة على علاج والد سامي حين ظهرت عنده أعراض مرض السكر ثم أصيب بجلطة قلبية ثم جلطة دماغية مع فالج نصفي أودت بحياته .

وفي جناح التدرن (الخاص) فوجئت بوجود شاب اسمه أدور ، كان زميلي في المدرسة الغربية المتوسطة ، كان راقداً فيه منذ فترة طويلة . في المدرسة ، اشتهر أدور ، وكان يكبرني بعدة سنوات ، بملابسه الأنيقة وهوايته للتمثيل والفنون . وقد شارك في الفعاليات الصفية المدرسية ، لكنه لم يكن طالبا مجداً . كان أدور مصاباً بالتدرن الرئوي المزدوج المتكهف . وأخبرنا أنه ترك الدراسة بعد المرحلة المتوسطة ، بعد أن ورث بعض المال ، وسافر إلى القاهرة والتحق بإحدى الفرق المسرحية المعروفة . وهناك أدمن تعاطي الكحول والمخدرات وأصيب بالتدرن الرئوي فانتقل للعلاج في مصحات لبنان وأجريت له عمليات متعددة في الرئتين . وأدمن تعاطي المورفين والبثدين . ولما نفذت موارده المالية عاد إلى العراق ليروي لنا تلك القصة الإنسانية التراجيدية ثم ليلفظ أنفاسه الأخيرة في ليلة رأس السنة الميلادية التي يستقبلها الناس بالاحتفال والمرح ، وكانت تلك آخر ليلة قضيناها في المستشفى المذكور .

هكذا كانت تجربتي الأولى مع الحياة والمرض والموت . في ذلك الوسط الواقعي تعلمت المبادئ الأولى في ممارسة مهنة الطب ، وربما هناك أيضاً حصلت إصابتي بعدوى التدرن الذي ظهر بعد 15 شهراً على هيئة انصباب بلوري كما سيأتي ذكره فيما بعد .

الردهة التاسعة ثانية

في الأول من يناير (كانون الثاني) 1946 ، بدأنا التدريب السريري في الردهة التاسعة للرجال وكان يشرف عليها الأستاذ ستيسي ويعاونه فيها كل من الدكتور مهدي فوزي والدكتور عادل الدوغرامه جي . وقد شعرت بالراحة ، وكأنني عدت إلى بيتي بعد غياب قصير ، لعودتي إلى الردهة التي وفقت في الدراسة والتدريب فيها في السنة الثالثة .

رحب بنا الدكتور عادل كالمعتاد وكان لطيفاً ودوداً . ووزعنا على الأسرة في الردهة فكان لكل منا ، نحن الأطباء المتمرنين الثلاثة ، أحد عشر مريضاً تكون مسؤوليتنا هي أخذ التاريخ المرضي وإجراء الفحص السريري والتحاليل المختبرية اللازمة لهم وتدوينها في الطبلة ، ثم تقديمها إلى الدكتور عادل أولاً في دورته الصباحية ثم إلى الأستاذ ستيسي عندما يقوم بالزيارة الكبرى في الساعة العاشرة ، حيث نستعرض له الحالة المرضية ونتائج الفحص السريري الموجبة والسالبة وتشخيصنا المبدئي (الأولي) ، ثم التحريات الطبية المخبرية التي أجريناها . وكان الأستاذ يشرف على أسلوب إجرائنا الفحص السريري على المريض ثم يقوم هو بالفحص أمامنا للتأكد من وجود أو نفي وجود علامات مرضية معينة . ويبدأ بعدها مناقشتنا بالتشخيص التفريقي ووسائل التشخيص المتممة . ولطالما توجهنا معه إلى المختبر الجانبي للتأكد من فحص مخبري معين أو الإطلاع على شريحة مجهرية . ثم يعود إلى الردهة لمناقشة العلاج المقترح . ويلخص الدكتور عادل في الأخير خلاصة الوقعة في التشخيص والعلاج الذي وصفه للمريض .

انتهت فترة تدريبنا بنهاية شهر مارت(آذار) 1946 ، وغادرنا الردهة التاسعة للالتحاق بمعهد الأشعة للتدريب على التشخيص الشعاعي بمعية الدكتور شوكت محمود وأحياناً قليلة مع الدكتور إحسان القايمقجي . وكان الأستاذ «نورمان Norman» قد تقدم في السن لذا لم يقم بتدريسنا مع أنه كان مديراً لمعهد الأشعة .

كان الأستاذ شوكت محمود من الأطباء المرموقين في اختصاصه وذا سمعة جيدة في التشخيص الشعاعي . لكن مجموعتنا لم تجد فيه الصفات المطلوبة في الأستاذ المعلم ، خاصة بعد أن تدربنا في الوحدة الباطنية الثالثة وكسبنا معرفة بالأساتذة النافعين من غير النافعين . كان الدكتور شوكت يتأخر في الحضور إلى مكتبه مما يضطرنا للانتظار في صالة خارجية . وعند حضوره يقدم له الكاتب مجموعة من الرقوق الشعاعية لدراستها وكتابة التقارير عنها .

إذ ذاك يستدعينا الفراش فندخل ونجلس على الكراسي حول الأستاذ . ويروح هو يملي تقارير الأشعة في آلة دكتافون على أسطوانات شمعية ويلتفت أحياناً ليشرح لنا باقتضاب ودون تفصيل ما وجد في الرقوق الشعاعية . وسرعان ما تنتهي الجلسة التعليمية طالبا منا الانصراف بسبب حضور شخص مهم بالذات ! ولماً تنقض ربع ساعة من الزمان على «تدريسه» إيانا . لهذا السبب وجدنا في هذه الفترة ، التي دامت أسبوعين ، الوقت الكافي لقراءة الكتب الطبية والجراحية والمراجع . وبعد حين انقطعنا عن الدوام في المعهد لعدم حصول الفائدة التي كنا نتوقعها من حضورنا .

وبناءً على قرب موعد الامتحان النهائي وكثرة المراجع التي جمعتها حولي لدرسها ومراجعتها ، فقد أخذ القلق يساورني من عدم تمكني من إنهاء المقرر في كافة المواضيع التي سوف أتقدم بها للامتحان . وتضاءلت قدرتي على التركيز في المذاكرة فقررت مراجعة أستاذنا الدكتور جاك عبودي علّه يرشدني إلى طريقة تعيد لي الطمأنينة والقدرة على التركيز . وعندما أخبرته بشكواي ، ابتسم لي وقال بالحرف الواحد وبلهجته البصرية ، «بابا أنت أول على صفك وتخاف من الامتحان؟ أنت لو ما تدرس همينة تنجح . لا تخاف فإن كثرة القراءة تفقد الثقة بالنفس فأنصحك بالإقلال من مراجعة المحاضرات وسوف أعطيك إجازة لمدة أسبوعين تسافر فيها إلى الموصل إن شئت أو إلى أي مكان آخر وسوف تعود بأحسن حال» ، ثم كتب لي حبوب الفينوباربيتال المهدئة كي تخفف من الأرق الذي استبد بي . وفي ذلك المساء توجهت إلى كركوك ، حيث كانت تقيم شقيقتي مع عائلتها ، بعد أن أخبرت زميلي خالد ومصطفى بأنني مجاز مرضياً لمدة أسبوعين .

وفي كركوك ، لم أطالع أي كتاب في الطب ، بل أمضيت الوقت مع أقاربي أتنزه في ضواحي المدينة وفي الحقول المحيطة بها . وعدت بعدها إلى بغداد مصمماً على اتباع نصيحة الدكتور جاك بعدم الانغماس بالمطالعة والاكتفاء بما اكتسبت من

معلومات وخبرة لابد أن تؤهلني للنجاح وأن أترك فكرة محاولة الإلمام بكل شيء من علوم الطب إلى ما بعد التخرج .

وهكذا أصبحت أقل حرصاً على الاندفاع في المراجعة مع زميلي خالد ومصطفى . وقد ضحكا مني وسخرا من قلقي ، أنا الطالب المتفوق دائماً واتهماني بالإصابة بالمس العقلي . أما أنا فكنت أستمع إليهما أكثر مما أكون المجلّى بالحديث العلمي بينهما وأقضي الوقت بالتدخين متمنياً أن يكون موعد الامتحان في أقرب فرصة ممكنة .

في الشهرين التاليين داومنا في ردهتي التوليد والأمراض النسائية وكنا نرافق الدكتور فؤاد مراد الشيخ في زياراته اليومية للمريضات وأحياناً قليلة مع الدكتور كمال السامرائي . كانت ردهة التوليد مثل خلية النحل تزدحم بالحوامل والولادات . وكنا نراقب الأطباء المقيمين مثل الدكتور سالم الحيدري والدكتورة آمنة صبري مراد والدكتورة سعدية سعيد يحيى والدكتورة فكتوريا مطلوب وهم يعملون بهمة ، يروحون ويجيئون بسرعة بين غرف التوليد الملحقة بالردهة . ولما قرب موعد الامتحان ، كنا نغادر الردهة حال انتهاء الزيارة اليومية ونتوجه إما إلى مطعم الكلية للتداول مع زملائنا الآخرين حول الامتحانات أو إلى مكتب صديقنا غانم الطويل في قسم الصحة العامة ترافقنا زميلتنا كريستين رسام التي سوف تسافر عما قريب إلى بيروت للتقدم إلى الامتحان النهائي في كلية طب اليسوعيين الفرنسية .

الامتحانات النهائية

الأيام الأخيرة التي سبقت الامتحانات النهائية كانت طويلة ومملة وثقيلة . وكنت أذهب في المساء إلى دار خالد القصاب للمذاكرة ثم أعود إلى داري قبيل منتصف الليل .

وفي أوائل شهر مايو(أيار) صدر أمر العمادة بمنع طلاب صفنا من الدوام في ردهات المستشفى الملكي لكي لا نتعرف على المرضى الموجودين في الردهات ونتهيأ للمناقشة عن حالتهم ، فقد كان المفروض أن نلتقي بالمرضى لأول مرة خلال الامتحان .

وأذكر أني وخالد القصاب أقسمنا على ساحل دجلة في كرادة مريم في إحدى تلك الليالي المجهدة أن نتوقف عن الدراسة بعد تخرجنا من الكلية وأن نترك

الاختصاص للآخرين ، غير أننا نسينا ذلك العهد حال تخرجنا وبدأنا الحياة العملية .

ولما حل يوم 20 مايو موعد الامتحان التحريري بالطب الباطني ، دخلنا إلى قاعة السينما الكبرى في الكلية بقلوب وجلة ووزعت علينا الدفاتر فالأسئلة الامتحانية ،، وكان عددها خمسة يتوجب ترك أحدها والإجابة على أربعة منها فقط .

وكان السؤال الأول عن أسباب وباثولوجية وأعراض الحمى التيفوئيدية وعلاجها ، والثاني عن أعراض وعلامات فشل التعويض في أمراض صمامات القلب التاجية والأبهرية وعلاج كل منها . أما السؤال الثالث فكان عن أسباب وأعراض وعلاج مرض توسع القصبات والرابع عن الملاريا واختلاطاتها وعلاجها . أما السؤال الخامس فكان عن مرض تكهف النخاع الشوكي Syringomyelia .

أجبت على الأسئلة الأربعة الأولى وتركت الخامس دون إجابة وانتهيت منها قبل انتهاء الوقت المحدد فأعدت قراءة ما كتبت وخرجت بعدها مرتاحاً مطمئناً إلى حسن الإجابة .

وفي اليوم التالي وكان مخصصاً للامتحان السريري والشفهي في الطب الباطني ، تجمعنا في الصباح الباكر قبالة الردهة السابعة . وكانت العادة أن توزع الحالات الطويلة على الطلاب بالقرعة أو ما يشبه اليانصيب . وذلك بكتابة اسم كل مريض ورقم سريره في ورقة صغيرة تطوى أو تلف وتوضع في صحن يسحب منه الطالب ورقة واحدة تعين له مريض الحالة الطويلة التي سوف يتم امتحانه عليها .

وهنا برز الدكتور ناجي مراد وطلب من كل فرد منا سحب ورقة فكان نصيبي مريض في مقتبل العمر يشكو من انتفاخ في البطن وفقدان الشهية والضعف العام . وبعد الأسئلة المفصلة عن تاريخه المرضي ، أجريت الفحص الطبي فوجدته مصاباً بفقر الدم والحبن وتضخم الطحال . وبعد ساعة من الزمان انتهيت من كتابة ملاحظاتي وقدمتها إلى الممتحن الأستاذ سندرسن وناقشني في التشخيص الأكثر احتمالاً وهو تشمع الكبد ثم في التشخيص التفريقي والعلاج وكان مرتاحاً إلى إجابتي وطريقة فحصي .

وبعد مضي بعض الوقت أدخلنا إلى غرفة فيها عدد من المجاهر (المكروسكوبات) وطلب منا النظر فيها وتشخيص الشرائح المرضية . كان في الشريحة الأولى بويضات ديدان Strangyloidis وفي الثانية بويضات الاسكارس وفي الثالثة مكروب السفلس (تريبانوما باليدوم) وفي الرابعة طفيلي الملاريا . وكانت أجوبتي صحيحة .

استدعينا لفحص حالات قصيرة في الردهة الثانية للنساء ، وكان الأستاذ ستيسي يرافقه الدكتور عادل الدوغرامه جي بانتظارنا . وهنا طلب مني الأستاذ فحص صدر مريضة في مقتبل العمر وجدتها مصابة بانصباب بلوري . ثم وجهني إلى أخرى وكانت تشكو من عدم انتظام ضربات القلب مع وجود نفخات في صمامات القلب دلالة على تضيّق الصمام الإكليلي . وكانت الحالة الثالثة لسيدة مصابة بشلل نصفي في الوجه وطلب الأستاذ مني فحص الأعصاب القحفيّة ثم ناقشني في نوع شلل العصب السابع إن كان مركزياً أم محيطياً . وكان الأستاذ مرتاحا هو الآخر إلى أجوبتي . وعندما رافقني الدكتور عادل عند مغادرتي الردهة ، قال لي بصوت واطئ أن إجابتي كانت جيدة جداً .

وفيما حلت ، بعد الظهر ، ساعة الامتحان الشفهي والمقابلة مع الأساتذة ، استدعيت إلى غرفة الأستاذ هاشم الوتري في الردهة الثامنة ، وكان معه الأستاذ سندرسن والأستاذ ستيسي . بادأني الأستاذ الوتري بالسؤال عن أعراض التسمم بمادة الرصاص وأعقبه الأستاذ سندرسن عن المظاهر العصبية للتسمم بالرصاص ثم باثولوجية مرض انتفاخ الرئة . أما الأستاذ ستيسي فطلب مني شرح الطرق العلاجية لمرض الربو القصبي والحالات الشديدة منه ومقادير الأدوية .

وكنت أجيب علىَ تلك الأسئلة بهدوء متمالكاً لأعصابي دون وجل أو خوف لتأكدي من معرفة الإجابة الصحيحة . وهنا ظهرت على الأساتذة المتحنين علامات الرضى والقبول بالإجابات وانصرفت بعد أن شكرتهم .

تركت المستشفى في ساعة متأخرة من بعد ظهر ذلك اليوم وأنا أشعر أن ثقلاً قد انزاح عن صدري وتمنيت أن تجري الامتحانات اللاحقة على هذا النمط .

جرى الامتحان التحريري في الجراحة العامة يوم 21 حزيران وكانت الأسئلة مقبولة وشاملة وإجاباتي عنها مرضية . ثم تقدمت في اليوم التالي للامتحان السريري العملي والشفهي في الجراحة في الردهة السابعة عشرة التي تدربنا فيها . وكان الأستاذان روجرز وباربر يتناوبان الأسئلة وأنا أجيبهم بدون تلكؤ . ثم قدموا لي حالات قصيرة كانت إحداها لامرأة مصابة بسرطان الثدي والثانية صبياً مصاباً بتضخم الغدد اللمفاوية بسبب مرض هوجكنز والحالة الثالثة لرجل مصاب بأكلة في الوجه (قرحة رودنت) ثم طلبوا مني دراسة رقوق شعاعيّة وتشخيص ما فيها من علامات مرضية .

أما الامتحان الشفهي فكان سهلاً وشعرت فيه أنني في زيارة يومية للمرضى مع الأساتذة الممتحنين وليس في قاعة أخوض فيها أهم امتحان في حياتي الدراسية .

وفي موضوع الأمراض النسائية والتوليد ، الذي جرى يوم 27 حزيران ، كانت الأسئلة التحريرية مفهومة وواضحة . وقيل لنا أن الأستاذ روجرز هو الذي وضعها لغياب أستاذ الأمراض النسائية والتوليد ، على أن الامتحان الشفهي في تلك المادة جرى في اليوم الأخير من الأسبوع .

وبعد أن نودي على اسمي ، أخذني الدكتور فؤاد مراد الشيخ من يدي وهو يبتسم ويشجعني وقدمني إلى الأستاذ روجرز في الردهة (11) . وكان واقفاً بوسط الردهة ، فوجدته منشرحاً لقدومي . وطلب مني فحص بطن سيدة حامل ، قائلاً خلال ذلك ، أن إجاباتي في الجراحة وأمراض النساء كانت جيدة ، الأمر الذي رفع معنوياتي . وبعد أن أكملت الفحص ، سألني عن أسباب وعلاج تسمم الحمل . ويظهر أن إجابتي كانت مرضية بالنسبة له ، حيث أن الدكتور فؤاد ، الذي كان يقف قريباً منا ، كان يهز برأسه مؤيداً أقوالي وهو يبتسم لي . وأخيراً سألني الأستاذ روجرز عن أسباب القذف المبكر لدى الرجال ، ولما قلت أن أسبابه نفسية ضحك وقال لي لك أن تنصرف الآن فإنك من خيرة الطلبة ولا تنس أن تشرب قدحاً من البيرة احتفالا بإجاباتك الصحيحة .

إعلان نتائج الامتحان

في يوم 30 حزيران 1946 ، تجمعنا ، نحن طلاب السنة الأخيرة في كلية الطب ، في فناء الكلية وعلى المدخل نداري قلقنا بالمزاح والسخرية ، بينما كان الأساتذة أعضاء مجلس الكلية يتقاطرون الواحد تلو الآخر إلى غرفة العميد ، الذي دعاهم للاجتماع لمناقشة وتصديق نتائج الامتحان النهائي . وبعد ساعة من الانتظار القاتل ، وأثناء ما كنت واقفاً قرب الباب المؤدية إلى غرفة السكرتير مع زملائي ، خرج ملاحظ المدارس الطبية السيد نعمة صبور وعندما رآني همس في أذني «أهنئك على النجاح وإحرازك الأولية على الصف» . شدهت عند سماعي ذلك الخبر واختلط عندي الفرح مع عدم تصديق ما قاله الرجل ، بل حسبت وللحظات خلت أنني أحلم . وبقيت ساكناً هنيهة كأني لم أسمع شيئاً ، ثم سألته بهدوء وبصوت واطئ هل أنت متأكد من ذلك؟ وأجابني «نعم ، أهنئك أنت طلعت الأول» . أصابني نوع من الذهول

وإحساس بفراغ شديد وأفقت على صوت خالد القصاب الواقف بجواري يهلّل ثم يرفعني بين ذراعيه عالياً ويقول «هلو بيك سالم» ، ثم توالت تهاني زملائي الآخرين وكانت تلك من أسعد لحظات حياتي ، فقد كانت تلك النتيجة ثمرة جهاد وتعب وسهر دام ست سنوات .

عدت إلى البيت لأزف البشرى إلى والديّ ، فهنأني المرحوم الوالد وباركني على تلك النتيجة المشرّفة ، وقبلتني المرحومة الوالدة وبسملت ثم نفخت على رأسي وتوالت التهاني من إخوتي وأعمامي ووصلتني برقيات من أهلي وأقاربي في الموصل .

وزعت عمادة الكلية رقاع الدعوة لحضور حفلة تخرج طلاب دورتنا يوم الأول من تموز 1946 تحت رعاية الأمير زيد بن الحسين ، نائب الوصي على العرش . وتهيأت للحفلة بخياطة بدلة بيضاء اللون من الكتان النمساوي للمناسبة ، أتمها الخياط عزّوري بيوم واحد ، واستعرت الروب الجامعي والقلنسوة من دائرة العميد .

وفي عصر ذلك اليوم ، كان المدعوون قد انتظموا في حديقة الكلية الطبية وقد ازدانت بالمصابيح الكهربائية وجلست الممرضات الخريجات على الكراسي في أطراف الحديقة . أثناء ذلك ، دعا المصوّر المعروف ، جعفر الحسني ، الخريجين الجدد للوقوف على درجات مدخل الكلية لالتقاط صورة تذكارية مع العميد الأستاذ هاشم الوتري ، لتبقى في ذاكرتنا أمداً طويلاً تتويجاً للسنين الطويلة التي أمضيناها في الدراسة وتحصيل العلم في هذه الكلية .

بعد التصوير ، انتظم العميد والأساتذة وهيئة التدريس على الكراسي في منصة بناية نادي الكلية . وتربعنا نحن على الكراسي المخصصة للخريجين خلف كبار المدعوين وعلى رأسهم الأمير زيد بن الحسين ورئيس الوزراء أرشد العمري . وجلس إلى جوارهما السفير البريطاني السيد آرجيبولد كلارك كير Sir Archibald Clark Kerr .

وابتدأ الحفل بعزف السلام الملكي من قبل فرقة موسيقى الجيش فهب الجميع واقفين . ثم افتتح البرنامج بتلاوة آيات من الذكر الحكيم أعقبتها كلمة الأستاذ الدكتور عبد الهادي الباجه جي ، وزير الشؤون الاجتماعية ثم كلمة الأستاذ هاشم الوتري ، عميد الكلية ثم فاصل موسيقي نهض بعده الدكتور عبد الله برصوم ، مدير الصحة العام ليحلّفنا اليمين القانوني (قسم ابقراط) . وما أن انتهى من ذلك ، حتى علا التصفيق من قبل الحضور والهلاهل من قبل السيدات .

بعد ذلك نهض العميد لمناداة أسماء الخريجين ، وكان عددنا اثنين وثلاثين خريجاً . وتقدمنا الواحد تلو الآخر لمصافحة الأمير زيد وتسلم الشهادات .

وبعد الانتهاء ، نادى الأستاذ هاشم الوتري اسمي لتسلم جائزة الملك المعظم وجائزة أمانة العاصمة باعتباري الخريج الأول على الدورة الرابعة عشرة في الكلية الطبية الملكية العراقية . فتقدمت وسلمت على سمو الأمير وصافحني ثانية ، مهنئاً ومتمنياً لي الموفقية والنجاح ، وسلمني شهادتين وكتاباً وشكرته ثم عدت إلى موقعي بين تصفيق الحاضرين .

ثم تبعني زميلي الدكتورعزيز محمود شكري ، الذي حصل على جائزة الأستاذ روجرز للمتفوق في الجراحة ، تلاه زميلي الآخر المرحوم الدكتور صلاح تحسين علي ، الذي حصل على جائزة الأستاذ هاشم الوتري للمتفوق في الطب الباطني ، فالدكتور مصطفى إبراهيم أدهم للمتفوق في الجراحة السريرية ، وأخيراً نودي على زميلتنا الدكتورة ماركريت فتح الله كساب ، التي حصلت على جائزة أمانة العاصمة للمتفوق في الأمراض النسائية والتوليد ، وكان التصفيق يدوي عند مناداة كل من الخريجين المتفوقين .

أعقب ذلك توزيع الجوائز على المتفوقين في الصفوف الأخرى غير المنتهية ، وانفضت الحفلة والكل في فرح وسعادة غامرة .

دعي الخريجون الجدد إلى مقر وزارة الشؤون الاجتماعية يوم 1946/7/3 لتنسيب تعيينهم في المؤسسات الصحية ووزارة الدفاع . وترأس اجتماع اللجنة الخاصة وزير الشؤون الاجتماعية الدكتور عبد الهادي الباجه جي وعضوية أمير اللواء الدكتور فائق شاكر ، مدير الأمور الطبية ، والدكتور عبد الله برصوم ، مدير الصحة العام ، والأستاذ هاشم الوتري عميد الكلية الطبية والدكتور أدور بصمه جي ، رئيس صحة الشرطة . وبعد أن هنأنا الوزير وألقى فينا كلمة لطيفة يحثنا فيها على الخدمة الصادقة ، تقرر الأخذ بمبدأ الانتخاب الشخصي من قبل الأطباء . فعرضت علينا قائمة بالشواغر الموجودة في المؤسسات الصحية في أنحاء القطر لكي نقوم باختيار المحل الذي نريد وذلك حسب تسلسل درجات التخرج .

وكانت نتيجة التعيينات كالآتي :

الأطباء للكلية الطبية

الدكتور سالم فاروق الدملوجي
الدكتور عزيز محمود شكري
الدكتور صلاح تحسين علي
الدكتور محمد ياسين أمين آغا
الدكتور مصطفى إبراهيم أدهم
الدكتور سالم فتحي الصائغ
الدكتور سليم جميل دلالي
الدكتور فكتور زعرور
الدكتور يونس مجيد سعيد
الدكتور حسين ثابت الأورفه لي
الدكتورة ماركريت كساب

الأطباء لمديرية الصحة العامة

الدكتور خالد القصاب (العيادة الخارجية للجراحة بالمستشفى الملكي)
الدكتور حمزة إبراهيم منيب
الدكتور مهدي مرتضى
الدكتور فتاح حاج ناجي

الأطباء للشرطة

الدكتور نعمة جابر فتاح
الدكتور سلمان تاج الدين
الدكتور عبد الله سلمان الخضير

الأطباء للجيش

الدكتور جميل رؤوف حداد

الدكتور عبد الأمير عبد الكريم
الدكتور مئير حاخام ساسون
الدكتور أنيس جميل
الدكتور محمد حسين تاج الدين
الدكتور جيروم أوفي
الدكتور باروخ شالوم
الدكتور صادق مهدي الهلالي

وفي صباح اليوم التالي ، توجهت إلى المستشفى الملكي وقمت بزيارة الدكتور عادل الدوغرامه جي الذي هنأني بالنجاح ، ومقابلة الأستاذ ستيسي الذي حضر بعد حين وأخبرته برغبتي بالعمل مقيماً في الوحدة الباطنية الثالثة التي يرأسها . فرحب بذلك ثم أضاف أن الأستاذ روجرز ، رئيس قسم الجراحة أخبره بأنه سبق أن طلب من العمادة تنسيبي للعملْ في وحدته الجراحية ، فأخبرته أنني أفضل العمل معه في الباطنية ولا أميل إلى الجراحة فوافق على ذلك ووعدني بمفاتحة العميد بذلك الخصوص .

والسبب الذي دعاني لاختيار العمل في الطب الباطني هو أنني وجدت ، من خلال تدريبي السريري ومشاهداتي عن التدريس في مختلف الأقسام السريرية طيلة السنوات الماضية ، أن أفضلها تدريباً وعلماً وجديّة في العمل هي الوحدة الباطنية الثالثة التي ترأسها الأستاذ ستيسي ، وكان من القلائل من أساتذتي الذي يقوم ببحوث طبية وينشر مقالات في المجلات والدوريات الطبية في بريطانيا وأمريكا عن الأمراض الشائعة في العراق . وقد تمنيت أن تتاح لي الفرصة ، إن أنا عملت في وحدته وكسبت ثقته ، أن أساعده في بحوثه ويظهر اسمي معه في ما ينشر وأن أنضم بعدها إلى الهيئة التدريسية في الكلية .

وأني أدرك الآن أن من أهم الأمور التي حسمت اختياري للمسلك الذي أردت أن أكرس حياتي العملية له كان شخصية الأستاذ ستيسي الرصينة والتزامه بالمستوى العلمي والخلقي الرفيع للمهنة . ليت الأساتذة يدركون مدى تأثر الطلبة ، وهم في مرحلة حسّاسة من عمرهم ، بالانطباع المتكون لديهم عن أخلاقيات الأساتذة وتصرفاتهم وسلوكهم بصورة عامة .

لقد كنت أعلم بأن العمل في الوحدة الجراحية مع الأستاذ الميجر روجرز سوف يكون مفيداً جداً ، إلا أنني كنت أعتقد (خاطئاً بالطبع) أن مجالات البحث والتقدم في الجراحة هو أقل مما هو في الطب الباطني . كما صرفت من ذهني أن أمارس في المستقبل أحد فروع علوم الطب السريرية أو المخبرية ..

وبعد أيام قليلة صدر قرار الوزارة بتعيين العشرة الأوائل على الدورة على ملاك كلية الطب وقرار العمادة بمنحنا لقب معيد تدريسي . ونسبت للعمل في الوحدة الباطنية الثالثة .

وما أن فرغت من المعاملات الروتينية للتعيين ، مثل استخراج شهادة حسن السلوك وعدم المحكومية والفحص الطبي ، حتى سنحت لي فرصة مرافقة صديقي علي المفتي في سفرة بالسيارة إلى مصيف صلاح الدين في لواء أربيل بشمال العراق لراحة قصيرة من ما لحقني من تعب وتوتر خلال الامتحانات . كان المصيف يوم ذاك يدار من قبل مديرية السكك الحديدية العامة وتتوفر فيه كافة وسائل الراحة والاستجمام والتسلية والرياضة . وكانت وجهتنا التالية مصيف شقلاوة حيث أقمنا في دار الضيافة وبعدها مصيف حاج عمران قرب الحدود الإيرانية .

في تلك الأجواء المريحة استلمت من أحد القادمين إلى حاج عمران برقية من صديقي خالد القصاب ينبئني بوجوب الالتحاق بعملي الوظيفي الجديد على الفور ، حيث أن زملائي قد باشروا العمل في الوحدات السريرية في المستشفى الملكي ببغداد .

ودّعت صديقي علي المفتي ونقلتني سيارة أجرة إلى الموصل ومنها بالقطار إلى بغداد لأبدأ مرحلة جديدة من حياتي ، طبيباً مقيماً في الردهة الباطنية التاسعة للرجال والثانية للنساء .

خريجو كلية الطب الملكية العراقية
لعام 1946
درجة ليسانس في الطب والجراحة
حزيران 1946 (الدور الأول)[1]

سالم فاروق الدملوجي الخريج الأول
حسين ثابت الأورفه لي
سلمان داود تاج الدين
صلاح الدين تحسين علي
صادق مهدي الهلالي
باروخ مردخاي شالوم
محمد حسين تاج الدين
مئير حاخام ساسون
محمد ياسين محمد أمين آغا
سالم فتحي الصائغ
أنيس جميل عبد الكريم
جميل رؤوف حداد
مهدي مرتضى الصيدلي
عبد الأمير عبد الكريم
سليم جميل دلالي
عبد العزيز محمود شكري
ماركريت فتح الله كساب
خالد عبد العزيز القصاب
حمزة إبراهيم منيب
عبد الصمد نعمان الأعظمي

---

(1) الأسماء كما جاءت في دليل التخرج مرتبة حسب جدول أعد في السنة الأولى من الدراسة في الكلية الطبية .

طارق جعفر الباجه جي
عبد الفتاح حاج ناجي
مصطفى إبراهيم أدهم
جليل مطلوب
فكتور منشي زعرور
يونس مجيد سعيد
أحمد الحاج مصطفى السلمان
ناظم شاهين
حسان علي الراوي
نعمة جابر فتاح
جيروم يوسف أوفي
عبد الله سليمان الخضير

الفصل الثاني

أساتذة الكلية الطبية الملكية العراقية(*)

(1946-1940)

(*) رتبت الأسماء حسب تسلسل المواد التي درست خلال سنوات التدريس .

الأستاذ جارلس بوزويل Professor Charles Boswell
أستاذ علوم الحياة - البايولوجي

كان الأستاذ بوزويل أول الأساتذة الذين يلقاهم الطالب المبتدئ في الصف الأول . عندما دخلنا القاعة رقم (1) وانتظمنا في مدرجاتها دخل علينا في أول محاضرة الأستاذ بوزويل وقد بدا على جانب كبير من الوقار وهو يرتدي الروب الجامعي الأسود . افتتح محاضرته بقوله إن الطب وعلوم الطب هي فرع من علوم الحياة (البايولوجي) ، ولابد للطالب من الإلمام بمبادئ العلوم الحياتية ليكون علميا في تفكيره ومنطقه . وبدأ بالخلية شارحاً هيئتها ووظائفها ومعززاً بالرسم بالطباشير الملّونة على اللوحة بطريقة أنيقة تنم عن ذوق رفيع وترتيب منظم وكتابة الشروح عليها بخط واضح جميل . وكان يتكلم الإنجليزية بلهجة واضحة مهذبة وبسرعة معتدلة ساعدتنا على تدوين الملاحظات وفهم الموضوع . وانتهت الحصة المقررة ، وأمدها ساعة كاملة ، ليقف ويجيب على أسئلة الطلاب .

وفي مقتبل الدراسة ، كان للأستاذ بوزويل فضل كبير على طلبته في تعليمهم اللغة الإنجليزية الصحيحة ، كلمات ولفظاً ومعنىً . وكان محبوباً من طلبته على كونه متحفظاً قليل الاختلاط بهم بعد انتهاء الدروس ، ولكنه كان حريصاً على وجوده معهم أثناء الحصص العملية في المختبرات ، يداً بيد مع من يحتاجه من الطلبة ، يخاطبهم بألقابهم ويسمي الطالبات «مس» فلان باسم عائلتها . وكان يبدو أصغر سناً من بقية الأساتذة وربما كان في العقد الرابع من العمر .

كان الأستاذ بوزويل يرتدي دوماً الملابس الصوفية السبورت (من قماش التويد) وأربطته ذات ألوان بهيجة . وعلمنا من زملائنا القدامى أنه تخرج من جامعة كمبردج وعمل فيها مدرسا بعض الوقت قبل قدومه إلى بغداد سنة 1938 . ولابد أن المنهج الدراسي الذي قام به كان على نمط ما يدّرس لطلاب الطب في بريطانيا أو طلاب علم الحياة المتقدمين لامتحان «المتريكوليشن» ، إذ أنه شمل دراسة الخلايا والأنسجة والتشريح المقارن لدى الضفدع والأرنب وسمك «Dogfish» ودودة الأرض . ويلي ذلك مقدمة في علم الطفيليات بما فيه دورة حياة طفيلي الملاريا ودودة الإنكلستوما والبلهارزيا والدودة الوحيدة والاسكارس ، إضافة إلى مقدمة في علم الأجنة Embryology وتفصيل علم الوراثة وتطبيقاته على الحيوان والنبات .

أما حصص علم البايولوجي العملية فكانت تعقد ، بعد ساعات المحاضرات النظرية ، في المختبر المجاور للقاعة رقم (1) . وفيها علمنا الأستاذ بوزويل والسيد نعمة صبور ، المساعد في القسم ، استعمال المجهر (المكروسكوب) وتشريح أجهزة الضفدع ، وهو الحيوان المتوفر في حدائق بغداد ومستنقعاتها . وكان فراش المختبر سلمان (الكردي) يناول كلاً منا ضفدعاً في بداية الحصة العملية لتشريحه ولكنه يتقاضى عشرة فلوس عن كل ضفدع إضافي من مَن لم ينجح في تشريح جهاز الحيوان بصورة مرضية . وتعلمنا من خلال تشريح الضفدع أسماء الأعضاء والأحشاء والأوعية الدموية والأعصاب والجهاز العصبي المركزي .

وفي الفصل الثاني شرّحنا الأرنب وأخيراً سمك Dogfish المستورد من بريطانيا والمحفوظ في الفورمالين . وكانت الامتحانات العملية تُجرى على الضفدع في نهاية الفصل ويسحب كل طالب ورقة بالقرعة على الجهاز المطلوب تشريحه .

كان الأستاذ بوزويل يصحح دفاتر الامتحان الفصلي بدقة ويعيدها إلينا في أول حصة تدريسية من الفصل الذي يليه ، وذلك لغرض إطلاعنا على الأغلاط التي ارتكبناها مع تبيان الحل الصحيح لها . وكان عادلاً في منحه الدرجات وربما كان الرسوب في موضوعه يعود إلى جهل أولئك الطلاب باللغة الإنجليزية أو ضعف مستواهم العلمي .

ومع إن الكلية يومئذ كانت تعلن نتائج الامتحان بالنجاح pass أو الفشل fail دون ذكر الدرجات ، إلا أن الأستاذ بوزويل استدعاني بعد الامتحان النهائي إلى مكتبه وأخبرني أنني حصلت على أعلى درجة في نهاية السنة الدراسية في البايولوجي وأكّد ذلك لي السيد نعمة صبور ، إلا أنني لم أفز بالجائزة المخصصة للطالب المتفوق في علم الحياة بل فاز بها زميلي صلاح تحسين علي ، إضافة إلى جائزتي الكيمياء والفيزياء . وقيل لي في تعليل ذلك أنه حصل على أعلى مجموع للدروس الثلاثة فمنح جميعها دون الرجوع إلى تفصيل كل منها . وربما كان ذلك من ترتيب سكرتير الكلية السيد فرج عبد الأحد وموافقة العميد سندرسن . وبالمناسبة أنني علمت بعد تخرجي من الكلية ، حينما طلبت تزويدي بوثيقة التخرج المفصلة ، أن درجة نجاحي في موضوع البايولوجي كان 85٪ (خمس وثمانون بالمئة) .

حملنا بعد نجاحنا من الصف الأول أجمل الذكريات عن الأستاذ بوزويل ، وخاصة المعاملة الحسنة التي لاقيناها منه بعد عودة أساتذتنا البريطانيين للتدريس في

نهاية صيف 1941 بسبب توقف الدراسة أثناء وبعد حركة رشيد عـي الكيلاني في شهر مايس من تلك السنة . وقد أكمل الأستاذ المنهج الدراسي الذي ضم بعض المحاضرات عن النبات والنباتات الطبية .

في السنين التالية قام الأستاذ بوزويل بالمشاركة الفعالة مشرفاً على لجنة الموسيقى . وكنا نسعد بوجوده وبطريقة تقديمه وشرحه القطع الموسيقية الكلاسيكية .

وقد غادرنا الأستاذ بعيد الحرب العالمية الثانية ، حيث عمل أستاذاً في جامعة كمبردج ، إلا أنه عاد للتدريس ثانية في أواسط الخمسينات حتى انتهاء عقده (1959) وحمل معه ذكريات طيبة عن الكلية الطبية وطلابها وأساتذتها ظهرت في تأبينه الأستاذ ستيسي في أواخر الستينات في المجلة الطبية البريطانية وكذلك عند تأبينه الأستاذ الدكتور سندرسن في نفس المجلة في أواسط السبعينات .

لا نعلم شيئاً عن بحوث الأستاذ بوزويل ، ربما بسبب عدم اطلاعنا يومئذ على الدوريات العلمية أو لأن بحوثه تناولت الجوانب البايولوجية الصرفة . لكنه كان كثير الاهتمام بالأفاعي والطيور ، وهو الذي نظّم متحفاً للبايولوجي للحيوانات في الكلية ودرب بعض المساعدين على طرق تحنيط الحيوانات وحفظها على هيئتها الطبيعية .

ولابد من الإشارة هنا إلى أن قسم علوم الحياة (البايولوجي) في الكلية الطبية كان نشطاً منذ إنشاء الكلية ، فقد تولى كرسي المادة الأستاذ الدكتور كوركيل في بداية الثلاثينيات . ونشر كتاباً عن الأفاعي في العراق سنة 1933 ، وكان أول كتاب يصدر عن الكلية الطبية الملكية العراقية ، أتبعه بكتاب آخر عن النباتات الطبية في شمال العراق يعد مرجعاً للمختصين إلى يومنا هذا .

هوكنز Professor Ernest S. Hawkins
أستاذ علم الكيمياء والكيمياء الحيوية

يطالعك رجل في منتصف العمر نحيف البنية طويل القامة ملتمع الصلعة ، يعمد إلى حلق الشعر المحيط بصلعته الكبيرة غرة صفر فيزيد من سطوتها على شكله ، الأمر الذي جعل بعض الذين لم يتوفقوا في النجاح في درسه أن يطلقوا عليه اسم «فريج الأكرع» ، الشخصية المعروفة في الفلكلور العراقي . عليه نظارات بدون إطار تلتمع خلف زجاجها عينان زرقاوان ساخرتان شديدتا الذكاء قويتا الملاحظة . وكان يرتدي صدرية مهلهلة ملطخة ببقع المحاليل الكيمياوية ومثقبة بتأثير الحوامض المستعملة في المختبر . يدلف إلى القاعة رقم (1) بسرعة ثم تدور عيناه بأطراف القاعة ليرى من يعرف من طلابه الذين أعادوا السنة لفشلهم في الامتحان ، ثم يمسك بالطباشير بيده ويبلله بلعابه ويرسم على السبورة السوداء دوائر صغيرة وأخرى أكبر فأكبر ورموزاً كيمياوية ، فوق كل منها علامة زائد أو ناقص ، ويبدأ محاضرته بلهجة إنجليزية تختص بها فئة الكوكني من الشعب البريطاني .

كثيراً ما كان فهمه يشق عليّ فلا أدري ما يقول بالضبط ، فربما كان يعني بها أرقام الجدول الدوري ، Periodic Table وعدد الذرات والألكترونات والبروتونات ، فكنت أكتب كل ما أسمع خطأً أم صواباً . واكتشفت أنني لم أكن المرتبك الوحيد ، فعند انتهاء الدرس كنا نسأل بعضنا ، إما في قاعة المحاضرات أو على مناضد المطعم ، عن ما أغلق علينا فهمه . ولطالما حصل الجدل والزعل بيننا حول تفسير ما قاله وهل هو كذا أم كذا .

هذا الرجل العنيف القاسي النظرات اللامفهوم اللهجة الذي لوّع كل طلبة الكلية الطبية يوماً ما ، أو الذي كانت بيده مقاليد النجاح فإما التخرج طبيباً فيما بعد أو الفشل فالطرد ورقن القيد ، هو الأستاذ هوكنز ، أستاذ الكيمياء وأستاذ الفيزياء وكالة ، ومدير المختبر الكيمياوي وخبير السموم وأستاذ الكيمياء الحيوية في المرحلة التالية من الدراسة .

كانت سمعة الأستاذ هوكنز قد سبقته إلينا . فقد كان «عفريت» كلية الطب الذي يخشاه الجميع . والاحتمال الأقوى هو أن هذا الأستاذ لم يكن قد درّس في جامعة أو كلية من قبل ، بل ربما اضطرت العمادة إلى إسناد تدريس الكيمياء له لعدم

توفر أكاديمي كيمياوي بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية . كان معلماً من الطراز القديم ، يسره أن يرهب الطلبة وأن يعلم بأن احترامه مشوب بقدر كبير من الخوف والرهبة .

كان منهج الدراسة الذي سار عليه الأستاذ هوكنز مكوناً من مبادئ الكيمياء التي درسناها في المدارس الثانوية باللغة العربية مثل الفلزات واللافلزات ، والحديث يومئذ منها وهو الأوزان الذرية والجزيئية والتركيب الذري والتكافؤ وتركيز أيونات الهيدروجين وحساباتها ، بالإضافة إلى معلومات أولية عن استغمال المواد الكيمياوية طبياً .

ولم تكن محاضراته تخلو أحيانا من طرف أو نكات يفهمها البعض ولا يفهمها الكثيرون ، بل إن أحد زملائي ، وهو سامي الشيخ قاسم ، نقل لي ما قال حرفياً من دفتر ملحوظاته ولم يكن يعرف مغزى ما كتب إلا عندما قرأناها سوية فضحكنا كثيراً . وكانت الطرفة أن مركب الزرنيخ الفلاني يستعمل (دوا حمام) ، قالها بالعربية المفرنجة ، وكانت تستعمل كثيراً في حوادث التسمم الجنائية ، وأردف أنها مزيل جيد للشعر ولكنه ، أي الأستاذ ، لم يجربها على رأسه وإن صلعته لم تظهر بسبب استعماله ذلك المركب الكيمياوي ، بل إنه جربه على رسغه وأرانا إياه مجرداً من الشعر ، وأضاف أنه استعمله في مكان آخر من جسمه لا يمكن الكشف عليه أمامنا .

وكان الأستاذ هوكنز داعية لبلده بريطانيا في وقت كان شعور الكثيرين من الطلاب يموج ضد الحلفاء بسبب نكث بريطانيا للعهد مع العرب وبسبب القضية الفلسطينية . وكان يطعّم محاضراته بالتهكم على دول المحور وعلى هتلر ، زعيم ألمانيا ، بالذات . وقد فاجأنا يوماً وبدون مقدمات أن هتلر قد أصيب بورم في حنجرته أدّى إلى بحّة في صوته ، ثم أردف أن هذا الورم وإن كان سليماً إلا أنه سوف ينقلب يوماً إلى ورم سرطاني خبيث فينتشر في أنحاء جسمه وتتخلص البشرية منه . وفي يوم آخر انهال ، أثناء إلقاء المحاضرة ، بالسباب على الألمان ، وعلمنا من المساعدين في قسم الكيمياء أن الطائرات الألمانية قصفت مختبر والده ، وهو كيمياوي أيضا ، ودمرته وأن والده لقي مصرعه في تلك الغارة .

وبدا لنا الأستاذ هوكنز متوتراً عندما دخل قاعة المحاضرات يوم الأول من مايس (أيار) 1941 بسبب البيانات العسكرية التي أذاعتها الحكومة العراقية عن قيام مناوشات بين الجيشين العراقي والبريطاني في الحبانية ، ولكنه استمر على إلقاء

المحاضرة كالمعتاد . وعلمنا فيما بعد أنه التجأ إلى السفارة البريطانية في بغداد حين بدأت الحركة وبقي فيها حتى انتهائها في نهاية مايس ورأيناه فيما بعد في مختبره وفي ساحات الكلية مرتدياً بنطلوناً خاكياً قصيراً وواسعاً وقد بانت ساقاه الرفيعتان وهو يمشي مسرع الخطى كعادته .

وعندما تقدمت للامتحان النهائي في تشرين الأول عام 1941 كانت أجوبتي جيدة إذ كانت النتيجة «ناجح» ولم أعلم أنني نلت درجة جيدة (88٪) إلا عندما زودتني العمادة بشهادة النجاح بعد التخرج .

في السنة الثانية كان الأستاذ هوكنز يلقي علينا محاضراته في الكيمياء الحيوية بمعدل مرتين أسبوعياً طيلة أيام السنة الأكاديمية وشملت دراسة المركبات العضوية والكاربوهيدرات والزلاليات والدهون إضافة إلى الخمائر والهورمونات والفيتامينات وملخصات عن وظائف الكبد والكلى وتحاليل الدم والبول . وكان في هذه المرحلة أكثر تهذيباً وأقل تأنيباً لنا وأعصابه أقل توتراً عما كان عليه في السنة المنصرمة .

في السنة التالية غادر الأستاذ هوكنز العراق وعاد إلى بلده بريطانيا ، وعلمنا بعد سنوات أنه أصيب بمرض فقر الدم الخبيث أو السرطان وتوفي هناك .

لا ينكر أن الأستاذ هوكنز كان بعبع الطلاب ولكنني أعتبره أحد أعمدة الكلية الأساسية التي أكسبتها السمعة العلمية العالية ، فقد كان له الفضل في اختيار الطلبة المؤهلين واللائقين لدراسة العلوم الطبية ثم لمزاولة المهنة على مستوى رفيع . وهو يفعل ذلك بصلابة غير مكترث لما قد يكون للطالب من اتصالات أو مؤثرات.

«ويأتيك بالأخبار من لم تزوّد»

اتصل بي في لندن مؤخراً (أيار/مايو 2001) نجل أحد أصدقائي القدامى تلفونياً وسألني إن كان هناك من معارفي من يعرف أستاذاً انكليزياً اسمه «هوكنز» سبق له أن قام بالتدريس في كلية الطب ببغداد فأجبته بما يقتضي فقال إن أحد أبنائه وهو مهندس كيمياوي يروم التعرف ، فدعوته وسررت للقائه وأفادني بالمعلومات التالية التي أضيفها إلى ما سبق ودوّنته عن انطباعي وذكرياتي عن الرجل وهي : أنه خريج كلية العلوم في الإمبيريال كوليج Imperial College في لندن (والتي تخرج منها والد الأستاذ وكلا ولديه) وإنه قدم إلى العراق في أوائل الثلاثينات بعد فترة تمرين قضاها في بريطانيا وعين كيمياوياً لفحص التربة والخرسانة ثم نقل مسؤولاً في المختبر

الجنائي في وزارة الداخلية وبعدها مديراً لمختبر التحليلات الكيمياوي التابع إلى مديرية الصحة العامة . وقد أسندت إليه في نهاية الثلاثينات ، مهمة تدريس موضوعي الكيمياء والكيمياء الحيوية لطلاب الكلية الطبية في بغداد .

وإبّان الحرب العراقية البريطانية (1941) انتقل إلى الحبانية ، ومنها أرسل عائلته المكونة من زوجته وولديه ، المولودين في بغداد 1937 و1939 ، إلى جنوب أفريقيا وبقي هو في بغداد حتى عام 1946 عندما ترك العراق ليرافق عائلته عائداً إلى مدينة كانتربري في بريطانيا ويعمل من جديد على إعادة بناء مختبر والده ، المصاب بالشلل ، الذي قصفته الطائرات الحربية الألمانية المغيرة خلال الحرب . وفي تلك المدينة عيّن محللاً كيمياوياً عدلياً في دوائر البوليس وخبيراً في المحاكم وأنيطت به مهمة التدريس في كليات الموظفين الصحيين والممرضات . وقد كرمته الحكومة العراقية بمنحه وسام الرافدين تقديراً لخدماته في الطب الجنائي والتدريس ، وأهدى إليه طلاب كلية الطب (1946) علبة سكاير فضية من صنع الصبة (الصابئة) مطعمة بمناظر القوارب و(الكفة) بنهر دجلة .

وقد أفادني ولده «روبن هوكنز» أن والده كان مسؤولاً عن نشاطات المخابرات الألمانية وعملائها في العراق والشرق الأوسط ، واكتشف خلية تجسس تعمل لحسابها وكافأته حكومته بمنحه وسام «ضابط الإمبراطورية البريطانية O.B.E» . تقديراً لجهوده .

توفي الأستاذ هوكنز في كانون الثاني 1955 إثر إصابته بمرض Aplastie Anaemia إثر تناول عقار الكلورامفينيكول .

الأستاذ يوسف عزيز
(1969 - 1905)
أستاذ الفيزياء

ولد الأستاذ يوسف عزيز في الموصل ودرس فيها ثم سافر إلى فرنسا وتخرج مهندساً كيمياوياً من جامعة ستراسبورغ . وبعد عودته إلى العراق تعيّن في معهد التحليل الكيمياوي مساعداً للأستاذ هوكنز وبعدها نقل إلى ملاك كلية الطب بتاريخ 1937/1/19 ، بناءا على توصية الأستاذ هوكنز ، وليدرس طلبة الصف الأول موضوع الفيزياء ويشرف على الطلبة أثناء دروس الكيمياء العملية .

كان الأستاذ يوسف عزيز يومها شاباً يافعاً أشقر الشعر أزرق العينين حلو الحديث ودائم الابتسام ، يعتني بهندامه ويمشي بخطوات صغيرة متلاحقة توحي رشاقته إلى أنه رياضي . وكانت اللكنة الفرنسية تطغي على نطقه بالإنجليزية أثناء إلقاء المحاضرات .

اشتمل المنهج الذي اتبعه في تدريس الفيزياء على معلومات عامة ومواضيع تقليدية سبق أن درسناها في مرحلة الثانوية العامة باللغة العربية فتعلمنا خلال الدرس الاصطلاحات بالإنجليزية ، مثل خواص المادة والقوة والشد السطحي والحرارة والكهربائية والضوء والصوت وأخرى لم نتطرق لها سابقاً مثل الأشعة السينية والإشعاع والكهروضوئية والذرة . وكان قد نصحنا بقراءة كتاب Stead في الفيزياء ، إلا أننا اعتمدنا على محاضراته أكثر من الرجوع إلى ذلك المصدر .

ويلاحظ أن محاضرات الأستاذ عزيز لم تتضمن الكثير من الفيزياء الطبية ، ولعل السبب يعود إلى أن المسؤولين عن وضع المنهج الدراسي لتلك المادة ، وهما الأستاذ هوكنز والأستاذ عزيز ، كانا مختصين بالكيمياء ولم يكونا طبيبين كما لم تكن هناك لجنة مناهج توصي بدراسة الفيزياء الطبية بدلاً من الفيزياء العامة . لكن الأستاذ عزيز ، وبعد سنوات طويلة ، أظهر تجاوباً وتعاوناً مع لجنة تطوير المناهج ، التي كنت أحد أعضائها في سنة 1963 ، وكان يرنو دائما إلى رفع مستوى التدريس والحرص على سمعة الكلية .

بعد رحيل الأستاذ هوكنز ، بقي الأستاذ عزيز مسؤولاً عن قسم الفيزياء ومنح لقب الأستاذية في سنة 1954 .

عرفت الأستاذ عزيز عن كثب في الخمسينات والستينات وتوثقت علاقتي به ، وكنت طبيبه المعالج عندما أصيب بارتشاح بلّوري في الرئة اليسرى سرعانً ما شفي منه .

خدم الأستاذ عزيز كلية الطب 32 عاماً بهمة وإخلاص وانتقل إلى رحمة الله تعالى في لشبونة يوم 23 تموز 1969 ، وقد رثيته في مجلة الكلية الطبية العراقية .

الأستاذ الدكتور عبد الهادي الباجه جي
أستاذ علم السريريات والطب العمومي
(1862 - 1959)

الأستاذ والطبيب الجنتلمان . وجهه الممتلئ وابتسامته المشرقة وبدانته وملابسه الأنيقة توحي أنك أمام المثل الذي تود أن تكونه . يومها كان في الخمسين من العمر وقد وخط الشيب شعره وبدا بكمال الحيوية والنشاط . دمث الخلق يخاطبك بصفة الجمع ويضيف على طالباته لقب (الخانم) . سليل أسرة مرموقة ولد في الموصل ودرس في بغداد أثناء الحرب العالمية الأولى واستدعي للخدمة العسكرية إلا أنه ، وبفضل نفوذ عائلته ، بقي في بغداد بمرتبة مدفعي (طوبجي) ولم يشارك في جبهات القتال .

بعد انتهاء الحرب توجه إلى الأستانة وعزم على دراسة الطب فانضم إلى جامعة باريس وتخرج منها في نهاية العشرينات . افتتح عيادة خاصة في شارع الرشيد وكان محبوباً من الطبقات الموسرة وفي نفس الوقت شعبياً . طالما تنازل عن أتعابه وساعد المحتاجين منهم بشراء الأدوية اللازمة . وقد عرف عنه أنه كان محبا للخيول ومن رواد السباقات .

عمل في مديرية الصحة العامة طبيباً ثم مديراً في مستشفى الحميات (العزل) في جانب الكرخ وبعدها رئيساً للوحدة الباطنية الرابعة (الردهة السادسة) في المستشفى الملكي التعليمي وزاول التدريس والعمل السريري سنوات طويلة ، وعهدت إليه وزارة الشؤون الاجتماعية مرتين ، كانت الأولى سنة 1946 ، حين كانت إدارة الصحة منوطة بوزارة الشؤون الاجتماعية قبل استحداث وزارة الصحة سنة 1952 ، والثانية سنة 1954 . وفي الفترات فيما بين ذلك كان مديراً عاماً أو مستشاراً في الوزارة ذاتها ، ولفترة قصيرة تولى في أواسط الخمسينات منصب وزير الصحة .

محاضرات الأستاذ الباجه جي كانت تبدأ في الثامنة صباحاً بمعدل أربع حصص أسبوعياً طيلة أيام السنة الدراسية . وكانت علامة قدومه ظهور سيارته الأمريكية الصنع حمراء اللون القديمة والمستهلكة والتي طالما أصابها العطل بسبب تقادمها وفقدان الأدوات الاحتياطية .

كان يدرس (السريريات الابتدائية والطب العمومي) باللغة العربية التي كانت تبدو غريبة على الأسماع لتعودنا على إلقاء المحاضرات بالإنجليزية في كافة المواضيع

الأخرى . كانت لغته العربية سليمة وإن شابها اصطلاحات مترجمة عن الفرنسية . ولم نستوعب المادة العلمية التي ألقاها علينا كما ينبغي إذ إنها ، وإن كانت (مقدمة) في علم السريريات والطب العام ، إلا أننا كنا نفتقر إلى المعلومات الكافية في علم الأمراض والجراثيم والعقاقير علاوة على عدم اطلاعنا ومعرفتنا بالطب السريري ، الذي مارسناه عملياً عندما تدربنا في ردهات المستشفى في السنة التالية . على أنني وجدت محاضرات الأستاذ الباجه جي ذات فائدة كبرى عندما أعدت قراءتها في السنوات الأخيرة من دراستي الطبية ، وخاصة قبل الامتحان النهائي في السنة السادسة .

دعنا نقرأ ما أملاه علينا في أول محاضرة ألقاها علينا بتاريخ 1941/11/10 وكان عنوانها «التشخيص وأصول معاينة المريض» :

«يتوخى التشخيص ، بصورة عملية ، فهم واكتشاف حقيقة المرض من أصول إلى تداو معقول . والتشخيص الصحيح هو الذي يطابق حقيقة المرض وتثبت مطابقته هذه بسير المرض وبنتائج التداوي أو عندما يتغلب المرض على المصاب بفتح الميت (Post Mortem). إن هذا بديهي ولكنه غير كاف . فإذا تحرينا أولاً ماهية العوامل التي يتكون منها التشخيص الكامل في الوقت الحاضر ، أي التي تحتوي على جميع العناصر التي تسمح بتعريف المرض ووضعه بصورة صحيحة في المجموعة المرضية وباستنباط طريقة ناجعة الدواء .

غير أن أنواع التشخيص تختلف بتكاملها حسب الأصناف السريرية العديدة . وإننا ، مع إمكان تثبيت النموذج الكامل للتشخيص الأمثل ، نجد أنفسنا في كثير من الأحوال مضطرين على الاكتفاء بما هو أقل شمولاً من النموذج الأعلى . إن درجات تكامل التشخيص التي نجدها الآن في وقائعنا الطبيعية تصوّر بصورة صادقة مختلف اتجاهات الطب في مختلف العصور» . ثم أخذ يعطي بعض الأمثلة لإيضاح ما سبق .

وفي المحاضرة الثانية أفاض في «غلطات التشخيص» وقال إنها مع الأسف كثيرة جداً ، وباعتقاده أنه لا يوجد أحسن من درس وتشخيص غلطات التشخيص ليتعلم منها الطبيب على اجتنابها في المستقبل . وحلل أسبابها إلى الجهالة وعدم كفاية المنطق والإدراك وعدم كفاية المعاينة . وعن الجهالة قال إن لها درجات ، منها الجهالة الفاضحة والجهالة النسبية وأضاف «نعتبر كلنا جاهلين بدرجات مختلفة» .

وفي المحاضرة الثالثة أكمل الموضوع وتكلم عن غلطات المنطق والإدراك وقال إن

الصفات الفكرية والمعنوية ، التي يجب آن تجتمع في الطبيب ، هي الحافظة الجيدة والمنطق الصحيح والخيلة المعقولة . وأنهى بحثه بقوله «يجب أن يكون معلوماً أن الغلط ممكن لأكبر أستاذ . وليس من العيب أن يعترف الطبيب بغلطه عندما يثبت له ذلك ، وإنما الغلط هو الإصرار على الغلط الذي يولّد العواقب الوخيمة» .

بهذه العبارات الجميلة والمتواضعة والمبنية على خبرة طوِيْلة في الطب السريري ، كان الأستاذ الباجه جي يحاضرنا ، ولكننا كما قلت أقل مستوى من تفهم أقواله ، وخاصة عندما انتقل إلى مواضيع الصحة والمرض وتفصيل تشريح ثم فسلجة واختلال وظائف الأجهزة ، من مظاهر وأعراض وعلامات وطرق فحص سريري وتشخيص . وكان الأستاذ يدرك ذلك وقال لنا يوماً أنه يتمنى أن يبدأ الطلاب العمل السريري في أقرب مرحلة من التعليم الطبي وأنه ، عندما كان طالباً في كلية طب جامعة باريس ، داوم في الردهات منذ الأسبوع الأول لالتحاقه بالكلية وعمل مساعداً للممرضين ، ومنهم تعلم الكثير .

في الفصلين الثاني والثالث تناول الأستاذ الباجه جي طرق التشخيص المختبرية بالتفصيل ، وأفاض في مبحث الأوبئة والإنتانات (Infections) والالتهابات والسموم والوراثة والمناعة والحساسية ، وأنهى دروسه يوم 26 مايس 1942 بمحاضرة عن الموت وأنواعه وأسبابه وختمها بقوله «هكذا نجد أنه مهما تنوعت الطرق فالنتيجة واحدة إذ أن الموت واحد» .

في الامتحانات الفصلية ، كان الأستاذ الباجه جي يضع ثلاثة أسئلة فقط بعناوين مختصرة ، مثل «الوراثة وعلاقتها بالأمراض» ، أو «التقيح وأسبابه» أو «مواجهة الإنتان للمرة الثانية» . وقد نلت درجات مقبولة في امتحانات المادة : 70 و80 و95 في الفصليات ، و95٪ في الامتحان النهائي وكانت أعلى درجة في الصف وهنا كان الرسوب في درسه نادر الحدوث .

كما ذكرت سابقاً كان الأستاذ الباجه جي يهتم ويحضر الاجتماعات السريرية الأسبوعية التي كانت تقام في القاعة رقم (4) في الكلية الطبية في الخمسينات ، ولكنني لا أجد له بحوثاً أو مقالات منشورة سوى اثتنين نشرهما في مجلة كلية الطب العراقية ، إحداهما عن «تولد وموت الإنتان» والثانية عن «الانفرمكروبات» .

كان من أول أعماله خلال استيزاره الأول سنة 1946 أن أوفد عدداً كبيراً من الأطباء إلى المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية لغرض الاطلاع على

التطورات الحديثة التي جرت في المجال الطبي بعد الحرب العالمية الثانية ، كان منهم الأساتذة عبد الرحمن الجوربه جي ، ومهدي فوزي ، وقاسم البزركان ، وأحمد سهيل ، وسلمان فائق وأكرم القيماقجي . وأوفد كذلك أطباء حديثي التخرج لغرض الاختصاص مثل غانم عقراوي وسالم الحيدري وأمة العزيز الزهاوي وسانحة أمين زكي ولمعان أمين زكي ، الذين عادوا بعد ذلك ليكونوا الجيل الثاني من أساتذة الكلية الطبية .

انصرف الأستاذ الباجه جي ، بحكم موقعه في وزارة الشؤون الاجتماعية ، إلى وضع القوانين لحماية حقوق العمال ، وكان يرأس وفد العراق إلى مؤتمرات منظمة العمل الدولية الذي ينعقد سنوياً في جنيف .

وفي أوائل سنة 1952 أعلن عن وجود زمالات دراسية للتخصص في الولايات المتحدة الأمريكية ، وبعد مقابلته أصدر أمره بإيفادي للتخصص في الأمراض الباطنية والصدرية .

كان الأستاذ الباجه جي يشكو من داء النقرس واختلال في وظائف الكبد منذ فترة طويلة . وقد توفي ، رحمه الله ، سنة 1959 عن سبعة وستين عاماً فحزنّا لفقدان الطبيب العالم والإنساني رفيع المقام . ومن المؤسف أن الكلية الطبية لم تكن ممثلة في مراسيم الدفن يوم أن ووري الثرى في بغداد .

الأستاذ الدكتور أمين بك عبد الرحمن
أستاذ التشريح

في السنة الدراسية 1939-1940 قدم الأستاذ أمين بك عبد الرحمن إلى العراق أستاذاً لعلم التشريح في كلية الطب . وكان عالماً مشهوراً نال شهادة الدكتوراه في التشريح من جامعة لندن وقيل لنا أنه درّس علم التشريح في الولايات المتحدة الأمريكية والفيلبين . كان يومها قد تجاوز الستين من العمر وتقاعد عن العمل في كلية الطب المصرية عندما درسنا التشريح في محاضرات نظرية وتطبيقات عملية .

كان رحمه الله بديناً ضخم الجثة تحيط بصلعته بقايا من الشيب ناصع البياض ، وكان مثل معظم المصريين سريع البديهة ظريفاً وحاضر النكتة ويطّعم دروسه النظرية ، دفعاً للملل ، بأمثلة مضحكة عن نفسه كأن يتخيل نفسه الجنين في الرحم ويصوّر لنا ما يحدث عند الولادة على سبيل المثال . وقد نال رتبة البكوية من ملك مصر وكانت بطاقة زيارته تحمل اسمه مضافاً إليه (بيك من الدرجة الأولى) .

كان الأستاذ أمين بك ضليعاً بعلم التشريح ، وقيل إنه اكتشف أحد فروع الأعصاب القحفية . وكان يدخل علينا في قاعة التشريح الكبرى فتنهال عليه الأسئلة من الطلاب ، فهذا يسأل عن مصدر أو طريق أو علاقات الشريان الفلاني وثان عن امتداد العصب الفلاني ، وهو يجيب ويشرح عملياً ما يقول بكل ثقة ورحابة صدر . ومن فرط معرفته بالتشريح كانت الإشاعة عنه تدور أنه بإمكانه معرفة وتشخيص عظام راحة الرسغ الثمانية من اللمس دون النظر إليها أو وهي ملقاة إلى أعلى في الهواء .

أحببنا الأستاذ أمين بك فقد كان رحمه الله عطوفاً علينا وكان يشجعنا ويبتسم دوماً عندما يجد قاعة التشريح الكبرى غاصة بالطلاب المرهقين وهم منهمكون بتشريح الجثث ، يعملون ويتعلمون . ولن أنسى آخر محاضرة ألقاها علينا في نهاية السنة الثانية في قاعة رقم (2) عندما عرض علينا بالفانوس السحري السلايدات الملونة عن تشريح أهم أقسام جسم الإنسان ، ولم يكن البروجكتور الضوئي قد وصلنا بعد . كان يطلب منا معرفة الشريان الفلاني أو العصب الفلاني . .الخ ، وقد دامت محاضرته ساعة كاملة . وكان آخر سلايد عرضه علينا هو تصويره عندما كان في ريعان الشباب وعلى رأسه الطربوش الأحمر (الفينة) فصفقنا له طويلاً ورأيناه وقد

دمعت عيناه تأثراً بحب تلامذته وإخلاصهم له .

ساعد الأستاذ أمين بك في حصص التشريح العملي المرحوم الدكتور بيثون رسام ، وكان من أمهر أساتذة التشريح العراقيين وأقدمهم ، أستاذاً فاضلاً وعطوفاً . تخرج من الكلية الطبية في الدورة الأولى وعمل طبيباً وجراحاً . أوفد إلى بريطانيا للتخصص بأمراض المناطق الحارة ولكنه تفرغ للتشريح وأصبح أستاذاً ورئيسا للقسم بعد وفاة المرحوم الأستاذ أمين بك عبد الرحمن . كان يداوم في العيادة الخارجية الجراحية في العطل الصيفية ويجري العمليات الكبرى والصغرى وكنت ضمن مجموعة من طلاب دورتنا نلتف حوله في العيادات الخارجية وصالة العمليات ، يرينا ويشرح لنا الحالات الجراحية الشائعة مثل الفتق والخرّاجات والأورام . وكان يشرف علينا ونحن نقوم بفتح خراج أو تضميد الجروح وحتى عمليات الختان .

أما المساعد الثاني لأستاذ التشريح فكان الطبيب السوري الدكتور عبد القادر سري ، وكان قد قدم إلى العراق مع من رافق الملك فيصل الأول من القوميين العرب بعد تتويج الأخير ملكاً على العراق . وكان الدكتور سري يجري لنا امتحانات أسبوعية عملية ونؤشر النتائج في ملف خاص بكل منا . ولم يدم بقاؤه طويلاً في قسم التشريح .

إضافة إلى من سبق من المساعدين ، كانت القاعة الكبرى تشهد وجود أطباء يعلمون ويتعلمون أثناء تقدمهم لامتحان الماجستير في الجراحة وكان منهم الدكتور عزت عارف .

اعتزت الكلية الطبية بالأستاذ أمين بك عبد الرحمن وجددت عقده للتدريس سنين عديدة ، كما سكن الأعظمية وأحب بغداد وأهلها . وكان رحمه الله يمزح معنا ويقول إن يديه ترتجفان كلما كتب كلمة سرطان على السبورة . وقد أصيب باليرقان وسرعان ما ظهرت عليه علامات أخرى أكدت إصابته بالسرطان المنتشر من البنكرياس وتوفي بعد فترة وجيزة ودفن في مقبرة الأعظمية .

الأستاذ الدكتور محمد طلعت
(1903 - 1978)
أستاذ علم الفسيولوجي

الأستاذ محمد طلعت مصري الجنسية وعالم عربي من أساطين علم الفسيولوجي ، أعيرت خدماته من جامعة القاهرة إلى كليتنا في أوائل الحرب العالمية الثانية وقد سبقت شهرته قدومه إلى بغداد ، فهو تلميذ ومساعد لعالم الفسيولوجي الشهير أنريب Anrep . كان يومها في أواسط الأربعينيات من العمر وقد درّس في كليتنا الدورة التي سبقتنا لسنة كاملة ، أما نحن فقد حاضرنا لفترة وجيزة لم تتعد فصلاً واحداً في فسلجة الجهاز الهضمي وعمليات التمثيل الغذائي .

كانت محاضرات الأستاذ محمد طلعت مفصلة وملذة وغزيرة المادة . ومنها تعلمنا التفكير المنطقي والأسلوب العلمي المبني على التجارب التي كان يجريها على الحيوانات مبرهناً لنا بها على نظريات العالم الروسي الشهير بافلوف التي تستمر أحياناً ساعات طويلة .

وقد ألفنا أن يسبق دخول الأستاذ طلعت إلى قاعة المحاضرات رقم (4) دخول رئيس الفراشين المرحوم (شابا) حاملاً قدحاً فيه ماء يضعه على المنضدة . وخلال إلقائه المحاضرات كان الأستاذ يتناول جرعات صغيرة من الماء يبلل بها ريقه . وبعد أن ينهي المحاضرة كان يبلع قرصين من الاسبرين مع ما تبقى من الماء ولم نعرف سر ذلك الإدمان على الاسبرين .

ألّف الأستاذ طلعت كتاباً بالعربية أسماه «علم الوظائف» أهدى نسخة منه إلى عمي الدكتور عبد الله الدملوجي يوم كان مديراً عاماً للصحة ، وبدوره أعطاني عمي الكتاب فأفادني وأنا أتتبع محاضرات أستاذي ولا زلت أحتفظ به ذكرى لذلك العالم الفاضل .

كان الأستاذ طلعت يتطلع إلى تأسيس قسم متكامل للفسيولوجي في كليتنا ، يعمل فيه أساتذة متفرغون للتدريس والبحوث الطبية . لكن الكلية ، وكانت يوم ذاك لا تزال في نشأتها ، لم تتمكن من الحصول على أطباء متفرغين فاستعانت ببعض الأطباء الممارسين وكان منهم الدكتور كرجي ربيع ، وهو طبيب معروف له عيادة خاصة ، والدكتور محمد علي عبد الفتاح . وكان الأستاذ يترك لمساعديه الإشراف

على الحصص العملية في المختبر ويدربهم على إلقاء المحاضرات النظرية في نفس الوقت . فقد قدم لنا الدكتور محمد علي عبد الفتاح ليلقي علينا محاضرة أعدها عن وظائف المصران الغليظ (القولون) وجلس في صفوفنا يستمع إلى المحاضر . وعندما انتهى الدكتور محمد علي من المحاضرة أضاف هو ما فات المساعد من مواضيع لم يتطرق إليها .

على أن مساعديه كانوا يتضايقون من تأخر الأستاذ في إجراء تجاربه على الحيوانات إلى ساعات بعد انتهاء الدوام الرسمي فيستأذنونه بالانصراف إلى عياداتهم الخاصة بينما يستمر هو إلى نهاية التجربة .

ولعل طالب الطب أنور جعفر الأوقاتي كان أول من شغف بهذا الفرع من الطب فكان ، وهو في الصف الخامس ، يساعد الأستاذ في تجاربه والمساعدين في الدروس العملية . ولما تخرج من الكلية انضم إلى قسم الفسيولوجي مباشرة وعمل فيه لسنوات طويلة . وهنا لابد من ذكر السيد سعيد كلّو ، المساعد الفني في القسم والمسؤول عن تحضير الشرائح النسجية ، وكان دمث الأخلاق وعلى استعداد لمساعدة أي طالب ينشد العون .

غادرنا الأستاذ طلعت إلى القاهرة يوم 19 كانون الأول 1941 بعد أن ألقى علينا 28 محاضرة . وكان غيابه غير المتوقع مفاجئاً لنا ، ولم نعلم بالأمر إلا بعد حين وعندما بدأ الأستاذ المساعد الدكتور كرجي ربيع تدريسنا المادة . وقد حرمنا من علمه الغزير ولطفه الجم وبقيت محاضراته خالدة في ذاكرتنا .

على أن تلامذته ومنهم زميلنا الدكتور صادق الهلالي ، الذي شغف هو الآخر بالفسيولوجي فالتحق به في مصر ونال فيها شهادة الدبلوم الغالي ثم شهادة الدكتوراه في المملكة المتحدة وأصبح أستاذاً في القسم بكليتنا وهو الذي استقدم الأستاذ طلعت ، بعد تقاعده من جامعة القاهرة ، أستاذاً زائراً في سنة 1967 فاحتفى به تلامذته الكثر وقد أصبحوا يومها أساتذة في الكلية فكان يلقي المحاضرات على الطلاب ويشرف على أبحاث هيئة التدريس في القسم . وأذكر أنني ، وكنت سكرتيراً للجمعية الطبية العراقية ، دعوته لإلقاء محاضرة على أعضائها يوم 1967/4/17 في قاعة الزهراوي بالكلية الطبية بعنوان «رسالة الطب والتعليم الطبي» . وقد حضرها عدد كبير من الطلاب والمهتمين بالتعليم الطبي . وقد ضمّنها الأفكار الحديثة في مسار التعليم الطبي على خلفية تدريسية واسعة في البلاد العربية والغربية ونشرت

في مجلة الكلية الطبية .

لم تنقطع علاقة الأستاذ طلعت بالعراق بل كان يُدعى إلى الكلية أستاذاً زائراً لعدد من السنين ، وخلال ذلك تقدم لخطبة إحدى تلميذاته القدامى صديقتنا الدكتورة آمنة صبري مراد وتم الزواج وسافرا إلى القاهرة . على أن ذلك الزواج لم يدم طويلا فحصل الافتراق وعادت إلى بغداد . ويذكر أن للأستاذ طلعت أولاداً من زوجته الأولى هم أساتذة في كليات الطب والهندسة في مصر . توفي رحمه الله في القاهرة .

الأستاذ ريجنالد سام ستيسي R. S. Stacey
(1974-1905)
أستاذ مفردات الطب والمداواة السريرية

قدم الأستاذ ستيسي إلى العراق سنة 1936 وأنيطت به مهمة تدريس مادتي مفردات الطب وفن التداوي إضافة إلى عمله رئيساً للوحدة الباطنية الثالثة في المستشفى الملكي التي ضمّت ردهتي (29) للرجال و(2) للنساء .

كان الأستاذ ستيسي من الشخصيات الفذة والنادرة ، التي عملت بجد في بناء صرح الكلية الطبية العلمي وتثبيت الأسس القويمة التي سارت عليها فيما بعد وأعطتها السمعة العالية .

كان يومها في أواخر الأربعينات من العمر يطفح بالحيوية والنشاط ويوزع وقته بين التدريس النظري للصفين الثالث والرابع والتدريب السريري لطلبة الصفوف العليا وزيارة المرضى في المستشفى ودار التمريض الخاص والعمل في مختبره الخاص الملحق بمكتبه في الكلية ، يجري فيه التحاليل الطبية والبحوث العلمية . هذا ولم يمارس الطب في عيادة أو مستشفى خاص كما فعل غيره من الأطباء البريطانيين .

الأستاذ ستيسي كان دقيقاً ومنظماً في عمله التدريسي . ولم يغب يوماً أو يتأخر عن موعد المحاضرة التي يختمها بنهاية الساعة الزمنية . كان يتكلم بصوت هادئ وواضح ، ومع أنه كان يضع الأوراق على الطاولة إلا أنه نادراً ما عاد إليها أو تطلع فيها أو أنه تطرق إلى موضوع خارج نطاق البحث . وفي محاضراته في المداواة السريرية (فن التداوي) كان يكتب الوصفات على اللوحة ويستعمل النظام المتري في المقاييس ولا يذكر من أسماء العقاقير إلااسمها العلمي ، ويوصينا بعدم استعمال الأسماء التجارية للأدوية في كتابة وصفاتنا بل وجوب ذكر الأسماء العلمية فقط . وكان يشرح عمل العقار في الإنسان والحيوان واستعمالاته ومقاديره العلاجية وآثاره الجانبية . وكنت أرى في تلك المحاضرات صلة الوصل بين الفسيولوجي والطب الباطني وعلاج الأمراض ، أي مدخلاً لتعليم الطب من خلال تدريس علم العقاقير الطبية ومفردات الطب . وقد لا أكون مبالغاً إذا قلت بأننا تعلمنا الطب الباطني على يد هذا الأستاذ بالدرجة الأولى .

وفي التدريب السريري كان الأستاذ مثال المعلم الملتزم بقواعد التدريس المثالي

والطبيب الملتزم بقواعد السلوك المهني الرفيع . كان يستمع إلى العرض الذي نقدمه عن المريض ونجري الفحص السريري أمام ناظريه ، ويقوم هو بالفحص بعدنا مؤكداً أو نافياً لنا العلامات السريرية والمرضية ، ثم يدقق في النتائج المختبرية والتصاوير الشعاعية ثم يناقشنا بكل كبيرة وصغيرة حول المريض بدءاً من التشخيص وانتهاء بالمعالجة ، ولا يفوته أن يحضر فتح الميت لكي يضيف إلى معلوماتنا الطبية . على أنه كان صارماً إذا ما تهاون أحدنا في واجباته التي يكلفنا بها . وقد أعجبت يومها بالجدية التي يتحلى بها ، وأسلوب تفكيره العلمي المنطقي والمنظم . ووجدته أفضل الأساتذة الباطنين وتمنيت أن أعمل بمعيته بعد التخرج .

كان الأستاذ ستيسي حريصاً على زيارة المرضى يومياً وظهر لي ذلك جلياً عندما كنت مقيماً في وحدته ، يوم أن جرى تعداد عام لنفوس العراق في خريف 1946 أعلن خلاله منع التجول فبقينا نحن المقيمين في المستشفى حتى ساعة انتهاء المنع مساءً . ساعتها توجهت إلى داري الواقعة في محلة العيواضية المجاورة للمستشفى لقضاء بعض الأمور المستعجلة قدم خلالها الأستاذ ستيسي إلى المستشفى لزيارة المرضى في الردهتين التاسعة للرجال والثانية للنساء للاطمئنان على سير علاجهم . ولما دخل الردهة ولم يجدني طلب من المرحوم الدكتور محمد الجلبي ، وكان مقيماً أقدم في الردهة الثامنة ، اصطحابه في الزيارة . وقد أظهر لي في اليوم التالي امتعاضه من تصرفي في مغادرة المستشفى مفترضاً توقعي حضوره لزيارته اليومية المعتادة للمرضى ، وإن كانت في المساء ، وتقديم الجديد من الحالات المرضية إليه .

وقد بان لنا حرصه على رعاية المرضى كذلك عندما أصيب هو بكسر في عموده الفقري ، نتج عن ممارسة رياضة التزلج في شمال العراق ، وعولج بوضعه في جبيرة واسعة فكان يقوم بالدورة اليومية على المرضى وهو في كرسي ذي عجلات يدفعه فيه (يعكوب) فراش ردهة (2) أو (زغيّر) الفراش في قسم الفارماكولوجي .

ومن مظاهر تمسكه بالضبط والنظام ما حصل عندما قدم يومها أحد الضباط البريطانيين ، وكان برتبة ميجر ، إلى الردهة التاسعة وقدم نفسه لنا أنه طبيب باطني يعمل في معسكر قريب من بغداد ، وسأل عن إمكانية حضوره الدورة اليومية للمرضى فأجابه الدكتور عادل الدوغرامه جي بوجوب مراجعة رئيس الوحدة أو مدير المستشفى الملكي للحصول على الموافقة . لكنه بدلاً من مراجعة المسؤولين انضم إلى لفيف من طلبة الصف السادس كانوا يفحصون مريضاً راقداً في الردهة وهم بانتظار

قدوم الأستاذ ، الذي ما لبث أن حضر فاستغرب من وجود الضابط وسأل الدكتور عادل عن سبب حضوره . ولما علم أنه لم يحصل على إذن مسبق ظهرت على وجهه علامات الغضب والامتعاض واستدعى الضابط إلى غرفة في مدخل الردهة ، وبعد كلام بينهما لم يستغرق وقتاً طويلاً أدّى الضابط التحية العسكرية وانصرف حالاً .

وفي حادث آخر كنا نعالج ، في دار التمريض الخاص ، سيدة معروفة هي زوجة أحد الوزراء المتنفذين مصابة بالسكر . وكانت خطة العلاج تقضي أن نرفع كمية الإنسولين تدريجياً حتى الحصول على مستوى معتدل من السكر في الدم . ومضت الأيام ونحن عاجزون عن السيطرة على مستوى السكر المرتفع بالرغم من حقنها كميات مرتفعة من الإنسولين . وفي زيارتنا الأخيرة لها قال لي أنه يتعجب لعدم إمكانية السيطرة على السكر . وفجأة التفت إلى المس كنغستون ، كبيرة الممرضات التي ترافقنا في الزيارة ، وطلب منها فتح الدولاب المجاور لسرير المريضة فوجدت فيه كميات كبيرة من البقلاوة . ولما سأل السيدة المريضة إن كانت تأكل منها أجابت بابتسامة بالإيجاب قائلة إنها تحب البقلاوة ، ولما كانت تتناول الإنسولين فإنها تأكل منها كما تشاء . فسألها إن كنا قد نصحناها بالامتناع عن الحلويات فأجابت إنها تعرف ذلك جيداً . هنا غادر الأستاذ الغرفة وتبعناه إلى الخارج حيث أمر كبيرة الممرضات بإخراجها من المستشفى .

كان الأستاذ ستيسي ضمن قلة من الأساتذة الأطباء في بغداد الذين يتابعون التطورات الحديثة في الطب زمن الحرب العالمية الثانية وانقطاع المواصلات مع أوروبا . ولكن ، بالرغم من ذلك ، كانت المجلات الطبية تصله بانتظام وكذلك بعض الأدوية الحديثة لغرض التجربة العلمية . وقد كانت له اهتمامات خاصة بتشمع الكبد وعلاقته بسوء التغذية ، كما كان أول من استعمل طريقة خزع الكبد بآلة خاصة (طريقة شارلوك) وصلت له شخصياً من المملكة المتحدة . وكتب عدداً من البحوث بهذا الخصوص نشرت في بريطانيا . وأذكر أنه كان يداوي تضخم الطحال المفرط بزرق المريض كميات قليلة ومتزايدة من الأدرينالين ، وهو أسلوب كان دارجاً في تلك الأيام ولكنه أثبت فشله فيما بعد . وفي بغداد كان الأستاذ ستيسي رئيساً لتحرير مجلة الكلية الطبية الملكية العراقية ، التي تصدرها العمادة ، وتصدر ست مرات سنوياً ، كما أنه شغل منصب مدير الكلية الطبية لفترة وجيزة .

وعدني الأستاذ ستيسي أن يدربني في سنة الإقامة الثانية في مختبره الخاص

ويشركني في بحوثه الطبية ، وان احضر في محاضراته في الفارماكولوجي وفن التداوي علاوة على استمراري في العمل مقيماً أقدم في الوحدة ، ولكن سفره المفاجئ أثناء إجازتي في لبنان حال دون تنفيذ تلك الأمنية .

في ربيع عام 1947 ، توجه الأستاذ ستيسي إلى حاج عمران في شمال العراق كعادته كل سنة ليمارس رياضة التزلج على الجليد وهناك أصيب بكسر في الفقرات ، إثر سقوطه من جبل مرتفع ، فنقل على الفور بطائرة خاصة إلى بغداد وأدخل دار التمريض الخاص . ولما زرته ، وكنت يومها راقداً في الغرفة المجاورة لغرفته إثر إصابتي بالارتشاح البلوري ، وجدته ممدداً على سرير خشبي مائل إلى الأسفل ورأسه وأطرافه مربوطة بالعتلات . وبقي على هذا الوضع قرابة ستة أسابيع كان خلالها يقرأ الكتب ويستمع إلى الموسيقى الكلاسيكية ، ثم ما لبث أن استأنف عمله في المستشفى متنقلاً على الكرسي الدوار .

في صيف 1947 ، كتبت لي صديقتي الدكتورة كريستين رسام ، وكنت في لبنان ، رسالة جاء فيها أن العمادة لم تجدد عقد الأستاذ ستيسي وأنه غادر العراق إلى بريطانيا وحل محله الدكتور مهدي فوزي رئيساً للوحدة الباطنية الثالثة .

في المملكة المتحدة عين الأستاذ ستيسي أستاذاً ورئيساً لقسم الفارماكولوجي بكلية طب سانت توماس في جامعة لندن وشغل المنصب سنوات عديدة ، ثم عمل خبيراً في إحدى شركات الأدوية الكبرى . ولم ينقطع خلالها عن إجراء البحوث الطبية .

وفي سنة 1964 ، وضمن المنهج الذي اختطته الكلية لتكريم أساتذتها القدامى ، دعونا الأستاذ ستيسي لزيارة الكلية وإلقاء المحاضرات إلى الطلبة والأطباء في الدورات الطبية التخصصية . وأقمنا له ، نحن تلامذته الذين تدربنا على يديه ، حفلة عشاء تكريمية في إحدى الفنادق الكبرى ألقى فيها الأستاذ كلمة رقيقة افتتحها بنكتة أن رجلاً وجد صديقاً له يركض بسرعة فائقة يبدو مرتعباً ويتلفت خلفه ، فسأله إن كان هناك أسد يطارده لافتراسه فأجاب يا ليت الأمر كان كذلك ، بل أنه دعي من قبل تلامذته لإلقاء محاضرة ليست من النوع الذي اعتاد إلقاءه عليهم . ثم استمر وأشاد بالطالب والطبيب العراقي وذكر البعض من ذكرياته الجميلة لأكثر من عقد من الزمان أمضاه في العراق . وقد أجبته على خطابه بكلمة مناسبة نوّهت بها بالفضل الذي أسبغه على كليتنا وبالروح العلمية والمستوى الخلقي الذي غرسه في نفوسنا .

وفي تلك الزيارة دعوته وزملاء أطباء لحضور جلسة (درباشة) في جامع الشيخ جنيد في الكرخ ورأى بأم عينيه مشهد إدخال السيوف والخناجر في أحشاء من انضم إلى الساحة . ولما سألناه عن تفسيره لتلك الظواهر لم يحر لها جواباً علمياً . وقال أنه متأكد أن ما رآه لم يكن خداع بصر .

أصيب الأستاذ ستيسي بسرطان البروستات واكتشف المرض بعد انتشاره إلى أنحاء أخرى من الجسم ،لكنه لم يتوقف عن بحوثه ومحاضراته بالرغم من ظهور آثار العلاج الكيمياوي والمسكنات عليه . ثم جاءنا ذكر وفاته في جريدة التايمس اللندنية . وقد قمت بواجب العرفان لفضله ونعيته في باب الأخبار في مجلة كلية الطب العراقية وفي باب الوفيات في المجلة الطبية البريطانية B. M.J. .

الأستاذ الدكتور أحمد الحلواني
أستاذ أمراض الطفيليات (باراسيتولوجي)

في عقدي الثلاثينات والأربعينات قام المسؤولون على شؤون التربية والتعليم بدعوة العلماء والأساتذة البارزين في مصر والبلاد العربية للمشاركة في تدريس الطلبة بالمدارس العليا والكليات . وشهد جيلنا حضور أساتذة كبار مثل الدكاترة السادة عبد الرزاق السنهوري ومحمود عزمي ومصطفى كامل وجابر جاد في كلية الحقوق ، وأحمد أمين وزكي مبارك وعبد المنعم خلاف وعلي الطنطاوي في دار المعلمين العالية وزين زين وقسطنطين زريق وزكي الأرسوزي في موضوع التاريخ الحديث ، وأمين بك عبد الرحمن ومحمد طلعت وسعيد عبده وأحمد الحلواني في كلية الطب .

كان الأستاذ أحمد الحلواني عالماً بارزاً في علم الطفيليات وخبيرا دولياً في مرضي البلهارزيا والملاريا . عمل سنوات طويلة في مصر والدول الأفريقية والغربية . قدم إلى العراق سنة 1939 معاراً من جامعة القاهرة للتدريس في الكلية الطبية الملكية العراقية ، وعيّن رئيساً للوحدة الباطنية الرابعة (ردهة 6) في المستشفى الملكي يعاونه فيها الدكتور علي الحمامي والدكتور سامي حنا خياط . ثم أنشأ معهداً للأمراض المتوطنة وضم إليه ردهة خاصة لعلاج المرضى المصابين بالأمراض المتوطنة ولإجراء البحوث الطبية ، بما فيها استعمال العقاقير الحديثة على المرضى المصابين .

عملت معه نخبة من الأطباء كان منهم أحمد صميم الصفار وعبد الستار شاهين وعلي الحمامي وسامي حنا خياط وعبد السلام سهيل . وقد قام الأستاذ الحلواني ، بالمشاركة مع الدكتور أحمد صميم الصفار ، بتأليف كتاب عن الملاريا وتكفلت مديرية صحة العاصمة العامة بطبعه وتوزيعه على الأطباء والمؤسسات الصحية في العراق .

كان الأستاذ الحلواني يبدو للناظر ساهماً ويمشي بخطوات بطيئة وعلى رأسه قبعة رصاصية اللون . وعندما يقف لإلقاء محاضرته يلقي القبعة جانباً ويتكلم بسرعة وبصوت خافت غير مسموع تقريباً . كانت المعلومات التي يلقيها علينا غزيرة بالمادة وبأسماء الطفيليات التي تعد بالمئات ، وذلك يجعلنا نكتب كل ما يقول لئلا يفوتنا شيء من تلك المعلومات . على أنه ، وكما ذكرت سابقاً ، كان يبدأ بإلقاء المحاضرة

متأخراً في الصباح ولا يتوقف في نهايتها إلا بعد سماع لغط الطلاب وظهور المحاضر التالي على باب قاعة المختبر .

قام الأستاذ الحلواني بدراسة واسعة عن البلهارزيا في العراق ونشر ، مع الدكتور واطسون Watson خبير البلهارزيا في مديرية الصحة العامة وأستاذ الطفيليات في كلية الصيدلة ، بحثاً تجريبياً هاماً عن علاج المرض المذكور بعقار حديث يومها اسمه (ميراسيل دي Miracil-D) . وعندما توفر لنا العقار سنة 1949 ، قمت بالمشاركة مع الدكتور واطسن والدكتور مهدي فوزي بعلاج مرضى البلهارزيا به ونشرنا بحثاً عن نتائجنا في مجلة عمادة كلية الطب العراقية تناقلته المجلات المختصة بالأمراض المتوطنة في أوروبا والغرب .

في نهاية الأربعينات عاد الأستاذ الحلواني إلى مصر للتدريس في كلية طب جامعة القاهرة ، وعيّن بعدها عميداً لكلية طب القصر العيني ثم رئيساً لمعهد الأمراض المتوطنة وخبيراً دولياً في منظمة الصحة العالمية . وفي اجتماع المنظمة السنوي عام 1956 ، وكنت عضوا في الوفد العراقي إلى المؤتمر المذكور أحضر الجلسات العلمية المتخصصة ، كنت أرى الأستاذ الحلواني ، وهو بصفة مراقب في الوفد المصري ، يحضر جلسات خبراء البلهارزيا . وحيثما يحتدم الجدل بين الأعضاء ، كان رئيس الجلسة يحتكم إلى الأستاذ الحلواني فيبدي رأيه الذي كان بمثابة القول الفصل الذي سرعان ما يوافق عليه الخبراء ، وكان كافة الحضور يكنّون للأستاذ الاحترام والتبجيل .

وكما استدعي الأساتذة القدامى لزيارة كلية الطب في أواسط الستينات وإلقاء المحاضرات والمشاركة في الامتحانات ، كذلك لبى الدعوة الأستاذ الحلواني وتكلم في الجمعية الطبية العراقية وحاضر على مدرجات الكلية وشارك في امتحانات طلبة الدراسات العليا واحتفى به طلابه القدامى خير احتفاء .

وبعد تقاعده عن العمل في مصر طلب إلى الأستاذ الحلواني ، في أواسط السبعينات ، أن يرأس مجلس البحوث الطبية في بغداد ، فحضر وعمل بهمة مع الباحثين في كلية الطب وكلية العلوم . ولم تدم إقامته في بغداد طويلاً هذه المرة إذ عاد إلى مصر وتوفي إلى رحمة الله هناك .

الأستاذ الدكتور شوكت الزهاوي
(1896 - 1994)
أستاذ علم الأمراض (الباثولوجي)

انحدر الأستاذ شوكت الزهاوي من عائلة عراقية عريقة ، كردية الأصل بغدادية المنبت ، انجبت العديد من الأدباء والشعراء وعلماء الدين واللغة . تخرج في الآستانة (استانبول) سنة 1919 ، وفي سنة 1922 عيّن طبيباً في المختبر المركزي ببغداد ومعاوناً للدكتور ميلز Mills ثم أوفد إلى أوربا للتخصص في علم الأمراض (الباثولوجي) . وعندما افتتحت الكلية الطبية في بغداد قام بتدريس الباثولوجي العملي لعدة سنوات . ولما أوكل إلى الدكتور ميلز ، أستاذ الموضوع ، تدريس الأمراض المعدية والصحة العامة والطب الوقائي كلّف الدكتور الزهاوي بتدريس الباثولوجي النظري ولكنه لم يمنح لقب الأستاذية إلا في سنة 1953 ، ولم يكن قبل ذلك على ملاك الكلية الطبية ، بل كان مديراً للمختبر المركزي التابع إلى مديرية الصحة العامة ثم إلى وزارة الصحة عند إنشائها سنة 1952 . وعلى خلاف الكثرة السائدة من الأطباء لم يمارس الأستاذ الزهاوي اختصاصه في عيادة خاصة به أو في مستشفى أهلي .

لم تكن محاضرات الأستاذ الزهاوي على المستوى الذي نرجو ، وكان يملي علينا دروسه دون وسائل إيضاح إضافة إلى أنه لم يكن يجيد اللغة الإنجليزية ، لغة التدريس يوم ذاك . وكان التدريب العملي في المختبر يتم بإشراف المساعد الدكتور يوسف دانيال بمستوى متوسط .

على أن الأستاذ الزهاوي عمل بهمة لإنجاز مشروع متحف الباثولوجي الذي جمع فيه النماذج الطبية الشائعة والنادرة ، فكان مرفقاً مهماً من مرافق التدريس والبحث للطلاب والخريجين على حد سواء . وكانت غرف فتح الميت ، التي كنا نحضر فيها تشريح الحالات المرضية تلي المتحف المذكور وفيها تعلمنا الكثير طلاباً وأطباء بعد التخرج من الكلية .

وبفضل الأستاذ الزهاوي توسع المختبر المركزي فكان المرجع للتحليلات المرضية والبايولوجية والكيمياوية ، وأصبح يضم عدة أقسام ومنها مختبر باستور للتلقيحات والمصول وغرف حيوانات التجارب . وانضم إليه بمرور الزمن أطباء من خريجي كلية الطب الأوائل ومنهم عبد الرحمن القطان وكمال رشيد وناجي جيتايات وكارنيك

أوانيسيان ورؤوف سيمح ثم أحمد الشماع ويوسف عقراوي وجوزفين شابي وخليل الآلوسي ومجيد الآلوسي وكامل الجواهري . وكلهم برزوا في حقل اختصاصهم وأثروا الوسط الطبي بدراساتهم وبحوثهم على مدى سنوات طويلة .

كان الأستاذ الزهاوي مولعا بإجراء البحوث العلمية ونشرها في الدوريات الطبية الأجنبية ولم يكن يفارق المكروسكوب (المجهر) كلما توجهت لزيارته في مشكلة طبية . وكان يصدر كتيباً سنوياً يسرد فيه الأعمال التي قامت بها مختلف أقسام المعهد مع الإحصائيات ويرفق بها البحوث العلمية التي أجريت . وفيه نشر اكتشافه مرض (الكلى الملونة) في الماعز العراقي الذي كان له صدى في الأوساط الطبية في مؤتمرات علمية في أوروبا وأمريكا .

أسند ، في سنة 1946 ، إلى الأستاذ الزهاوي منصب وزارة الشؤون الاجتماعية ثم عاد بعدها إلى التدريس وإدارة المعهد الباثولوجي المركزي حتى أقعده مرض الروماتزم الرثيوي المتعدد فتقاعد عن العمل الطبي (1959) وانصرف إلى كتابة (علم الأمراض) بالعربية ضمنه خلاصة تجاربه في الأمراض الشائعة والنادرة لحقبة تجاوزت أربعين عاماً من العمل الدؤوب في مجال اختصاصه .

اعتكف الأستاذ الزهاوي في داره في العيواضية ، وكنت أزوره بين الفينة والأخرى فكان محدثاً لبيباً في شتى المواضيع العلمية والفكرية والتاريخية . وكان يلاطفني قائلا إن والدي درّسه مبادئ العلوم (البايولوجي والكيمياء) وأنه درسني علم الأمراض (الباثولوجي) . وبقي إلى سنوات عمره الأخيرة علمياً في تفكيره وتقدمياً في مبادئه الإنسانية والاجتماعية . وتوفي إلى رحمة الله في بغداد عام 1994 عن عمر ناهز التسعين عاماً .

الأستاذ كولين بيتي Professor Collin Beattie
(1987-1902)
أستاذ علم الجراثيم (البكتريولوجي)

كان الأستاذ بيتي من أبرز الأساتذة البريطانيين الذين قاموا بالتدريس في الكلية الطبية الملكية العراقية والعمل بكل جد وإخلاص على تطوير المختبر البكتريولوجي التابع إلى مديرية الصحة العامة . كان يومها في أوائل الأربعينات من العمر يتمتع بنشاط وافر ودماثة في الخلق ورحابة صدر مع الطلاب والأطباء المساعدين . وكان محاضراً ممتازاً يبسّط المادة التي يلقيها علينا بتسلسل منتظم ومتقن ممزوج أحيانا بالفكاهة والمرح . كان قصير القامة أحمر الشعر لا تفارق الابتسامة وجهه ، وعندما يتكلم أو يحاضر تفاجأ بصوته الجهوري ذي النبرة الباريتونية التي لا تتناسب مع حجمه الصغير .

كان يتوجه بخطوات سريعة هي أقرب إلى الركض منها إلى المشي بتمام الثامنة صباحا من مختبره مرتدياً الصدرية البيضاء ويدلف إلى مبنى الكلية ومنها إلى قاعة البكتريولوجي العملي ويبدأ بإلقاء محاضرته مستعيناً بقصاصات ورق صغيرة الحجم فيها رؤوس أقلام المواضيع التي يبحثها .

تخرج الأستاذ بيتي من كلية طب جامعة أدنبرة في اسكوتلندا سنة 1928 ، وكان قد نال شهادة في الأدب الكلاسيكي قبل أن ينتمي إلى كلية الطب ثم انضم إلى هيئة التدريس فيها طبيباً ومحاضراً في قسم البكتريولوجي بمعية أستاذه «ماكي» صاحب الكتاب الشهير باسمه في علم البكتريولوجي والذي اعتمدناه لدراستنا آنذاك .

قدم الأستاذ بيتي إلى بغداد سنة 1937 ، وعهد إليه كرسي الأستاذية في البكتريولوجي بعمادة الكلية وإدارة المعهد البكتريولوجي الحكومي التابع إلى مديرية الصحة العامة .

لم يتجاوز عدد محاضرات موضوع البكتريولوجي التي ألقاها علينا ثلاثين محاضرة ، أي بمعدل ساعة واحدة أسبوعياً طيلة الفصول الدراسية الثلاثة والتي كانت زاخرة بالمادة ، يضاف إليها تدريب عملي في المختبر ساعتين أسبوعياً يحضر فيها الأستاذ بيتي شخصياً ومعه معاونوه الدكتور ناجي جيتايات والدكتور كمال

رشيد ، ويتمم خلالها ما ألقاه من مادة في الساعة النظرية ثم يدور بيننا في المختبر شارحاً ، ويرد على استفساراتنا ويشاركنا أطراف الحديث أثناءها فوجدناه ، في خارج نطاق العلم والدرس مثقفاً ومحباً للموسيقى والآداب إضافة إلى كونه ودوداً وإنسانياً . وفي الامتحان الشفهي كان يبدي كل مساعدة ممكنة لطمأنة الطالب في إجاباته .

وبالنظر إلى قلة عدد المحاضرات التي ألقاها الأستاذ بيتي ، مقارنة بعددها في الدروس الأخرى للصف الثالث ، فقد تقاعس البعض من الطلبة أن يولي المادة الاهتمام الكافي والمراجعة الجدية فلم يتوفق في الامتحان وأعاد السنة ، وكان منهم صديقي خيري عبد الرحمن الدباغ الذي رسب في مادة البكتريولوجي في كلا امتحاني حزيران وأيلول سنة 1941 ، بينما نجح في باقي الدروس ولكنه أعاد السنة لحضور محاضرات البكتريولوجي فقط ، ولم يكن هناك يومها نظام عبور يسمح فيه للطالب أن يزحف إلى الصف التالي على أن يتقدم للامتحان في المادة التي رسب فيها خلالها . وكان زميلنا ، وزميل من سبقنا ، المرحوم ضياء الدين الدخيلي ، طالب الطب المزمن الذي لم يتخرج ، قد رسب سنتين متتاليتين في موضوع البكتريولوجي فقط ورقن قيده ، ثم عاد بعد السماح للراسبين بمعاودة الدراسة عند قيام ثورة 14 تموز ووصل إلى الصف السادس ورسب مراراً ولم يتخرج طبيباً . وكان شاعراً هجا الأستاذ بيتي بقصيدة مطلعها :

ستأتيك القصائد هادرات

على بيتي وشر الناس بيتي

أولعت خلال دراستي الطبية بعلم البكتريولوجي . وبعد نجاحي من الصف الثالث راجعت الأستاذ بيتي خلال عطلة الصيف راجياً منه السماح لي للتدريب في المختبر ، فرحب بي كثيراً وأفرد لي مجهرا خاصاً بي وكان يكلفني بالقيام بالتحليلات المايكروبايولوجية تحت إشرافه . وكنت يومها أرغب أن أتخصص بالبكتريولوجي بعد تخرجي من الكلية ، لكن زميلي خالد القصاب لم يشجعني وكان يعتقد إن العلوم المختبرية محدودة ومجال البحث والتقدم فيها ضيق .

غادر الأستاذ بيتي العراق متوجهاً إلى بريطانيا بتاريخ 1946/8/22 بعد أن قضى تسع سنوات في العراق ، وصفها فيما بعد أنها من أسعد أيام حياته ، ليشغل كرسي الأستاذية في جامعة شيفيلد لفترة دامت أحد عشر عاماً كان خلالها طبيباً استشارياً لعدد كبير من المستشفيات البريطانية . وكان قد أصبح يومها خبيراً في مرض حمى

مالطة الذي بدأ بحوثه فيه منذ أن كان معيداً ومحاضراً في جامعة أدنبرة ثم في بغداد . وكتب العديد من المقالات عن انتشار المرض وتشخيصه . على أنه برز في البحث عن مرض آخر هو التوكسوبلازموزس الذي نشر بحوثاً عن انتشاره في الكلاب السائبة في بغداد (وأحتفظ بمستل لمقال نشره في مجلة الصحة البريطانية سنة 1937) . وتابع تلك البحوث عندما انتقل إلى بريطانيا فاكتشف دورة حياة الطفيلي وطريقة تشخيصه بزرق دماغ الشيران بالمادّة المرضية ومن ثم ألف كتاباً عن المرض اعتبر مرجعاً علمياً مهماً عن المرض المذكور .

لم يتخل الأستاذ بيتي عن التدريس والعمل بعد تقاعده من الجامعة سنة 1967 بل استمر مدرساً في مختبرات الكلية والمستشفى واستشارياً فخرياً يعمل في المؤسسات الصحية حتى أقعده المرض في أيامه الأخيرة .

ولابد هنا من الإشارة إلى زوجة الأستاذ بيتي التي رافقته في مسيرة حياته منذ أن تعرف بها في أدنبرة . كانت ، هي الأخرى ، مساعدة له وقد نالت شهادة الدكتوراه في البكتريولوجي من الجامعة ذاتها . وكانت سيدة فارعة الطول على عكس زوجها ، أنيقة ولطيفة المعشر وأحبت بغداد وولعت بالسجاد الشرقي فأصبحت خبيرة دولية بالسجاد الشرقي .

قدم الأستاذ بيتي وزوجته إلى بغداد بدعوة من عمادة الكلية في أواسط الستينات واحتفى بهما طلابه ومساعدوه وتسابق الأطباء بدعوته وتكريمه .

الأستاذ آرنولد ميلز Professor A. Mills
(1964 - ?)

رجل في أواسط الخمسين من العمر فضي الشعر ينظر إليك من فوق نظارتيه ويخاطبك بصوت واطئ ودافئ ، ويشعرك كلامه أنك أمام شخصية فذة متعددة الجوانب فهو خبير بالطب والعلم والتاريخ والموسيقى والآداب (والنساء أيضاً) : لا تفارقه صدرية صوف رصاصية اللون تقادم عليها الزمن فبانت الثقوب فيها . كان يرتديها شتاءً وصيفاً ، وعندما سألته عن سر ارتدائه تلك البلوزة الأزلية أفادني أنه قد أصيب بالإسهال إثر قدومه إلى العراق مع الجيش البريطاني سنة 1919 ، ولم يجد علاجا لتلك العلة سوى لبس صدرية الصوف التي نصحه بها أحد الهنود . وكان كلما حاول نزعها عاوده الإسهال فاضطر بالأخير إلى ارتدائها بصورة مستمرة حتى في أيام الصيف القائظ . وعجبت أنا من أستاذ الأمراض والعارف ببواطنها لا يجد لتلك الظاهرة تفسيراً .

كما أسلفت ، قدم الأستاذ ميلز إلى العراق مع الجيش البريطاني وأعيرت خدماته إلى مستشفى «المجيدية» سنة 1922 . وكان فيها مسؤولاً عن المختبر المركزي ثم مديراً لمعهد باستور والتحليلات المرضية . وعندما افتتحت الكلية الطبية ، عين سنة 1929 أستاذاً لعلم الأمراض (الباثولوجي) ، ثم أستاذاً للصحة العامة والأمراض السارية . وكان يومها متزوجاً يسكن أحد دور الأطباء في المستشفى ، لكن زوجته وابنته الوحيدة تركتاه بعد سنوات قليلة من قدومهما إلى العراق ولم تعودا إليه كما أنه لم يذكرهما أبدا . وقد سكن فيما بعد إحدى دور محلة العيواضية بالقرب من دارنا . وكنت أشاهده كل مساء متوجهاً إلى مستشفى مير إلياس الأهلي الواقع في العيواضية ، وكان يعمل فيه مسؤولاً عن التحليلات المرضية والباثولوجي .

في السنة الرابعة من الدراسة في الكلية ألقى علينا الأستاذ ميلز محاضراته في الصحة العامة والأمراض السارية . وكان يتوجه من مكتبه في بناية المختبر المركزي الواقع مقابل بناية الكلية مرتدياً صدرية بيضاء يعلوها الروب (العباءة) الجامعي الأسود القصير ، بالنسبة إلى قامته الفارعة ، وكان الروب متهرياً شأنه شأن بلوزته الرصاصية العتيدة .

كان أسلوب إلقاء محاضراته يتراوح بين الإملاء وبين الشروح المستفيضة

المستمدة من خبرته الواسعة في الأمراض السارية ، فكان يتكلم عن الكوليرا في الهند وكربلاء كما عرفها ، وعن الإنفلونزا العالمية في سنة 1919 وما تلاها من اختلاطات ووفيات ، وعن الطاعون في شمال العراق وكذا الحال عن الخناق والحصبة والجدري والكزاز وشلل الأطفال . وكان يبدأ محاضراته دوما بـ«سيدتي وسادتي» ، والسيدة الوحيدة كانت زميلتنا في الصف هي ماركريت كساب (شكري) . كان دائم القول «أرجوكم تذكروا ، ولا تنسوا ، يا سيدتي وسادتي . .كذا وكذا» . ولديه الكثير من الـ Dogma ، ومن ذلك قوله لنا بعد رجاء التذكر :

«You can eat cholera, you can drink cholera , but you cannot catch cholera».

كان الأستاذ ميلز دقيقاً في مواعيده ومحاضراته وحريصاً على أداء الواجب التدريسي ، يرعى تلامذته ولا يألو جهدًا في تعليمهم وإفادتهم من علمه الغزير ، ولم ينقطع يوماً عن إلقاء محاضراته ، حتى أنه أصيب بمرض التهاب الكبد (اليرقان) ومع ذلك استمر على حضوره قاعة الدرس وإلقاء الدروس كالمعتاد ، بالرغم من توسلاتنا إليه لتأجيل بعضها حتى يبلّ من مرضه ، فكان يبتسم ويقول أن مرضه هو زكام طارئ في الكبد سرعان ما يشفى منه ولا يحتاج إلى علاج دوائي .

أكمل الأستاذ ميلز المنهج المقرر ودخلنا الامتحان النهائي ونحن واثقون من أنفسنا ، ونلت أعلى درجة في درسه وحصلت على الجائزة التي خصصها وكنت سعيداً أن أكون الطالب المتميز في الطب الوقائي والصحة العامة .

نشر الأستاذ ميلز عدداً من المقالات عن الأمراض المستوطنة في العراق ونوادر الوقعات المرضية . وكان لديه مجموعة نادرة من الشرائح المجهرية تعد بالآلاف جمعها خلال سنوات طويلة في العراق ضمّت أنواعاً متعددة من النماذج النسجية والطفيليات . وخلال غيابه عن المختبر أثناء حركة رشيد عالي الكيلاني سنة 1941 ، داهم البعض من المتهورين مكتبه وحطموا تلك المجموعة النفيسة فتألم كثيراً ولكنه عاد يجمع النماذج والشرائح ثانية . وكنت ترى المئات منها ، والتي يحضرها بنفسه ، موضوعة على المنضدة الخشبية الكبيرة دون ترتيب أو تعريف ، ولكنه يعرف كلاً منها معرفة دقيقة كأنه أب يميز أعضاء أسرته فرداً فرداً .

توطدت علاقتي بالأستاذ ميلز بعد تخرجي من الكلية . وعندما كنت مقيماً في الردهات الباطنية كنت أراجعه في الأمور المختبرية والباثولوجية ، فيناقش معي الحالات المرضية التي أعرضها عليه بسعادة فائقة وبموقف أبوي ، شارحاً لي كل

صغيرة وكبيرة . وقد تعلمت منه الكثير كالصبر والدقة في التحري ونشدان الحقيقة الصرفة . وكنت أراه يقضي وقتاً طويلاً في تحري المرضيات تحت المجهر . وفي الوقت الذي كان فيه معظم العاملين في المختبر من أطباء إلى فنيين يلقون شبه نظرة على شريحة فحص البراز مثلاً ، كان الأستاذ ميلز يقضي ما لا يقل عن عشر دقائق لفحص تلك الشريحة ، وكان يسعده أن يظهر لنا وبوضوح المرضيات الموجبة بعد أن يثبتها تحت المجهر .

وفي هذا الخصوص فلن أنسى طالبة التمريض ، يوم أن كنت مسؤولاً عن العناية الصحية بالمرضات وطالبات التمريض ، التي أصيبت بالحمى والصداع وحصل لدي اشتباه بإصابتها بذات السحايا الدماغية الحادة ، فأخذت منها عيّنة من السائل الشوكي وتوجهت إلى الأستاذ ميلز للفحص المجهري والكشف عن الجراثيم فيه فكان تقريره الأولي عدم وجود مكروب فيه . إلا أنه عاد بعد ساعة من الزمن ، وكنت قد تركت المستشفى بعد انتهاء الدوام ، فاتصل بي تلفونياً إلى داري ليعلمني أنه كشف على وجود مكروب المننجوكوكس في السائل بعد تحرٍ دقيق وطلب مني الحضور إلى المختبر للاطلاع على الشريحة . وعزا ندرة وجود المكروب إلى أن طالبة التمريض قد حقنت بالبنسلين قبل التشخيص . فتوجهنا سوية إلى غرفة مرضى طالبات التمريض المجاورة للردهة (2) وفحصنا المريضة ثانية وبدأنا علاجاً مركزاً بالبنسلين مع عقار السلفا ، وتشافت فيما بعد من المرض نهائياً .

كنا نتابع تدريس الأستاذ ميلز للدورات المتتالية من طلبة الكلية ، وبقيت اتصالاتنا العلمية معه مستمرة نستشيره فيما يصعب علينا من الأمور العلمية والأمراض ، كما كنا نزوره في داره بالعيواضية صبيحة كل عيد لميلاد السيد المسيح (الكرسمس) للتهنئة ، فيقدم لنا «الشيري» والحلويات ثم يعزف على البيانو قطعاً موسيقية قصيرة من موزارت وشوبان ، ونتمنى له عاماً سعيداً . وكانت داره مثل مختبره بدون تنظيم ، ونلاحظ أن غرفة الضيوف مسدلة الستائر على الشبابيك ونادراً ما تفتح للنور . وفي السنوات التي تلت كنت أزوره صبيحة أيام الجمعة ، فيروي لي ذكرياته عن الهند والجنوب العربي وخاصة عن صلالة ومسقط والقلاع البرتغالية في حضرموت وعن العراق في العشرينات ، والشخصيات العراقية التي عرفها وعالجها مثل الملك فيصل الأول وعبد المحسن السعدون وعودة أبو تايه ونوري الشعلان ، وكذلك الشخصيات البريطانية مثل المس غيرترود بيل (الخاتون) وغيرهم كثير . وكان

في مكتبته عدد كبير من الكتب وله ولع باقتناء الطبعات الأولى منها ، وقد أعارني مرة كتاب (حاجي بابا أوف أصفهان) ، وهو في جزئين ، وضحكنا عندما وجدنا أن تاريخ طبع تلك النسخة ، وكانت الأولى ، عام 1824 أي بمئة سنة قبل ولادتي .

كان الأستاذ ميلز لا ينكر ميله إلى الجنس اللطيف ، ويحيط نفسه بالجميلات من الممرضات ونادراً ما كنا نرى منهن من هي متوسطة الجمال . هذا ولم يتزوج بعد أن تركته زوجته .

في أواسط الخمسينات اشتكى الأستاذ ميلز من الفتق المغبني فأدخل الردهة 17بالمستشفى الملكي وأجرى له تلميذه الدكتور غانم عقراوي العملية اللازمة وزرناه في الردهة وتمنينا له الشفاء .

وعلى إثر ثورة 14 تموز 1958 أنهيت خدمات الأستاذ ميلز لبلوغه السن القانونية ، ولما لم يكن يرغب بمغادرة العراق ، وهو الذي أحبه واتخذه مستقراً دائماً له وقام بخدمة الدولة العراقية زهاء أربعين عاماً ، فقد طلب مقابلة رئيس الوزراء الزعيم عبد الكريم قاسم وكانت بينهما معرفة سابقة وأجيب طلبه فرجاه منحه الإقامة الدائمة ، إذ كما قال له وكما أخبرنا أن لا أهل ولا وطن له سوى العراق الذي اعتبره وطنه الأول ، وإن غاية ما يصبو إليه هو أن يدفن فيه بعد وفاته . فوافق «الزعيم» على طلبه .

على أن حالته النفسية تغيرت بعد انقطاعه عن الدوام في المختبر وأصابه داء النسيان وبدا عليه الذهول عندما زرناه في داره . ولم ينقطع البعض من زملائنا عن زيارته ومنهم الدكتور سليمان الفخري والدكتور خالد ناجي اللذين شهدا لنا أنه بدأ يفقد الذاكرة تدريجياً .

وبعد فترة وجيزة سمعنا أن سيدة ما ، قيل أنها استرالية الجنسية ، قدمت إلى بغداد وتكفلت به ثم نقلته إلى خارج العراق وأخذت معها محتويات داره ورصيده في المصارف ، ولم نعلم عنه بعد ذلك شيئاً سوى أنه توفي إلى رحمة الله في لندن بتاريخ 1964/2/23 .

لقد ترك الأستاذ ميلز أثراً لا ينسى في نفوس طلابه وزملائه ، وكان مرجعاً في علم الصحة العامة والباثولوجي لكل سائل . هذا وقد أوصى ببعض المال إلى الدكتور خالد ناجي وبمجهره الخاص إلى الدكتور عبد الرحمن القطان .

الأستاذ الدكتور حنا خيـاط
(1959-1884)

ولد المرحوم الدكتور حنا خياط وتلقى دروسه الابتدائية في مدينة الموصل وأكمل دروسه الثانوية في الجامعة الفرنسية ببيروت ، ثم أحرز الشهادة النهائية من المدرسة الطبية الفرنسية ببيروت عام 1904 وعمل إثر تخرجه طبيباً في مستشفيات الحكومة العثمانية . وعندما عاد إلى العراق في سنة 1914 ، عيّن طبيباً في مستشفى الموصل ثم انتقل إلى بغداد وتولى منصب وزير الصحة سنة 1921 . ولما ألغيت الوزارة وألحقت بوزارة الداخلية ، عيّن مديراً لمديرية الصحة العامة وشغل المنصب حتى سنة 1931 .

وخلال وجوده في بغداد ، ساهم بصورة فعالة بتأسيس الكلية الطبية وكان من أشد المتحمسين لإنشائها . وقد عيّن فيما بعد عميداً في سنة 1934 ، فكان الثاني بعد الأستاذ هاري سندرسن . وفي عهده ارتبط المستشفى الملكي بالعمادة تحت إدارة واحدة في سبيل أن يكون المعهد التطبيقي لطلبة الكلية ، كما أصبح أستاذاً للطب العدلي ، النظري ، ومديراً لمعهد الطب العدلي يعاونه فيه الدكتور أحمد عزة القيسي ، وكان لكليهما الفضل بإنشائه وتطويره .

عرف الأستاذ الخياط بمواقفه الوطنية المشرفة ، فكان من رواد الحركة القومية والمدافعين عن وحدة العراق و مقرباً من الملك فيصل الأول . وانتخب نائباً في مجلس النواب ، البرلمان ، عن لواء الموصل عدة مرات ، ثم عيّن عضواً في مجلس الأعيان . كما عرف في المحافل الدولية الطبية والشرعية وألّف كتاباً في الطب العدلي ضمّنه خلاصة تجاربه وأبحاثه في الطب الشرعي ، وكان قد أهدى نسخة منه لوالدي اتخذته كمرجع لي في مادة الطب العدلي ، إضافة إلى كتاب مماثل للأستاذ الدكتور فؤاد غصن ، أستاذ الطب العدلي في الجامعات اللبنانية .

أذكر عن الأستاذ حنا الخياط أنه كان مهيباً وأنيق الملبس ، ذا قامة فارعة ولحية قصيرة مدببة خالطها البياض . وكان يدخل إلى قاعة الدرس المدرجة رقم (1) مرتدياً روب الأساتذة الأسود ، يلقي محاضرته علينا بلغة عربية سليمة فصيحة وبانسياب . وهكذا كان كلامه الاعتيادي معنا بعد انتهاء حصة الدرس .

ألقى الأستاذ المحاضرات لفصل واحد فقط إذ أصابه مرض الروماتزم ، كما قيل لنا ، الذي أقعده عن المجيء إلى الكلية فناب عنه بإلقاء الدروس النظرية الدكتور

أحمد عزة القيسي وأكمل المنهج للفصلين التاليين .

بعد هذا أصبح الأستاذ الخياط قعيد الفراش لسنوات عديدة إلى أن توفاه الله سنة 1959 .

الأستاذ الدكتور أحمد عزة القيسي
(1973 - 1907)

كان المرحوم الدكتور أحمد عزة القيسي موفور القامة ممتلئ الوجه وأكثر ميلاً للبدانة منه إلى الاعتدال ، يمشي بخطوات واثقة ويوحي إليك منظره أنه رجل رياضي . ولا عجب فهو قد زاول كافة أنواع الرياضة في مطلع حياته بما في ذلك الزورخانة . أما حديثه فيوحي إليك أنه بغدادي صميم ومحب لجلسات المقام العراقي ، وفي حديث الجد فإنه يكلمك عن آخر البحوث الطبية التي أجراها والمقالات التي نشرها ويريك مقتطفات منها وإشارات إليها في كتب الطب العدلي العالمية .

درس الدكتور القيسي الطب في دمشق وتخرج في جامعة مونبيليه في فرنسا ثم التحق بجامعة باريس حيث نال شهادة في الطب الشرعي والعلوم النفسية . وعندما عاد إلى العراق عام 1932 عيّن طبيباً شرعياً في مديرية الشرطة العامة ومدرساً للطب العدلي في كلية الحقوق ثم أوفد إلى المملكة المتحدة وعمل بمعية الأستاذ سدني سميث S.Smith في كلية طب جامعة أدنبرة . وفي عام 1939 نقل ملاكه إلى مديرية الصحة العامة طبيباً ثم مديراً لمعهد الطب العدلي ، الذي تم تشييده في محلة العيواضية بجوار مبنى كلية الطب ، ومحاضراً تطبيقياً في الكلية . ولما أقعد المرض الدكتور حنا خياط ، أستاذ الطب العدلي ، أنيطت بالدكتور القيسي مهمة التدريس النظري إضافة إلى التطبيق العملي .

كان الدكتور القيسي يحاضر باللغة العربية مردداً الكلمات الطبية والمصطلحات باللغة العربية الفصحى . وبمرور الوقت ألفت أسماعنا إلقاء المحاضرة باللغة العربية وأخذنا نردد تلك الكلمات مثل السحجات والكدمات واللواطة وتعابير أخرى مثل افتضاض البكارة وآثار الاعتداء الجنسي . وكنا قبل ذلك نقولها باللغة الإنجليزية بطلاقة .

كان الدكتور القيسي يورد أمثلة عملية ويشرحها لنا ، منها حالات واقعية تدل على خبرته العملية العريضة في الطب العدلي والتي دوّنها ونشرها في كتاب بالعربية كان مرجعاً لطلاب كليات الطب والحقوق والشرطة وخريجيها .

كانت مادة الطب العدلي بالنسبة لنا ، ونحن طلاب في الصف الرابع ، سهلة

والنجاح في الامتحان شبه مضمون . وقد اجتزته وحصلت فيه على درجة عالية وإن لم أمنح جائزة المتفوق في الصف .

أحاط الدكتور القيسي أعمال معهد الطب العدلي بسرية تامة تتطلبها طبيعة العمل فيه ، فالدخول إليه لا يتم إلا بإذن خاص من الإدارة ، وأبوابه الحديدية مغلقة على الدوام لا تفتح إلا بعد التأكد من هوية القادم للمعهد . أما حضور التشريح وكتابة التقارير فإنها مقصورة على أطباء المعهد والمتدربين من الأطباء والطلاب تحت إشراف المسؤولين . وكان الدكتور القيسي يجري التشريح بنفسه ويملي مشاهداته على المرحوم مصطفى أبو طبرة ، الكاتب في المعهد ، لتدوينها في التقرير الطبي .

لم يكن للدكتور القيسي ، يوم أن كنا طلاباً ، شأن يذكر في إدارة الكلية الطبية أو أوساط الطلبة ذلك لأنه لم يكن عضواً في مجلس الأساتذة بالكلية بل محاضراً على الطلاب على ملاك مديرية الصحة العامة . وقد انصرف لإدارة معهد الطب العدلي ومارس التدريس في كليتي الحقوق والشرطة إضافة إلى الكلية الطبية ، ولم يمارس اختصاصه في عيادة خاصة بعد انتهاء الدوام الرسمي بل نال تعويضاً مادياً لقاء ذلك .

على أن الدكتور القيسي عرف يوم ذاك بين أوساطنا بنزاهته وسمعته الحسنة وتوجهه اليساري المعتدل ، الأمر الذي أهله لأن ينتخب في عام 1952 أول نقيب لذوي المهن الطبية في العراق . وفي خريف 1958 أسندت حكومة الثورة إليه منصب عميد الكلية الطبية بجامعة بغداد واحتفظ به عدة سنوات .

كانت الفترة الزمنية التي تسلم فيها القيسي مسؤولية العمادة من الصعوبة بمكان ، فقد تدخلت السياسة في حياة الناس واحتدم الصراع العقائدي بين يسار يروم الابتعاد عن الجمهورية العربية المتحدة ويمين يجاهر بالعداء وينظر إلى الرئيس جمال عبد الناصر بما يشبه التقديس ، لذا لم تخل كلية الطب ، أساتذة وطلاباً ، من التمرغ في ذلك الصراع السياسي . وقد اعتبر الدكتور القيسي من قبل مناوئيه ، وهو التقدمي الميول ، واجهة للتيار اليساري علماً بأنه لم يكن يدين بأفكار اليسار المتطرف . ومع هذا حصلت بعض الحوادث المؤسفة تبادل فيها الطلبة من الجانبين العنف في ساحات الكلية ، كما حصل نقاش حاد بين الفئتين في اجتماع للهيئة التدريسية ، دعا إليه العميد القيسي في القاعة المدرجة رقم (1) ، أظهر فيه عند إدارته تعقلاً وحنكة ساعدت على تحقيق ضبط النفس الذي يدعو إليه . وبرأيي أن السياسة

الحكيمة التي اتبعها العميد القيسي قد منعت التجاوز على الأساتذة من ذوي الميول القومية وحمتهم من تطاول اليساريين في مرحلة المد الشيوعي القصيرة .

أظهر الدكتور القيسي أثناء تبوّئه منصب العمادة أنه ذو عقلية علمية متفتحة على كل جديد قادم من الغرب . وقد أكسبته سنتا التفرغ العلمي ، التي قضاها في أدنبرة والولايات المتحدة الأمريكية ، خبرة بالأجواء الأكاديمية استطاع أن يطبق قسماً منها عندما شغل منصب مدير الطب العدلي كما واتته الفرصة عندما عيّن عميداً لكلية الطب . فكان ، والحق يقال ، أول عميد مسؤول يدعو إلى إعادة النظر بالمناهج الدراسية ويعمل على تحديثها مجاراة للتقدم العلمي الذي حصل في الغرب . وكنا في جلساتنا الخاصة نتناقش معه في تقرير اللورد تود (Lord Todd) ، رئيس اللجنة الملكية البريطانية في التعليم الطبي (1957) ، مما حدا به أن يستعين بمنظمة الصحة العالمية لغرض تطوير مناهج الكلية فأرسلت لجنة من خبرائها ضمت البروفسور سير جون براذرستون (1915-1985) Prof. Sir Brotherston ، أستاذ الطب الاجتماعي وعميد كلية طب جامعة أدنبرة ، والبروفسور هايمنز Prof. Heimenz من بلجيكا الحاصل على جائزة نوبل في العلوم ، والبروفسور تنبرج Prof. Tunbridge من جامعة ليدز في بريطانيا . وانتخب فريقاً من هيئة التدريس في الكلية ممن توسّم فيهم الكفاءة العلمية والحرص على رفع مستوى التدريس وضمّت كلاً من الدكاترة صادق الهلالي ويوسف عقراوي ولميعة البدري وعبد اللطيف البدري وكمال السامرائي وعبد الستار شاهين ، وأصدر أمره بتعييني ممثلاً للعمادة في اللجنة .

عملت تلك اللجنة شهراً كاملاً اطّلعت خلاله على المناهج المتبعة وقدمت تقريرها فكانت بذلك قد قامت بعمل جدي يرمي إلى النهوض بالكلية من خلال تحديث المناهج ومواكبة الأساليب الدراسية المتبعة في الدول المتقدمة .

ومع إن توصيات اللجنة لم تطبق كاملة ، إلا أنها كانت محفزة للهيئات التدريسية بضرورة إعادة النظر في المنهج القديم وإدارته وأسلوب التدريس في الكلية ، كما أنها حفزت من تبع القيسي من العمداء أن يحرصوا على تطبيق ما جاء بتلك التوصيات ومواكبة الأساليب العصرية في التدريس .

وكان الدكتور القيسي يؤمن بضرورة تفرغ أعضاء الهيئة التدريسية في الكلية للتدريس والبحث ، ويدعو للأخذ به خاصة لأساتذة ومدرسي الفروع الطبية الأساسية ، فقد كانت تلك الأقسام لا تستقطب حملة الدرجات العالية من

الخريجين للعمل فيها إذ أنهم يفضلون الانتماء إلى الفروع السريرية ، أي الكلينيكية كالطب الباطني والجراحة والأمراض النسائية ، كي يمارسوا المهنة بعد انتهاء الدوام الرسمي في عيادات خاصة بهم تدر عليهم مردوداً مالياً مقبولاً . وفي فترة لاحقة كان من رأي القيسي أن يتفرغ كافة أعضاء الهيئة من مدرسي العلوم الأساسية والعلوم السريرية على أن يعوّضوا مادياً بسبب حرمانهم من مورد العمل الطبي الخاص .

ومع أن الأستاذ القيسي أفلح بالحصول على مخصصات إضافية لأطباء أقسام الطب العدلي والمختبرات ، إلا أن فكرة التفرغ التام لكافة أعضاء الهيئة التدريسية بقيت دون حراك حتى مطلع السبعينات عندما صدر قانون التفرغ الطبي للهيئة التدريسية وكان اختيارياً ، فانضم إليه العديد من الأطباء السريريين ، وكنت وزوجتي الأستاذة لمعان أمين زكي من أوائل المتفرغين ، إضافة إلى كافة منتسبي الفروع غير السريرية تقريباً .

كان الأستاذ القيسي يكّن لي المودة والاحترام وقد فاتحني ورشحني ، في مجلس العمادة ، لمنصب وكيل العميد في أوائل تسنمه منصب العمادة ، إلا أن ذلك لم يتم بسبب معارضة بعض الفئات النافذة يوم ذاك ، وعلى رأسها أحد زملائي في الدراسة الذي عيّنه العميد معاوناً له في الإدارة ، وكان المومأ إليه حديث التعيين في هيئة التدريس . وقد أخبرني العميد أن اعتراض اليساريين على تعييني كان بسبب تصنيفي من قبلهم ضمن جماعة «العهد البائد»! .

كان الأستاذ القيسي مرشحاً لمنصب رئيس جامعة بغداد ، لكنه لم يفز بذلك المنصب فقد أحيل على التقاعد بعد ثورة 14 رمضان (8 شباط 1963) ، فاعتكف في داره لكنه أصيب بخذلان الكلى بسبب مضاعفات داء السكر الذي قاسى منه طويلاً وأدخل مدينة الطب للعناية الطبية ثم أرسل إلى المملكة المتحدة للعلاج على نفقة الدولة ، إلا أن وضعه الصحي تردى تدريجياً وانتقل إلى رحمة الله تعالى بتاريخ 1973/1/14 .

الأستاذ سامي شوكت
(1893 - 1987)

الدكتور سامي شوكت شخصية لمعت في أكثر من حقل في عقود العشرينات والثلاثينات والأربعينات في العراق . وهو من أسرة بغدادية مرموقة ، عرفت باندفاع أفرادها في العمل القومي منذ تشكيل الحكم الوطني في العراق . فأخوه الأكبر ناجي شوكت كلف بتشكيل الوزارة مرتين ، وأخوه الأصغر الدكتور صائب شوكت كان من مؤسسي نادي المثنى العربي ، الذي كان بمثابة تجمع للشباب المتحمس للفكر القومي ، وابن أخيه طلال ناجي شوكت من القوميين البارزين وقد انتخب نقيباً للأطباء في العراق ممثلاً للقائمة القومية .

تخرج الدكتور سامي شوكت من المدرسة الطبية العسكرية في استانبول عام 1917 وعاد إلى العراق بعد أن خدم في الجيش العثماني والحكومة العربية في دمشق . وعمل (كحالاً) في المستشفى العام الجديد (المجيدية) ببغداد ، ثم شارك مع الأطباء البريطانيين وزملائه الأطباء الوطنيين ، الذين عادوا إلى العراق بعد الحرب العالمية الأولى ، بتأسيس الجمعية الطبية البغدادية (1920) التي تبنت ، ضمن مشاريعها ، إنشاء مدرسة طبية . وبعد أن اختمرت الفكرة عقدت الجمعية اجتماعا في مستشفى العزل (1921) قام خلالها الميجر هيكز ، وكان طبيباً عالماً بشؤون الصحة العامة وشغل فيما بعد منصب أستاذ الطب الوقائي في الكلية الطبية ، فتلا خطبة محبذاً تأسيس المدرسة الطبية . وكان لها وقع عظيم وتأثير حسن في نفوس السامعين . ثم تلاه الدكتور سامي شوكت ، نائب رئيس الجمعية ، وخطب مقدراً خدمات الدكتور هيكز للعراق بجهوده في تأسيس الكلية ، وتمنى أن يكون ذلك في القريب العاجل ، وأن يرى في ساحتها تمثالاً للميجر هيكز! ، لأنه أول من سعى وتشبث بصورة رسمية لإنشائها وتأسيسها . وعندما قال عضو الجمعية الدكتور فائق شاكر أن المساعي لتأسيس الكلية لن تخرج عن دائرة التمنيات والآمال ، ذلك لأن نفقات الإنشاء لا يمكن توفيرها بسبب العجز المالي ، ومقترحاً إرسال التلاميذ إلى أوروبا لدراسة الطب ، تصدى له الدكتور سامي شوكت بالنقد والتفنيد شارحاً للحاضرين لزوم القيام بهذا المشروع الصحي الحيوي بصورة مستعجلة . هذا وقد نجحت المساعي وافتتحت الكلية عام 1927 بعد سنتين من الرد والبدل بين الأطباء

العراقيين والبريطانيين ومجلس الأمة من جهة والعناصر المعارضة التي كانت ترى أن الأمر سابق لأوانه ، بسبب الاعتقاد أن مستوى الطلاب المتقدمين واطئ دون المبتغى من دراسة الطب . وكانت لجهود الدكتور سامي شوكت ولإصراره على ضرورة تأسيس الكلية دورها الكبير في تحقيق هذا الحلم ، وهي مأثرة لا بد أن تذكر حين يذكر هذا الطبيب الكبير .

استمر الدكتور سامي شوكت في عمله الوظيفي وكرّس جلّ وقته للإدارة ، وشغل مناصب إدارية رفيعة منها مدير صحة لواء بغداد ثم المفتش العام ومدير الصحة العام ، وعيّن في وزارة المعارف مفتشاً عاماً ثم مديراً ووزيراً في فترة لاحقة .

وفي مجال التدريس بالكلية الطبية ، فقد أنيط به تدريس القوانين والأنظمة الصحية وموضوع آداب الطب . هذا وإن تلامذته لن ينسوا الأستاذ سامي شوكت بطلعته المهيبة مرتدياً على الدوام سترة سوداء مع سروال أسود ومقلم وعلى إحدى عينيه (مونوكل) تتدلى منه إلى جيب الصدر سلسلة مذهبة ، يروح ويجيء أثناء إلقائه الدرس شارحاً التنظيمات الإدارية لمديرية الصحة والقوانين التي شارك في وضعها لغرض رفع المستوى الصحي في البلاد ووقاية المواطنين من الأمراض والأوبئة . ولا يخفي حماسه واندفاعه في وضعه قوانين الحجر الصحي والسيطرة على تداول المخدرات وعقاقير الإدمان مكرراً لنا كفاح «الأطباء الوطنيين» في سبيل منع استعمال الحشيش والأفيون وتغلبهم على العقلية الاستعمارية الممثلة في كبار موظفي وزارة المالية من البريطانيين ، ومنهم مدير الكمرك المستر كوك ، الذين كانوا يرون في استيرادها وانتشارها مورداً مالياً هاماً للدولة .

اندفع الدكتور سامي شوكت في أواسط الثلاثينات في العمل السياسي ، فكان رئيسا لنادي المثنى المعروف بالقومية العربية الذي ضم نخبة من الشباب الوطني المتطلع إلى تحرير الوطن من التخلف والفقر والجهل والمرض ، وفي مناصرة حركات الاستقلال في البلاد العربية الواقعة تحت نير الاستعمار الغربي وتوحيدها .

وفي سنة 1936 شغل منصب المفتش العام ثم المدير العام لوزارة المعارف العراقية . وخلالها وحّد لباس طلبة المدارس المتوسطة والثانوية ودور المعلمين في القطر ، وأدخل نظام الفتوة والتدريب العسكري لطلبة الصفوف الثالثة والرابعة والخامسة ثانوي . وكنا ، طلبة المدرسة الغربية المتوسطة ، نحمل السلاح ونتدرب في الساحة التي شيدت عليها كلية الهندسة في الكرنتينة فيما بعد ، ثم في ساحة

الكشافة عندما كنت طالباً في الثانوية المركزية . وأذكر أننا اخترقنا ، في أحد أيام نيسان 1940 ، شارع الرشيد متجهين سيراً على الأقدام وبنظام عسكري حاملين السلاح إلى ساحة واسعة في منطقة المسبح بـ(الكرادة داخل) حيث عسكرنا هناك . وبعد قليل انتظمنا لاستقبال الدكتور سامي شوكت ، وكان يحمل لقب حامي الفتوة ، الذي قدم على صهوة جواد لابساً الخاكي وألقى فينا خطبة حماسية ذكر فيها قوله المشهور ، الذي رافق اسمه فيما بعد لسنين طويلة وهو «اخشوشنوا فإن الترف يزيل النعم» . ولن أنسى أنه كان يدخل دور السينما في العرض المخصص للطلبة بأجور مخفضة أيام الاثنين عصراً ، فكان وجوده يقابل بالتصفيق الشديد من التلاميذ الحاضرين .

وكما ذكرت آنفا ، فإن الدكتور سامي شوكت عيّن وزيراً للمعارف حقبة من الزمن ، وعندما أجيزت الأحزاب السياسية بعيد الحرب العالمية الثانية أنشأ حزباً لم يدم طويلاً (حزب الإصلاح) ، وكان على طرفي نقيض مع الأحزاب اليسارية والليبرالية ، واتهمه الوطنيون الديمقراطيون بالفاشية ، ونعته المرحوم الأستاذ كامل الجادرجي في سلسلة من المقالات في صحيفة الأهالي بـ(موزلي العراق) تشبيهاً لـ أوزوالد موزلي ، رئيس الحزب النازي البريطاني في تلك الأيام . ومع هذا فقد كان له أنصار ومؤيدون من القوميين العرب خاصة في سوريا ولبنان .

اعتكف الدكتور سامي شوكت بعد ثورة 14 تموز في داره ونقل سكنه إلى بعقوبة بعد زواجه الثاني من إحدى تلميذاته ، وتوفي سنة 1987 تاركاً ذكراً حسناً في مسيرة الكلية الطبية ومديرية الصحة العامة العراقية .

الأستاذ الدكتور جلال العزاوي
(1967-1892)

الدكتور جلال العزاوي هو شيخ أطباء العيون العراقيين . مارس اختصاصه خمسين عاماً وساهم في تقدم طب العيون . كان رحمه الله طويل القامة أقرب إلى البدانة يعلو رأسه شعر فضي كثيف وعلى عينيه نظارات سميكة ، يمشي بخطوات قصيرة رافعاً رأسه إلى الأعلى ثم يخفضه لتحسس طريقه . بغدادي أصيل يحب الموسيقى والطرب والچالغي ، مرح ويحكي النكات أثناء المحاضرة ، يحب الأطفال ويناغي الرضيع ويغني للصغار ويحنو على كل منهم كأنه حفيده ، ولطالما رأيناه يغسل وجوههم وأيديهم إن كانت وسخة ويبكي لإصابة طفل في نظره و«يكفخ» الأم لقلة عنايتها أو لجهلها نظافة وليدها . رؤوف على المرضى ويعالج الكثير في عيادته الخاصة بالمجان . محب للأكل ويتغنى بالأكلات الدسمة وبالكبة من مطعم «ابن طوبان» الشهير .

تخرج الدكتور العزاوي من المدرسة الطبية العسكرية في استانبول سنة 1914 ومنح رتبة عسكرية وخدم في الجيش العثماني مشاركاً في الحرب العالمية الأولى في جبهة القفقاس ، وكان من القلة القليلة من الفيلق العراقي الذي عاد إلى البلاد بعد انتهاء الحرب ، إذ قتل الكثير ومات الآخرون بالتيفوس أو البرد أو في الأسر في سيبيريا . وفي بغداد عمل (كحالاً) في مستشفى الكاظمية الحكومي وأوفد إلى أوروبا (فرنسا) للتخصص بأمراض العيون . وعند عودته عيّن مديراً لمستشفى الرمد ومدرسا (تطبيقياً) في كلية الطب عام 1930 ثم أستاذاً لكرسي طب العيون سنة 1941 .

كانت المحاضرات النظرية في طب العيون ، في سنوات تأسيس الكلية ، تلقى من قبل الأستاذ سبنسر Spencer تبعه الأستاذ منسن Mensen ثم أنيطت المهمة بالدكتور العزاوي ببداية سنوات الأربعينات . وكان يلقيها باللغة العربية مخلوطة بالتركية والإنجليزية والفرنسية ، ولم تكن بمستوى علمي جيد . أما في العيادات الخارجية فكنا نلتحق بالدكتور أحمد سهيل ، وكان قد تخصص بطب العيون في المملكة المتحدة ويحمل لقباً تدريسياً ، إلا أنه لم يولنا العناية التدريسية التي كنا نرجوها . وكان يفحص عدداً محدوداً من المرضى كما كان على نقيض الأستاذ العزاوي في معاملته

المراجعين وجلّهم من الطبقات الفقيرة .

عمل الأستاذ العزاوي بالإدارة إضافة إلى التدريس ، فكان مديراً للمستشفى الملكي وعميداً للكلية الطبية (1953) . وكانت إدارته تمتاز بالتسامح والتساهل والابتعاد عن التكتلات ، وكنت قد عملت معه عضواً في اللجنة الطبية الاستئنافية العليا بوزارة الصحة ، التي ترأسها هو مدة طويلة وعهدته صادقاً وجسورا في الحق .

تقاعد الأستاذ العزاوي عند بلوغه السن التقاعدية عام 1955 ، ولكنه دأب على الحضور إلى العيادة الخارجية لطب العيون في المستشفى الملكي وعلى مجالسة مساعديه الدكتور محمود الهاشمي والدكتور جلال الاستربادي والدكتور غازي حلمي ، وكان يسهر ليلاً في نادي المحامين مع أصحابه القدامى . وإن أنس فلا أنسى ساعة حضوره انتخابات نقابة الأطباء ، أيام كانت المعركة للفوز برئاسة وعضوية النقابة حامية بين كتلتي القوميين واليساريين عام 1960 ، فدوت القاعة بالتصفيق الحاد له من عموم الحاضرين بدون استثناء ، فكان منظراً مؤثراً تلاحمت فيه الأفئدة على تكريم الأستاذ الفاضل الذي لم يتمالك نفسه تأثراً ، وهو المعروف بعاطفيته ، فسالت دموعه لما لمس من وفاء تلامذته له .

في السنوات الأخيرة من عمره أصيب الأستاذ جلال العزاوي بعدم انتظام ضربات القلب ثم عجز العضلة القلبية ، وكنت ضمن فريق الأطباء الذين أشرفوا على علاجه لفترة طويلة . وفي مساء ليلة صيف (1967/8/19) اتصل بي صديقه وجاره المرحوم السيد عبد الوهاب علي وطلبني على عجل لزيارته ولما حضرت كان قد نقل إلى مستشفى الآلوسي فوجدته قد انتقل إلى رحمته تعالى متأثراً من نوبة قلبية حادة لم تمهله طويلاً .

الأستاذ الدكتور قاسم البزركان
(1909 - 1977)

كان الدكتور قاسم البزركان شخصية بغدادية متميزة ومعروفة لدى القاصي والداني ولا تزال قصصه ونوادره يتداولها الناس خاصة بين تلامذته الأطباء ومرضاه المراجعين . كان وسيم الطلعة متوسط الطول ، فضي الشعر ، أنيق الملبس ، يلبس رباط الرقبة (البابيون-الوردة) . وقد عرف بميوله القومية وتأييده حزب الاستقلال القومي .

دخل قاسم البزركان الكلية الطبية في الدورة الثانية عام 1928 ، وكان ضمن الطلبة الذين أكملوا الدراسة بأربع سنوات (كانت الدراسة يومها خمس سنوات) . وبعد تخرجه عام 1933 ، عيّن طبيباً في المستشفى الملكي ثم أوفد إلى المملكة المتحدة للتدريب والاختصاص فنال شهادة الدبلوم في أمراض الأذن والأنف والحنجرة وعاد ليعمل في نفس الشعبة تحت إشراف كل من الدكتور جميل دلالي والدكتور أوليفر Oliver الأمريكي الجنسية . وقد أوفد ثانية إلى الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1947 لغرض الاطلاع على الجديد في موضوع اختصاصه .

ألقى علينا الدكتور البزركان المحاضرات ونحن طلاب في الصف الخامس . وكان مدرساً جيداً يحرص على تعليم الطلاب وإعدادهم إعداداً حسناً للممارسة العامة ، ولكنه كان شديداً في منح درجات النجاح وفي (المراقبات الامتحانية) . وقد عانى زملاؤنا ، ومنهم أحمد جلميران ورشيد الغبان ، من المحاسبة والتشدد . وكان يستدعي الفاشلين في الامتحان ويعيد قراءة أجوبتهم سوية ويدلهم على الإجابات الصحيحة . على أنهم كانوا يعبرون إلى الصف السادس بالرغم من فشلهم ، ولكن عليهم أن يعودوا للتقدم إلى الامتحان مع طلاب السنة التالية وأن يحصلوا على درجة النجاح قبل السماح لهم بالتقدم لامتحان الجراحة العامة في نهاية السنة السادسة .

في العيادة الخارجية كان الأستاذ البزركان حريصاً على مواعيد تدريب الطلاب وكان ينتظر قدومنا ثم يناول كلاً منا مرآة نضعها على جباهنا ونبدأ بفحص المرضى المراجعين ، فكان يدور علينا واحداً بعد آخر ويراقب طريقة الفحص ثم يناقشنا في التشخيص والعلاج ثم يقوم هو بوصف الدواء اللازم للمريض . وكانت الجلسات في العيادة الخارجية ممتعة ومفيدة ، ولم تكن تخلو من تعليقات الأستاذ اللاذعة التي تدور دوماً حول (المادة) ، فمع أنه رحمه الله كان يرعى الفقراء والمحتاجين وهم الأغلبية العظمى من المراجعين ، إلا أنه لم يكن متساهلاً مع المرضى الموسرين

ويتأفف من علاجهم بالمجان في المستشفى الحكومي . كما كان شديداً مع من كان يدّعي الصمم لغرض الإعفاء من الخدمة العسكرية الإلزامية والمحالين إليه من قبل اللجان الطبية العسكرية . فقد كان يستعمل مختلف الطرق لكشف زيف دعواهم . هذا وقد دارت قصص كثيرة حول نزعته المادية ربما كان الكثير منها مختلقاً أو مبالغاً فيه ، كما كانت لديه خلافات ، بل خصومات ، مع زملائه في نفس التخصص ممن عملوا في عياداتهم الخاصة ومنهم الأستاذ جميل دلالي والأستاذ أوليفر والأطباء جلال حمدي وعزرا قرعين ويحيى محمود وداود سلمان علي .

تزوج الأستاذ البزركان من زميلتنا طالبة الطب سعاد توفيق محمود ، التي تركت الدراسة لتكون ربة بيت وأم أولاده . وقد سكن داراً بالعيواضية قبل أن ينتقل إلى داره التي شيّدها مطلة على نهر دجلة في محلة نجيب باشا بالأعظمية . وكانت تربطنا وزوجتي علاقة وثيقة به وبالسيدة زوجته فكانت زوجتي طبيبة أطفاله وكنت طبيب أفراد العائلة الكبار .

منح الدكتور قاسم البزركان لقب أستاذ كرسي أمراض الأذن والأنف والحنجرة سنة 1953 وفي أواسط عقد الخمسينات وبينما كان الأستاذ البزركان في أوج نشاطه المهني والعملي ، أصيب بانفجار في شرايين الدماغ بسبب ارتفاع كبير في ضغط الدم فأرقد في غرفة فحص زميله وصديقه الحميم مدير المستشفى الملكي الدكتور عبد الرحمن الجوربه جي وأشرف على علاجه الدكتور هاشم الوتري والأستاذ جاك عبودي والأستاذ الدكتور ماكدونالد كريشلي ، أستاذ الأمراض العصبية في كلية طب جامعة أدنبرة الذي تصادف وجوده في بغداد أستاذاً زائراً لإلقاء المحاضرات على الأطباء والخريجين ،وعندما زرناه كان في غيبوبة عميقة ،لكن سرعان ما تحسنت حالته الصحية واستعاد وعيه وحركته ولكن أصيب بشلل نصفي خفيف .

أرسل الدكتور البزركان إلى بريطانيا وقد استقبله الأستاذ كريشلي بسرور وبادره قائلاً باستغراب «أما زلت على قيد الحياة؟» لأن النزف الدماغي الذي أصيب به كان كبيراً وخطيراً . وعند عودته إلى العراق ترك الخدمة في الكلية وأحيل إلى التقاعد بناءً على طلبه (1958) وانصرف إلى العمل لبعض الوقت في عيادته الخاصة التي لم تعد مكتظة بالمرضى كالسابق فأغلقها .

وبعدها ، ولسنوات عديدة تلت تلك الأحداث ، كنت طبيبه المعالج وأصيب بحالات القلق والنسيان وتوفي رحمه الله إثر جلطة قلبية لم تمهله طويلاً .

الأستاذ الدكتور جاك عبودي شابي
(1982 - 1908)

خريج الدورة الأولى من الكلية الطبية الملكية العراقية ببغداد وأستاذ الأمراض العقلية والنفسية ومن أشهر أطباء الأمراض العقلية والأعصاب في العراق . كان دون المتوسط في الطول ، على شفتيه شاربان ضخمان ، يتكلم بلغة بغدادية أصيلة وتضخيم للحروف والكلمات مع لكنة تشير إلى أصله البصري ، ولغته الإنجليزية سليمة وراقية تدل على ثقافة عريضة وفكر وقّاد وذكاء خارق . درس بعد التخرج من الكلية في المملكة المتحدة ونال دبلوم التخصص بالأمراض العقلية والنفسية ، ولما عاد إلى العراق عمل مع الأستاذ «هانز هوف Hans Hofff» ، وهو من تلاميذ سيجموند فرويد ، كما كان مساعداً للأستاذ هاشم الوتري في شعبة الأمراض العصبية ومديراً لمستشفى دار الشفاء للأمراض العقلية .

كان الدكتور جاك عبودي يدخل قاعة الدرس رقم (4) مرتدياً صدرية بيضاء تكاد تصل إلى الأرض ومعه وريقات لا يقرأ منها شيئاً ، ولكنه سرعان ما يبدأ المحاضرة وينساب شارحاً الأمراض النفسية والعقلية التي تستهوينا وتشدنا إلى الموضوع ، ويورد الأمثلة ومنها على سبيل المثال كانت «آيرين» ، مريضة فرويد الشهيرة ، عندما تناول بحث الهستيريا والعصاب . فنروح نطبق ما نسمعه من أستاذنا على أنفسنا وزملائنا وعلى تصرفاتنا الشخصية فنخال يوماً أننا نشكو من حالة القلق Anxiety وفي يوم آخر من الوسواس Obsession وآخر من الكآبة Depression أو الهوس Mania . ووجدنا أن كل ما يذكره من حالات نفسية نحن بالفعل مصابون بها فنروح نتندر مع رفاقنا بأمراضنا النفسية ، ولكنه أنقذ أرواحنا عندما ختم محاضراته عن الطب النفسي قائلاً إن الإنسان الطبيعي هو الذي يتصرف بالقليل من كل ذلك ، وعندها تحقق لدينا إننا أناس أصحاء (Normal) ولسنا مرضى نفسيين ولا مجانين .

وعرفت في الأستاذ جاك عبودي ، بعد تخرجي وعملي في المستشفى الملكي ، طبيباً باطنياً حاذقاً ومرجعاً في تشخيص وعلاج الأمراض العضبية المستعصية . وكان من القلة التي تتابع التطورات العلمية وتطبيق ما يجّد في المعالجة من طرق مبتكرة أو أدوية جديدة تصل إلى العراق . وكان يجرب مثلاً علاج مرض سفلس الجملة

العصبية .G.P.I بزرق المريض عن طريق الوريد بدم يحوي طفيليات الملاريا الثلاثية الحميدة (ثم علاج الملاريا بالعقاقير المعروفة) ، وكذلك معالجة مرض الروماتزم الرثيوي بالأنسولين ، في زمن لم يكن قد أثبت فيه مفعول البنسلين في علاج الحالة الأولى أو اكتشاف عقار الكورتيزون لعلاج الحالة الثانية .

وكان ناشطاً في تقديم وعرض الحالات المرضية بالاجتماع الأسبوعي أيام الخميس الذي كنت أنظمه في القاعة رقم (4) بالكلية الطبية في أواسط الخمسينات . وأذكر أنه عرض حالات لمرض Guillen Barret Syndrome المكتشف حديثاً وسمعنا بذلك المرض لأول مرة من الأستاذ جاك عبودي .

كان الدكتور جاك يعمل في المستشفى وفي عيادته الخاصة والمبتشفى الخاص بالأمراض العقلية (مستشفى الرشيد للأمراض العقلية) ، الذي أسسه في بغداد بلا هوادة أو انقطاع . كنا نراه في الثامنة صباحاً في دار الشفاء ثم يتوجه إلى الكلية لإلقاء محاضرة ويعود إلى الردهة الثالثة في المستشفى الملكي حيث يكون مساعداه ، الدكتور صفاء الدين حامد والدكتور آرتين قنطارجيان ، بانتظاره ليرافقاه أثنا زيارته اليومية للمرضى ، ثم يعود لمزاولة فحص المرضى في العيادة الخارجية . وفي الأماسي كنت تجد العشرات من المراجعين في عيادته الخاصة . ولا ينهي نهاره قبل زيارة مرضاه في مستشفاه الخاص .

وكان الدكتور جاك ذا شخصية جذابة وجليساً مؤنساً محباً للموسيقى العراقية والچالغي البغدادي بصفة خاصة ويطرب لسماعها ويلقى معاملة مميّزة من الفنانين لعنايته الفائقة بهم وبعوائلهم ولشهرته الواسعة .

كان الدكتور جاك ينتمي إلى الطائفة الموسوية وقد آثر البقاء في العراق على الهجرة إلى الخارج ، على عكس ما فعل الكثير من اليهود . وكان شعوره بالانتماء إلى العراق عميقاً . ومع أنه بقي لبعض الوقت أستاذا في الكلية بعد ثورة 14 تموز فإنه أحيل على التقاعد بناءً على طلبه وانصرف إلى العمل في عيادته الخاصة حتى نهاية الستينات . وفي سنة 1970 غادر العراق إلى المملكة المتحدة ، حيث استقبل بحفاوة في الأوساط العلمية ، وعمل في مستشفياتها . ويذكر من لاقاه يوم ذاك حنينه إلى العراق وشوقه إلى الأيام الخوالي . وأخبرت أن كريمته دافعت يوماً عن العراق في إحدى المحافل البريطانية واستنكرت تخرصات الصهيونيين عن بلدها الأول العراق .

ولا يفوتني أن أذكر هنا شقيقته زميلتنا في الكلية وصديقتنا جوزفين شابي التي

عملت بعد تخرجها طبيبة في المعهد الباثولوجي المركزي وكانت أول من انصرف إلى البحث في أمراض الدم في العراق . وكانت بارعة في تشخيصها المخبري إضافة إلى تمتعها بخلق رفيع وأدب جم وحب للعراق الذي غادرته هي الأخرى آسفة وبالرغم عنها ، وذلك في أواسط عقد الستينات .

سوف يذكر الأستاذ جاك عبودي بأنه رائد طبابة الأمراض العقلية في العراق .

الأستاذ فتح الله عقراوي
(1964 - 1903)

تعود معرفتي بالدكتور فتح الله عقراوي عندما كنت في العاشرة من عمري وأشكو من نوبات متكررة من الحساسية الجلدية Urticaria فأخذني والدي ، وكان صديقه ، وعالجني بأحدث طريقة يوم ذاك وهي سحب (5) مليليتر من دم الوريد وزرقها بالعضلة مرتين أسبوعياً ولم تكن الأدوية مضادة الهستامين معروفة يوم ذاك .

درس الأستاذ عقراوي الطب في فرنسا وتخرج من إحدى جامعات باريس وتخصص بالأمراض الجلدية والزهرية (التناسلية) وأمراض المناطق الحارة . وعند عودته إلى العراق نسب لتدريس الأمراض الزهرية . وكان يدخل قاعة المحاضرات المدرجة رقم (1) بالملابس المعتادة ، دون أن يرتدي الروب الجامعي الأسود أو المعطف الأبيض ، وبيده أو بين شفتيه السيجارة التي لا تفارقه حتى أثناء إلقائه المحاضرة علينا .

كان الأستاذ عقراوي معتدل الطول عريض المنكبين وبدينا بصورة واضحة ، أحمر الشعر يملأ النمش وجهه ويضع على عينيه نظارة سميكة لإصابته بقصر النظر الشديد ولم يكن يحمل معه أوراقاً يرجع إليها ، فهو خبير بمادته ومتضلع بالأمراض الزهرية التي يدرسها وتمتد خبرته فيها إلى ما يزيد على عشرين عاماً قضاها بين باريس وبغداد . كان يتكلم بإنجليزية ممتازة وأسلوب بسيط ومفهوم ويحكي لنا أثناء محاضراته عن نوادر في الأمراض التناسلية مرت به ، كما أنه كان مرجعاً وثقة عالمية في مرض البجل ، واسع الانتشار يومها في العراق ، حيث كتب عنه الكثير في الدوريات الطبية الأجنبية . وكان قد رأس الحملة التي نجحت ، بمساعدة منظمة الصحة العالمية ، على القضاء على هذا المرض في العراق .

كانت العيادة الخارجية للأمراض الزهرية تزدحم بالمراجعين ويعدّون بالمئات يومياً مما يضطر الإدارة إلى الاستعانة بأفراد الشرطة لترتيب إدخالهم إلى غرف الأطباء لإجراء الفحص السريري . وكان الأستاذ عقراوي يتفسّح بالكلام مع المراجعين وخاصة بالسؤال عن مصدر العدوى التناسلية . وهناك تعرفنا بصورة واضحة على واقع الحياة الجنسية لدى مختلف طبقات المجتمع .

ولم يكتف الأستاذ عقراوي بتدريسه إيانا في قاعة المحاضرات والعيادة الخارجية ،

التي كان غالبية مراجعيها من الرجال ، بل آنه اصطحبنا يوما لزيارة المستوصف الطبي الخاص بفحص ومعالجة الأمراض التناسلية ، الواقع داخل المبغى العام في محلة الميدان . وللقارئ أن يتصور شعورنا ، نحن الطلبة الأحداث بالصداري البيضاء نتجول في أزقة (كوك نظر) الضيقة وابتسامات البغايا وتعليقاتهن الطريفة علينا .

في دروسه التطبيقية بالعيادة الخارجية كان الأستاذ عقراوي يأخذ بيد الطلبة ويساعدهم على تفهم الوقعات المرضية ، وعندما تنتهي الحصة يوجههم إلى شعبة زرق الحقن وهناك يقوم المضمد القدير (كامل) بتدريبهم على زرق محلول السلفرسان بالوريد أو البزموث بالعضلة . وفي نهاية السنة الدراسية كان الأستاذ عقراوي يجري امتحاناً شفاهياً وسريرياً للطلاب علاوة على الامتحان النظري التحريري .

بعد تخرجي من الكلية والتحاقي بوحدة الأمراض الباطنية الثالثة ، وهي وحدة فن التداوي ، قررت إكمال الدراسة ونيل شهادة الدكتوراه في الطب M.D . وأن يكون موضوع أطروحتي بحثاً في معالجة حالات التسمم بالأدوية ، التي كانت مستعملة في علاج الأمراض الزهرية ، للمرضى الذين يحيلهم الأستاذ عقراوي إلى وحدتنا ومعالجتهم بعقار مكتشف حديثاً Dimercaprol . لذا راجعت الأستاذ وعرضت عليه الموضوع فأجاب طلبي على قيامه بالإشراف على البحث وكتابة الأطروحة . وبعد حصولي على موافقة مجلس العمادة على عنوان أطروحتي الذي.اخترته وهو «التسمم بالمعادن الثقيلة وعلاجها بعقار الـ .B.A.L» ، بدأت بالدراسة مستعيناً بالأستاذ عقراوي في التتبع والملاحقة والإرشاد في العيادة الخارجية وردهتي الباطنية (9) و(2) ، جمعت خلالها 48 وقعة كانت مادة الأطروحة التي قدمتها ، وشكرت فيها الأستاذ عقراوي والمساعدة التي تلقيتها منه .

عند إحالة الأستاذ جوبانيان على التقاعد (1954) عين الدكتور عقراوي أستاذاً للأمراض الجلدية والزهرية كما عمل مديراً للكلية الطبية في أواسط الخمسينات وكان إدارياً حازماً واسع الاطلاع على الأساليب العصرية في تدريس الطب . كما كان ، بالإضافة إلى مركزه العلمي والتدريسي ، في الطبقة الاجتماعية المتميزة وعضوا فعالا في جمعيات حماية الأطفال والهلال الأحمر ومكافحة التدرن .

أحيل على التقاعد بناءً على طلبه سنة 1964 وتوفي رحمه الله في نفس السنة بعد إصابته بسرطان القصبات الهوائية .

الأستاذ آغوب جوبانيان
(1983-1891)

الأستاذ الدكتور جوبانيان من أفاضل الجالية الأرمنية في بغداد ومن أقدم الأطباء في المستشفى الملكي وعمادة كلية الطب. تخرج في كلية الطب في إستامبول ومارس المهنة طبيباً في الجيش العثماني في لواء الموصل وانتقل إلى بغداد فالتحق عام 1919 بالمستشفى العام الجديد الذي أنشأه البريطانيون بموقع قريب من ثكنة الخيالة في باب المعظم، وعمل في المختبر السريري معاوناً للمدير البريطاني. كان هو والدكتور فائق شاكر أول طبيبين عراقيين جرى تعيينهم في المؤسسات الصحية عند تشكيل الحكومة الوطنية.

وعندما انتقلت مؤسسات الصحة إلى المستشفى المجيدي (سمّي المستشفى الملكي) وآلت الإدارة إلى العراقيين بنهاية 1923، كان الدكتور جوبانبيان يقوم بوظيفتي الفاحص السريري والكاشف على الأموات، وعهدت إليه إضافة إلى ذلك عيادة الأمراض الزهرية. ولما بدأت الدراسة في الكلية الطبية أصبح الدكتور جوبانيان مدرساً لمادة الباثولوجي السريري أولاً ثم أستاذاً للأمراض الجلدية والزهرية. وقد تفرغ فيما بعد لتدريس الأمراض الجلدية فقط حين تسلم الدكتور فتح الله عقراوي تدريس الأمراض الزهرية وبقيت بناية العيادة الخارجية مشتركة لمراجعة مرضى الأمراض الجلدية والزهرية.

الأستاذ جوبانيان كان صغير الحجم أبيض الشعر يلبس نظارات طبية وصوته خافت لا يكاد يسمع، وفي محاضراته بالقاعة رقم (2) كان يتكلم بسرعة وبلغة إنجليزية تغلب عليها اللهجة التركية واللهجة الأرمنية الأمر الذي جعلها صعبة الفهم بالنسبة لكثير من الطلبة. أما لغته العربية فلم تكن أسعد حظاً من الإنجليزية وكان يخاطب الأنثى بالمذكر والذكر بالمؤنث مما يستدعي ضحك أحدنا فيزعل الأستاذ.

حدث مرة في قاعة الدرس أن تطرق إلى علاج أحد الأمراض الجلدية وذكر اسم الدواء بسرعة فائقة وطريقة غير مفهومة. وطلبنا منه تكرار اسم الدواء ثانية فذكره بسرعة كذلك وأضاف بصوت مسموع not much not much، فقد ظن الأستاذ أننا كنا نعترض على مقدار جرعة العقار الذي ذكره، وأراد الاستمرار لكننا توقفنا عن الكتابة لمعرفة اسم الدواء فاغتاظ وتوجه إلى السبورة وكتب اسم الدواء

بالطباشير Liquor plumbi Subacetatis Fortis 4% .

كان الأستاذ جوبانيان يحاول أن يقرن درسه النظري بعرض نماذج سريرية فكان يحضر معه ثلاث حالات لمرضى مصابين بأمراض جلدية وكان يطلب منا تشخيصها . ولقلة خبرتنا ومعلوماتنا في الأمراض الجلدية فقد كنا نجازف بذكر اسم المرض الذي يخطر على بالنا . ومهما يكن فقد كانت معلوماتنا العامة بتشخيص الأمراض الجلدية دون المستوى المطلوب بالرغم من الوفرة بالأمراض الجلدية التي رأيناها وشاهدناها . والحقيقة أن الأمراض الجلدية كانت ولا تزال تدرس بمعزل عن الطب العام وقد اقترحت ، وأنا في المسؤولية ، أن يكون التخصص بالأمراض الجلدية بعد قضاء تدريب كاف في الطب الباطني .

على المستوى الشخصي كان الأستاذ جوبانيان رجلاً فاضلاً يحمل تقاليد عريقة في الخلق الرفيع والآداب الطبية وفي معاملة المرضى . هذا وقد انصرف إلى العمل في عيادته الخاصة الواقعة في شارع النهر قرب أوروزدي باك القديم بعد أن تقاعد عن العمل في الكلية والمستشفى سنة 1954 . وكانت عيادته تزدحم بمن يثقون بعلمه وخبرته من المراجعين .

الأستاذ الدكتور نجيب مجيد اليعقوبي
(1980 - 1912)

الدكتور نجيب اليعقوبي من عائلة معروفة في كركوك درس في الجامعة الأمريكية ببيروت قبل أن ينتمي إلى الكلية الطبية الملكية العراقية التي تخرج منها عام 1936 . وعندما أوكل إليه تدريبنا بالجراحة العملية ، ونحن طلاب في الصف الرابع ، كان قد حصل على شهادة الماجستير بالجراحة قبل فترة وجيزة (1942) ومنح درجة أستاذ مساعد من الدرجة الثانية ، وكان متفوقاً على زملائه الجراحين الشبان ليس بحصوله على تلك الشهادة وحسب بل لحرصه على التدريس بكفاءة وبشخصية متميزة تعززت اجتماعياً ووظيفياً بمصاهرة السيد جميل المدفعي من رؤساء الوزارات العراقيين .

كان الدكتور اليعقوبي قد عيّن إثر تخرجه مساعداً للأستاذ البريطاني نوئيل أبراهام رئيس قسم الجراحة في المستشفى الملكي وأوفد إلى بريطانيا سنة 1939 للتدرب على الجراحة العامة . وفي سنة 1946 كان أول من رأس وحدة جراحية من الجراحين الشبان التي كانت تناط مهامها بالأساتذة الأجانب وأصبح أستاذا للجراحة في سنة 1951 .

في قاعة الدرس الملحقة بالردهة الجراحية (17) كان الدكتور اليعقوبي يحضر معه المرضى الراقدين في الردهة ويطلب من أَحَدنا أن يبدأ بسؤال المريض عن تاريخه المرضي ، ثم يشارك بقية الطلاب الحاضرين بالسؤال ومناقشتهم بالاحتمالات التفريقية ثم يشرف على فحصنا ويناقشنا في التشخيص متطرقاً خلال ذلك إلى كافة ما يتعلق بالحالة من نواح فسلجية ومرضية مع التشخيص التفريقي وهو يقودنا لكي نتوصل جميعاً إلى التشخيص النهائي والعلاج الواجب إجراؤه .

كان يومها جراحاً عاماً لكنه كان مهتماً بصورة خاصة بحالات وأمراض الغدة الدرقية علاوة على جراحة الجهاز الهضمي . ومع أنني لم أتدرب في الردهة التي يشرف عليها في تلك السنة ، إلا أن زملائي ممن درسّهم الدكتور اليعقوبي كانوا يبدون ارتياحهم لحسن التدريب في تلك الردهة .

عاد الدكتور نجيب اليعقوبي ليلقي علينا محاضرات في جراحة العمليات Operative surgery ونحن طلاب في السنة الأخيرة (السادس) ، وكانت في الحقيقة

إعادة وتذكيراً لما نسيناه عن تشريح جسم الإنسان بعد مرور سنوات عدّة على دراستنا لمادة التشريح .

كان الدكتور اليعقوبي منظماً ومتقناً في أعماله وحريصاً على التكامل ، مع عصبية في المزاج وسرعة الغضب مع المقصرين قد تصل أحياناً إلى حد استعمال الشدّة . كان يتطلب من مساعديه أثناء إجراء العمليات أن يفهما وبكل دقة ما يريد القيام به ، إما بالنظرة أو بكلمات مقتضبة . والويل للممرضة إن لم تحضّر الآلات والأدوات الجراحية اللازمة للعملية كاملة . هذا وقد شاهدناه يوماً ونحن طلاب ، من خلف الزجاج العلوي في شرفة قاعة العمليات الكبرى في المستشفى القديم ، ينهال على كبيرة ممرضات القاعة (الأخت نزهة) ، التي كانت ذات حظوة كبيرة لدى الجراحين البريطانيين ، بالشتائم لعدم تلافيها بعض النواقص في الآلات الجراحية التي يستعملها ، مما حدا به أن ينشئ في ردهة (20) التي يعمل فيها صالة للعمليات خاصة به .

لم يشترك الدكتور اليعقوبي في امتحان دورتنا في الصف السادس ، بل كان وضع الأسئلة والامتحان الشفهي منوطاً بالأساتذة البريطانيين فقط . على أنه رأس ردهتي (19) و(20) الجراحية وعمل معه عدد من الأطباء الأحداث مقيمين في الردهة ومساعدين له ، ومنهم كان زميلنا الدكتور خالد القصاب وفيما بعد عبد الرسول صادق وعصام الدملوجي ومؤيد مصطفى العمري وعبد الكريم الخطيب .

في سنة 1947 منح الدكتور اليعقوبي رتبة أستاذ مساعد درجة أولى ثم حصل على مرتبة الأستاذية سنة 1951 ، وعرفت عنه الشدّة والصرامة في الامتحانات ولم يكن يشفع لديه صديق أو قريب . كما تولى منصب مدير الكلية الطبية عام 1955 لفترة وجيزة . وفي تلك الفترة انصرف في عمله للتخصص بجراحة الجملة العصبية والدماغ بعد أن تلقى دورات في المملكة المتحدة وأمريكا وكوّن مع الدكتور جاك عبودي فريقاً لجراحة الأعصاب وأجرى عمليات Lobectomy للمرضى المصابين بانفصام الشخصية ، وكانت عملية مبتكرة يومها في المراكز الطبية الغربية ، وخلالها التحق بجامعة هارفارد الأمريكية (1957) للاطلاع على الجديد في جراحة الدماغ والجملة العصبية .

قدم الأستاذ اليعقوبي استقالته من وظيفته لأنه انتخب نائباً اتحادياً في دولة الاتحاد العربي الهاشمي (1958) ، وبعد قيام ثورة 14 تموز انصرف إلى العمل في

عيادته الخاصة وفي مستشفى الأمراض العقلية التي أنشأها مع زميله الدكتور جاك عبودي ، وكنت على اتصال دائم به حيث كان يحيل من يراجعه من ذوي الشكاوى الباطنية إلى عيادتي ، كما كنت ألقاه في الحفلات الاجتماعية . وأصبحت مدرساً لولديه نبيل ، الذي تخرج من كليتنا ويعمل اليوم جراحاً أخصائياً في بريطانيا ، وعمر الأخصائي البارز في طب وجراحة العيون في بغداد .

أصيب الأستاذ اليعقوبي بنوبات قلبية متعددة في أواخر السبعينات وانتقل إلى رحمة الله في أوائل عام 1980 .

الأستاذ الدكتور علي رشيد البير
(1962 - 1907)

كان الدكتور علي البير ضمن الدفعة الأولى من الطلاب الذين قبلوا للدراسة في الكلية الطبية عام 1927 . وبعد اجتيازه الامتحانات المقررة في حزيران 1932 تخرج طبيباً وعيّن في أربيل لفترة وجيزة نقل إلى بغداد للتدرب في معهد الأشعة بإشراف الدكتور نورمان . ثم اختار فرع الجراحة وأوفد إلى بريطانيا عام 1937 للتخصص بجراحة الكلى والمسالك البولية ، عاد بعد عودته وعيّن مسؤولاً في ردهة (4) للجراحة البولية بالمستشفى الملكي ببغداد .

كان الأستاذ البير صغير الحجم قصير القامة عريض الرقبة ذا شعر كثيف ومجعد . وقد حاضرنا في مادة الجراحة البولية في الصف الخامس ، كما تدربنا تحت إشرافه في الردهة الرابعة ونحن طلاب في الصف السادس .

مستوى محاضرات الأستاذ البير في جراحة الأمراض البولية كان متوسطاً أو دون المتوسط مقارنة بمستوى محاضرات الدكتور دوغلاس في الجراحة العامة التي تلقيناها في السنة المنصرمة . أما في تدريبنا العملي فكان يسمح لنا بدخول صالة العمليات ومساعدته أحياناً ، وكانت بالنسبة لي المرة الأولى ، والوحيدة ، التي ساعدت فيها جراحاً أثناء قيامه بالعمليات الكبرى .

كان الأستاذ علي البير بارعاً في إجراء عمليات المجاري البولية ، وكان يقف على لوحة خشبية عالية نسبياً لتتساوى مع طول مساعديه وارتفاع منضدة العمليات . وعندما يجري عملية رفع البروستات كان في اللحظات الأخيرة يدير وجهه جانبا بينما تتلمس أصابعه غدة البروستات ، ويبدو على قسمات وجهه آثار العنف في استئصالها ثم يرفعها فجأة بين يديه بمهارة فائقة ويرينا إياها مبتسماً . هذا وقد تدرب عليه عدد كبير من الجراحين أذكر منهم الدكتور عبد العزيز شنشل والدكاترة مكي الواعظ وطلال ناجي شوكت وجابر محسن العاني . وقد أحبه مساعدوه لرحابة صدره واعتبروه الأب الروحي لهم .

عرف الأستاذ البير بأفكاره الوطنية وباتجاهه القومي العربي . ومع إنه كان من كتلة الأستاذ صائب شوكت القومية ، إلا أنه نجا من النقل إلى خارج المستشفى الملكي بعد حركة رشيد عالي الكيلاني سنة 1941 . وفي الخمسينات كان من

المؤيدين للرئيس جمال عبد الناصر عندما قام بتأميم القناة، ومن أشد أنصار الوحدة العربية ومعارضاً للشيوعية وأنصار السلام .

في سنة 1957 عيّن الأستاذ علي البير مديراً للكلية الطبية وكان خلال تبوئه هذا المنصب حازماً وإدارياً نزيهاً ولا تأخذه في الحق لومة لائم، ولطالما أفقدته هذه الصفة صداقة زملائه . أذكر أن الدكتور سلمان فائق، وهو من خريجي الدورة الثانية في الكلية ورئيس لقسم الجراحة، قد تقدم بطلب إلى مجلس العمادة للترقية من مرتبة أستاذ مشارك إلى مرتبة الأستاذية، ولما عرض الطلب على أعضاء المجلس، وكنت حاضرا باعتباري عميداً بالوكالة لكلية طب الأسنان، اقترح الحاضرون على الدكتور سلمان فائق ترك الاجتماع لكي ينظر بطلبه في غيابه . لكن مدير كلية الطب الأستاذ علي البير طلب من رئيس الجلسة العميد الأستاذ صائب شوكت أن يبقى فتمت الموافقة . وهنا بادر الأستاذ ميلز وتبعه الأستاذ هاركريفز بالثناء على الدكتور سلمان وأشادا بعلمه وبكفاءته في ميدان الجراحة العملي ثم طلب الدكتور علي البير الكلام فأثنى على الدكتور سلمان وأشاد بكفاءته كجراح متميّز وأشار إلى صداقته الشخصية به، ولكنه كان لا يرى أنه يستحق ترقية علمية لأنه لا يعير التدريس اهتماماً ولا يقوم بدورات سريرية للطلبة في مختلف المراحل ولم يكتب بحوثاً أصيلة في مجال اختصاصه . وكان رد الدكتور سلمان فائق على تلك الصراحة طلبه بكل هدوء سحب طلب الترقية . على أن الترقية تمت فيما بعد عندما وافقت الأكثرية وسحب الأستاذ البير اعتراضه .

بعيد ثورة 14 تموز بفترة أسابيع قليلة عزمت حكومة الثورة على وضع قانون جديد لجامعة بغداد وعيّنت الأستاذ عبد الرحمن البزاز رئيساً وعمداء الكليات أعضاء والأستاذ سليمان حزيّن مرشداً في لجنة إعادة صياغة قوانين الجامعة . وقد حضرت كافة الاجتماعات التي كانت تتم مساءً وتنتهي قبيل حلول موعد منع التجول بصفتي عميداً لكلية طب الأسنان بالوكالة . وقد دام عملنا فيها عدة أسابيع حصلت خلالها، بما يخص كلية الطب، بعض المناقشات الحادة بين الدكتور علي البير والدكتور عبد اللطيف البدري الذي كان له باع طويل في شؤون الكلية في أوائل قيام الثورة .

عرفت الأستاذ علي البير شخصياً منذ أن حلّ في دار مستأجرة قرب دارنا في العيواضية في أوائل الأربعينات التي تزوج فيها من كريمة جارنا المرحوم الأديب

الأستاذ طه الراوي . وقد بقي في تلك الدار واستقر آخر المطاف في دار فخمة أشادها في كرادة مريم وأثثها على الطراز العربي . وكانت مكتبته تحوي عدة آلاف من الكتب الأدبية والعلمية . وكانت عائلتانا تتبادلان الزيارات . ولا يفوتني أن أذكر أنه كان يهوى البستنة وكانت حديقته زاهرة .

كان الدكتور علي البير أديباً وذوّاقة للشعر وينظم الشعر أحياناً ويهوى الموسيقى الشرقية والمقام العراقي وله صداقة متينة بقارئ المقام المعروف الأستاذ محمد القبانجي . وكان محدثاً بارعاً وقد توطدت صداقتي به عند اصطيافنا سوية في لبنان خلال صيف عام 1959 واستمرت حتى وفاته المفاجئة ، رحمه الله في سنة 1962 . فمنذ أن عرفته كان مصاباً بتضخم شديد في الغدة الدرقية وطالما سألته عن السبب في عدم إجراء عملية جراحية لاستئصالها فكان جوابه أنها لا تضايقه وأنه لا ينوي إجراء التدخل الجراحي ما دام احتمال ظهور السرطان فيها نادر الحدوث ، وهو ما أيّده فيها الأطباء في أمريكا عندما حضر مؤتمر منظمة الصحة العالمية عام 1957 . غير أنهم نصحوه لإجراء العملية خشية الاختلاطات الخطيرة . ولكنه تجاهل تلك النصيحة . كما أنه كان من المدمنين على التدخين وكثير الإصابة بالرشح ، وكان السعال المتقطع يزعجه أثناء إلقائه المحاضرات على الطلاب .

وبينما كان الأستاذ يلقي درسه صباح يوم خميس من خريف سنة 1962 أعاقه السعال الشديد عن إتمام المحاضرة ، فاعتذر للطلاب وغادر القاعة متوجهاً إلى المستشفى الملكي . وأثناء مروره بالساحة الكبيرة المواجهة لمدخل الردهات الباطنية ، أصيب بنوبة سعال شديدة سقط على أثرها على الأرض بسبب الاختناق ونتيجة لانسداد القصبة الهوائية الكلّي المفاجئ . وتصادف قدومي إلى المستشفى فلما رأيته ساقطاً ركضت وغيري إليه فوجدته فاقدا الوعي وقد ازرقّ وجهه زرقة شديدة ، فبدأنا بالإسعافات الأولية المعروفة وأعطيناه قبلة الحياة ونقلناه إلى ردهة (6) واستدعينا الدكتور يوسف النعمان الذي حضر للتو وأعطاه الصدمة وأجرى له عملية فتح القصبة الهوائية والصدر وربطها بجهاز التنفس الاصطناعي ، إلا أنه لم يتجاوب لتلك الإجراءات واعتبرت الوفاة حاصلة بسبب ضغط الغدة الدرقية على القصبة الهوائية الكبرى .

الأستاذ الدكتور عبد الله قصير
(1977 - 1887)

الأستاذ عبد الله قصير من عائلة مسيحية محترمة من الموصل . درس الطب في الجامعة الأمريكية ببيروت وبعد تخرجه عاد إلى مسقط رأسه ليمارس الطب العام . وانتقل بعدها إلى بغداد ليقبل وظيفة في مديرية الصحة العامة التي أوفدته إلى انكلترا في أوائل الثلاثينات للتخصص في طب الأطفال وليصبح بعدها شيخ أطباء الأطفال في العراق .

اكتسب الأستاذ قصير خبرة عملية واسعة في تشخيص وعلاج أمراض الأطفال ، وذاع صيته حيث كان أول من انصرف كلية إلى تطبيب الأطفال فقط ، وعمل مديرا لمستشفى حماية الأطفال الواقع في باب المعظم . وقد زامله في العمل البروفسور «ليدرر Ledrer» في نهاية الثلاثينيات . وكان المذكور قد هرب من النمسا بعد دخول الجيش الألماني إلى ذلك البلد . وكان طبيباً بارعاً نشر بحوثاً عديدة عن أمراض الأطفال في العراق ، ومنها Baghdad Spring Anemia ، غير أنه ما لبث أن انتحر بسبب تعرضه إلى ضغط نفسي شديد لظروف عائلية وشخصية .

في أواسط الأربعينات أصبح مستشفى حماية الأطفال تعليميا وألحق بعمادة كلية الطب ومنح الدكتور عبد الله قصير لقب أستاذ طب الأطفال لتدريس الطب النظري في الصف الخامس والعملي في الصفين الخامس والسادس . وقد توسع المستشفى آنذاك بإضافة أقسام وردهات جديدة بفضل الهبات التي كانت جمعية حماية الأطفال تتلقاها من المحسنين ومن الطوابع والشارات الخاصة التي أجيزت بها الجمعية . وانضّمت إلى المستشفى أعداد متزايدة من خريجي الكلية ومن أوائلهم الدكتور ، الأستاذ فيما بعد ، عبد الأمير علاوي وطبيب الأطفال العالمي الدكتور إحسان الدوغرامه جي ، الذي بدأ دراسته الطبية في بغداد ثم تخرج من جامعة إستانبول وشغل مناصب جامعية ودولية مرموقة بعد انتقاله إلى إستامبول وأنقرة ، والدكتور صالح البصام والدكتور نعيم ربيع والدكتور عبد الغني الكاظمي والمرحوم شقيقي الدكتور زهير الدملوجي والدكاترة سعدي السامرائي وناجي المختار وعدنان شاكر وقرينتي لمعان أمين زكي وزميلي في الدراسة سلمان تاج الدين ، وكلهم ممن أصبحوا أساتذة واستشاريين تدربوا وتتلمذوا على الأستاذ قصير الذي كان يحبوهم

برعايته الأبوية ويفيدهم من واسع خبرته في طب الأطفال .

في التدريس النظري كان الأستاذ قصير يحاول جهده إيصال المعلومات إلينا بصورة مبسطة . وقد كرّس على سبيل المثال ساعات طويلة لشرح تغذية الرضع والأطفال الصغار ، فكان يجلب معه إلى قاعة المحاضرات علب الحليب المجفف لغرض الإيضاح ويعيد لمرات عديدة حساب كل الكميات الواجب إعطاؤها إلى الطفل الرضيع . وعلى غير عادة باقي الأساتذة في الكلية الطبية ، كان الأستاذ عبد الله قصير يسمح لنا بمقاطعته أثناء إلقائه المحاضرة للسؤال عن أمر لم نفهمه أو للتعمق في شرح موضوع معيّن ، لذا كان الضجيج والكلام بين الطلاب يعلو أحياناً . ومن ناحيتنا كطلاب لم نكن يومها نولي تلك المحاضرات الاهتمام اللازم لأن المادة كانت من المواضيع (الفرعية) التي لا تسأل في الامتحان النهائي للتخرج ، كما أن درجة النجاح المطلوبة هي 50 بالمائة فقط ولا تحتسب في معدل الدرجة النهائي في مادة الطب الباطني .

داومنا في الصف السادس في مستشفى حماية الأطفال تحت إشراف الأستاذ قصير وكنا نصاحبه يومياً في العيادة الخارجية المكتظة بالمراجعين وكان يشجعنا ويراقب طريقة فحصنا للأطفال ، ويطلب منا كتابة العلاج الذي يقترحه على الاستمارات الخاصة . أما في الصف السادس فقد التحقنا به في الردهة الثالثة وأوكل إلى كل منا عددا من الأسرة نكون مسؤولين فيها عن كتابة طبلة المريض الطفل وإجراء الفحوص المخبرية ومناقشته بعدها بالتشخيص والعلاج عند زيارته اليومية للمرضى . كانت الفائدة كبيرة بسبب عدد المرضى الضخم وتنوع الأمراض . وقد ظل هذا المستشفى مركزاً أساسياً لتدريب الطلاب والأطباء . عمل فيه واكتسب خبرة واسعة به المئات من أطباء وأخصائيي واستشاريي الأطفال في العراق .

في صيف 1947 اختتمت مسيرة الأستاذ عبد الله قصير الإدارية في مديرية الصحة العامة والتدريسية في الكلية الطبية عندما أحالته المديرية على التقاعد ، وانصرف بعدها للعمل في عيادته الخاصة وكانت في جناح خاص من داره المطلة على شارع الأمام الأعظم يؤمه فيها مختلف طبقات الناس من بغداد وخارجها لعلاج أطفالهم . وكنت أزوره أحياناً في داره وعيادته فكنت أجده دؤوبا على قراءة الدوريات الطبية بصورة عامة وطب الأطفال بصورة خاصة . وعندما أنشئت جمعية خاصة بأطباء الأطفال في العراق انتخب عضو شرف فيها وكرمته جامعة بغداد بصفته أول

من تخصص بطب الأطفال في العراق(بناءً على توصية من زوجتي الدكتورة لمعان أمين زكي أستاذة طب الأطفال ورئيسة الجمعية) بمنحه الدكتوراه الفخرية وذلك في احتفال مهيب ، حضره وزير الصحة (الأسبق) الدكتور عزة مصطفى ، بمناسبة انعقاد المؤتمر العاشر لاتحاد جمعيات حماية الأطفال في الشرق الأدنى وحوض البحر الأبيض المتوسط (الذي ترأسته الدكتورة لمعان أمين زكي) وقام فيه الأستاذ طه العبد الله ، رئيس الجامعة ، بمنح الشهادات الفخرية للأستاذ قصير والأستاذ الدكتور إحسان الدوغرامه جي المدير التنفيذي لاتحاد طب الأطفال العالمي . وقد اغرورقت عينا الأستاذ قصير وهو يستمع إلى تقديم الدكتورة لمعان لحيثيات استحقاقه هذا التكريم وهو يتقبل الشهادة من رئيس الجامعة .

الأستاذ الدكتور سلمان فائق
(2002-1909)

الدكتور سلمان فائق من خريجي الدورة الثانية في الكلية الطبية ، تخرج عام 1933 وتدرب في قسم الجراحة تحت إشراف الدكتور وودمان Woodman ثم معاوناً للدكتور نوئيل إبراهام N. Abraham . وقد أوفد إلى بريطانيا للتخصص في الجراحة العامة وعاد فيما بعد ليرأس الوحدة الجراحية في المستشفى الملكي واشتهر كطبيب جراح لامع وماهر في العمليات الجراحية التي يجريها . ومع إنه لم يكن يواظب على الزيارات الكبرى في الردهة (17) و(18) عندما كنا طلاباً نتدرب في الصف السادس في تلك الوحدة ، إلا أنه كان يستدعينا للحضور في صالة العمليات الكبرى وقت إجرائه العمليات ويطلب من أحدنا أحياناً أن يساعده أو أن يجري تخدير المريض بالكلوروفورم أو الإيثر ، وغالباً ما كنا نقف بجواره نراقبه وهو يجري العملية بكل إتقان .

أوفد الدكتور سلمان فائق بعد الحرب العالمية الثانية إلى الولايات المتحدة الأمريكية ونال شهادة اختصاص في الجراحة العامة والجراحة التجريبية من إحدى أشهر جامعاتها (مايو كلينيك) . وعندما عا إلى العراق (1949) رفّع إلى مرتبة أستاذ مشارك ثم إلى أستاذ كرسي الجراحة في سنة 1958 .

شغل الأستاذ سلمان فائق منصب العمادة سنة 1964 ويذكر كل من عرفه من طلاب وأطباء وزملاء أنه كان يتحلى بالصفات الحميدة من أدب جم وطبع هادئ وروح مرحة ونفس متفائلة وخلق رفيع .

الأستاذ المشارك الدكتور عبد الرحمن الجوربه جي
(1912 - 1995)

جاء ذكر الطالب عبد الرحمن الجوربه جي في عدد من الكتب والدوريات التي وثّقت الفترة التي سبقت دخول العراق عصبة الأمم . وكان الشعب العراقي وفي مقدمتهم الطلبة يوم ذاك في حالة غليان ضد الانتداب البريطاني والنفوذ الأجنبي ، فكانت المظاهرات التي يقودها طلاب الثانوية المركزية ببغداد ومنهم عبد الرحمن الجوربه جي وأخوه خالد الجوربه جي تنادي بسقوط الاستعمار والصهيونية وتندد بوعد بلفور ، ثم تنتهي تلك المظاهرات الصاخبة بطرد الطلبة ، ومنهم الأخوان الجوربه جي ، من مدارسهم لفترات متفاوتة .

تقدم عبد الرحمن الجوربه جي للدخول في الكلية الطبية في تشرين الأول 1929 فقبل مع ثلاثة طلاب فقط هم مهدي فوزي وصادق علاوي وإلياس الشكرجي نظراً لعدم وجود طلاب من حملة الشهادة الثانوية ولأن مجلس الوزراء ألغى الامتحانات الخاصة التي عقدت في السنة الماضية . وكانت المرحلة الثانوية قد زيدت سنة واحدة فأصبحت أربع سنوات . وداوم مع الطلاب الأربعة ثلاثة آخرون من الراسبين في السنة السابقة فكان مجموع طلاب الصف سبعة فقط ، وقد فشل بعضهم في الامتحانات فكان خريجو الدورة الثالثة خمسة . وكانت لوحات الشرف الخشبية المعلقة على جدران بناية الكلية الطبية ، التي كتبت عليها أسماء المتفوقين والتي رفعت بعد ثورة 14 تموز ، تشير إلى أن الطالب عبد الرحمن الجوربه جي قد احتكر جميع الجوائز تقريباً عبر السنين الخمس التي قضاها في الكلية طالباً ، كما كان الخرّيج الأول على دورته التي تخرجت في حزيران 1934 .

أوفد الدكتور عبد الرحمن الجوربه جي إلى بريطانيا للتخصص بالأمراض الباطنية وعيّن بعد عودته مديراً في قسم الطب الباطني . وتقدم فيما بعد لامتحان الدكتوراه في الطب (MD) فاجتاز الامتحان بنجاح ومنح لقب الاختصاص وتدرج في السلك التعليمي أستاذاً مساعداً ثم أستاذاً مشاركاً في عمادة الكلية الطبية وعهد إليه في تلك الفترة تدريب الطلاب ، في غرف التدريس الملحقة بالردهة ، على طرق فحص المرضى وتفسير العلامات المادية وإيضاح مدلولاتها ، فكان من أوائل الأطباء العراقيين الذين قاموا بالتدريس السريري التطبيقي .

وأثناء دراستي في الكلية الطبية كان الدكتور الجوربه جي يعمل مساعدا للأستاذ هاشم الوتري في الردهة الأولى التابعة إلى الوحدة الباطنية الثانية ، وفيها تدربت مع زملائي في تلك الردهة لفترة عشرة أسابيع في الصف الرابع . كان انشغاله بالإدارة يحرمنا من تفرغه لتدريسنا فكان يعهد إلى مساعده الدكتور عبد الجبار العماري القيام بتلك المهمة ما عدا مرات قليلة كان يقوم بنفسه بتدريسنا .

انصرف الدكتور الجوربه جي للإدارة ، وكان من الأطباء القلائل جداً الذين لم يمارسوا المهنة في العيادات الخاصة (ربما لأنه كان مثرياً لا يهمه الحصول على المكسب الإضافي) . فكان في البداية مساعداً للأستاذ سندرسن في إدارة المستشفى الملكي ، ثم مديراً أصيلاً وبقي في هذا المنصب قرابة عشرين عاماً وحتى ثورة 14 تموز . كان خلال تلك الفترة المدير المثالي في الظروف الصعبة التي مرت على العراق واستطاع ، بحكمته وكياسته ومراسه الطويل وخبرته بأحوال الناس والمرضى منهم بصفة خاصة ، أن يقدم أفضل الخدمات في زمن كانت فيه الإمكانيات المادية شحيحة والموارد مقتضبة والأيادي العاملة قليلة .

بعد تخرجي عملت طبيباً معه في القسم الباطني (وأوكل لي إدارة المستشفى لفترة أربعة أشهر خلال غيابه متمتعا بإيفاده إلى الولايات المتحدة الأمريكية في صيف 1956 للإطلاع على الأساليب الحديثة في إدارة المستشفيات) وأعترف أنني تعلمت منه الكثير الكثير من أسلوب معاملة الناس وتطبيق السلوك المهني الرفيع ، فقد كان ذا بال طويل أكسبته خبرته الطويلة احترام جميع الطبقات . وعندما نقل إلى قسم التفتيش في وزارة الصحة بعد ثورة 14 تموز ووجد من استلم منصبه أن إدارة المستشفى هي من الصعوبة بمكان ، طلب إليه العودة واستلام الإدارة ثانية فقبلها على مضض وهو المترفع عن الوظيفة والمادة ، وبقي فيها حتى تم إنشاء مستشفى مدينة الطب فكان أول مدير إداري للمؤسسة المذكورة .

في أواسط السبعينات طلب الأستاذ الجوربه جي إحالته على التقاعد وانتقل بعدها إلى أيرلندا حيث وافاه الأجل المحتوم في سنة 1995 .

الأستاذ الدكتور مهدي فوزي
(1907 - 1999)

الأستاذ الدكتور مهدي فوزي من أوائل خريجي الكلية الطبية الملكية في بغداد ، فقد كان ضمن المقبولين فيها بالدورة الثالثة عام 1929 وتخرج طبيباً في حزيران 1934 عيّن بعدها طبيبا في المستشفى الملكي ببغداد . وأوفد إلى بريطانيا فالتحق بالمستشفيات الكبرى في لندن ، ومنها الهامرسمث ويونيفرستي كولج ، متدرباً لسنة واحدة في الأمراض الباطنية عادَ بعدها إلى العراق وعيّن معاوناً للأستاذ ستيسي في الردهة التاسعة .

قام الدكتور مهدي فوزي بتدريبنا ونحن طلاب في السنة الثالثة بالسريريات الباطنية في مبادئ الفحص الطبي العام . وكان يعاملنا باحترام ولين ولم يكن متشددا معنا في أسئلته ومتابعته تدريبنا العملي كما كان يفعل الدكتور عادل الدوغرامه جي . أما في الصف السادس فكنا نرافقه في الدورة الكبرى على المرضى في الردهة التاسعة مرتين أسبوعياً .

وبعد تخرجي من الكلية عيّنت في نفس الوحدة التي كان الدكتور مهدي فوزي أصبح فيها نائباً لرئيس الوحدة ، فكنت أرافقه في زيارته المرضى الراقدين في الردهتين التاسعة والثانية والغرف المأجورة ودار التمريض الخاص مرتين أسبوعياً كذلك . وفي تلك الفترة أوكلت إليه بعض الواجبات الإدارية في الكلية ومنها رئاسة تحرير مجلة الكلية الطبية .

في سنة 1948 أوفد الدكتور مهدي فوزي إلى الولايات المتحدة الأمريكية للاطلاع على الجديد في الطب الباطني وأمراض الجهاز الهضمي . وسبق ذلك تسلمه في سنة 1947مهام رئاسة الوحدة الباطنية الثالثة خلفا للأستاذ ستيسي وقيامه بتدريس مادة فن التداوي لطلاب الصف الخامس .

بعد عودتي من إجازتي المرضية في خريف 1947 والتحاقي الوحدة الباطنية الثالثة ، وزّع الدكتور مهدي فوزي العمل في الوحدة وأصبح الدكتور عادل الدوغرامه جي مسؤولاً عن الردهة التاسعة للرجال ونسّبني مسؤولاً عن الردهة الثانية للنساء ، وكنت والدكتور عادل والأطباء المقيمين وطلبة الصف السادس نرافق الدكتور مهدي في زيارته الكبرى للمرضى مرتين في الأسبوع .

في سنة 1948 قرر مجلس العمادة منح الدكتور مهدي فوزي لقب أستاذ فن التداوي ، وفي سنة 1953 صدر أمر العميد هاشم الوتري بتعيينه مديراً للكلية الطبية وقد شغل ذلك المنصب بكفاءة وكان يعتمد علي في تمشية بعض الأمور المتعلقة بالطلاب . وفي المستشفى كنت أرافقه في جلسات تنظير المعدة ، حيث أنه كان أول من أدخل فحوصات المعدة بالناظور التي يجريها في القاعة الملحقة بالردهة التاسعة .

عرف الدكتور مهدي فوزي ، رحمه الله ، بالاستقامة والخلق الرفيع الذي انعكس على أسلوبه في تسيير الشؤون الإدارية والطلابية ، لذلك حاز على احترام الجميع . وبعد أن طلب إحالته على التقاعد في نهايات عقد الستينات انصرف إلى العمل في عيادته الخاصة . وقد كانت عودته للتدريس ورئاسته لقسم الطب ثانية قد لقيت ترحيبا من طلابه السابقين والأساتذة وأعضاء هيئة القسم ، ولكن ذلك لم يدم طويلاً إذ آثر الانصراف الكلي إلى عمله الخاص وانتقل إلى دولة الإمارات العربية المتحدة وعيّن مستشاراً في إحدى مستشفياتها قبل أن يتقاعد عن العمل الطبي والاستقرار نهائيا في بريطانيا .

وكنت اجتمع إلى أستاذي الدكتور مهدي فوزي خلال زياراتي المتكررة إلى لندن ، حيث قضى سنواته الأخيرة ، وكان لا يزال محتفظاً بالروح العالية والنفس الطيبة والحديث الممتع وكل ذلك بالرغم من أعراض الشيخوخة التي حدّت من نشاطه وتحركاته ، وهو الذي كان يزاول الرياضة ويمارس لعب التنس سنوات طويلة .

الأستاذ المشارك الدكتور عادل الدوغرامه جي
(1911 - 1988)

زاملت المرحوم الدكتور عادل الدوغرامجي منذ تخرجي من الكلية الطبية حتى إحالته على التقاعد الذي تم بناءً على طلبه سنة 1973 ، وعندها اعتكف بداره بشارع الضباط في الأعظمية .

لقد كان من حسن حظي أني تدربت في السنة الثالثة والسنة السادسة في ردهة (9) الباطنية تحت إشراف ومتابعة الدكتور عادل الدوغرامه جي ، فقد كان يومها شاباً مليئاً بالحيوية والنشاط يهتم بالطلاب الذين يوكل إليه أمر تدريبهم ومتشددا في مراقبة دوامهم وتدريسه شبه التلقيني . كان يطلب منا أن نقرأ الفصل الفلاني من كتاب Hutchinson في الطب السريري وفي الحصة التالية يقف بجوار المريض ويشرح الموضوع ويطبق ذلك عمليا ومن ثم يطلب من كل واحد منا أن يفحص ذلك المريض . وخلال ذلك تنهال أسئلته علينا والويل لمن قد تهاون في تحضير المادة أو تبين له عدم معرفة الأسباب الخمسة (على سبيل المثال) لمشاهدة نبض في المنطقة الشرسوفية بالبطن .

ولد الدكتور عادل الدوغرامه جي في مدينة أربيل في أسرة تركمانية معروفة ، ودرس في الموصل في نهاية العشرينات ، وكان يروي لي ذكريات جميلة عن مدينة الموصل في نهاية العشرينات . ثم انتقل إلى الجامعة الأمريكية ببيروت ، وبعد نجاحه في «الفريشمان» عاد إلى بغداد وقبل في الكلية الطبية وتخرج منها عام 1938 وكان الخريج الأول في الطب الباطني .

وعلى أثر تخرجه عيّن طبيباً في الجيش العراقي ، إلا أنه أصيب بحادث سيارة اضطره لدخول المستشفى العسكري ومكث فيه قرابة شهرين وسرّح على إثرها من الجيش ثم عيّن في مديرية الصحة العامة ونُسّب للعمل في الردهة التاسعة بناءً على ترشيح من الأستاذ ستيسي رئيس الوحدة الباطنية الثالثة .

في خريف عام 1942 ، وعندما بدأنا تدريبنا السريري في الردهة التاسعة ، كان الدكتور عادل قد اجتاز للتو امتحان الاختصاص في الطب الباطني وكان رحمه الله يروي لي فيما بعد عن صعوبة ذلك الامتحان وتمكنه من تشخيص حالات مرضية معقدة قدمت له لفحص كفاءته لنيل تلك الدرجة العلمية . وبالإضافة إلى إتقانه

المهارة المسلكية في الطب السريري ، فقد كان واسع الاطلاع والمعرفة بالنواحي النظرية ويستند في مناقشاته الطبية وشروحه إلى كتابي Conyberne و Price في الطب الباطني إضافة إلى تتبعه الدوري للمقالات الطبية في مجلتي BMJ و Lancet . أما في تدريسه إيانا فكان مثال الأستاذ الحريص على أن نكون على شاكلته في دراسة الطب ، فجعلنا نحفظ عن ظهر قلب كتاب الطب السريري المذكور . وحق لنا أن نتباهى بذلك أمام زملائنا الآخرين الذين لم يكن مدرسوهم في الطب الباطني بكفاءة مدرسنا الدكتور عادل الدوغرامه جي .

وعندما تخرجت من الكلية وقررت أن أختار الطب الباطني توجهت إلى الدكتور عادل وسألته عن إمكانية تدريبي طبيباً مقيماً في الوحدة الباطنية الثالثة فرحب بالفكرة قائلاً إن كافة الخريجين الأوائل في الطب الباطني يفضلون التدريب في تلك الوحدة ، وأثنى علي وزكاني لدى الأستاذ ستيسي . يومها أوصاني الدكتور عادل بتسجيل كل ما يطلب مني القيام به في دفتر صغير أحمله في جيب صدريتي ، وأن أنجز الأعمال المطلوبة على الوجه الأكمل لأن الأستاذ ستيسي شديد في محاسبة المقصرين . وفعلاً عملت بنصيحته وأصبح التسجيل على الورق عادة عندي طيلة حياتي ، فنقطة الحبر ، كما قال لي الدكتور عادل ، خير من أقوى ذاكرة في العالم .

لقد تعلمت الكثير من أستاذي الدكتور عادل الدوغرامه جي ليس أثناء الإقامة فحسب ، بل بعد أن عهد إلي بمسؤولية الردهة الباطنية الثانية للنساء ، فكان مرشدي في كل ما يصعب علي . وبقيت بعدها سنين طويلة أرافقه في دورته الكبرى للمرضى في الردهة التاسعة وأتعلم منه ، فقد كان ذا ذاكرة عجيبة ودقيقة ، كما كان لطيفا معي دوماً .

أذكر أنه قدم إلى الردهة ذات صباح متهلل الوجه وأخبرنا أنه وزوجته قد رزقا بطفلة جميلة ، وصادف أني سمعت ذلك الصباح السيدة أم كلثوم تغني بالراديو قصيدة «ابتسام الزهر» وكنت لا أزال أستعيد الكلمات وأترنم باللحن مع نفسي ، فاقترحت عليه أن يسميها «ابتسام» وصادف ذلك هوى منه ، فكان ذلك اسمها حفظها الله .

لم ينصرف الدكتور عادل إلى ممارسة اختصاصه في عيادة خاصة بعد أوقات الدوام الرسمي أسوة بكافة الأطباء لزيادة الدخل المادي إلا لفترة وجيزة عندما استلم من قريبه الدكتور إحسان الدوغرامه جي ، بسبب مغادرته العراق ، عيادة تقع في

شارع الرشيد كانت تغص بالمراجعين من الأطفال . إلا أ العمل في العيادة لم يلق هوى في نفسه فأغلق العيادة وقنع بالراتب الذي يتقاضاه من الحكومة إضافة إلى بعض ما كان يصله من ريع وإيجار أملاك ومزارع عائلته في أربيل .

كان الدكتور عادل يصاب بين الحين والآخر بمغص شديد في أعلى البطن يضطره لأخذ المسكنات وحقن الأتروبين . وقد دام ذلك ردحاً من الزمن إلى أن وجدنا بالتحريات الشعاعية سنة 1955 أنه مصاب بعدد كبير من الحصى في كلتي الكليتين . وكان ذلك أمراً مقلقاً له ولنا جميعاً ، فسافر إلى بريطانيا حيث استأصلت منه كلية كانت عاطلة عن العمل الوظيفي وتركت الثانية لوجود وظائف متوسطة فيها ، وعاد بصحة جيدة واستأنف عمله التدريسي كالمعتاد . وبعد فترة لم تتجاوز أسابيع قليلة عاد الألم والمغص الكلوي وانحبس البول وارتفعت مادة اليوريا في الدم فنقل إلى دار التمريض الخاص لإجراء الفحوصات . وتأكد وجود انسداد في الحالب بالحصاة مسبباً اليوريميا . ثم قام الدكتور نجيب اليعقوبي بإجراء تلك العملية الخطرة برفع الحصاة من الحالب وباقي الحصى من الكلية ، وقد كان شفاؤه وعودته إلى مسرى الحياة المعتادة ومعاودته علاج المرضى والتدريس ، أمراً بهيجاً لكافة العاملين في المستشفى والطلاب . وكان من عادته بعد ذلك أن يشرب كميات كبيرة من الماء يومياً .

نشر الدكتور عادل الدوغرامه جي عدداً محدوداً من المقالات الطبية في مجلة الكلية الطبية ببغداد ، فقد كان اهتمامه الرئيسي منصباً على تدريس طلبة الطب وحسن تدريبهم . وكان قد منح لقب أستاذ مساعد درجة ثانية سنة 1945 ، إلا أن صدور قانون الترقيات العلمية سنة 1955 أهّله لنيل لقب أستاذ مشارك في قسم الطب الباطني . غير أنه لم يتقدم بطلب الترقية إلى مرتبة «الأستاذ» لغاية تقاعده عن التعليم في الكلية .

سوف يبقى الدكتور عادل الدوغرامه جي في ذاكرة تلامذته الكثيرين كأول أستاذ أدخلهم إلى عالم الطب السريري ودربهم على طرق الفحص الصحيحة ، وسوف لن ينسوا رعايته الأبوية لهم وأسلوبه المهذب في معاملة المرضى والالتزام بآداب الطب الرفيعة .

ميجر دونالد دوغلاس
Major Donald Douglas

ذكرت في ما سبق أن تدريس الجراحة العامة النظري والعملي في الصف الثالث كان دون المستوى المطلوب ، وذلك لانشغال الجراحين بتقديم الخدمات الفورية للأعداد الهائلة من المراجعين والمرضى وتفضيلهم ذلك على الالتفات لتدريب الطلبة ، الأمر الذي دفعنا إلى الاعتماد على الذات والرجوع إلى الكتب ، ومنها كتاب Illingworth في الجراحة للتعويض عن غياب المدرس . وربما شعرت العمادة بذلك فانتهزت فرصة وجود زمرة من الأطباء المتخصصين في الجراحة الذين يعملون في المراكز الصحية العسكرية التي أنشأتها بريطانيا في الشرق الأوسط في ظروف الحرب العالمية ، فطلبت منها إعارة خدمات كل من الميجر دونالد دوغلاس والكولونيل باربر والميجر روجرز (الذي ارتبط اسمه برومانسية قتاله ضد الجيوش النازية إلى جانب الرئيس تيتو في يوغوسلافيا) للتدريس في الكلية .

والميجر دوغلاس الذي حاضرنا في الجراحة الخاصة Regional Surgery كان من خيرة الأساتذة والمحاضرين الذين قاموا بتدريسنا يوم ذاك ، وقد أكمل المنهج المقرر خلال سنة واحدة وغادر العراق في 25 تشرين الأول 1945 بعد أن ترك في الكلية وطلبتها أثراً عميقاً لا ينسى . إليه يعود الفضل في ولادة جيل جديد من الجراحين العراقيين الشبان الذين قدموا وطوروا الجراحة في العراق فوصلت إلى مقام مرموق بشهادة المختصين في العالم أجمع .

كان الميجر دوغلاس شابا اسكتلنديا في نهاية الثلاثينات من العمر رشيقا ومستقيم القامة عسكري الخطوات نشيط المظهر ، لكنه لم يكن يحمل روح الفكاهة التي كانت ميّزة الأساتذة البريطانيين . وكان يحاضرنا في قاعة التدريس المدّرجة رقم (1) في أول حصة من النهار أربعة أيام أسبوعيا . وكانت محاضراته تنم عن خبرة واسعة في الجراحة العامة يلقيها بأفكار منظمة ومنهجية وأسلوب سلس ومشوّق .

درس الميجر دوغلاس في أرقى جامعات سكوتلندا وعمل وتدرب بعد التخرج في الولايات المتحدة الأمريكية واطّلع على أحدث التطورات العلمية فيها ونال أعلى شهاداتها ، لذا كانت محاضراته النظرية تجذب الطلاب من الصفوف المتقدمة كما كانت جلساته السريرية تجذب زملاءنا الطلاب من المجاميع الأخرى .

في الامتحان النظري في الجراحة لنهاية الفصل الأول لم تكن النتائج مرضية للأستاذ دوغلاس ولا لنا . فقد ظهرت النتائج ولم ينل 18 طالباً من مجموع 48 درجة النجاح ، بل كانت دون 40 بالمائة . وقد علل الجميع ذلك بعدم اعتيادنا على أسلوب الأستاذ ومتطلباته . أما في امتحان الفصل الثاني فقد تغيرت الصورة تماماً وطرأ تحسن كبير على أداء الطلاب بمثابرتنا وتقديرنا جهوده بتدريسنا . وقد نوّه هو بذلك في أول محاضرة له في بداية الفصل الثالث .

استمرت المحاضرات النظرية وتدريسه لنا حتى نهاية السنة ، وكنا نجد متعة في حضور جلساته السريرية ، الردهات الجراحية وأخذت أنا أفكر جدياً بالتخصص بالجراحة بعد تخرجي من الكلية .

وعندما عدت إلى دفاتري ومحاضرات الميجر دوغلاس وقرأت الملاحظات التي دونتها يوم ذاك ، أجد أننا قد أغضبنا أستاذنا الذي احترمناه عندما اعترضنا أثناء أدائنا الامتحان الفصلي الثالث في الجراحة على وضعه سؤال عن موضوع سبق أن درسناه في الفصل الأول . فقد اعترض البعض إلى المراقب في قاعة الامتحان وقالوا بصوت عال إنهم لن يجيبوا على الأسئلة . وكالعادة لم يكن المعترضون من بين الطلبة المتفوقين ولكن تبعهم آخرون . فاستدعى مراقب الامتحان الأستاذ دوغلاس الذي حضر وقال لنا إن كل من ينهي الجراحة الخاصة لابد أن يكون ملماً بصورة جيدة بمحتوى إجابة ذلك السؤال . وكان بعض الطلاب قد ترك القاعة احتجاجاً ، أما نحن فوافقنا على إجابة السؤال . وعندما أتذكر ذلك الآن أشعر بالأسف والخجل لما حدث . أن الأستاذ دوغلاس ترك في نفوسنا أطيب الأثر .

غادر الميجر دوغلاس العراق في أوائل السنة الدراسية الخامسة ، وكتبت في دفتري يومها أنه قادم لتدريسنا بعد إجازة قصيرة في وطنه لكنه لم يحضر . وكتبت في آخر صفحة من ذلك الدفتر «أني تعلمت الطب من خلال محاضرات الأستاذ دوغلاس في الجراحة» .

بانتهاء الحرب العالمية الثانية عاد أستاذنا إلى سكوتلندا حيث عمل جراحاً وقام بالتدريس في كلية سانت أندروز في أبردين Aberdeen بمثل الكفاءة التي عرف فيها ببغداد ، حسبما أفادنا بعض خريجينا الذين التقوه أثناء تدريبهم للاختصاص بالجراحة في المملكة المتحدة . وقد منح لقب أستاذ الجراحة ومن ثم عيّن عميداً في الكلية وانتخب رئيساً لكلية الجراحين الملكية في سكوتلندا ومنحته ملكة بريطانيا

لقب فارس «سير» .

وعرفانا بفضله ، واعتزازاً من قبل أعضاء قسم الجراحة في كليتنا بدوره في تدريس الجراحة والأثر الذي تركه ، وجه تلامذته ، وقد أصبحوا أساتذة بدورهم ، الدعوة له سنة 1960 لزيارة العراق والمشاركة في امتحانات الطلاب فقبل الدعوة وكان موضع حفاوة وتكريم من قبل طلابه الكثيرين من أعضاء هيئة تدريس الكلية . وقد عكّر تلك الزيارة وسبّب امتعاض أستاذنا الزائر عدم موافقة جامعة بغداد على منحه بطاقة سفر بالطائرة تخوله حق التوقف في أوروبا لبضعة أيام . وكانت تلك آخر زيارة له للعراق .

الأستاذ ولفرد باربر
Professor Wilfred Barber

قدم الأستاذ ولفرد باربر في أوائل سنة 1945 ربما بعد تسرحه من الجيش البريطاني . ولم يلق على طلاب دورتنا محاضرات نظرية في الجراحة ولكني حضرت بعض زياراته التعليمية على المرضى في الردهتين الجراحيتين 19 و20 . ولا أتذكر أنني كونت انطباعاً عن قابلياته كمدرس ، إلا أنه كان مهذباً وهادئاً ويبدو معلماً جيداً . وقد وضع بالمشاركة مع الأستاذ روجرز أسئلة الامتحان النهائي للصف السادس على ورقتين أولاهما في الجراحة العامة والثانية في الجراحة التخصصية . وقد كنت ضمن من أجرى لهم الامتحان في الحالات القصيرة والأشعة والنماذج الباثولوجية .

تدرب على الأستاذ باربر عدد من الأطباء الجراحين كان منهم الدكتور أدور عيسى وزميلاي في الدراسة كل من مصطفى أدهم وخالد القصاب ، حيث عملا مقيمين ثم مقيمين أقدمين في وحدته الجراحية ، ويشيد كل من عمل معه ببراعته في التشخيص والعلاج الجراحي .

كان الأستاذ باربر طويل القامة وسيماً مهذباً ورقيقاً وجلبت له علاقات خارجية خاصة متاعب ومشاكل اضطرته لمغادرة العراق بصورة مفاجئة في أوائل سني الخمسينات . عمل بعدها جراحاً في جنوب أفريقيا ونال نجاحاً وشهرة واسعة وانتخب رئيساً لكلية الجراحين في شرق أفريقيا . وقد دعاه أساتذة قسم الجراحة لزيارة الكلية والاشتراك في الامتحانات للسنة الأخيرة سنة 1967 فوجدته قد أصبح هرماً وفقد الكثير من حيويته وتردى بصره . وعلمنا أنه توفي بعد سنوات قليلة .

الأستاذ ميجر ليندزي روجرز
Major L. Rogers

الأستاذ روجرز شخصية بارزة أخرى تركت هي الأخرى في الكلية الطبية والوسط الطبي أثراً لا ينسى من خلال عمله جراحاً وأستاذاً منذ قدومه العراق قبل نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى أوائل الخمسينات .

كان أستاذنا ، الذي يحمل لقب ميجر في الجيش البريطاني ويرتدي البزة العسكرية أحياناً ، معتدل القامة ذا ملامح صارمة ووجه يطفح بالحيوية والنشاط . يبدأ نهاره بالخامسة صباحاً فتجده في غرف العمليات متنقلاً من صالة إلى أخرى ويجري ما لا يقل عن عشرين عملية في يوم واحد وكأنه في ساحة حرب ، وهو أمر أثار في معاونيه همة واندفاعاً لا يمكن وصفهما . أما إدارة المستشفى فقد اعترضت على ذلك الأسلوب غير المألوف بحجة عدم استيعاب الصالات ولا الآلات أو الجهاز الفني المتمم لذلك العدد اليومي الهائل من العمليات الكبرى والصغرى .

وكانت زياراته التعليمية ودوراته على المرضى في الردهتين 12 و11 تستقطب عشرات الطلاب من مختلف الصفوف الذين يحضرون متلهفين للاستماع والمشاركة في تدريس الأستاذ الذي يشرك كل من حوله من طلاب وستاجيرية ومقيمين وأطباء في النقاش . فهو يثمن هذا إن كانت إجابته صحيحة ، وينقد ذاك نقداً لاذعاً ، لا يخلو أحياناً من كلمات جارحة ، إن كانت إجاباته مغلوطة . هذا الأسلوب من التدريس تميّز به تلميذه ومساعده المفضل الدكتور خالد ناجي ، الذي اكتسب بدوره سمعة تدريسية عالية لدى طلابه ومساعديه ، ومنهم أخي الدكتور عصام الدملوجي . وكان من تدرب على يدي الأستاذ روجرز كذلك الدكتور عزيز محمود شكري الذي نال شهرة واسعة في الجراحة والدكتور عاصم الجلبي ، وهو الوحيد الذي حصل على شهادة الماجستير في الجراحة من عمادة الكلية الطبية ، بينما فشل في الامتحان الذي أعدته العمادة سنة 1949 تسعة جراحين آخرين ، والدكتور تحرير الكيلاني الذي حصل على دبلوم العضوية في كليتي الأطباء والجراحين الملكية في لندن وأدنبرة في فترة وجيزة .

تطوع الميجر روجرز خلال الحرب العالمية الثانية للالتحاق بحرب العصابات التي كان يقودها الجنرال «تيتو» في يوغوسلافيا ضد الجيش الألماني ونزل بالباراشوت في

إحدى الجبال النائية وأصبح طبيبه الخاص ودوّن ذكرياته عن تلك الفترة في كتاب أصدره بعنوان Guerilla Surgeon وأعادها في محاضرة ألقاها ببغداد في مارت 1950 بعنوان Adventures of my Life .

وتطوع الأستاذ روجرز خلال الحرب العربية الإسرائيلية (1949) للعمل في الجبهة ، وحضر برفقة الدكتور علاء الدين الخالدي إلى مستشفى الهلال الأحمر في فلسطين وشارك بإجراء العمليات يوم أن كان تلميذه الطبيب الجراح خالد القصاب مسؤولاً في القسم الجراحي في ذلك المستشفى .

وبالرغم من السمعة الطيبة التي تركها الأستاذ روجرز لدى طلابه ومساعديه فقد جلبت بعض تصرفاته الخاطئة اعتراض زملائه الجراحين القدامى . وكان اشتداد المنافسة بينهم فيما يخص العمل في المستشفيات الخاصة سبباً لمغادرته العراق في أواسط الخمسينات حيث انتقل إلى مسقط رأسه في نيوزيلاندة ، وقيل يومها أنه تقاعد عن العمل الجراحي وعيّن رئيساً للبلدية في إحدى المدن . ثم علمنا في أواسط الستينات بخبر وفاته إذ مات غرقاً وهو يعبر بسيارته أحد الجسور في نيوزيلاندة .

الأستاذ نوئيل أبراهام Professor N. Abraham
(1942 - ?)

يعتبر الأستاذ أبراهام أحد الزمرة الصالحة بين الأطباء البريطانيين الذين خدموا العراق بنزاهة وإخلاص ومن أول أساتذة الجراحة الذين تدرب عليهم جيل ناشئ من الجراحين العراقيين . وهو وإن لم يقم بتدريس دورتنا لأننا كنا لا نزال في المرحلة قبل السريرية إلا أننا كنا نسمع عنه الكثير ممن سبقونا بالدراسة كونه أستاذاً فاضلاً وعالماً ومدمن عمل ومشروبات روحية .

لمحني يوماً وهو خارج من قاعة المحاضرات رقم (1) يحف به طلاب صفوف متقدمة وأنا أغادر مختبر الفسيولوجي مسرعاً ، وكنت في حصة تدريس عملي وصدريتي البيضاء ملطخة بالسواد بعد تلوثها بـ«سخام» الطبول Drums من تجربة كنت أجريها على شريحة أمعاء أرنب ، فأوقفني ومسكني من عضدي وقال لي متعجباً ?Are you a medical student ، فخجلت من مظهري وقلت له يا سيدي ما تراه نتيجة تجارب المختبر المفروض علينا ، فابتسم وقال كن أكثر حذراً من التلوث في المختبرات في المستقبل يا ولدي .

تخرج الأستاذ أبراهام من جامعة أدنبرة والتحق بالجيش عام 1914 بعيد نشوب الحرب العالمية الأولى وجاء إلى العراق سنة 1917 وعُيِّن جراحاً لأحد المستشفيات المتقدمة في سامراء وبيجي والموصل . وبعد إعلان الهدنة عُيِّن بالإدارة المدنية ببغداد وقام بإدارة مستشفى الكرخ ثم في المستشفى الملكي فترة دامت خمس سنوات وذاع صيته يومه كجراح في طليعة الجراحين في الشرق الأوسط ، وأجرى خلالها عملية الزائدة الدودية للملك فيصل الأول عام 1924 ثم غادر العراق فيما بعد ليعمل جراحاً في بريطانيا ومستشاراً لشركة نفط العراق .

وفي سنة 1935 دعي إلى العراق لحضور افتتاح خطوط النفط في كركوك وانتهزت العمادة الفرصة فطلبته ليكون أستاذ الجراحة ورئيساً لوحدة الجراحة وعضواً في مجلس الكلية فوافق ، كما منح رتبة عقيد في الجيش العراقي كي يقوم بالإشراف على أعمال الجراحة في مستشفى الرشيد العسكري .

توفي الأستاذ أبراهام في بغداد سنة 1942 وشُيِّع جثمانه بموكب مهيب ، جامعي وعسكري ، اشتركت فيه هيئة الأساتذة في الكلية الطبية وطلابها ورجال الحكومة

البارزون وكبار رجال الجيش العراقي . وكان تشييعاً فخماً يليق به وبمكانته عند الكثير من الذين أنار لهم طريق العلم وانتفعوا بعلمه الغزير وأدبه الجم وأخلاقه الممتازة .

الثلاثة الكبار

الأستاذ هاري سندرسن Professor H. Sinderson
(1974 - 1891)

في الأيام الأخيرة من شهر مايس (أيار) عام 1946 غادر الأستاذ هاري سندرسن العراق بعد أن قضى فيه 27 عاما عمل خلالها طبيباً وأستاذاً وعميداً في الكلية الطبية الملكية العراقية ومستشاراً سياسياً في الحكومة العراقية . وقبيل سفره أقامت عمادة كلية الطب والهيئة التدريسية فيها حفل عشاء توديعية على شرفه في فندق ريجنت بالاس مساء يوم 24 مايس ، حضرها رئيس الوزراء السيد حمدي الباجه جي والوزراء والسفراء وأساتذة الكلية مع عقيلاتهم إضافة إلى لفيف من الطلبة . وألقى فيها العميد المنتخب الأستاذ هاشم الوتري خطاباً أشاد فيه بالخدمات الجلّى التي قام بها ضيف الشرف وأثنى على جهوده المشكورة في إنشاء الكلية وجعلها بمستوى علمي رفيع ودعا الحاضرين ، بالمشاركة مع الدكتور ناجي مراد والدكتورة ملك غنام ، إلى شرب نخبه ورفع كأسه متمنياً للمحتفى به الصحة والسعادة ، تلاه الدكتور ناجي مراد ، الذي تتلمذ عليه وعمل مساعداً له في الردهة السابعة ، بخطاب مماثل ثم تقدمت الدكتورة ملك غنام ، وهي أول فتاة تخرجت من كلية الطب (1938) وقدمت له «قفة» مصنوعة من الفضة الخالصة مطعمة بالمينا هدية من أساتذة وخريجي الكلية لتبقى لديه ذكرى طيبة وجميلة عن الكلية والعراق .

بعد ذلك قام المحتفى به وألقى كلمة قال فيها إنه فخور بكونه الأب المؤسس لعمادة كلية الطب الملكية في العراق ، وأنه غرس مع زملائه العراقيين والبريطانيين البذرة التي أصبحت شجرة فأورقت وأثمرت وتوالى عطاؤها وأفاض بالآمال المرجوة منها . ولم ينس أن يذكر أن طريقه لم يكن معبداً بالورود دائماً ، وأن لفيفاً من الصحافيين اتهموه ، ظلماً ، بالدكتاتورية ولكنه دافع عن الكلية ونفسه ، وأنهى خطابه قائلاً للحاضرين «كان هناك طبيب شهير في بغداد اسمه ابن سينا . وقد ذهب قبل 930 عاماً . وبينكم الآن طبيب آخر اسمه ابن سندر وغداً سوف يذهب هو الآخر» . وفعلاً فقد ترك العراق للمرة الأخيرة (1946/5/27) متوجهاً إلى بريطانيا ضمن حاشية الملك فيصل الثاني ، وكان طبيبه الخاص يعالجه من نوبات الربو القصبي .

ينحدر الأستاذ سندرسن من عائلة سكوتلندية ظهر فيها العديد من الأطباء . درس الطب وتخرج من جامعة أدنبرة سنة 1914 ، ثم عمل طبيباً عسكرياً ، برتبة

ميجر ، على ظهر إحدى البواخر التي حطّت مع الحملة العسكرية البريطانية في العراق سنة 1918 وعيّن مساعداً إدارياً في القسم الطبي المدني الملحق بدائرة الأمور الصحية . غير أنه ما لبث أن أبدى رغبته في اعتزال العمل الإداري فنقل إلى الحلة طبيباً ورئيساً لصحة اللواء .

وخلال ممارسته الطبية في الحلة أبدى اهتماماً بأمراض الطفيليات والديدان وخاصة الانكلستوما التي كانت منتشرة بصورة واسعة بين الفلاحين وألقى عنها بحثاً في اجتماع الجمعية الطبية البغدادية . وكانت بحوثه تلك مادة تقدم بها لنيل شهادة الدكتوراه في الطب MD من جامعة أدنبرة .

وأثناء وجوده في بريطانيا بإجازة خاصة التحق بمدرسة الأمراض المتوطنة والصحة العامة بلندن وتقدم لامتحان الدبلوم ومنح درجة D.T.M&H ثم سافر إلى أدنبرة ونال شهادة عضوية كلية الأطباء الملكية MRCP (E). (وقد كرمته الكلية في سنين لاحقة بمنحه زمالتها (FRCPE) تقديراً لجهوده في مسيرة التعليم الطبي في العراق) .

وبعد عودته إلى العراق نقل إلى بغداد طبيباً في مصلحة السكك الحديدية والمستشفى العام الجديد ، الملكي فيما بعد . وذاعت شهرته لكونه أول طبيب حاصل على شهادة علمية عالية وعرفته الأوساط البغدادية طبيباً بارعاً وأصبح مقربا من البلاط الملكي ونال ثقة الملك فيصل الأول فأصبح طبيبه الخاص وطبيب العائلة المالكة المؤتمن .

ولما عزمت الحكومة العراقية على تأسيس الكلية الطبية كان من المتحمسين لإنشائها وله الفضل بإقناع الملك والمسؤولين الكبار بضرورتها وحاجة البلاد الماسة إليها . وعلى ذلك كان اسمه في مقدمة المرشحين لتولي إدارتها ، وقد نقل إليه خبر تعيينه عميداً أثناء ما كان يقضي إجازة ثانية في بريطانيا ، فانتقل إلى أدنبرة لكي يحصل على استشارة أساتذته ، ومنهم أستاذ الفسيولوجي الشهير «السير شاربي شيفرز Professor Sir Sharpay Schaefers» في وضع مناهج الدراسة النظرية والعملية المقترحة لكلية الطب ببغداد .

وعند عودته إلى العراق عام 1927 وتوليه منصب أول عميد للكلية . بدأ العمل بوضع المناهج التدريسية اقتباساً مما شاهده في أدنبرة ، وانتخاب الهيئة التعليمية من العراقيين والبريطانيين الذين استقدمهم من بريطانيا وبالخصوص من أدنبرة واستيراد

الكتب ومستلزمات الدراسة من آلات وأدوات ، ووضع أسس القبول والتعليمات الامتحانية ومنح الدرجات العلمية إضافة إلى وضع مخططات لبناء مبنى الكلية شاملاً في مرحلته الأولى القاعات والمختبرات والمتاحف .

لقي الدكتور سندرسن معارضة شديدة من بعض الفئات والصحف المعارضة للحكومة ولكنه لم يكن يألو جهداً بتخطي الصعاب المتوقعة من إقدامه على هذا العمل الشاق في تلك الأيام التي تميّزت بقلة الموارد المادية وشحة الأيدي العاملة ، وشكوك الكثير من الجهات العراقية بإمكانية نجاح الكلية . وقد أفلح بنفوذه لدى المسؤولين بمنح الكلية استقلالاً حال دون أي تدخل في شؤونها ، مثل القبول والتدريس ، من قبل وزارة المعارف .

وفي أيلول 1927 أعلنت مديرية الصحة العامة عن افتتاح الكلية فتقدم للانخراط بها ثمانون طالباً انتخبت اللجنة الخاصة منهم عشرين طالباً وبدأت الدراسة يوم 29 تشرين الثاني 1927 في جناح مؤقت من أجنحة المستشفى الملكي وبوشر ببناء صرح الكلية على أرض مجاورة للمستشفى وكانت تعود إلى الوقف .

قام الأستاذ سندرسن بتدريس مادة الفسيولوجي لطلاب السنة الثانية في السنوات الأولى ، ولكنه أصبح أستاذاً للطب الباطني وظل شاغلاً المنصب حتى عام 1946 عندما غادر العراق ، كما كان رئيساً للوحدة الباطنية الأولى في المستشفى الملكي وعمل معه عدد كبير من الأطباء الخريجين أذكر منهم الدكتور محمود عبد الخالق والدكتور ابراهيم حيالي والدكتور ناجي مراد والدكتور عبد الجبار العماري والدكتور نسيم طويق . وخلال قيامه عميداً للكلية خلال السنين السبع الأولى من عمرها سارت التدريسات بفضل إدارته الحازمة سيراً منتظماً على الأسس التي رسمها لها ، فأحرزت في نظر الجمهور والمسؤولين مكانة عالية وسمعة محترمة . وفي نيسان 1930 دشنت البناية الجديدة «الحالية» رسمياً بحضور جلالة الملك فيصل الأول في حفل كبير دعي إليه رجال الدولة من مدنيين وعسكريين وألقى فيه العميد الأستاذ سندرسن خطاباً استعرض فيه ما تم تحقيقه والآمال المعقودة والمستقبل الباسم الذي ينتظر الكلية الناشئة . ثم قدم الأساتذة والمحاضرين إلى جلالة الملك راعي الحفل الذي وزع في الختام الجوائز والمداليات على الطلاب المتفوقين .

كان الأستاذ سندرسن صارماً في تطبيقه نظام الكلية والتقيّد بالسلوك الجامعي وأرسى لها تقاليد سارت عليها الكلية سنوات عديدة ومديدة اكسبتها سمعتها

العالية . فقد تشدد في أمور الدوام والامتحانات والانضباط ، ولم يعر للمحسوبية والمنسوبية بالاً وحرّم على الطلاب الإضراب المدبر والاشتغال بالسياسة والمس بالمعتقدات والأديان ، كما تابع التزام الطلاب بالقيافة اللائقة والتحلي بالأخلاق الفاضلة .

كان الأستاذ سندرسن رجلاً أنيقاً فارع الطول صبوح الوجه مهيب الطلعة يكسو رأسه شعر أبيض فضي ، يمشي بوقار مشية جمل صعوداً ونزولاً ، متوقد الذكاء ويتكلم بإنجليزية مهذبة وجميلة ، لا تشوبها لهجة سكوتلندية ، وكان دمث الخلق محافظاً وصارماً في تطبيق نظام الكلية ، يرعى طلبته كأنهم أولاده ، الذين حرم منهم لأنه لم يخلف ولداً . وعرفنا أنه كان كثير الاختلاط بهم في الدورات الأولى عندما كان عددهم قليلاً ، فكان والسيدة عقيلته يدعونهم بجماعات صغيرة لتناول الشاي والتعارف في دارهم المجاورة لدار التمريض الخاص في شارع العسكري . .

وكان اهتمامه بالرياضة كبيراً فأنشأ ساحة للتنس ، وضع على بابها لافتة كتب عليها «العقل السليم في الجسم السليم» ، وكان يشجعنا على إجراء مباريات بين فرق الصفوف المختلفة في كرة الطائرة وكرة السلة ، وكانت زوجته ترعى المباريات النهائية وتقدم الجوائز والكؤوس للفائزين وهي التي صممت شعار الكلية الذي يتضمن حرف Y الذي يرمز لأنهار العراق الخالدة مع ثور مجنح على كل جانب وكتاب مفتوح وأفعى . وعندما صدرت الإرادة الملكية بإضافة كلمة «الملكية» إلى اسم الكلية ، أضيف التاج الملكي إلى أعلى الشعار المذكور . وكان عدد من طلاب وطالبات الدورات التي سبقتنا يرتدون زياً موحداً يتشكل من سترة زرقاء «بليزر» على صدرها من الجهة اليسرى شعار الكلية المشار إليه مع سروال ، أو تنورة ، رمادي اللون وربطة عنق .

كان الأستاذ سندرسن يلقي محاضراته في الطب الباطني في القاعة المدرجة رقم (4) على الصفوف الثالثة والرابعة كما ذكرنا سابقاً ، مرتدياً روب الأساتذة الأسود . وكان يملي علينا محاضراته المنقولة باختصار من كتاب Price في الطب العام والمكتوبة بخط يده في عدد من الدفاتر الكبيرة الحجم التي بليت أوراقها من كثرة ما أعاد إلقاء ما فيها على تلك الصفوف في الدورات المتعاقبة . وكان يكتفي بصفحتين أو ثلاث من دفتره في كل محاضرة ، ولطالما قدم إلينا متأخراً بعض الوقت أو ترك القاعة قبل الوقت المحدد أو استدعي خلالها لأمر هام قد يتعلق باستدعاء إلى البلاط

الملكي أو استشارة ما في الشؤون السياسية أو الإدارية المستعجلة في وزارة الشؤون الاجتماعية .

وهكذا فإنه ، بعد أن تولى زمام العمادة للمرة الثانية بعد فشل ثورة رشيد عالي الكيلاني وعودة الدراسة وطيلة فترة الحرب العالمية الثانية ، أعطى أمور السياسة في البلد والإدارة في مديرية الصحة العامة ومراجعات المسؤولين وعلية القوم وقتاً أكثر مما كنا نتمنى أن يكرسه لنا أستاذنا في تدريسنا موضوع الطب الباطني .

أما في حصص التدريس السريري في الصف الرابع فكان يكتفي منا بمعرفة المبادئ الأساسية والأولية في الطب وكان يتجنب الدخول في المناقشات الطبية التفصيلية كما كان يفعل الأستاذ ستيسي والأستاذ دوغلاس أو الدكتور نجيب اليعقوبي مثلاً . على أنه كان شديد الاهتمام بمظهرنا الخارجي ، ومن ذلك لبس الرباط ، ومراقبة أسلوب تعاملنا مع المرضى واحترامهم وطريقة توجيه الأسئلة خاصة مع السيدات عند أخذ التاريخ المرضي وإجراء الفحص السريري .

ومن الطريف عن الأستاذ سندرسن أن أذكر أن الطلاب الذين سبقونا أشاعوا أنه لا يقرأ الدفاتر الامتحانية بإمعان بل يقدر درجة مستنداً إلى عدد صفحات الإجابة وترتيبها وحسن الخط . ولكنني اكتشفت أن ما ذكروا كان خاطئاً . فقد وضع سؤالاً بامتحان الفصل الأول عن مظاهر وعلامات وعلاج ضربة الشمس وارتفاع الحرارة المفرط . وفي أول محاضرة له في الفصل الثاني تطرق إلى الأجوبة الصحيحة وقال لنا ، إن أحدكم قد كتب بخصوص علاج ضربة الشمس أن يضع المعالج جبل جليد Iceberg على رأس المريض المصاب وضحك الجميع إلا أنا ، إذ كنت أنا الذي كتب تلك الكلمة سهواً بدلاً من حقيبة الجليد Ice bag لتشابه الأسماء ولإلمامي ببعض الألمانية ، وخجلت وتمنيت ساعة ذاك من الله أن لا يذكر اسمي أمام زملائي وهو ما لم يفعل .

انشغال الأستاذ سندرسن بالأمور السياسية خلال إشغاله منصب العمادة للمرة الثانية ، التي استمرت طيلة الحرب العالمية الثانية ، وكثرة أسفاره مع الملك فيصل الثاني والوصي على العرش الأمير عبد الإله إلى خارج العراق ، لم يسمح له بتفقد شؤون الطلبة كما كان الأمر في أيام عمادته الأولى . فقد أوعز بانتخاب ممثل لكل صف من صفوف الطلبة ليكون حلقة الاتصال مع العمادة ، إلا أن ذلك لم ينفذ وترك هو تمشية الأمور اليومية إلى سكرتيره السيد فرج عبد الأحد . على أنه كان يحث

الطلاب من خلال التعليمات الإدارية على الانصراف إلى الدرس وتحصيل العلم والابتعاد عن الأمور السياسية وتجنب كل ما يخل بالطمأنينة أو حسن السمعة والسلوك .

في نهاية السنة الدراسية 1945-1946 طلب الأستاذ سندرسن من الحكومة العراقية عدم تجديد عقده . وبعد إجراء الامتحانات النهائية للصف المنتهي غادر العراق إلى بريطانيا حيث عكف على كتابة مذكراته ، وفيها كتب عن الأمور السياسية حيّزاً أكبر بكثير من أمور الكلية الطبية . وفي بعضها لم يكن دقيقاً بمعنى الكلمة بسبب اعتماده على الذاكرة دون الوثائق .

وكان مرض زوجته السيدة «ليزلي» ووفاتها ضربة أليمة له مما جعله يتهاون في إتمام تلك المذكرات لبعض الوقت وكان العنوان الذي سبق أن اختاره لها ، بوحي من ألف ليلة وليلة ، قد ذكره في حفلة توديعه في فندق ريجنت بالاس وهو «عشرة آلاف ليلة وليلة» .

إن الذي يكتب تاريخ الكلية الطبية العراقية لابد أن يذكر ما للأستاذ سندرسن من فضل كبير عليها ، فهو الذي خطط لها مناهجها واستقدم الأساتذة الأكفاء لها ووفر لطلبتها سبل التدريب النظري والعملي والسريري الراقي وصانها من عبث العابثين ووضعها على المسار الصحيح فخرّجت أطباء أكفاء كان العراق يفتخر بهم ولا يزال .

الأستاذ صائب شوكت
(1985 - 1896)

الأستاذ صائب شوكت هو أحد الأعمدة المؤسسين لكلية الطب ، وسوف يبقى ذكره خالدا لسنين طويلة قادمة عميداً مهيباً ومربياً فاضلاً وأستاذ الجراحة العامة الأول في العراق الحديث ، شارك تحت ظروف صعبة في وضع اللبنات الأولى لصيرورة الكلية مرفقاً علمياً مميزاً . وشغل منصب العمادة فيها بفترتين متباعدتين عمل خلالهما إلى تطوير الكلية وأساليب الدراسة وإنشاء المرافق وتوسيع المستشفى التعليمي وتصميم أبنية مدينة الطب لاستيعاب الأعداد المتزايدة من الطلاب وتخريجهم أطباء أكفاء لخدمة الوطن .

كان المرحوم صائب (بك) طويل القامة صبوح الوجه أنيق الملبس حلو الحديث ، تعلو أرنبة أنفه ندبة جرح قديم قال لي عنها باسماً أنها حصلت له في شبابه حين كان يتدرب على الجراحة في ألمانيا بعيد الحرب العالمية الأولى ، على إثر مبارزة بالسيف مع أحد «الكونتات» الألمان بسبب علاقة عاطفية مع زوجته (الكونتيسة) أصرّ الكونت على إجرائها . وقال لي أن الرجل اكتفى من الدكتور صائب بإصابته بهذا الجرح البسيط لعطفه على شباب خصمه وافتقار الدكتور صائب إلى فنون المبارزة . وكان يمزح معنا في سنيه الأخيرة ويتباهى بقوته العضلية .

ولد الأستاذ صائب شوكت في بغداد وهو الأخ الأصغر لكل من رئيس الوزراء الأسبق السيد ناجي شوكت والدكتور سامي شوكت ، من أسرة عرفت بالجاه والمنصب ، وتلقى دروسه الأولية فيها ثم التحق بكلية طب «جراح باشا» العسكرية في إستامبول وتخرج منها طبيباً سنة 1918 وكان متفوقاً في الدراسة والأول على دفعته فأوفد إلى ألمانيا للتدريب على الجراحة وعاد بعدها (1920) إلى بغداد ليعمل في مستشفياتها مع الأطباء العائدين من الخارج وكان منهم شوكت الزهاوي وهاشم الوتري وتوفيق رشدي وإبراهيم عاكف الآلوسي وشاكر السويدي الذين شكلوا الرعيل الأول الذي أشاد صرح الطبابة الحديثة في العراق .

وقد تخصص الدكتور صائب شوكت بالجراحة وعمل مع الجراح كامبل مايكي البريطاني الجنسية ، ثم أصبح مسؤولاً عن الردهة الجراحية ورئيساً لقسم الجراحة العامة بالمستشفى الملكي .

في أوائل عقد العشرينات كان الدكتور صائب من زمرة المتحمسين لفكرة تأسيس كلية طب في بغداد شاركه في ذلك عدد من زملائه العراقيين والبريطانيين ووقفوا بوجه المعترضين على الفكرة . كان العراق بحاجة ماسة إلى الكوادر المدربة على الطب والجراحة وقد نجحت المساعي وخصصت الأموال والأماكن اللازمة فافتتحت كلية الطب العراقية سنة 1927 . ونجد في كتاب «تاريخ الطب في العراق» من تأليف الدكتور هاشم الوتري والدكتور معمر خالد الشابندر أن الدكتور صائب شوكت كان أبرز المساهمين في التدريس فيها وفي الموضوع الذي يكلف به وبحماسة رافقته إلى آخر العمر .

فقد عيّن لتدريس طلاب الصف الأول (الدورة الأولى) أستاذاً لمادة التشريح العملي . وكانت شعبة التشريح تضم ثلاث ردهات خاصة ، أولاها للمحاضرات النظرية والأخرى للتشريح العملي والثالثة للتعليم الطبي وعرض النماذج . ويذكر أن الجثث كانت متوفرة للطلاب بصورة جعلت دراستهم العملية للتشريح متقنة ووافية بالغرض .

وفي السنة الثانية عهد إليه تدريس التشريح العملي أيضاً . أما في السنة الثالثة فقد عيّن أستاذاً للجراحة السريرية إضافة إلى تدريسه التشريح . وفي السنة الرابعة أسند إليه تدريس أمراض الأذن والأنف والحنجرة علاوة على ما ذكر .

وتتوالى أعوام الثلاثينات والأستاذ صائب شوكت يقوم بكل تلك الواجبات بسرور وطيبة خاطر إلى أن توفرت الإمكانات لتعيين أساتذة مختصين لكل من تلك الأقسام والفروع وانصرف بعدها لتدريس الجراحة السريرية وتدريب الأطباء الخريجين في الجراحة العامة .

وفي سنة 1938 صدرت الإرادة الملكية بتعيين الأستاذ صائب شوكت عميداً للكلية الطبية خلفاً للدكتور أحمد قدري . وفي عهده استقرت المناهج التدريسية وأصبحت الكلية صرحاً علمياً يعتد به واعتبرت من خيرة المدارس الطبية بالشرق الأوسط بشهادة الأوساط الأجنبية . وأوفد عدد من خريجيها إلى بريطانيا وأوروبا للتخصص ثم عادوا وكونوا الرعيل الأول من الأساتذة العراقيين الشبان .

وفي تلك السنة أيضاً عقد ببغداد المؤتمر الطبي العربي الأول الذي نظمته الجمعية الطبية المصرية مرافقا لمؤتمرها السنوي العاشر في الفترة بين 9-13 شباط (فبراير) 1938 ، وكان له وقع كبير في الأوساط العراقية . ولعله كان من أوائل

الفعاليات التي عملت على تآخي الشعوب العربية وتلاقي الكليات الطبية ، حيث شارك فيه عدد كبير من الأطباء والأساتذة المصريين والعرب يتقدمهم الجراح المصري المعروف الأستاذ علي إبراهيم باشا عميد كلية طب جامعة القاهرة ، ومحمد صبحي بك أستاذ طب العيون والأستاذ عبد الواحد الوكيل بك والأستاذ العشماوي ، ومن لبنان حضر الدكتور فؤاد غصن ، ومن أدباء مصر الكبار حضر الشاعر علي الجارم ، وألقى قصيدته الشهيرة التي مطلعها :

بغـــداد يا بلد الرشـــيـــد

ومنارة المجـــــد التليـــــد

وزكي مبارك الذي خلد ذلك العرس العربي بكتابه «ليلى المريضة في العراق» ، ومن العراق عدد كبير من الأساتذة والأطباء بمن فيهم رئيس الجمعية الطبية العراقية الأستاذ شوكت الزهاوي وعميد الكلية الأستاذ صائب شوكت والأطباء حنا خياط وعبد الهادي الباجه جي وصبيح الوهبي وعبد الرحمن الجوربه جي وعبد المجيد القصاب وعشرات آخرون من الأطباء الشبان . وقد حفلت أيام المؤتمر بالمحاضرات الطبية واللقاءات والدعوات التي كان لها وقع كبير لدى الأطباء العرب . وقد اهتمت الصحافة بالحدث وحفلت صفحات الجرائد بأخبار المؤتمر وبما ألقي خلاله من شعر وكلمات .

عرف الأستاذ صائب شوكت بالاستقامة والجدية والصرامة في نفس الوقت ، وكان حريصاً على وجوب انتظام دوام الطلاب والتحاقهم بقاعات الدرس النظرية والمختبرات وأجنحة المستشفى للتدريب العملي والسريري . وقد درج طيلة فترة قيامه بمهام العمادة على مراقبة سير التدريسات وحسن قيام المدرسين بواجباتهم التدريسية ، فكان يبدأ دورته على الكلية والمستشفى التعليمي في الصباح الباكر . وأذكر أننا عندما كنا في الصف الأول (1940-1941) ونجتمع صباحاً في ساحة الكلية أو واجهتها وقوفاً على الدرج بانتظار قدوم المحاضر أو الأستاذ في أول حصته ، نكتشف فجأة أن العميد الأستاذ صائب قد قدم إلى الكلية وأصبح بيننا فيسأل أحدنا عن سبب وقوفنا في الخارج ، وعندما يقال له إن الأستاذ قد تأخر عن الحضور يطلب منا الدخول إلى قاعة المحاضرات وعدم التجمهر في الخارج .

وفي أثناء توليه مسؤولية العمادة ثانية في منتصف الخمسينات كنت أراه دائماً يطوف بالردهات متفقداً سير التدريب السريري . ومرة وجد بعض الطلاب واقفين في

بمر الردهات الباطنية وعلم منهم أن المحاضر السريري ، وكان أستاذاً مشاركاً ، لم يحضر بالرغم من مرور بعض الوقت على موعد بدء الدوام فأوعز للطلاب أن يدخلوا الردهة ويبدؤوا بفحص المرضى . وبقي معنا يحادثنا في أمور التدريس بانتظار المحاضر المذكور ، وعندما وصل الموما إليه انفرد به في غرفة الطبيب ، ربما لكي ينبهه على تأخره وعدم قيامه بالواجب التدريسي على الوجه الأكمل .

ومما يذكر عن الأستاذ صائب شوكت أن غدداً من طلاب الكلية في السنة الدراسية التي سبقتنا (1938-1939) اعترض على أوامر إدارية صدرت من العمادة[1] فانقطعوا عن الدوام وتجمعوا في مطعم الكلية . ولما أخبر الأستاذ صائب بذلك توجه إلى المطعم وخاطبهم في البدء بأسلوب أبوي وطلب منهم الانصراف إلى دروسهم . غير أن البعض من الطلبة[2] أجابه بلهجة غير مناسبة وبصوت عال ، فما كان منه إلا أن نهرهم وزعق بالجميع للتوجه رأساً إلى قاعات الدرس . وتصادف أن لمح إحدى الطالبات جالسة على الكرسي وقد وضعت ساقاً فوق أخرى ، فما كان منه إلا أن سحبها من يدها بشدة وهنا وجم كافة الطلاب المتجمهرين وتراكضوا للدخول إلى مبنى الكلية . وهكذا انفض الإضراب الذي لم يدم طويلاً .

وفي شتاء 1940-1941 صدرت تعليمات من عمادة الكلية بتغيير شهادة التخرج من الكلية من الدكتوراه في الطب MD إلى بكلوريوس في الطب والجراحة MB, ChB ، على أن تمنح شهادة الدكتوراه في الطب MD والماجستير في الجراحة M.S. للخريج الذي يجتاز الامتحان الذي تنظمه العمادة بعد قضاء سنتين على الأقل طبيباً مقيماً في الأقسام السريرية ثم يقدم أطروحة تضم بحثاً أصيلاً يتم تحت إشراف أستاذ مختص .

أثارت التعليمات اعتراض طلاب الصفوف المتقدمة في الكلية وتجمعوا في ساحة الكلية وكنت حاضراً عندما قدم الأستاذ صائب شوكت ولما عرف سبب الاجتماع خاطبهم ، وأذكر أنه كان ودوداً أثناء كلمته ، شارحاً لهم أسباب إصدار التعليمات وهي بالدرجة الأولى افتقار العراق إلى دراسات علمية وبحوث طبية

---

(1) وسببه أ . تخفيض مخصصات المتدربين في الصف السادس من 12 إلى 10 دنانير . ب . أن قرار مجلس العمادة المذكور هو قرار وزاري .

(2) الطالب أنور شاؤول والطالبة نورة زيتون رمضاني .

توضح صورة الوضع الصحي ، وذكر على سبيل المثال الجهل بانتشار الأمراض المستوطنة كالانكلستوما والبلهارزيا والملاريا وطرق الوقاية والعلاج وكذلك سوء التغذية ، وأضاف أن هذه الدراسات والبحوث سوف تغني الوسط الطبي بالمعلومات الموثقة ، هذا إضافة إلى حاجة البلد والكلية بالذات للأطباء الشبان الذين يقومون بهذه الدراسات ويحصلوا على الشهادات العالية وينصرفون للعمل الأكاديمي ويكوّنون نواة الهيئة التدريسية في المستقبل ، كل ذلك إضافة إلى ضرورة توافق الشهادة العراقية مع مثيلتها في بريطانيا ، وهو البلد الذي اقتبست مناهج كليتنا من مدارسه الطبية وحيث يتوجه خريجها للتخصص العالي في معاهدها . كان تجاوب الطلاب مع هذه الكلمة إيجابياً وانصرفوا بعد اقتناعهم بشرح العميد لأسباب وضع تلك التعليمات . وقد تجلت لنا رغبته بإنشاء الاختصاصات في سنوات عمادته الثانية ، إذ كان يشجع الأطباء على التخصص الدقيق وتأسيس مراكز البحوث الطبية .

كان الدكتور صائب شوكت من دعاة القومية العربية ورئيساً مؤسساً لنادي المثنى في بغداد الذي ضم نخبة الشباب القومي المتعلم . أما على الصعيد الوظيفي والشخصي فإن ميوله القومية والمعادية للاستعمار لم تؤثر على علاقته بالأساتذة البريطانيين أو إدارته العامة للكلية . غير أن الجهات العليا قررت ، بعد فشل ثورة رشيد عالي الكيلاني عام 1941 ، نقله من منصب العمادة إلى وظيفة رئيس صحة لواء في مديرية الصحة العامة دون تعيين محل لعمله ، وهو أمر لم يكن يليق به وهو الذي بذل ما بذل من الجهود المضنية في خدمة التعليم الطبي فامتنع عن الدوام ثم رحل عن العراق واستقر في إستامبول فترة طويلة امتدت إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية .

وبعد عودته إلى العراق شعرت الحكومة العراقية بالحاجة الماسة إلى خدماته فصدر أمر تعيينه جراحاً أقدم في مستشفى الكرخ ثم نقل إلى الكلية سنة 1953 عميداً للمرة الثانية وبقي في المنصب إلى فترة قصيرة بعد قيام ثورة 14 تموز عندما أحيل على التقاعد وانصرف لبعض الوقت للعمل في عيادته الخاصة في شارع المتنبي ببغداد ومزرعته في ناحية الدورة بأطراف بغداد .

معرفتي بالأستاذ صائب شوكت تعود إلى أيام الطفولة ، فقد كنت أشكو من تكرر الإصابة بالتهاب وتضخم اللوزتين فأخذني والدي له لفحصي ثم أجرى لي عملية الاستئصال بطريقة (الجيلوتين) في صالة العمليات الكبرى بالمستشفى الملكي . وأذكر هنا أن الأستاذ صائب كان يذكر دوماً أمامي أن والدي كان أستاذه

عندما كان طالبا في المرحلة المتوسطة أو الثانوية ببغداد في عام 1910-1911 ، ودرّسه مبادئ علوم الحياة والفيزياء والكيمياء في مدرسة «تحفة مأمورين مكتبي» النموذجية التي أنشأها والي بغداد جمال باشا (السفاح) . ويومها كان والدي الطبيب البيطري لمدينة بغداد .

وعندما جرت انتخابات الجمعية الطبية العراقية عام 1956 فازت قائمة الأستاذ صائب شوكت ، كما وانتخبت أنا سكرتيراً للجمعية التي ضمّت في هيئتها الإدارية الدكاترة عبد المجيد القصاب نائباً للرئيس ومحمد الشواف وعبد اللطيف البدري ومحمود الجليلي ومكي الواعظ ورشاد عبد الواحد وغازي حلمي أعضاء . وخلال ذلك عرفت في الأستاذ صائب ، وعن كثب ، أنه شخص مهذب «جنتلمان» واسع الاطلاع في العلوم والآداب ، طيب القلب ومحبّ للخير ، وكان يعاملنا كأولاده ويتبسط معنا في الحديث ويتقبل الأفكار المعارضة برحابة صدر . وسوف لن أنسى أن الجمعية يومها ، وقد استيقظت من سبات عميق ونشطت وقامت بفعاليات علمية ، جذبت إليها الأطباء من مختلف الاختصاصات والأهواء والأعمار لحضور ندواتها ومحاضراتها ومنها دعوتنا الدكتور «بول وايت Paul White» ، طبيب أمراض القلب الأمريكي الجنسية ذائع الصيت ، لإلقاء محاضرة عن أمراض شرايين القلب التاجية في حديقة نادي الأطباء الغنّاء في شارع العسكري على ضفاف نهر دجلة أعقبتها حفلة استقبال ، وكذلك تنظيم عدد من المحاضرات من قبل المسؤولين والاستشاريين افتتحها وزير الصحة الدكتور عبد الأمير علاوي بمحاضرة عن «السياسة الصحية في العراق» ، تبعه أساتذة من الكلية الطبية تحدثوا عن التطورات الحديثة في العلوم الطبية والعلوم الطبية الأساسية .

كان حلم الأستاذ صائب أن يشيد للكلية الطبية مستشفىً تعليمياً عصرياً يفي بمتطلبات الدراسة كاملة ومزوداً بأحدث التقنيات الطبية . لذا عمل بهمة مع المسؤولين في وزارة الإعمار على تخصيص المبالغ اللازمة لإنشاء المدينة الطبية وكان موفقاً بحصوله على ما يرغب ، فتقدمت شركة أمريكية لبناء المرحلة الأولى من مدينة الطب . وفي غرفته بالمستشفى الملكي كان الأستاذ صائب ينشر خرائط البناء التفصيلية ويكلم زائريه بسعادة لا توصف عن الصرح العظيم الذي سوف يتحقق ، بعد أن لبث المرضى يعالجون ، وطلاب الصف يتدربون ، لثلاثين سنة خلت في أجنحة بناء أنشئ قبل ثمانين عاماً ، أي في عهد مدحت باشا (1870) . وقد رأى

بعينيه فيما بعد مدينة الطب تموج بالطلاب وأصبحت كعبة الطب العراقي الحديث ، ولكن ومع مزيد الأسف لم يفكر أحد من المسؤولين يومها أن يضع تمثالاً للأستاذ صائب شوكت في مدخل بناية مدينة الطب تقديراً لخدماته وتفانيه في رفع مستوى الطب وتعليم الطب في العراق . أو دعوته إلى حفل الافتتاح وهو الذي يستحق وضع تمثال له في مدخل مبنى مدينة الطب .

بعد ثورة 14 تموز 1958 لعب العميد صائب شوكت دوراً كبيراً للمحافظة على أعضاء الهيئة التدريسية في كلية الطب والكليات الأخرى التابعة للعمادة من أهواء وعبث الأطباء الذين تسلموا المسؤولية في وزارة الصحة من أدعياء الثورية ، الذين فهموا الثورة على أنها عبارة عن عملية تفريق الأطباء ونقلهم إلى وظائف غير تدريسية خارج بغداد ومن غير ذكر الأسباب ومن دون الالتفات إلى متطلبات الكلية والتدريس .

عند بلوغ الدكتور صائب شوكت السن القانونية طلب إحالته إلى التقاعد (1959) وانصرف لتمضية الوقت للعمل في عيادته في شارع المتنبي ومزرعته الخاصة في ناحية الدورة .

الأستاذ الدكتور السيد هاشم الوتري
(1961 - 1893)

مجّدتُ فيك مَشاعراً ومَواهبا
وقَضيتُ فرضاً للنوابغِ واجِبا
بالمبدعين «الخالقين» تنوّرت
شتّى عوالمَ كنّ قبلُ خرائبا
شرفاً «عميدَ الدارِ» عليا رتبة
بوّئتها في الخالدين مراتِبا

الشاعر هو محمد مهدي الجواهري والزمان مساء يوم صيفي في حزيران 1949 والمكان حدائق مسبح الأمانة في الكرادة الشرقية ببغداد والمناسبة كانت الحفل التكريمي الذي أقامته الجمعية الطبية العراقية لرئيسها وعميد كلية الطب الأستاذ الدكتور هاشم الوتري الذي انتخب زميلاً شرف في كلية الأطباء الملكية في لندن، تكريماً لشخصه وللكلية التي يمثلها . والحاضرون كانوا مجموعة كبيرة من الأطباء والأساتذة والمثقفين ورفاق المحتفى به . قوبلت المقدمة بتصفيق الحاضرين ، إذ أشاد الشاعر بعلم المحتفى به ورعايته للمرضى ومواقفه الوطنية حتى إذا طفحت عواجه وقال :

أُنبيكَ عن شرِّ الطَّغام نِكايةً
بالمؤثرينَ ضميرَهم والواجبا
لقد ابتُلُوا بي صاعقا متلهّبا
وقد ابتُليت بهم جهاماً كاذبا
حشَدوا علّي المغريات مسيلةً
صُغراً لُعابَ الأرذلينَ رغائبا

هناك وجم الحاضرون وتوقف التصفيق وأخذ الجواهري يستعيد أبياته دون أن يطلب منه ذلك كما جرت العادة ، وتلفتنا نحن الحاضرون يمنة ويسرة لنرى إن كان هناك مخبرون ينقلون ما يقال إلى الجهات الأمنية في وقت كان الجو السياسي في

البلد مكّهرباً بعد وثبة كانون . وتابع الجواهري :

أعَـرَفتَ مملكةً يبـاحُ «شـهـيـدُها»
للخـائنيــنَ الخـادمـيـنَ أجـانبـا
مُـســتـأجَـرينَ يخَـرِّبون ديارَهمْ
ويكافَـؤون على الخـراب رواتبـا
مـتنمّـرينَ ينصّـبـونَ صـدورَهم
مـثلَ السـبـاعِ ضـراوةً وتكالُبـا

ويتعالى صوته ويعيد

أنا حـتـفُـهم ألِجُ البـيـوتَ عليـهمُ
أغري الوليـدَ بشـتـمِهم والحاجبا

وتلفتنا إلى أستاذنا فإذا هو مصعوق بهذا القول ولم يكن يدري عن القصيدة قبل إلقائها سوى أن مضمونها سوف يكون تهنئة وثناء ، فألقى اللوم على سكرتير الجمعية الدكتور إسماعيل ناجي وهو الذي دعا الشاعر لإلقاء قصيدة بهذه المناسبة .

وما أن انتهى الجواهري من الإلقاء وهو في حال شديد من الحماس والغضب والانفعال حتى دعك الورقة التي كتبت عليها القصيدة ورماها جانباً تاركاً المنصة متوجها إلى خارج الحفل مباشرة دون أن ينتظر نهايته .

وفي اليوم التالي أبرز زميلنا الدكتور خليل جميل النجفي الأوراق المجعدة والقصيدة ذاتها وكان قد التقطها من الأرض حين رماها الشاعر وقرأها علينا ثانية (المرحوم الدكتور خليل كان يساري الميول وقد عيّن طبيبا مقيما في الوحدة الباطنية الثالثة بالمستشفى الملكي) .

عميد الدار هو الأستاذ الدكتور هاشم الوتري الذي ولد في بغداد في أسرة علوية النسب عرفت بتفرغها لعلوم الدين . وقد ظل حريصاً على الاحتفاظ بلقب «سيد» على رقعة العيادة وعلى أوراقها ، وكان لمراجعيه شعور بالراحة لهذا اللقب الشريف .

درس الطب في إستانبول وتخرج منها عام 1918 ثم عاد إلى العراق والتحق بالمؤسسة الصحية . وبينما انصرف معظم رفاقه من خريجي المدرسة العثمانية ، في أوائل تشكيل الحكومة العراقية ، إلى العمل الإداري آثر هو العمل السريري فانضم

إلى كادر أطباء المستشفى الملكي الجديد عام 1925 مسؤولا عن جناح الأمراض الباطنية . وقد عمل مع زملائه الأطباء العراقيين والبريطانيين لإعداد المستشفى ليكون تعليمياً ملحقاً بالكلية الطبية المزمع إنشاؤها ، فأوفد إلى بريطانيا للتخصص بالطب الباطني العام ولما عاد في عام 1932 عيّن أستاذاً للطب الباطني السريري وانتخب عضواً في الهيئات الإدارية للجمعية الطبية العراقية التي تأسست على أنقاض الجمعية الطبية البغدادية .

وقد أوكل إليه منصب عميد كلية الطب عام 1937 فكان ثالث عميد عراقي يشغل المنصب بعد الأستاذ حنا خياط والدكتور أحمد قدري ، وهو الذي أنشأ مجلة الكلية الطبية الملكية العراقية «لفائدة الطلبة المتخرجين»، يساعده في تحريرها معاون العميد الدكتور معمر خالد الشابندر ، والتي حوت أعدادها مقالات في الطب السريري وما استجد في الطب مع أخبار العائلة الطبية . كما أنه انتخب رئيساً للجمعية الطبية العراقية عام 1938 ومن بعدها لسنين طويلة بدون انقطاع تقريباً بين الأعوام 1943 و1954 .

كان الأستاذ الوتري متوسط الطول كبير الرأس واسع العينين يرتدي قبعة إفرنجية سوداء شتاءً وأخرى بيضاء اللون صيفاً ويمشي بخطوات بطيئة وأقدام متباعدة . وكان يكره المشي ويفضل الانتقال بالسيارة بين المستشفى وبناية الكلية الطبية . وكان إن تكلم ، فهو قليل الكلام ، فبدون أن يحرك شفتيه فتخرج الكلمات من بين أسنانه بطيئة وثقيلة .

ألقى الأستاذ الوتري علينا ، ونحن طلبة في الصف السادس ، محاضرات في الأمراض العصبية وكان يدخل إلى قاعة الدرس رقم (2) مرتدياً الروب الجامعي الأسود . وفي محاضرته الأولى قال لنا إن الأمراض العصبية موضوع غامض صعب ومعقد لا يمكن الإلمام به في سنة تدريسية واحدة ونصحنا أن نقرأ المادة في كتاب الأمراض العصبية المفضل لديه لمؤلفه الأستاذ «والش» وتطبيق ما نتعلم عند مشاهدة وفحص المرضى الراقدين في الردهات الباطنية . أما الأستاذ نفسه فإنه سوف يلقي المحاضرات بالتسلسل على الدورات المتلاحقة بحيث يكملها على مدى ست سنوات . وهكذا اقتصر تدريسه تلك السنة على أمراض الأعصاب المحيطية وأعصاب قحف الرأس فقط ، علما أنه كان يترجم الكتاب المذكور إلى العربية وينشره تباعاً لسنوات طويلة بعدها في مجلة الكلية الطبية .

كانت لغته الإنجليزية دون المتوسط . وكان من دعاة قلب تعليم الطب من الإنجليزية إلى اللغة العربية وقد دوّن آراءه في مقالات نشرت في مجلة الكلية ، كما ورد في تعديل نظام الكلية الطبية الذي جاء فيه «إن لغة التدريس هي العربية ويمكن التدريس بلغة أخرى إلى حين توفر الكتب والمصادر الطبية باللغة العربية» .

وفي حصص التدريس السريري كان الأستاذ الوتري يحاضرنا ونحن طلاب في الصف الرابع في قاعة التدريس الملحقة بالردهة الثامنة وكانت مدّرجة قليلا ، يساعده في الردهة كل من الدكتور شوكت الدهان والدكتور عبد السلام سهيل ، وكانا يحضران مريضاً وينتظران قدوم الأستاذ . وعند حضوره لابساً صدرية بيضاء يشير إلى أحدنا أن يتقدم لسؤال المريض عن شكواه وتاريخ حالته المرضية ثم يطلب من زميل آخر أن يجري الفحص السريري أمام ناظريه ثم يبدأ المناقشة بالتشخيص والتشخيص التفريقي والعلاج والإنذار . وكان يفضل زميلنا صلاح تحسين علي علينا ربما بسبب صداقة تربطه بوالده ، كما كان الطالب الثاني المفضل لديه هو زميلنا محمد ياسين أمين آغا .

وأذكر في هذه الجلسات أن الأستاذ الوتري كان لبقاً في حديثه مع المرضى ويستعمل الكياسة والتعامل الإنساني معهم ، خاصة مع الطبقات الفقيرة منهم . وكان يوصينا أن نكتسب الخبرة العملية من متابعة المريض ونتعلم الصنعة وأصول مهنة الطب من الأساتذة السريريين .

ومع هذه المزايا التي اتصف بها الأستاذ الوتري إلا أنه لم يكن بالمعلم الكفؤ علمياً ، ويعود ذلك إلى نشأته الأولى في المدرسة العثمانية واطلاعه السطحي على الطب الأوروبي والألماني خاصة ، إضافة إلى عدم إلمامه باللغة الإنجليزية ، علما بأنه اكتسب العلوم الطبية بالممارسة العملية فقط ، أي أنه كان من ضمن الأساتذة الأوائل الذين استفادوا من مهنة التدريس لاكتساب المعرفة العلمية .

ولابد من الإشارة بمعرض سيرة هذا الأستاذ الفاضل أنه ملأ حيزاً كبيراً من أعداد مجلة الكلية الطبية بمقالاته المترجمة ومراجعته للمقالات المهمة المختصة بالطب الباطني المنشورة في الخارج ، كما أنه بدأ بترجمة كتاب «والش» بالأمراض العصبية كما ذكرت سابقاً إلا أنه توقف بعد حين ولم يكمل النشر . وقد طبع الأستاذ الوتري كتاباً بعنوان «تصنيف التهاب المفاصل» بعد أن نشر محتوياته تباعاً في مجلة الكلية الطبية لفائدة الأطباء وطلاب الصفوف العليا في الكلية .

أثناء توليه عمادة الكلية للمرة الثانية سنة 1946 صدر نظام جديد أصبح بمقتضاه تشكيل العمادة الإداري على النحو التالي : العمادة ويتبعها مديرية لكل من مدرسة الطب ومدرسة الصيدلة ومدرسة طب الأسنان ومدرسة الموظفين الصحيين ومدرسة الممرضات والمستشفى التعليمي ومستشفى حماية الأطفال ومستشفى الحميات ومعهد البحوث الطبية ومعهد الأمراض المتوطنة . وكان مطمح الأستاذ الوتري أن تصبح العمادة نواة «دار الحكمة» وهو الاسم القديم لجامعة في بغداد أنشئت في عهد الخليفة المأمون العباسي(*) .

وفي بداية الخمسينات وبعد توثيق العلاقة مع كلية الأطباء الملكية في لندن عمل العميد الوتري على تطوير الكلية ودعا من أجل ذلك عدداً من كبار الأطباء والأساتذة البريطانيين ومنهم اللورد موران ، الذي كلف بدراسة مناهج الكلية ، والأستاذ ماكدونالد كريشلي ، أستاذ الأمراض العصبية في كلية طب جامعة أدنبرة . كما استدعى الأساتذة البريطانيين للإشراف والمشاركة في إجراء الامتحانات النهائية للطلاب مما ساعد باكتساب الاعتراف بالمستوى الجيد الذي وصلت إليه الكلية وكذلك تسهيل قبول خريجيها للدراسات التخصصية في بريطانيا .

على أنه من جهة أخرى كان يرى أن من الأنفع والأصوب للعراق أن يكون لعمادة كلية الطب دورها المميز بإنشاء ودعم الدراسات التخصصية بعد التخرج ومنح الدرجات العليا مثل الدكتوراه في الطب أو الماجستير في الجراحة والدكتوراه في الفلسفة للعلوم الطبية غير السريرية ، إضافة إلى دكتوراه شرف في الفلسفة . فصدرت عام 1947 تعليمات الدرجات العلمية العالية وكان الحصول على الشهادات المذكورة شرطاً لانضمام الأطباء إلى ملاك الكلية ، وتضمنت وجوب مضي أربع سنوات على التخرج من الكلية الطبية وتحرير مقالتين في مجلة الكلية وتقديم أطروحة تتضمن بحثاً علمياً بموضوع ينال موافقة مجلس العمادة ويتم بإشراف أحد الأساتذة والنجاح في الامتحانات النظرية والعملية والشفوية حسبما ترتئي اللجنة الممتحنة . وقد حافظت الشهادة في السنوات الأولى على مستوى رفيع وحصل عليها باستحقاق

(*) أعلن عن تشكيل بيت الحكمة (1952) وانتخب الأستاذ الوتري رئيسا لبيت الحكمة والدكتور جلال العزاوي نائبا للرئيس والدكتور مهدي فوزي عميدا للكلية الطبية ، إلا أن ذلك لم يدم طويلا فألغي الأمر ربما انتظارا لتأسيس جامعة بغداد الذي تم في سنة 1956 .

عدد من الأطباء . ويكفي أن أذكر أن عدد المتقدمين لامتحان الماجستير في الجراحة عام 1949 كان عشرة أطباء اجتاز الامتحانات المطلوبة طبيب واحد فقط . إلا أن مجلس العمادة في أواسط الخمسينات تساهل بمنح الدرجات العلمية المذكورة ونالها من لا يستحق وأصبح مستواها العلمي دون مستوى الشهادات البريطانية ، الأمر الذي استدعى إلغاء منح هذه الشهادات بعد تخلي العميد هاشم الوتري عن منصب العمادة . ولم تستأنف الدراسات الطبية العليا ومنح درجات الدبلوم إلا بعد دراسة مستفيضة قامت بها العمادة في بداية سنوات السبعينات . أما مشروع منح درجة الدكتوراه فلم ير النور وإن وافقت عليه الجهات المختصة في سنة 1973 .

ومع أن الأستاذ هاشم الوتري كان مهتماً بتطعيم الكادر الطبي بالكفوئين من حاملي شهادات الاختصاص إلا أنه ولأسباب لا تعدو أن تكون شخصية ، ربما بسبب تجريح طرق آذانه من بعض من نال دبلوم عضوية إحدى كليات الطب البريطانية بدعوى عدم إلمام أساتذة الكلية بالتطورات الحديثة في الطب ، لم يحبذ التحاق حملة شهادات ما بعد التخرج من بريطانيا بهيئة التدريس مفضلاً عليهم حملة الشهادات العراقية . وكان ممن قاسوا من هذا القرار الدكتور إبراهيم حيالي والدكتور عزيز محمود شكري .

كسب الأستاذ الوتري عطف البلاط الملكي ورضاه وقيل يومها إنه رشح لتسنم منصب وزير الشؤون الاجتماعية في إحدى التشكيلات الوزارية ، إلا أن غيابه عن مكتبه ساعة اتصال مسؤول البلاط حدا بالمسؤولين الكبار أن يكلفوا أحد الأطباء الأساتذة الآخرين الذي قبل ذلك المنصب .

كان للأستاذ الوتري خلال إشغاله منصب العمادة سنوات طويلة ، العديد من المؤيدين وأكثر منهم المعترضون على أسلوب إدارته للكلية . وقد بقي أستاذاً للطب الباطني والأمراض العصبية بعد تخليه عن منصب العمادة في أواسط الخمسينات . وبعد قيام ثورة 14 تموز 1958 وانهيار النظام الملكي وفي اجتماع موّسع ، دعى إليه مدير المستشفى الجمهوري الدكتور نهاد رفعت باسم أساتذة الكلية وأطباء المستشفى وباعتباره أقدم الأساتذة العمداء ألقى الأستاذ الوتري كلمة أيّد فيها الثورة ورجالها متمنياً أن تنهض الكلية بمهامها الأساسية في تخريج أعداد أكبر من الأطباء وبمستوى علمي أعلى ، إلا أن مجلس قيادة الثورة صادق على إحالته على التقاعد (1959) فانصرف إلى الدوام في المجمع العلمي ووجه جلّ اهتماماته إلى استنباط المصطلحات

الطبية والعلمية العربية لتملأ الفراغ في تدريس الطب والعلوم بالعربية ، كما مارس الطب في عيادته الخاصة في ساحة الوثبة . وكان يتقاضى فيها من المرضى أجوراً عالية تتناسب ومكانته العلمية وتجنباً لمنافسة الأطباء الأخصائيين الشباب .

في صبيحة يوم الثامن عشر من كانون الثاني 1961 اتصلت كريمة الأستاذ هاشم الوتري بزوجتي وأخبرتها أن الأستاذ قد سقط مغشياً عليه وطلبت حضورنا حالاً . فتوجهنا إلى داره في محلة الرواف قرب شارع السعدون ووجدنا زميلنا علاء الدين الخالدي قد سبقنا إليه . وكان الأستاذ في غرفة تقع بمقدمة داره الكبيرة وقد فارق الحياة . وبعد هنيهة حضر الأستاذ مهدي فوزي والدكتور شوكت الدهان ، وقد أخبرت عميد الكلية الأستاذ أحمد عزت القيسي فحضر معنا تشييعه إلى مثواه الأخير في مقبرة الغزالي بالرصافة في يوم شتائي ممطر وعاصف .

في الحفل التأبيني الأربعيني ، الذي أقامته الجمعية الطبية العراقية في قاعة السينما بالكلية الطبية ، وكنت يومها سكرتيرا للجمعية وعريفاً للحفل ، ألقيت كلمة باسم المئات من طلابه الذين تتلمذوا عليه ونهلوا من علمه(*) . وأعقبني نقيب الأطباء الدكتور كمال عارف الذي أشاد بخدماته للطب والعلم .

كان عدد الحضور قليلا بالرغم من الإعلان عن الحفل في الجرائد المحلية والتعميم الصادر من العمادة ومديرية المستشفى . ولما نهض الأستاذ منير القاضي ، رئيس المجمع العلمي وعميد كلية الحقوق السابق ، لإلقاء كلمته قال «عندما وصلتني الدعوة لإلقاء كلمة المجمع العلمي في حفل تأبين المرحوم الأستاذ هاشم الوتري والتي جاء فيها أن الدعوة عامة لزملائه وطلابه وعارفي فضله ، تخيلت أني سأكون بحاجة إلى من يساعدني لشق طريقي إلى الكرسي المخصص لجلوسي في القاعة نظرا لكثرة من سوف يلبي الدعوة . ولكنني وجدت الحضور ضئيلا ، فهل يا ترى تنكّر له طلابه ، وهل نسي فضله عشرات الألوف؟» ولم يزد على ذلك فجلس . وكان ختام

(*) أذكر أني بدأتها بقولي : «كل ينتهي إلى أجله المسمى وتطوى صفحة أيامه ، غير أن الرجل يعيش في عمله وخدماته ويمتد عمره فيما يترك من شواهد وآثار» . وختمتها بقولي : «لن يستطيع مؤرخ لتاريخ الطب في العراق أن يغفل ذكرى الأستاذ الدكتور هاشم الوتري طبيباً وأستاذاً وعالماً وباحثاً ومدرساً . وموت الرجل لا يعني فناءه لأن ذات الانسان ولبه ووجدانه هي جوهر نفسه الذي لا يفنى» .

ذلك الحفل المتواضع بخطاب عميد الكلية الأستاذ أحمد عزت القيسي المقتضب الذي نوّه في البداية بجهوده بإنشاء الكلية وفي النهاية إلى عجزه عن تطويرها ناسبا ذلك إلى «الظروف السيئة التي أحاطت به وأحاط نفسه بها» . وقد أثار هذا الكلام استهجان الكثيرين لأنها لم تكن صالحة للمناسبة .

وبعد أقل من عشرين عاماً وبينما كنت في دورتي الكبرى على المرضى في الجناح السابع بمدينة الطب يرافقني فيها الأطباء والمقيمون وطلاب الدبلوم والدراسات العليا كان المريض موضوع الفحص مصاباً بالتهاب الأعصاب المحيطية المتعدد ، وهنا تواردت على خاطري محاضرات أستاذنا الدكتور هاشم الوتري عندما كنت طالباً ، وقاطعت الطبيب الذي كان يقدم الوقعة وسألته «من هو هاشم الوتري؟؟» فلم يحر جوابا وسألت من كان يجاوره وآخرين فلم يدر ولم يسمع أحد من الحاضرين بذلك الطبيب والأستاذ والعميد الذي كان ملء السمع والبصر في حياته . كان ذلك أمراً مؤسفاً بالنسبة لي ، فقد آلمني أن يختفي ذكره بعد فترة وجيزة لا تتعدى عقدين من الزمان ، ذلك الرجل الذي كرّس نفسه وحياته للطب والأطباء في العراق وكان عميداً للكلية الطبية الملكية العراقية لثلاث فترات جاوز مجموعها عشر سنوات ، كان خلالها بعيداً عن المغريات المادية فلم يجمع ثروة من الممارسة الطبية في وقت كان فيها شيخا لأطباء العراق .

ولابد من الإشارة إلى أن الخلافات الشخصية مع من خلفوه في إدارة الكلية كانت سبباً في طمس آثاره بالتدريج مما حدا باثنين من مساعديه وهما الأستاذ عبد الرحمن الجوربه جي والدكتور شوكت الدهان أن يسعيا وينجحا في تسمية الردهة الثانية التي عمل فيها ثلاثة عقود من الزمان باسمه ، «ردهة هاشم الوتري» ، ولكن ذلك الأثر زال ثانية عندما هدم المستشفى وانتقل المرضى إلى مستشفى مدينة الطب .

رحم الله الأستاذ الدكتور هاشم الوتري .

قبل الختام

إن هذا السجل لأساتذة الكلية الطبية والمربين الأفاضل سوف يبقى ناقصاً إذا لم يشر فيه إلى أسماء آخرين أسمح لنفسي بنعتهم بالجنود المجهولين لأنهم ، إن لم يسهموا فعلاً بتدريسنا ، فإنهم ساهموا في الفترة التي سبقت انتماءنا للكلية في خلق الرغبة في تأسيس الكلية أولاً ثم بوضع الأسس القويمة لمناهجها ولسير التدريس والتدريب لطلابها . وعلى أكتافهم قام صرح الكلية العلمي الذي اكتسب سمعة طيبة على الصعيد العلمي . أذكر منهم :

الكولونيل لين Colonel Lane –

القائم بشؤون الصحة العامة (1920) . أول من فكر بإنشاء مدرسة تخرج أطباء أكفاء .

الميجر تي . بي . هيكز - T. B. Heggs

رئيس الجمعية الطبية البغدادية (1923) وأستاذ الصحة العامة والأمراض السارية (1930–1939) ، قدم دراسة مستفيضة عن مشروع تأسيس الكلية وضرورتها الماسة للبلاد ، وذلك فضل لابد من تأكيده في هذا الكتاب .

الدكتور نورمان E. Norman

مؤسس قسم الأشعة وأول أستاذ فيه . ساهم بتدريس البايولوجي ومفردات الطب والجراحة عند نشأة الكلية . ودرّب مجموعة من الأطباء العراقيين الحاذقين في الأشعة . وكانت صورته الشمسية المكبّرة موضوعة في القاعة الكبرى لمعهد الأشعة اعترافاً بجهوده وفضله .

الدكتور مكاتي C. McCattie

أستاذ البكتريولوجي (1930–1937) . كان مدرساً متميزاً بتدريبه الطلاب والأطباء . وله بحوث عديدة عن الأمراض المستوطنة في العراق هي أول ما كتب عنها إطلاقاً .

الدكتور دبليو دنلوب W. Dunlop

أستاذ الطب الباطني السريري .

الدكتور وودمن G. Woodman

أستاذ الجراحة .

الأستاذ كروكشانك Cruckshank

أستاذ الأمراض النسائية والجراحة ، ذو خبرة طويلة في التدريس والعمل وصاحب فلسفة جميلة في مسلك الطب والحياة.

الدكتور كنيدي Kennedy

أستاذ الأمراض النسائية والتوليد وواضع الأسس الصحيحة لتدريب الأطباء .

الأستاذ الباحث كوركيل N. L. Corkill

أستاذ علم الأحياء في السنين الأولى من تأسيس الكلية . باحث ومؤلف عدد من الكتب في العراق .

الدكتور إبراهيم عاكف الآلوسي

من الدعاة المتحمسين لتأسيس الكلية الطبية وأستاذ آداب الطب والسلوك المهني فيها .

الدكتور حيقاري

أول عراقي يتخصص ويدّرس الأمراض النسائية .

الدكتور بيثون رسام

أول أستاذ عراقي تفرغ لتدريس التشريح . كان بارعاً ودقيقاً في التشريح ، أحبه الطلاب لدماثة خلقه وعطفه عليهم وتشجيعه لهم .

السيد عبد نيسان

مدير المكتبة في الكلية الطبية منذ تأسيسها ولفترة دامت أكثر من أَربعة عقود كان فيها مثالاً على الحرص على المكتبة والدأب في العمل والإخلاص في إخراج المراجع وتحضير الكتب لمن يحتاجها من هيئة التدريس أو الطلبة ، كل ذلك يقوم به بصبر وهدوء وطول أناة .

السيد صادق الصفار (أبو غاندي)

الطالب الرياضي المتميز في الثانوية المركزية ومسؤول الرياضة في الكلية ، صديق الطلاب جميعاً .

إلى جانب كل أولئك لابد لي أن أذكر أسماء الرجال الذين كان لهم دور في خدمة الكلية والطلبة :

الملا خضر – شخصية فذّة كان يجول بقامته الفارعة وشكله المهيب ، مرتدياً

الجلباب الفضفاض وعلى رأسه طاقية ملفوف عليها قماش أبيض ، الذي يبعث الثقة في نفوس الطلاب الأحداث وهم يقاومون الخوف والتردد في صالة التشريح الكبرى .

مروكي – المعين في قسم التشريح ، الرجل الطيب والخدوم الذي يجمع صداري الطلاب بعد ظهر أيام الخميس ويأخذها إلى داره فتقوم زوجته بغسلها وكيّها ويعيدها صباح السبت نظيفة لقاء أجر زهيد .

سلمان – الفراش في قسم البايولوجي الذي يوفر الضفادع لتشريحها للطلاب مجاناً وعشرة فلوس لكل ضفدع إضافي . وكان يحرص على نظافة المختبر ومتحف البايولوجي .

شابا – أبو فيصل وغازي ، وكان ممتلئ الجسم نشيطا وخفيف الروح ، يلاطف الطلاب ويهمه توفير الراحة لهم .

هاشم وابن أخته زغيّر – الفراشان في قسم الفارماكولوجي وفن التداوي لدورهم في نظافة المختبر ومظهرهم المحتشم ولطف معاملتهم للأساتذة والطلاب .

يعكوب – فراش ردهتي (9) و(2) لخدماته الطويلة وحدبه على المرضى .

الفصل الثالث

نظرة إلى الماضي

لمحة تاريخية عن تأسيس الكلية الطبية

عندما دخل الجيش البريطاني العراق إبّان الحرب العالمية الأولى (1914) واحتل بغداد عام 1917 أنشأت الإدارة العسكرية قسماً للصحة المدنية أنيطت مهامه بطبيب عسكري هو الكولونيل باتي Colonel Battye ، وهو الذي وضع الخطط الأساسية للمشاريع الصحية في البلاد . وكان من مساعديه طبيب شاب هو الكابتن هاري سندرسن H.C. Sinderson الذي أصبح فيما بعد أول عميد للكلية الطبية . وقد خلف الكولونيل المذكور بإدارة قسم الصحة الكولونيل لين Colonel Lane وكان رجلاً عاملاً ومجداً صدمه النقص المريع في الخدمات الطبيّة وكتب تقارير عديدة عن الوضع الصحي في العراق وفكّر بإنشاء مدرسة لتخريج أطباء كفوئين للخدمة الصحية في البلاد .

وفي أيلول (سبتمبر) 1921 حُوّلت مديرية الصحة المدنية إلى وزارة الصحة وعيّن الدكتور حنا خياط وزيراً ، ولكن سرعان ما ألغي الأمر وألحقت المديرية بوزارة الداخلية . وخلال الفترة بين 1918 و1922 عاد إلى العراق لفيف من الأطباء الوطنيين الذين أكملوا دراستهم في إستانبول أو دمشق وبيروت كان منهم الدكاترة جلال العزاوي وهاكوب جوبانيان وفائق شاكر وصائب شوكت وشوكت الزهاوي وهاشم الوتري وسامي شوكت وشاكر السويدي وإسماعيل الصفار وتوفيق رشدي وابراهيم عاكف الآلوسي ثم تبعهم الدكاترة عبد الله قصير وتوفيق محمود وجميل دلالي ، وهؤلاء كانوا الرعيل الأول من الأطباء العراقيين الذين تبوؤوا المناصب الإدارية والتدريسية في السنوات اللاحقة .

وكانت قد تشكلت في بغداد جمعية طبية سميّت الجمعية الطبية البغدادية قام بإدارتها أطباء من الجيش البريطاني وسرعان ما التحق بها الأطباء العراقيون العائدون من الخارج . وفي حزيران عقدت الجمعية اجتماعا في مستشفى العزل ببغداد حضره عدد كبير من الأطباء وألقى فيه الميجر هيكز Major Heggs خطبة عن ضرورة تأسيس المدرسة الطبية كان لها وقع عظيم وتأثير في نفوس الحاضرين ، تبعتها مناقشة اشترك فيها عدد من المؤيدين ، ومنهم الدكاترة سامي شوكت وأمين المعلوف وسليمان غزالة وهاشم الوتري ، كما تكلم من المعارضين الدكتور فائق شاكر الذي فضّل إرسال الطلاب لدراسة الطب في الخارج تلافياً للنفقات الباهظة حسب قوله .

ذاع خبر ذلك الاجتماع وانتقلت المناقشة إلى الصحف المحلية وإلى مجلس النواب ، وكثر الحديث عن ضرورة فتح المدرسة (الكلية) الطبية نظراً لقلة الأطباء وحاجة البلد إلى الخدمات الصحية . وكان الملك فيصل الأول من المحبذين للفكرة ، ولكنه آثر الانتظار لحين توفير الأبنية والمستشفيات اللائقة لتعليم الطلاب ، وكذلك تعيين أخصائيين أجانب وعودة الأطباء العراقيين الذين أوفدوا إلى بريطانيا لغرض المتابعة والاطلاع على الجديد في الطب قبل انضمامهم إلى الكادر التدريسي .

افتتحت الكلية الطبية العراقية في تشرين الأول (اكتوبر) 1927 . واستقبلت الدورة الأولى من الطلاب ، وكان عددهم عشرين طالباً ، أكملوا الدراسة الطبية على مدى خمس سنوات واجتازوا الامتحانات النهائية في صيف 1933 وحصلوا على لقب دكتور في الطب MD ، فكانوا أول وجبة أطباء تخرجت من الكلية الطبية .

ولزيادة الاطلاع على ظروف تأسيس الكلية نحيل القارئ إلى كتاب «تاريخ الطب في العراق مع نشوء وتقدم الكلية الطبية العراقية» من تأليف الأستاذ هاشم الوتري والدكتور معمر خالد الشابندر (مطبعة الحكومة- بغداد 1939) وإلى كتاب الأستاذ كمال السامرائي : حديث الثمانين- الجزء الرابع- دار الشؤون الثقافية ، بغداد 1996) .

الكلية الطبية في دور التقدم والارتقاء

خطت الكلية الطبية خلال السنوات (1927–1940) خطوات ملموسة في تنفيذ الواجبات الملقاة على هيئتيها التدريسية والإدارية ، وشَيّدت الحكومة بناية الكلية الرئيسية وافتتحت من قبل الملك فيصل الأول في نيسان 1930 ، ولا تزال قائمة حتى كتابة هذا الكتاب ، ضمت ثلاثة مدرجات وقاعتين للمحاضرات النظرية وأحد عشر مختبراً للدروس العملية وثلاثة متاحف ومشرحة ومكتبة . أما الدروس السريرية فكانت تتم في عيادات المستشفى الملكي المتعددة وفي ردهاته ، التي وسّعت بإضافة أبنية جديدة إلى المبنى القديم لتحوي أجنحه جراحيه متكامله ، وكذلك في مستشفى حماية الأطفال في باب المعظم ومعهد الأمراض المتوطنة ومستشفى الحمّيات (العزل) الواقع في جانب الكرخ . كما شُيّد على الأرض المجاورة لبناية الكلية معهداً الباثولوجي المركزي (للتحليلات المرضية) والأشعة ، ومتحف الباثولوجي وغرفة فتح المَيّت وقاعة كبيرة للاجتماعات .

وقد تناوب على منصب العمادة منذ تأسيسها حتى عام 1940 خمسة عمداء وهم الأستاذ هاري سندرسن والأستاذ حنا خياط والدكتور أحمد قدري والأستاذ هاشم الوتري والأستاذ صائب شوكت .

وكان مجلس الكلية يعقد برآسة العميد وعضوية كل من مدير الصحة العام وثلاثة من كبار الأساتذة . أما مجلس الأساتذة فكان يتألف من أصحاب الكراسي التدريسية الثابتة . وكانت الهيأة التدريسية تضم الأساتذة العراقيين والبريطانيين ، وغيرهم من الأجانب ، وعدداً من المحاضرين من داخل العراق ، ممن لا يحملون ألقاباً تدريسية ، كلاً حسب اختصاصه . وقد عُيّن الأستاذ سندرسن لكرسي أستاذ الطب (النظري) والأستاذ هاشم الوتري للطب (السريري) والأستاذ «جي ودمن» تلاه الأستاذ «دبليو دنلوب» ثم الأستاذ «آبراهام» لكرسي الجراحة (النظري) والأستاذ صائب شوكت الجراحة (السريري) والأستاذ «جي سبنسر» لأمراض العيون والأستاذ «أوليفر» ، أمريكي الجنسية ، لأمراض الأذن والأنف والحنجرة والأستاذ «إي ميلز» لموضوع الباثولوجي والأستاذ «ستيسي» للفارماكولوجي وفن التداوي والأستاذ «بيتي» للبكتريولوجي والأستاذ «بوزويل» للبايولوجي والدكتور «هوكنز» للكيمياء والفيزياء ، واستعانت في زمن الحرب العالمية الثانية بثلاثة من خيرة الأطباء العسكريين الموجودين في العراق ضمن القوات البريطانية الذين ساهموا في تطوير الدراسة ورفع مستواها وهم الميجر «دوغلاس» والكولونيل «باربر» والميجر «واردل» ، كما استقدمت من البلاد العربية خيرة الأساتذة كان منهم الأستاذ أمين بك عبد الرحمن والأستاذ محمد طلعت والأستاذ أحمد الحلواني .

وخلال الحرب العالمية الثانية كذلك ، زار عدد من أساتذة الطب البريطانيين الكلية وألقوا محاضرات وكان منهم اللورد «موران» رئيس كلية الأطباء الملكية بلندن كما قام آخرون بتدريس طلاب الصفوف المتقدمة في الردهات .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الأساتذة العراقيين لم يكونوا كلهم على المستوى المطلوب . فالجيل القديم منهم ، الذي تلقى تعليمه في مدرسة الطب العثمانية مثلاً وبالرغم من خبرته السريرية في العلوم الطبية ، إلا أنه كانت تعوزه المعلومات عن التطورات الحديثة في العلوم الطبية الأساسية . أما مساعدوهم من الأطباء الشبان خريجي الكلية الذين أوفدوا إلى الغرب للتدريب واكتساب الخبرة فقد ظهر منهم من أثبت كفاءةً عاليةً وحرصاً في تدريسنا وأخص من هؤلاء الدكتور جاك عبودي

والدكتور بيثون رسام والدكتور كرجي ربيع والدكتور عادل الدوغرامه جي والدكتور نجيب اليعقوبي . إلا أنه من المؤسف أن آخرين ، وهم ليسوا قلة ، انشغل في عيادته الخاصة واستغل مركزه ونفوذه لتحويل المرضى إلى عيادته الخاصة أو كان يتقاضى أجوراً لقاء الإدخال إلى المستشفى للعلاج الطبي أو كان يداوم بعيادته أثناء ساعات الدوام الرسمي ، كل ذلك لم يترك انطباعاً حسناً عند تلامذتهم (وكان ذلك من دواعي المطالبة في سنوات الستينات والسبعينات بتشريع قانون التفرغ الطبي لأعضاء الهيأة التدريسية) .

نص نظام الكلية على أن الدراسة تبدأ في الأسبوع الأول من شهر تشرين الأول كل عام وتستمر ثلاثين أسبوعاً مقسمة على ثلاثة فصول أمد كل منها عشرة أسابيع يعقبها أسبوع واحد للامتحانات ثم أسبوع آخر عطلة . وكانت عطلة نهاية الفصل الأول توافق عيد ميلاد السيد المسيح وبداية السنة الجديدة وعطلة الفصل الثاني مع عيد الفصح (إيستر) .

وضمت عمادة الكلية الطبية في نهاية الثلاثينيات كلاً من كليتي الطب والصيدلة ومدرسة الموظفين الصحيين ومدرسة القبالة والتمريض ومديرية المستشفى الملكي ، وانفصلت إدارياً عن مديرية الصحة العامة . وكان العميد هو الرئيس الإداري لكل هذه المجموعة من المؤسسات .

القبــول

نص نظام الكلية على قبول الطالب بشرط حيازته على شهادة البكالوريا من الفرع العلمي أو ما يعادلها من الشهادات الأجنبية ، على أن يُرّجح العراقيون حاملو الشهادة العراقية على غيرهم ، وأن لا يقل عمر الطالب عن 17 سنة ولا يزيد عن 25 سنة ، وأن يسجل عقد خدمة في دوائر الدولة الصحية بعد تخرجه لفترة تساوي سني الدراسة في الكلية . كما نص على وجوب متابعة الطالب للدروس والتدريب واتّباع النظام والأوامر والتعليمات المقررة وتجنب كل ما من شأنه الإخلال بالنظام والطمأنينة أو حسن السمعة ، كما لا يجوز له الامتناع المدبر عن حضور الدروس أو الاشتغال بالسياسة والأمور التي تمس المعتقدات الدينية والأوامر الإدارية .

في السنة الأولى من عمر الكلية تقدم للقبول ثمانون طالباً . ولما كانت دراساتهم في المرحلة السابقة متباينة فقد تألفت لجنة خاصة للنظر في كافة الطلبات وانتخبت

عشرين طالبا وجدتهم لائقين للانتماء إلى الكلية . أما في السنة الثانية فقد تقدم 67 طالباً قبل منهم 12 طالباً أكملوا الدراسة الثانوية (أربع سنوات) بدون امتحان ، وأجرت لجنة خاصة ، مؤلفة من العميد واثنين من الأساتذة منتدبين من وزارة المعارف وعدد مماثل من أساتذة الكلية ، امتحاناً للباقين نجح منهم عشرة طلاب . أما في السنة الثالثة فاقتصر القبول على خريجي الثانوية فقط وكان عددهم أربعة فقط .

وفي السنوات التالية ازداد عدد المتقدمين إلى الكلية باطراد وكان عدد المقبولين ، حتى سنة 1940 ، 513 طالباً تخرّج منهم حتى تلك السنة 153 طبيباً ، وأصبحت حيازة الدرجات الأعلى في امتحان بكالوريا الثانوية الوزاري إضافةً إلى النجاح في المقابلة التي تجريها العمادة شرطا للقبول .

القبول عام 1940

كان القبول في الكلية الطبية يعتبر امتيازاً خاصاً تتطلع إليه العوائل التي ترجو لأبنائها ، بعد تخرجهم منها أطباء ممارسين حرية في العمل واستقلالاً فردياً علاوة على الضمان المادي . وكانت نظرة المجتمع إلى الطبابة أنها مهنة مريحة وفيها مساعدة وخدمة للناس (وخير الناس من نفع الناس) . وكانت الجدية التي اتسمت بها الدراسة والتشدد بالامتحانات وانعدام الواسطة والسنوات الطويلة التي يقضيها الطالب قبل حصوله على الشهادة ، مقارنة بالكليات الأخرى ، إضافة إلى التدريس بلغة أجنبية ، كان كل ذلك مصدر تقدير يضفي على حامل لقب (الدكتور) ميزة الاحترام والتقدير .

ولتوقف وزارة المعارف عن الإعلان للبعثات الدراسية في أوروبا ، بسبب نشوب الحرب العالمية الثانية ، فإن خير ما يسعى إليه خريج الفرع العلمي في المرحلة الثانوية هو قبوله في كلية الطب ، لذا تقدم ما ينيف على 361 طالباً بطلباتهم للقبول في الكلية الطبية في هذه السنة وقبل منهم 68 طالباً . وعندما انضم المعيدون من السنة السابقة إلى المقبولين الجدد أصبح مجموع الصف 81 طالباً .

وكانت العمادة قد قررت في السنوات الأخيرة مبدأً للقبول يقضي بانتخاب الطلاب استناداً على أعلى المعدلات والنجاح في الفحص الطبي ثم التوزيع الجغرافي لألوية العراق ، محل السكن أو مسقط الرأس ، توخياً للعدالة الاجتماعية . فقد لوحظ أن الطلاب من الألوية الثلاثة ، بغداد والموصل والبصرة ، يحصلون على معدلات

أفضل من زملاء لهم في باقي الألوية . إضافةً إلى ذلك فقد وجدت مديرية الصحة العامة أن خريجي الكلية يحجمون عن العمل خارج العاصمة ، ونظراً لحاجتها الماسة لخدماتهم في باقي الألوية عمل بذلك المبدأ . على أن ذلك لم يف بالغرض الذي وضعت من أجله تلك التعليمات ، فقد قبل طلاب من تلك الألوية بمعدلات واطئة نسبة إلى غيرهم من ألوية أخرى مثل بغداد والموصل ولكنهم فشلوا في الامتحانات ورقن قيدهم وعلى ذلك فقد أُلغي ذلك المبدأ في السنوات التالية .

وبصورة عامة لم يكن هناك يوم ذاك تمييز عنصري أو طبقي أو ديني في قبول الطلاب . ويمكننا أن نلاحظ أن لجنة القبول في الدورة الأولى (1927) انتخبت عشرين طالباً كما ذكرنا كان منهم ثمانية من اليهود وسبعة مسلمين وخمسة مسيحيين تخرج منهم خمسة يهود وأربعة مسيحيين وثلاثة مسلمين . وفي الدورة الثالثة قبل 12 طالباً يهودياً من مجموع 30 طالباً تخرج منهم سبعة من مجموع سبعة عشر خريجا . وفي سنة 1940 كان عدد اليهود المقبولين سبع طلاب(*) والمسيحيين ثمان طلاب وطالبة من مجموع 68 طالباً . ولم يكن هناك تمييز في القبول بين الذكور والإناث غير أن عدد المتقدمات لدراسة الطب كان ضئيلاً وكانت الفتيات يفضلن مهنة التدريس على غيرها .

وبهذه المناسبة نذكر بأن أول فتاة انتمت إلى الكلية الطبية كانت مَلَك رزوق غنام (مسيحية) قبلت عام 1933 أي في الدورة السابعة ، وكانت الفتاة الوحيدة في صفها . ثم التحقت في السنة التالية الطالبة حبيبة بيثون (مسيحية) . وفي الدورة التاسعة كل من روز رؤوف اللوس (مسيحية) وروز موشكة(يهودية) . وكانت أول فتاة مسلمة قبلت للدراسة هي سانحة أمين زكي كما قبلت في نفس الدورة العاشرة كل من مزلي داؤد (يهودية) ولطيفة لاوي (يهودية) . وفي الدورة الرابعة عشرة (1940-1941) كان عدد المقبولات ست طالبات انطبقت عليهن نفس شروط القبول للذكور .

والجدير بالذكر أن الغالبية العظمى من طلاب الكلية يوم ذاك كانت تنتمي اجتماعياً إلى الطبقة الوسطى ، علماً بأن أولاد العوائل المتمكنة اقتصادياً كانوا يبعثون في السنوات السابقة إلى الخارج لمتابعة دراستهم العالية على نفقة ذويهم الخاصة

(*) التحق بدورتنا في الصف الثالث طالبان يهوديان هما عزيز سلمان كرجية ويعقوب كوهين .

سواء في بيروت أو الاسكندرية والقاهرة أو الدول الغربية . أما الطلاب من العوائل ذات الدخل المحدود فكانوا يفضلون الانتماء إلى المدارس العسكرية أو دور المعلمين التي كانت توفر لهم السكن المجاني والغذاء في بنايات خاصة بهم . ولا يفوتني الإشارة إلى أن نصف عدد زملائي في الصف المنتهي من الثانوية المركزية آثروا الانصراف إلى العمل الحر أو الحصول على وظيفة حكومية ولم يلتحقوا بالدراسات الجامعية بعد أن أكملوا التعليم الثانوي .

مناهج الدراسة

اقتبست العمادة المنهج الذي سارت عليه كلية طب جامعة أدنبرة وطبقته ابتداءً من تأسيسها . ومع أن بعض التعديلات قد حصلت عليه فيما بعد ، إلا أن جوهر المنهج بقي كما هو إلى سنين طويلة دامت بعدها .

كانت المرحلة الأولى (الصف الأول) تشمل دراسة العلوم الأساسية ما قبل الطبية Premedical وهي البايولوجي والكيمياء والفيزياء ، كما ويدّرس التشريح كذلك وهو غير مكتمل في هذه السنة . وكانت هناك دروس تقوية باللغة الإنجليزية يقوم بها مختصون في المعهد الثقافي البريطاني لكن الدوام فيها اختياري .

وفي الصف الثاني تبدأ دراسة العلوم الطبية الأساسية وهي الفسيولوجي والكيمياء الحيوية والتشريح ، وكلها دروس مكتملة ، بالإضافة إلى دروس في مبادئ العلوم السريرية . وتستمر العلوم الطبية الأساسية في الصف الثالث حيث تدّرس العلوم الطبية المجاورة Paramedical ، وهي الباثولوجي والبكتريولوجي والفارماكولوجي والباراسيتولوجي ، وكلها مكتملة . كما تبدأ في نفس السنة المرحلة الطبية Medical بتدريس الطب الباطني والجراحة العامة النظري والمرحلة السريرية Clinical حيث يتدرب الطلاب يومياً طيلة أيام السنة الدراسية مناصفة بين الردهات الباطنية والجراحية .

وفي الصف الرابع يدرس الطالب موضوعي الصحة العامة والطب العدلي وهما مكتملان ويستمر تدريس الأمراض الباطنية والجراحة والأمراض النسائية والولادة النظري والسريري في الردهات المختصة .

وفي الصف الخامس تلقى المحاضرات النظرية في كافة فروع الجراحة ، مثل طب العيون والأذن والحنجرة وطب المسالك البولية ، وفي كافة فروع الطب ، مثل طب

الأطفال والأمراض الجلدية والأمراض الزهرية والأمراض العقلية . ويتم التدريس السريري للطلاب في العيادات الخارجية لتلك الاختصاصات . ويتوجب على الطالب حصوله على معدل 50٪ في الامتحانات لكل منها قبل أن يسمح له بالتقدم إلى الامتحان العام في المواضيع الأساسية الثلاثة في السنة الأخيرة .

وفي السنة الأخيرة يقضي الطلاب 12 شهراً بالتدريب العملي في الردهات والمستشفيات ويتلقون محاضرات نظرية قليلة في بعض المواضيع . ويكون الامتحان النهائي في نهاية شهر أيار (مايس) ويستمر حوالي أربعة أسابيع ، شاملاً الاختبارات النظرية والعملية والسريرية والشفهية .

ومع أن هذا المنهج كان منقولاً من بلد أجنبي إلا أن نجاحه أُثبت بفضل الجهود التي بذلتها الإدارة والأساتذة وهيأة التدريس وتجاوب الطلاب وسعيهم الحثيث لاكتساب المعرفة الطبية ، وكان أسلوبه نفس ما سارت عليه الدول الغربية في التعليم الطبي يوم ذاك .

التدريس النظري والعملي (1940-1946)

عندما التحقنا بالكلية الطبية وبدأت الدراسة وجدنا أن أسلوب إلقاء المحاضرات يختلف عما ألفناه في الدراسة الثانوية حين كان المدرس يكلفنا بالإعداد للدرس وفي الحصة التالية يشرح الموضوع ثم يفسح المجال لأسئلة الطلاب واستفساراتهم يعود بعدها لإلقاء الأسئلة للتأكد من فهم الطلاب للموضوع . أما في كلية الطب فقد كان الأستاذ يلقي محاضرة تدوم ساعة كاملة ويقوم بالشرح مستعيناً بالكتابة وبالرسم على السبورة دون مقاطعة من أحدنا أو إجابة على استفسار ثم يبقى في القاعة بعد الانتهاء من المحاضرة لبعض الوقت ليجيب على أسئلة السائلين . وكان البعض منا يخجل في الأيام الأولى من التوجه إلى الأستاذ للسؤال عما غمض عليه . لذا كنا نراجع المادة مع بعضنا في محاولة توضيح ما استغلق علينا علّ ذلك البعض قد فهم المادة خيراً من البعض الآخرين .

كان أسلوب الإلقاء لبعض المحاضرين جيداً ومفهوماً ومنهم الأستاذ بوزويل أستاذ البايولوجي ، بينما كانت محاضرات الأستاذ هوكنز في الكيمياء غير واضحة بسبب لهجته الإنكليزية التي لم نألفها في البداية وبسرعته في الإلقاء . ويضاف إلى ذلك عدم إلمامنا باللغة الإنكليزية بصورة جيدة وكافية . ولكن وبعد تقدمنا في الدراسة

ومضي السنوات ، تحسنت لغتنا الإنجليزية كثيراً ووجدنا محاضرات الأساتذة سندرسن وستيسي وميلز ودوغلاس وبيتي سلسة وشيّقة ومفهومة . كما أذكر أن الأمر ذاته كان ينطبق على محاضرات أساتذتنا العراقيين حنا خياط وفتح الله عقراوي وأحمد عزت القيسي وأساتذتنا العرب أمين بيك عبدالرحمن ومحمد طلعت .

أما مستوى المحاضرات العلمي فقد تفاوت بين الجيد والرديء وكان الإلقاء على العموم بطريقة الإملاء ، البطيء أحياناً . كانت مادة الجراحة الخاصة Regional Surgery التي ألقاها الأستاذ دوغلاس بمستوى راقٍ أفادتنا كثيراً ، بينما كان قلة من المحاضرين يلقي المادة نفسها سنة تلو أخرى دون تغيير أو إضافة أو تجديد . وكان من المألوف أن يتناقل الطلبة دفاتر محاضرات من زملاء لهم سبقوهم في الدراسة . وأذكر أن دفاتر محاضراتي في أحد المواضيع انتقل بعد نجاحي إلى قريبي وصديقي المرحوم سليمان داؤد الفخري (1941) ثم إلى أخي عصام (1944) وإلى ابنة شقيقتي خالدة مجدي النائب (1945) ثم عاد لي بعد تخرجي ولا زلت أحتفظ به ذكرى لأيام الدراسة . والدفتر يحتوي على ملاحظات وتعليقات طلابية عن الموضوع والمحاضر دوّنها كل من تابع المحاضرة من الذين استعاروا الدفتر .

واعتمدنا يوم ذاك على المحاضرات بدلاً من الكتب والمراجع لعدد من الأسباب قد يكون أهمها أن ما يُسأل في الامتحان يكون دوماً من المادة التي ألقيت من قبل المحاضر . وكما هو معلوم فالنجاح في الامتحان كان غايتنا المأمولة ، وكنا نتصور أن التوسع في المعلومات قد يضر الطالب وقد يزعج الأستاذ الممتحن . وسبب آخر كان عدم إشارة الأساتذة إلى وجوب الرجوع إلى قراءات إضافيةٍ أو مصادر وعدم تكليفهم إيانا بكتابة رسائل Dissertations . كل ذلك إضافة إلى شحّة الكتب بسبب ظروف الحرب وانقطاع المواصلات مع بريطانيا . الكتاب الذي كنا اعتمدناه في التشريح العملي كان كتاب Cunningham وفي التشريح النظري كان مرجعنا هو Gray's Anatomy وأما في الطب السريري فكان Hutchinson's Clinial Methods .

في التدريس العملي وجدنا أن الأجهزة العلمية متوفرة وأن لكل طالب مختبره الخاص في كل من قاعات البايولوجي والكيمياء والفسيولوجي ، وفي مختبر الباثولوجي والبكتريولوجي والهستولوجي ووفرت العمادة لكل طالب مجهراً . كما كان عدد الجثث في صالة التشريح كافياً ، يقوم بتشريح كل منها في نفس الوقت

أربعة طلاب من الصف الأول وأربعة من الصف الثاني . يقوم طلبة الصف الأول بتشريح الذراع والساق وطلبة الصف الثاني باقي الجسم ويتم ذلك في جو هادئ وبنسبة ممتازة لعدد الطلبة على الجثة الواحدة .

أما التدريب السريري (الكلينيكي) في الردهات فقد بدأنا به ، أسوة بالكليات الطبية في بريطانيا وفرنسا ، بمرحلة مبكرة من التعليم الطبي أي في الصف الثالث. حيث توزعنا على مجموعات تضم كل منها عشرة طلاب تتدرب فيها بالردهات الباطنية والجراحية تحت إشراف الأساتذة السريريين ومساعديهم لمدة سنة كاملة على طرائق الفحص للمريض وتفسير العلامات المادية . وكان من حسن حظ مجموعتنا أن الدكتور عادل الدوغرامه جي ، المعروف بكفاءته التدريسية ، هو الذي أشرف على تدريس مجموعتنا في الردهة التاسعة .

أما في الصف الرابع فكانت المجموعة المتدربة في الردهات تضم ثمانية طلبة فقط . وتناقصت إلى ستة أو خمسة في الصف الخامس عندما تدربنا في العيادات الخارجية وإلى ثلاثة فقط في السنة الأخيرة (الستاج) ، وهو أمر جيد أتاح لنا تدريباً حسناً علاوةً على تعرفنا عن كثب لأساتذتنا .

لقد كان دخولنا إلى الردهات ومعاينة المرضى والتحدث إليهم وفحصهم في مرحلة دراسية مبكرة مصدر سعادة وارتياح لنا ، إذ شعرنا أننا بدأنا بدراسة الطب بصورة فعلية وأخذنا نفهم ونطبق ما ألقي علينا من محاضرات نظرية في قاعات الدرس فيزيد ذلك من ثقتنا بأنفسنا .

وفي سنة التدريب الأخيرة (ستاج أو طبيب تحت التدريب) كان أساتذتنا في الردهات يعهدون إلينا مسؤولية فحص المريض وكتابة التقرير المرضي في الطبلات وإجراء الفحوص المختبرية المتوفرة وهو أمر بالغ الأهمية افتقرت إليه كليات الطب الأوروبية المتقدمة حتى الوقت الحاضر . وفي هذه السنة كذلك حصل تطور هائل في العلاج الطبي وهو دخول المضادات الحيوية في العلاج ، وكان البنسلين الذي يعطى بالعضلة كل ثلاث ساعات يعمل بمفعوله السحري في معالجة الأمراض الالتهابية الخطرة مثل ذات الرئة والتهاب السحايا وغيرها .

على أن مجموعتي المكونة مني وخالد القصاب ومصطفى أدهم أصيبت بخيبة أمل في التدريب بالوحدة الجراحية في الصف السادس لولا تدريس الميجر دوغلاس النظري وتدريبه السريري الذي كان غزيراً بالمادة مليئاً بالحيوية والنشاط ومحباً للتعليم

والطلاب .

وكان من خصال الطلاب في الكلية الطبية أن لا يولوا الدروس الفرعية أهمية كالتي تعطى للدروس الأساسية والمنتهية بامتحان يقرر مصيرهم . ومع هذا لم يكن تدريبنا السريري في بعضها على المستوى المطلوب ، ولكن بالرغم من ذلك فإن شمولية وتنوع الحالات المرضية والأعداد الغفيرة التي كانت تتردد على العيادات الخاصة قد أفادنا كثيراً في نظرتنا للمرضى وتعرفنا على الأمراض .

وكلمة أخيرة عن لغة التدريس في الكلية فقد جاء في نظام الكلية أن التعليم فيها يتم باللغة العربية ، غير أنه بالإمكان التدريس بلغة أجنبية ثانية (الإنجليزية) إلى حين توفر الهيأة التدريسية المتمكنة بالقيام بها وكذلك المصادر الطبية اللازمة . وكانت المحاولة الأولى في هذا المضمار هي تدريس مادتي مبادئ الطب السريري في الصف الثاني والطب العدلي في الصف الرابع من قبل الأستاذ عبد الهادي الباجه جي للأول وحنا خياط للموضوع الثاني باللغة العربية ، وقد تم ذلك بنجاح تام .

وبالرغم من مضي سبعة عقود على إنشاء الكلية فلا يزال التدريس باللغة الإنكليزية ساري المفعول عدا محاولة قامت بها العمادة في أوائل السبعينات لتدريس بعض دروس الصف الأول بالعربية لكنها لم تحقق نجاحاً .

ولا ينكر وجوب تدريس الطب بلغة الأم وهي العربية الفصحى ، غير أن دعاة الاستمرار بتدريسه بالإنكليزية يرون أن التحول إلى اللغة العربية قد يؤدي إلى هبوط المستوى التعليمي لقلة المراجع المدرسية والمصادر والدوريات التي تواكب التطورات الحديثة والسريعة في العلوم والطب في العالم . ويجب الاعتراف أن تدريسنا بالإنكليزية من قبل أساتذة بريطانيين يلقون دروسهم بلغة سليمة ومفهومة ، وإن لم تخل من الصعوبة في السنة الأولى إلا أنها كانت بدايةً لابد منها لانفتاحنا على العالم الكبير من المؤلفات والكتب الطبية والمصادر العالمية ومتابعة الدراسة والتحصيل بالدول الغربية بعد التخرج ، إضافةً إلى أن إلمامنا بها قد فتح لنا أبواب الاطلاع على الثقافة الغربية وقراءة الكتب العامة والأدبية والتاريخية من مصادرها علاوةً على تخاطبنا بها عندما توجهنا إلى دول الغرب للتدريب ولاكتساب الخبرة الطبية بعد التخرج .

خلاصة ما تقدم هي أننا كنا نشعر بسعادة (بالرغم من الخوف الذي لازمنا في السنوات الأولى) لانتسابنا إلى الكلية الطبية وللوسط المتميز الذي كنا نحيا فيه

وانغمارنا بالعمل الدؤوب والمتواصل ، في قاعات الدرس أو المختبرات أو أجنحة المستشفى ساعات النهار الطويلة ، ولمرأى جموع الطلبة ومن مختلف الصفوف وهي تنتقل بتمام الساعة من قاعة أو مختبر إلى آخر وكذلك عندما نرى الطلاب القدامى بصداريهم البيضاء في ساحات المستشفى الملكي متوجهين إلى الأجنحة والردهات ، وعندما يجتمع شملنا في ساعة الاستراحة ظهراً بنادي الكلية وحدائقها الزاهرة وأخيراً لمشاركتنا في الفعاليات الاجتماعية والثقافية اللاصفية سواء كان ذلك في مرافق الكلية أم خارجها .

الامتحانات

جرت الامتحانات الفصلية والنهائية بمواعيدها المقررة في كافة سني الدراسة ما عدا امتحان الفصل الأول (1941) الذي تأجل بسبب تعطل الدراسة بعد حركة رشيد عالي الكيلاني . وكانت الامتحانات النظرية والعملية تتم خلال أسبوع واحد في نهاية كل فصل ولفترة أطول قليلاً في الامتحانات النهائية . وكانت المراقبة شديدة على الطلاب ولا أذكر حصول أية حالة غش أو تزوير في دورتنا ، بل قيل لنا أن أحد الطلاب من الدورة التي سبقتنا وجد متلبساً بالنقل من أوراق أعدها في الامتحان النظري فأحيل إلى مجلس العمادة الذي قرر فصله من الكلية بصورة نهائية .

كانت الأسئلة في الامتحانات الفصلية تكتب على السبورة أحياناً وأحياناً أخرى مطبوعةً على الورق ، وكانت تشمل المادة التي درّست خلال ذلك الفصل . وكان أساتذة الصف الأول يعيدون إلينا الدفاتر الامتحانية في بداية الفصل التالي وعليها تصليحات الأستاذ وملاحظاته للاطلاع على الإجابات الصحيحة و لا أزال احتفظ بالبعض من دفاتري الامتحانية .

وكانت نتائج الفحوص والعلامات تنشر في لوحة الإعلانات بعد حين . أما النتائج النهائية فكانت تعلن على شكل Pass و Fail دون ذكر الدرجات ولم يكن هناك نظام (عبور) ، الذي طبق في سنوات متأخرة ، وهو النظام الذي يسمح للطالب بالدوام في الصف الأعلى على أن يبقى مديناً بامتحان الدرس الذي رسب فيه .

كانت الدرجة النهائية في الامتحانات 100 ودرجة النجاح 60 في كافة المواضيع الأساسية . وكانت التعليمات بالنسبة لطلاب الصف الأول تقضي بضرورة حصول

الطالب على معدل 40٪ من مجموع درجات الفحوص الفصلية في موضوع واحد على الأقل من مواد التدريس وبخلافه لا يسمح له بالاشتراك في الامتحانات النهائية ويرقن قيده من الكلية .

أما في امتحانات دروس فروع الطب والجراحة في الصف الخامس فكان لابد من حصول الطالب على معدل 50٪ في كل منها قبل أن يسمح له بالتقدم إلى الامتحان النهائي في السنة السادسة . وفي دورتنا تأجل امتحان التخرج للبعض من زملائنا بسبب عدم حصولهم على تلك الدرجة في امتحانات بعض الدروس الفرعية بالرغم من إعادتهم الفحص ثانيةً في الصف السادس ولم يسمح لهم بالدخول إلى الامتحان إلاّ بعد نجاحهم في تلك المواد الفرعية .

تعليمات الدراسة

حدّدت مدة الدراسة عند تأسيس الكلية الطبية بخمس سنوات يمنح على إثرها الخريج شهادة دكتور في الطب . وفي السنوات القليلة الأولى أضيف لها سنة سادسة لغرض التدريب العملي وزيادة الخبرة بينما بقي الامتحان النهائي في نهاية السنة الخامسة وأطلق على الطالب في السنة السادسة «طبيب تحت التمرين» أو «ستاجيير» ومنح مخصصات شهرية تعادل نصف راتب الطبيب الخريج أي عشرة دنانير . وفي نهاية الثلاثينات تقرر إجراء فحوص المواضيع الفرعية في الصف الخامس والمواضيع الأساسية في نهاية التدريب في الصف السادس ، كما استبدلت شهادة الدكتوراه في الطب MD بدرجة ليسانس في الطب والجراحة M.B. Ch.B. وأصدرت تعليمات منح شهادات الدرجات العالية لما بعد التخرج وهي الدكتوراه في الطب MD والماجستير في الجراحة MS والدكتوراه PhD في المواضيع غير السريرية .

ونصت تعليمات منح شهادة الدكتوراه والماجستير على وجوب تقديم موضوع لأطروحة يوافق عليها مجلس العمادة مبدئياً ، وإجراء البحث تحت إشراف الأستاذ المختص ثم المناقشة من قبل لجنة خاصة ونجاحه فيها واجتيازه امتحاناً نظرياً وسريرياً يثبت فيه جدارته للحصول على الشهادة . وقد عمل بهذه التعليمات بدءاً من سنة 1941 حتى سنة 1956 عندما تقرر انضمام كلية الطب إلى جامعة بغداد .

وأصدرت العمادة يوم ذاك تعليمات منح الاختصاص في مختلف فروع الطب والجراحة لحاملي تلك الشهادات بعد أن يقتنع مجلس العمادة بأن المرشح له قدرة

خاصة وخبرة كافية في فرع اختصاصه . أما الذين حملوا دبلومات الاختصاص في الفروع المختلفة من الخارج فقد كان عليهم اجتياز امتحان شفوي وسريري بعد سنتين من نيلهم الدبلوم قبل أن يمنحوا لقب الاختصاص .

وقد حاولت العمادة الحصول على اعتراف المجلس الطبي البريطاني بالدرجة التي تمنحها الكلية إلى خريجيها خاصة بعد أن زار الكلية عدد من الأطباء والجراحين البريطانيين وتعرفوا عن كثب على مستوى الطلاب وشارك بعضهم في الامتحانات لغرض تسهيل قبولهم الخريجين للتدريب والعمل في المستشفيات البريطانية بعد التخرج . غير أن اللورد موران Lord Moran رئيس كلية الأطباء الملكية في لندن ارتأى ، عندما حضر إلى بغداد سنة 1948 للتقييم والاعتراف ، تأجيل الاعتراف بكليتنا ثلاث سنوات لاستكمال مستلزمات التعليم والبحث العلمي . هذا ولم تخل الامتحانات من مشاركة أساتذة زائرين كانت غالبيتهم من أطباء القوات العسكرية البريطانية المرابطة في العراق أثناء الحرب العالمية الثانية .

علاقة الطلاب بالعمادة والأساتذة

علاقة الطالب بالعمادة لم تكن صميمية طيلة فترة دراستنا في الكلية الطبية . فالعميد أو أحد الأساتذة القدامى في الكلية لم يعقد اجتماعاً للطلاب الجدد ، سنة دخولنا أو ما تلاها ، لتعريفنا بالكلية وأنظمتها وما سوف يترتب علينا من التزامات بل اعتمد في استيضاح الأمور الإدارية والدراسية وأساليبها على ما نسمع من زملاء سبقونا بالالتحاق بالكلية ، مع أننا أخبرنا أن الأستاذ سندرسن عكف عندما كان عميداً في السنوات الأولى ، على الترحيب بالطلاب الجدد في اجتماع معهم يعقده ويعرفهم بالكلية وأنظمتها مبدياً النصائح المعروفة في مثل هذه المناسبات ، كما كان يدعو ، مع زوجته السيدة ليزلي ، طلاب الصف الثاني بمجموعات صغيرة للقاء في حديقة داره لتناول الشاي والتعارف ، ولكن العمداء اللاحقين لم يتبعوا تلك الطريقة كما أن انشغال الأستاذ سندرسن أثناء عمادته الثانية (1941-1946) بالأمور الإدارية والسياسية خارج العمادة لم يمكنه من تكرار ما قام به سلفاً .

ومما يضيف إلى جهلنا بقوانين وأنظمة الكلية عدم وجود دليل حديث للكلية نرجع إليه ، فقد علمنا أن العمادة أصدرت دليلاً تعريفياً بالكلية ومناهجها وجداول الدروس فيها في منتصف الثلاثينيات ، إلا أن ذلك الدليل لم يجدد حتى سنة 1956

عندما أعدت لجنة برئاسة العميد الأستاذ صائب شوكت وعضوية صاحب هذه المذكرات والدكتور علي كمال وأصدرته بعنوان «تقويم الكلية الطبية الملكية العراقية للسنة الدراسية 1956ـ 1957» ـ مطبعة الرابطة بغداد ـ باللغتين العربية والإنجليزية متضمناً كل ما يهم الطالب أن يعرفه عن الكلية الطبية .

في السنة الأولى دعي طلاب صفنا لانتخاب أحدنا ليكون ممثلاً للصف لدى العمادة . ولا أذكر أن أحداً من زملائنا راجع ذلك الطالب وعرض عليه أية مشكلة أو شكوى لنقلها إلى العمادة . إضافةً إلى ذلك فإن الانتخاب لم يتكرر في السنين التالية .

أما علاقتنا بالأساتذة والمحاضرين فكانت في حدود الرسميات ، ولعل السبب كان في احترامنا لهم وربما تهيباً منهم أيضاً ، ومع هذا فإنهم كانوا يبدون الاستعداد لمساعدتنا متى ما تقدمنا إليهم ولا يألون جهداً للأخذ بأيدينا متى ما طلبنا منهم ذلك . وكنا نحترم أساتذتنا ونقدّر ما يبذلونه من جهود في سبيل تعليمنا وتدريبنا .

كان كافة مدرسينا من الأساتذة الأجانب ذوي مستوى علمي راق ، وعرفناهم جادين في تدريسهم إيانا مع مصداقية في الامتحانات وقاموا بمسؤوليتهم التعليمية على خير وجه . كانوا متشددين ولكن لفائدتنا بالحق والعدل ، ولم يجرؤ فرد ما على التوسط لديهم لتغيير نتيجة طالب في الامتحانات : الأستاذ هوكنز مدرس الكيمياء في الصف الأول كان «مصفاة» الكلية ، لا ينجح في موضوعه من ليس مؤهلاً لأن يكون طبيباً ، والأستاذ بيتي حجة في موضوع البكتريولوجي ومعلم من النوع النادر ، والميجر دوغلاس كان المثل الأعلى لكل من اختار الجراحة وقام بتدريسها من طلابه ، والأستاذ ميلز كان عالماً وأباً ومرشداً ، وأخيراً وليس آخراً سندرسن الرائد المؤسس ومن الأساتذة الخالدين . كل هؤلاء تركوا بصماتهم على كلية الطب الناشئة وأحبوا العراق وكتبوا عنه لـمّا عادوا إلى أوطانهم ، وبادلهم تلامذتهم الحب والاحترام والعرفان بالفضل عليهم فدعوهم بعد سنين لزيارة كليتهم واحتفوا بهم خير احتفاء .

علاقة طلاب صفنا ببعضهم كانت تتسم بالألفة والمودة والاحترام . وقد نشأت صداقات استمرت طويلاً بيننا ، وخاصة بين أفراد المجموعات الصغيرة التي ترك لنا اختيارها عندما تدربنا سوية في قاعة التشريح أو في المختبرات أو الردهات أو المستشفيات وعند الإقامة في قسم أمراض النساء ومستشفى الحميات «العزل» .
وكان الأصدقاء يجتمعون مساءً للمذاكرة ومراجعة دروسهم سوية ، وكنا نرى بعضنا

في دور السينما في نهاية الأسبوع . ومع أن دورتنا استقبلت عدداً من الطلاب المعيدين من الدورة أو الدورات التي سبقتنا ، وآخرين تخلفوا عنا إلا أن الود والتعاطف ساد علاقاتنا معهم ولا أذكر أن الجو قد تعكر يوماً إلا عندما حصل خلاف آني لم يدم طويلاً بين زميلينا صلاح تحسين علي ومهدي مرتضى الصيدلي ولكن سرعان ما زال ذلك الخلاف .

كان طلاب صفنا ، أسوة بطلاب الكلية قاطبة ، ينتمون إلى شرائح اجتماعية ومستويات اجتماعية واقتصادية متباينة . غير أننا لم نكن نعير تلك الخلفيات أي اهتمام ولم تؤثر على علاقاتنا الشخصية التي كانت تبنى على الانسجام الفكري والنفسي فقط إذ كان الشعور بالمساواة وعدم التباهي هو السائد بيننا .

كانت جموع الطلبة تفد إلى الكلية في الصباح الباكر سعياً على الأقدام من باب المعظم ، حيث تصل سيارات النقل والشاحنات القادمة من كل صوب من أطراف بغداد ، ولم يشذ عن ذلك إلا زميلنا جيروم أوفي الذي كان يصل باب المعظم بسيارة العائلة ، وهي من نوع هلمن الصغيرة ، بصحبة والده وعمه . وكان هناك ثلاثة طلاب في الكلية يملكون سيارة خاصة يتنقلون بها وهم سالم الحيدري وداؤد مسيّح وصالح الجلبي .

كان العنصر النسائي في الكلية يشكل أقل من عشرة بالمائة من مجموع الطلاب . في الصف الأول قبل بدورتنا ست طالبات ، ولكن الحظ لم يحالف أربعة منهن وتزوجت السادسة بعدما نجحت إلى الصف الثاني وبقيت في صفنا طالبة واحدة هي ماركريت فتح الله كساب «شكري» . وكما هو متوقع من مزاملة الطلاب للطالبات سنين طويلة ، كانت تنشأ علاقات زمالة دراسية ثم صداقة على مرّ السنوات الطويلة وتتكلل في أغلب الأحوال بالزواج وأذكر منهم في تلك الفترة الدكتور سامي حنا خياط والدكتورة روز رؤوف اللوس ، وفخري الشنوي ونقية الخيالي ، وعبد اللطيف البدري وليعة البدري ، وعزيز محمود شكري وماركريت كساب . وعندما تزايد عدد الطالبات ، في الدورات اللاحقة لدورتنا ، زادت الزيجات بين طلاب وطالبات الطب بعد تخرجهم والبعض لم يكونوا من نفس الدورة كما هو الحال بين قتيبة شيخ نوري وسميرة أديب ، وبديع صبحية وسعاد عبد الرزاق لطفي وغيرهم كثير .

كان الطلاب كافة ، ذكوراً وأناثاً ، يعتنون بلبسهم ومظهرهم الخارجي . فالطلاب

كانوا يرتدون بدلاتهم في قاعات الدرس والصداري البيضاء في المختبرات والردهات . أما الطالبات المسلمات فكن يرتدين العباءة خارج الكلية ويتركنها في غرفة الطالبات عند قدومهن إلى الكلية . ومع أن الكلية صممت شعاراً يرتديه الطلبة من الجنسين على الجاكتة الزرقاء «بليزر» ، إلا أن ظروف الحرب العالمية الثانية وانقطاع استيراد الأقمشة من الخارج حال دون ارتدائنا لها يوم ذاك .

الوعي السياسي في الكلية الطبية

نصت تعليمات العمادة الإدارية على تحريم اشتغال الطلاب بالسياسة . وفعلاً لم يكن هناك مظاهر لفعاليات سياسية طيلة السنوات التي قضيتها طالباً في الكلية عدا ما مر بالعراق إبّان حركة رشيد عالي الكيلاني (1941) ، عندما توقفت الدراسة لفترة زادت عن أربعة شهور ثم استؤنفت في أيلول من تلك السنة . ففي الأول من نيسان علمنا أن الوزارة برئاسة السيد رشيد عالي الكيلاني قد اضطرت على الاستقالة وأن ولي العهد والوصي على العرش الأمير عبد الإله قد كلف السيد طه الهاشمي بتشكيل الوزارة الجديدة مما اعتبر عملاً لا يرضي القوميين والوطنيين وضباط الجيش وأنه تم تحت ضغط السفارة البريطانية . وفي صباح ذلك اليوم الباكر كان الطلاب من كافة الصفوف قد تجمعوا في الساحة الكبيرة مقابل مبنى الكلية يتبادلون الأحاديث ويبدون الامتعاض من ذلك التغيير الوزاري . غير أن تلك التجمعات الصغيرة سرعان ما انفضّت عندما بدأ الفراشون يصفقون بأيديهم منادين على طلاب الصفوف المختلفة للدخول إلى القاعات مع حضور الأساتذة وبدء المحاضرات . وفي دقائق معدودة انفضّت التجمعات وخلت الساحة وسارت الدروس ذلك اليوم والأيام التي تلته كالمعتاد حتى اليوم الثاني من مايس (أيار) عندما علمنا باصطدام الجيشين العراقي والبريطاني في تلول الحبانية ، فالتهب الطلاب حماساً وشعوراً وطنياً ضد بريطانيا وأخذ عدد الطلاب الذين يتلقون المحاضرات يتناقص تدريجياً إلى أن أصدرت الحكومة أوامرها بتوقف الدراسة ، وقد شرحت ذلك في القسم الأول من هذه المذكرات . وعندما عادت الدراسة واستأنف الأساتذة البريطانيون تدريسهم وانتظم سيرها لم يبد من الطلاب أو الأساتذة أي شعور غير ودي ، بل استمر الاحترام المتبادل يسود الجو العام في الكلية مع عدم إثارة أي موضوع سياسي قد يعكر تلك العلاقة .

غير أن ميول الطلاب السياسية وشعورهم الوطني بقي متأججاً وإن لم يظهر على السطح . إلا أن هجوم ألمانيا على الاتحاد السوفييتي ودخول الأخيرة الحرب بجانب الحلفاء أوجد بين الطلاب تيارين سياسيين متعارضين . الأول هم القوميون المعادون لبريطانيا والدول الحليفة ، بسبب موقفها المؤيد لليهود ومناهضة القضية الفلسطينية ، وهم المؤيدون لألمانيا ، والثاني هم اليساريون المناصرون للاتحاد السوفييتي والدول الغربية . وقد شددت الدولة على الفئة الأولى وأودعت ناشطيها المعتقلات بينما سمحت لأنصار الفئة الثانية «اليساريين» ببث أفكارهم ونشر أدبياتهم التي كانت ممنوعة قبل دخول الاتحاد السوفييتي الحرب لجانب الحلفاء . وكما ذكرت ، فقد عكست تلك الأفكار لدى طلبة الكلية ولكن الوئام بينهم كان سائداً ولم يحصل ما يعكر صفو العلاقات لأن العمادة كانت متشددة في منع أي مظهر من العمل السياسي في الكلية .

وفي دورتنا اطلعنا بصورة غير مباشرة يوم ذاك على ميول البعض من زملائنا اليساريين ومنهم خليل جميل النجفي وعبد الأمير عبد الكريم ومهدي مرتضى ويعقوب كوهين ، ولكن انتماءهم الحزبي لم يعرف بوضوح إلا في السنوات اللاحقة أي في نهاية الخمسينات وبداية الستينات . ولم نعرف بوجود قوميين متطرفين بيننا ، وإن كان الشعور الوطني سمة يتصف بها الجميع ولا يجاهرون بها ، فقد كانت غالبية الطلاب منصرفين إلى الدراسة والتحصيل وقد وضعوا الحزبية جانباً ولم يعيروها أهمية تذكر .

مرافق الكلية

المكتبة

خصصت للمكتبة قاعة تقع على اليمين في نهاية الممر الأيمن الممتد من مدخل الكلية الأساسية . وكانت تحوي عدداً كبيراً من الكتب والدوريات الطبية معظمها باللغة الإنجليزية في الفروع الطبية المختلفة . وكانت تفتح أبوابها للمطالعة يومياً ، وباستطاعة الطالب استعارة الكتب للمطالعة خارج المكتبة ، إلا أن إقبال الطلاب على الاستفادة منها كان ضعيفاً .

مجلة الكلية الطبية العراقية

في سنة 1936 أصدرت عمادة الكلية مجلة علمية بعنوان «مجلة الكلية الطبية العراقية» ذكر فيها أن مؤسسها ورئيس تحريرها هو الدكتور هاشم الوتري أستاذ الطب الباطني ، وأنها تصدر كل شهرين لفائدة الطلبة والمتخرجين . وضمت صفحاتها مقالات علمية باللغتين العربية والإنجليزية عن الأمراض الشائعة في العراق شارك في كتابتها أساتذة الكلية وبعض الأطباء .

وفي أيلول 1941 صدر العدد الأول من السنة السادسة وكان رئيس تحريرها الدكتور معمر خالد الشابندر مساعد عميد الكلية ، وأضيف إلى المقالات العلمية باب أخبار العائلة الطبية حاوياً التعيينات والترفيعات والتنقلات الصادرة بحق أعضاء هيأة التدريس وأطباء المستشفى الملكي . وبدأت بنشر الأنظمة الوزارية وأوامر العمادة الإدارية تباعاً .

كرّس الأستاذ هاشم الوتري حيّزاً كبيراً من صفحات المجلة لمقالاته باللغة العربية عن أمراض الجهاز العصبي (وجمعها في ملزمات وزعت على طلبة الصفوف العليا) وعوامل التغذية في أمراض الكبد وأخرى عن العقاقير الطبية النباتية في العراق ، وأفرد باباً خاصاً لمقالاته عن أسس وتاريخ الطب العربي وأمراض الخلفاء العباسيين . وشارك في تحرير المقالات من غير أطباء وأساتذة الكلية العلامة اللغوي المحقق الأب أنستاس ماري الكرملي والطبيب البيطري محمد فاروق الدملوجي .

وفي سنة 1946 تولى الدكتور مهدي فوزي رئاسة تحرير المجلة وكان السيد عبد نيسان مأمور المكتبة يقوم بالإشراف على الطبع والتوزيع .

بعض الطلاب المبرّزين في الكلية (1940-1946)

كل طالب في الكلية يوم ذاك كان بارزاً بذاته ، وكل منهم يحمل ذكريات عن الآخرين ، وهذه بعض من ملامح زملاء الكلية من طلاب دورتي وآخرين سبقوني في الدراسة .

عاصرت خلال دراستي في الكلية الطبية (1940-1946) طلاباً من إحدى عشرة دورة كان أولها الدورة التاسعة (1935) التي تخرجت في نهاية سنة دخولي الكلية وآخرها الدورة العشرين التي قبلت في الكلية في خريف 1945 . ومن هؤلاء في الدورة التاسعة كان شقيقي المرحوم زهير فاروق الدملوجي إختصاصي أمراض

الأطفال ، وزملاؤه سامي حنا خياط أخصائي الصحة العامة ، ومحمد حسين السعدي من أوائل من حصلوا على شهادة عضوية كلية الأطباء الجراحين في لندن ، ويونس بشير اختصاصي المختبر وأول من أثبت وجود جرثومة مرض الكالازار في العراق (الذي لم ينشر إعلان اكتشافه بل أطلع الأستاذ ميلز الذي أيّده وتقاعس هو عن كتابة اكتشافه) ، وألبير قليان الطبيب ذائع الصيت في بغداد ، وشوكت الدهان أستاذ الأمراض القلبية ، وعبد الجبار العماري أستاذ الأمراض الصدرية ، وصفاء الدين حامد استشاري الأمراض العصبية . وكل هؤلاء عرفتهم منذ أن كنت طالباً في المرحلة المتوسطة زملاء وأصدقاء مقربين من أخي زهير . وقد برز من هذه الدورة كذلك الطالب سعاد أسعد نيازي متفوقاً على أقرانه وحاصداً الجوائز والأولية على دفعته عبر السنوات الست وزاول عقب تخرجه جراحاً في المستشفى الملكي ثم انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية للتخصص وعمل باحثاً في معاهدها وسمعنا أنه نشر عديداً من المقالات ولكننا لا نعلم عن فحواها شيئاً .

وأذكر من الدورة العاشرة كلاً من أنور الأوقاتي أستاذ الهستولوجي وأخصائي الباطنية ، وأحمد الشماع أستاذ الباثولوجي ووزير الصحة ، وجهاد شاهين مدير معهد التدرن ورئيس جمعية مكافحة التدرن ، وسانحة أمين زكي أستاذة الفارماكولوجي ، ونامق نادر أخصائي الأشعة ، وأدور عيسى الجراح الاختصاصي ، وخيري الدباغ أخصائي أمراض الأذن والأنف والحنجرة ، ونجيب شكري وكان فناناً ، وصبري عبد الأحد وكان رياضياً بارعاً ، وعبد الفتاح عبد القادر (الذي أطلق عليه أصدقاؤه لقب عبد القادروف نظرا لميوله اليسارية) .

ومن الدورة الحادية عشرة أذكر غانم عقراوي (1921–1997) الذي حصد بدوره الجوائز والمداليات والأولية على دفعته وعرفناه مثقفاً واسع الاطلاع مجيدا لعدة لغات عازفاً على الآلات الموسيقية وخبيراً بالموسيقى الغربية إضافةً إلى تحلّيه بخلق رفيع وأدب جم وحب الخير بتواضع . ومن الدورة نفسها كان جورج فرج عبد الرحيم أستاذ الأمراض الجلدية ، وفاهرام آراتون وكان جنتلمان بمعنى الكلمة ، وأخته ألن آراتون ، وسالم الحيدري أخصائي الأمراض النسائية وكان رئيساً للأطباء المقيمين عندما عينت في المستشفى الملكي (46–47) وكان يرعانا نحن الأطباء الأحداث ويوجهنا في تمشية الأمور الإدارية ، ومحمود الجليلي أستاذ الطب ورئيس جامعة الموصل وهو أول طبيب عراقي حصل على شهادة عضوية كلية الأطباء الملكية في لندن ، وأمين

جريديني أخصائي الأمراض الباطنية والجهاز الهضمي ، وموسى النقاش أستاذ التشريح والجراحة ، ووجيه زين العابدين الذي أصبح طبيباً مثالياً في رعاية المرضى والفقراء . ومن الطالبات أذكر أمة العزيز الزهاوي وكانت ناشطة اجتماعياً وسياسياً وانتقلت إلى أمريكا واستقرت فيها ، ووجيهة خياط التي انتقلت وتخرجت من كلية للطب في سويسرا وعملت طبيبة ممارسة في بعقوبة ثم تزوجت من الأستاذ سامي شوكت ، وأصغيك طوقاتليان وكانت معروفة بأناقتها وخلقها الرفيع .

أما في الدورة الثانية عشرة فأذكر كلاً من عبد اللطيف البدري أستاذ الجراحة وعميد الكلية ورئيس جامعة بغداد ووزير الصحة وهو أول عراقي من الهيأة التدريسية يحصل على شهادة عضوية كلية الجراحين الملكية في لندن ، ولميعة البدري أستاذة الأمراض النسائية والتوليد وعميدة كلية الممرضات ورئيسة الاتحاد النسائي العراقي ورابطة الخريجات الجامعيات ، كما أذكر صديقي المرحوم عبد الوهاب حديد الجراح الأقدم في مستشفى الموصل التعليمي ولم يكن متفوقاً في الكلية بل اكتفى بدرجات النجاح الدنيا وكان كثير المزاح وعمل المقالب على زملائه ومدخناً مفرطاً وهو الذي ناولني أول سيجارة دخنتها في حياتي ، وصديقي الآخر أمين محضر باشي طبيب المختبر وكان هادئ الطبع دائم الابتسام ، وغازي حلمي أخصائي أمراض العيون الذي تحوّل من تعلق بـ «هتلر» إلى إعجاب غير اعتيادي بـ«الإنكليز» وكان يردد مقولة مذيع شهير في محطة راديو بي بي سي من لندن «الغزاوي يحييكم من لندن» وأصبح بعد حركة رشيد عالي الكيلاني موضع ثقة العميد الأستاذ سندرسن وبسبب نشاطه الفاشل مع الجنس اللطيف كان يتحمل الكثير من مقالب أصدقائه ، وسامي محمد يحيى آمر الطبابة العسكرية وقد نال جوائز في الفسيولوجي والطب ، ومن المميزين في هذه الدورة كذلك آمنة صبري مراد مديرة مستشفى الملكة عالية للنساء ، وسيرانوش ريحاني طبيبة النساء المعروفة .

كان الطالب المتفوق في الدورة التي سبقت دورتنا (الثالثة عشرة) يوسف عقراوي وقد حصد الجوائز أسوة بأخيه غانم عقراوي وكان مرجعاً لزملائه في المعلومات الطبية وعازفاً لآلة الجلو في الفرقة الموسيقية وقد نال شهادة الدكتوراه من جامعة أدنبرة في البكتريولوجي وأصبح أستاذاً للباثولوجي وزاملته في عضوية لجان التعليم الطبي العراقية والدولية ، وداود سلمان علي أستاذ أمراض الأذن والأنف والحنجرة الذي كان ينافس زميله يوسف عقراوي بالحصول على الجوائز وتولى في الستينات منصب

عمادة الكلية التي نشطت في إعادة النظر بالمناهج الدراسية وفي اقتباس الأساليب العصرية ثم كان أول رئيس للجامعة المستنصرية في بغداد وقد عرفته منذ أن كنا طلاباً في مدرسة البارودية الابتدائية للبنين وكان يستغل أثناء ما كان طالباً في الكلية كل فرصة ممكنة للتعلم والتدريب العملي وقد أصبح فيما بعد خبيراً بالتعليم الطبي في منظمة الصحة العالمية ، ولمعان أمين زكي أستاذة أمراض الأطفال ومؤسسة مديرية رعاية الأمومة والطفولة ورئيسة مؤسسة لجمعية أطباء الأطفال في العراق والخبيرة في منظمة الصحة العالمية ، وخالد ناجي أستاذ الجراحة الذي أصبح أكثر الأساتذة شعبية لدى طلاب الكلية لعشرات السنوات ، وطالب الاسترابادي أستاذ الفسيولوجي وكان زميلنا في الإقامة الطبية في المستشفى الملكي وعرف باستقامته وحرصه على أداء الواجب ، وداود مسيّح أستاذ التشريح وكان صبوح الوجه دائم الابتسام وفياً لأصدقائه ومحبوباً من تلامذته ، وألبير عباجي وكان بارعا في الرقص والتمثيل وناشطاً اجتماعياً ، وأرتين قنطارجيان أستاذ الأمراض العصبية وكان ينافس زميله فيضي الزهاوي بالغناء الأوبرالي ولكنه عكس زميله لا يميل إلى الرياضة العنيفة ورفع الأثقال ، ونسيم طويق وكنت معجباً بخلقه وعلمه لما كان رئيساً للمقيمين في قسم الأمراض الباطنية ، وعلي غالب ياسين أستاذ التشريح والجراحة وكان رياضياً بارعاً وصديقاً حميماً ذا خلق رفيع محباً للطلاب يتفانى في واجبه التعليمي ، وفاضل يوسف كمال «ثرو» اختصاصي الأشعة الذي عرّفته زميلته لمعان أمين زكي على أدب أوسكار وايلد وبرنارد شو فانغمس بالأدب الإنجليزي وقراءة الأدب الإنكليزي في سنواته الدراسية الأخيرة بدلاً من مذاكرة كتب الطب والجراحة ، وحسين طالب أستاذ الجراحة «السهل الممتنع» كما يقول عنه طلابه الذين يقدرونه الآن بعد تخرجهم ، وأخيراً وليس آخراً المرحوم محمد باقر الجلبي زميلي في الإقامة بقسم الباطنية وكان خلوقاً ومهذباً انصرف فيما بعد إلى السياسة فاعتقل وفقد أثره في الاعتقال .

الفصل الرابع

طلاب الدورة الرابعة عشرة

في الكلية الطبية العراقية

(1946-1940)

سالم فاروق الدملوجي (*)

خلال فترة الدراسة كان سالم الدملوجي من الطلاب المتفوقين والأول على دفعته في السنوات الثانية والرابعة والسادسة ، ونال جوائز الجمعية الطبية العراقية والأستاذ ميلز والبنك الإيراني وجائزتي أمانة العاصمة وملك العراق للخريج الأول عام 1946 . وكان ناشطاً اجتماعياً ومشاركاً في اللجان اللاصفية والموسيقى والرياضة .

وبعد تخرجه عُيّن معيداً في كلية الطب وطبيباً مقيماً في الوحدة الباطنية الثالثة بالمستشفى الملكي التي يرأسها الأستاذ ستيسي . وبعد سنة الإقامة أصبح الطبيب المسؤول عن الردهة الثانية للنساء ، تقدم بعدها في عام 1949 بأطروحة عنوانها «التسمم بالمعادن الثقيلة وعلاجها بعقار Dimercaprol B.A.L» إلى مجلس عمادة الكلية الطبية وأشرف عليها الأساتذة روبرت درو Robert Drew وفتح الله عقراوي ومهدي فوزي . وبعد مناقشتها ونجاحه في الامتحانات النظرية والسريرية والشفهية والباثولوجي منح درجة الدكتوراه في الطب وحصل على لقب الأخصائي في الطب الباطني بعد عامين .

في سنة 1952 أُوفد الدكتور سالم إلى الولايات المتحدة للتدريب والاختصاص في الأمراض الصدرية والباطنية . ولما عاد عُيّن أستاذاً مساعداً من الدرجة الأولى في قسمي فن التداوي والطب الباطني وقام بتدريس فن التداوي والطب السريري (الكلينيكي) ومن بعدها الأمراض الصدرية والباطنية ،النظرية والسريرية ، وعهد إليه إدارة مدرسة الموظفين الصحيين وعمادة كلية طب الأسنان وكالة ورئاسة تحرير مجلة الكلية الطبية . وأنشأ مركزاً لصحة الطلاب في العمادة كما شارك في اللجان المشكلة لتطوير التدريس في الكلية ، ومنها لجنة الأستاذ برادزستون (1961) ولجنة منظمة الصحة العالمية (1968) ، ولجنة تطوير المناهج العلمية للجامعات العراقية ، المشكلة من قبل مجلس قيادة الثورة (1972–1974) .

وقد حصلت ترقيته إلى مرتبة الأستاذ في سنة 1965 ثم عيّن رئيساً لقسم الطب (1973–1976) ولجنة الدراسات العليا في الطب والدبلوم .D.M ، وقام خلالها

(*) جاءت الأسماء المدرجة حسب جدول التخرج (راجع ص 89) .

بالتفاوض مع المسؤولين في كلية الأطباء الملكية في لندن لمشاركة الأساتذة البريطانيين في دورة الإعداد لشهادة كلية الأطباء الملكية في المملكة المتحدة Part I MRCP-UK تمهيداً لتوقيع الاتفاق مع العميد الدكتور تحسين معلة ، والتي أنشئت على إثر ذلك في عهد رئاسته للقسم (1974) ، وحقق فيها الأطباء العراقيون نجاحا باهراً في كافة الدورات التي عقدت ببغداد . ومنحته كلية الأطباء الملكية في لندن على إثرها شهادة الزمالة الفخرية فيها تقديراً لجهوده في تطوير التعليم الطبي في العراق .

هذا وقد ساهم في الفعاليات العلمية فكان نائباً لرئيس اللجنة القومية لمكافحة التدرن في العراق وفي الجمعيات الطبية فكان أميناً عاماً للجمعية الطبية العراقية لدورات عديدة ونائباً لرئيس جمعية مكافحة التدرن العراقية ورئيسا مؤسسا لجمعية أطباء الصدر والقلب العراقية (1968-1980) وعضواً بأول هيأة إدارية في جمعية السرطان العراقية وقام بإعداد خمس دورات تنشيطية للأطباء . وفي المجال الدولي انتخب رئيساً للمجلس التنفيذي للاتحاد الدولي للأمراض الصدرية والتدرن في منطقة شرق البحر المتوسط وعضواً في لجانه العلمية وخبيراً في التدرن والأمراض الصدرية في منظمة الصحة العالمية .

وحين صدر قانون التفرغ الطبي على الهيأة التدريسية (1972) ، وهو القانون الذي يقضي بترك العمل في العيادات الخاصة لصالح التدريس والعمل في المستشفى والانصراف إلى البحوث العلمية (وكان اختيارياً للتدريسيين القدامى) ، كان الدكتور سالم من أوائل الأساتذة الذين تفرغوا علميا فانصرف إلى التدريس والبحث العلمي وألّف كتاباً باللغة الإنجليزية عن التدرن لطلاب الطب والأطباء الممارسين ، ونشر ما لا يقل عن ثمانين بحثاً في المجلات الطبية العراقية والعربية والعالمية في الأمراض الباطنية والصدرية والتسمم بالزئبق ، وعُيّن عضواً في مجلس البحوث الطبية كما انتخب نائباً لرئيس مجلس الجمعيات العلمية في العراق .

بعد إحالته على التقاعد في نهاية عام 1979 انتقل الدكتور سالم الدملوجي إلى دولة الإمارات العربية المتحدة وشغل منصب المستشار الفني لوزير الصحة ورئيساً لقسمي الطب الباطني والأمراض الصدرية في المستشفى المركزي في أبو ظبي ومثّل الدولة في أول اجتماع للمجلس العلمي للاختصاصات الطبية ـ مجلس الطب الباطني والبورد العربي وانتخب رئيساً للمجلس (1981-1983) ثم عمل في عيادة خاصة في أبو ظبي وتقاعد في سنة 2000 .

زملاء شاركتهم مقاعد الدراسة

حسين الأورفه لي

ولد حسين في البصرة وأكمل الدراسة الثانوية فيها ثم انتقل إلى بغداد وقبل في كلية الطب وكان اسمه يتصدر قائمة الطلاب ، لذا كان أول المنادى عليهم في الامتحانات الشفهية ومنه كنا نستطلع بتلهف نوع الأسئلة ومدى تشدد الممتحنين فيجيبنا بهدوئه المعهود مخففا علينا ومهدئاً من روعنا ، ذلك لأنه كان بطبيعته بسيطا هادئاً وطيب القلب والسريرة ولم أره في حالة غضب أو انفعال رغم سنوات طويلة قضيناها بين دراسة وإقامة وعمل في المستشفى وتدريب في قسم الطب .

بعد تخرجه عُيّن الدكتور حسين الأورفه لي مقيما في الردهة الثامنة وتدرب تحت إشراف الأستاذ هاشم الوتري والدكتور شوكت الدهان . وبعد أداءه الخدمة العسكرية عاد إلى نفس الوحدة طبيباً وحصل على شهادة الدكتوراه في الطب من عمادة الكلية الطبية .M.D عام 1945 وتدرج في التدريس ومنح لقب أستاذ مشارك في قسم الطب وكان حريصاً على تدريس طلابه عطوفاً عليهم إلى حد التساهل في محاسبتهم .

وقد طلب إحالته على التقاعد عام 1973 وانصرف إلى العمل في عيادته الخاصة في بغداد حيث كان موضع ثقة مراجعيه ومودتهم .

صلاح تحسين علي

كان طالباً متفوقاً حصد العديد من الجوائز ونال عند التخرج جائزة أستاذ الطب في مادة الطب الباطني . وقد عرف عنه خلال فترة الدراسة بأنه انطوائي يفضل العزلة عن زملاء الصف لا يخالطهم ولا يباشر أحداً منهم بتحية الصباح . ولم يكن له سوى رفيق واحد يسايره أحياناً هو زميلنا سعد الله جردق . ولا أذكر أنني كلمته يوماً أو هو كلمني طيلة فترة الدراسة أو في سنة الإقامة التي قضيناها سوية في دار الأطباء بالمستشفى الملكي . وأتعجب حقاً كيف انتخب بالاقتراع السري ممثلا للصف لدى العمادة في مطلع السنة الأولى وهو البعيد عن زملائه وأبناء صفه .

كان والد صلاح من الشخصيات البارزة في العراق كما كان من المشاركين في الثورة العربية وشغل مناصب هامة في الإدارة وتبوأ منصب الوزارة مرات عديدة وكان

صديقاً لوالدي . ولم أكن أعلم أنه يتتبع أخبار دراستي ومزاحمتي ولده في نيل الدرجات العالية إلا عندما يخبرني والدي بذلك نقلاً عنه .

بعد تخرجه عُيّن صلاح تحسين علي مقيما في فرع الجراحة متدربا تحت إشراف الأستاذ باربر والدكتور نجيب اليعقوبي ، الذي أنهى إقامته بعد أشهر قليلة من البدء بها ، . ويظهر أن انطوائيته وثقته العالية بنفسه وتصرفه مع رؤسائه ومرؤسيه لم تعنه على الاستمرار بالتدريب والعمل مقيماً أقدم في السنة الثانية ، كما كان متبعاً . أنهيت إقامته بعد أشهر قليلة من البدء بها ونقل إلى لواء كربلاء جراحاً في المستشفى ومنها بعد حين إلى القسم الصحي الوقائي في قضاء الكاظمية ، وهي وظيفة لم يسبق أن شغلها طالب متميز وخريج متفوق مثل صلاح تحسين علي ، فقدم استقالته من الوظيفة وسافر إلى الولايات المتحدة (1950) وهناك تخصص بالجراحة العامة وبعدها بجراحة الصدر ومارس الطب في ولاية هاواي سنوات طويلة اكتسب خلالها الجنسية الأمريكية وتزوج وأنجب أولاداً ثم انفصل عن زوجته الأمريكية وقدم إلى العراق في أوائل سني السبعينات دون أولاده .

وفي بغداد لاقيته في دار أخيه عدنان تحسين علي وهو عديلي ، المتزوج من السيدة عادلة أمين زكي شقيقة زوجتي الدكتورة لمعان ، وكان لقاؤنا ودياً شكا لي فيه من الحياة الصعبة التي عاشها في الولايات المتحدة وقال إنه يغبطنا على نعمة الاستقرار العائلي في العراق وإنه يتوق إلى العمل في بلد عربي . وفعلاً انتقل إلى الكويت وعمل جراحاً في مستشفى شركة نفط الكويت بالأحمدي .

وكانت نهايته مأساوية وفي ظروف غامضة إذ وجد مقتولاً في مدينة الكويت إثر انسحاب الجيش العراقي بعد اجتياحه الكويت سنة1991 .

سلمان داود تاج الدين

عرفت المرحوم «السيد سلمان» ، كما كنا نناديه ، أثناء الدراسة بالفرع العلمي في الثانوية المركزية ببغداد . وكان طالباً متميزاً في كافة الدروس ويحوز على أعلى الدرجات ويطلق عليه كسالى الصف لقب «درّاخ» .

وفي الكلية الطبية تدربنا سوية في الردهات الباطنية والجراحية . وكان حريصاً على الدراسة والدوام المنتظم ودقيقاً في تقبل المعلومات وضرورة فهمها بوضوح ، لا يود أن تفوته شاردة أو واردة دون تعليق ، كثير المناقشة يأخذ الجانب الآخر لغرض في

نفسه هو استيعاب تلك المعلومات بالشكل الصحيح . وقد عرفت السيد سلمان أكثر بعد التخرج وعلى مدى سنوات طويلة طبيباً في مستشفى حماية الأطفال وأستاذاً في قسم الطب فكان شخصية محببة لطيف المعشر كثير السهو والنسيان محباً للنكتة خاصة عندما تخصه شخصياً .

بعد التخرج صدر أمر تعيين الدكتور السيد سلمان تاج الدين طبيباً في مديرية الشرطة العامة . وبعد دخوله دورة ضباط الاحتياط ومشاركته في حرب فلسطين عام 1948 طبيباً في الجبهة ، سافر إلى القاهرة حيث حصل على دبلوم التخصص بصحة وأمراض الأطفال ثم إلى بريطانيا ونال شهادة مماثلة من جامعة لندن وعاد إلى بغداد ليعمل طبيباً أخصائياً في مستشفى حماية الأطفال وأستاذاً مساعداً من الدرجة الثانية سنة 1956 في الكلية الطبية . وكان يعمل ليل نهار بلا هوادة في المستشفى وعيادته الخاصة حيث اكتسب احترام زملائه وحب تلامذته وتعلق المراجعين الأطفال الكثر به .

أما في المجال العلمي فقد انصرف الدكتور سلمان إلى تتبع الحالات المرضية المختلفة التي كان يعالجها وينشر بحوثه عنها . وقد أثمرت جهوده ومثابرته في البحث لإثبات وجود مرض «كالاأزار» في العراق وينشر أول وقعة مرضية بالاشتراك مع المرحوم الدكتور خليل إبراهيم عاكف الألوسي وقبل ذلك كانت الفكرة السائدة هي عدم وجود هذا المرض في العراق . ونال بعدها الترقيات العلمية ومنح لقب الأستاذ في طب الأطفال في قسم الطب وجّمع قبل وفاته مقالاته العديدة في كتاب أسماه «The Collected Papers» وزعه على زملائه أطباء الأطفال وأعضاء قسم الطب في الكلية .

قضى المرحوم سلمان إثر حادثة سيارة مأسوفاً عليه من زملائه وتلامذته وعارفي فضله .

صادق جعفر الهلالي

حصل صادق الهلالي بعد إكماله الدراسة الثانوية على إيفاد ضمن البعثة الحكومية للدراسة في أوروبا والتحق بمدرسة اللغات «الميتريكوليشن» ببغداد التي تحضر الطلاب للدراسة في الجامعات والكليات الغربية . ولما ألغت الوزارة إيفاد الطلاب بسبب ظروف الحرب قدم صادق بعد إكماله السنة التحضيرية طلباً للدراسة

في الكلية الطبية فقبل في دورتنا وعرفناه طالباً مجداً ومثابراً يحرص على الدوام والدراسة . وقد أعجب إعجاباً كبيراً بأستاذنا المصري في مادة الفسيولوجي الدكتور محمد طلعت وشغف بعلم الفسيولوجي فلم ينقطع عن مراجعة الشعبة بعد نجاحنا إلى الصف الثالث فكان خلال السنين التالية يداوم في القسم في أوقات فراغه متبرعاً لمساعدة الطلاب في التجارب العملية بالمختبر وكان يجد متعة كبيرة في ذلك .

بعد التخرج عُيِّن الدكتور صادق في مديرية الخدمات الطبية وعمل بعدها لفترة محدودة في قسم الفسيولوجي بإشراف الدكتور محمد علي عبد الفتاح ثم التحق بالأستاذ محمد طلعت بجامعة القاهرة وحصل على الدبلوم العالي في الفسيولوجي ومنحته على إثرها منظمة الصحة العالمية إيفاداً إلى المملكة المتحدة للدراسة في جامعاتها فنال شهادة الدكتوراه في الفسيولوجي سنة 1954 .

ولما عاد الدكتور صادق إلى بغداد 1955 عُيِّن أستاذاً مساعداً في قسم الفسيولوجي وخلال السنوات التي قضاها في القسم اكتسب القسم بجهوده وزملائه الدكاترة فيصل صبيح نشأت وداود الصانع وجيروم أوفي وأحمد نصر الله سمعة تدريسية محمودة . وبعد ثورة 14 تموز عُيِّن معاوناً لعميد الكلية الطبية الدكتور أحمد عزة القيسي وألف كتاباً عن فسيولوجي الأعصاب كما انتخب رئيساً للجمعية الطبية العراقية 1959 ونظم أول مؤتمر طبي عراقي حضره الزعيم عبد الكريم قاسم .

وقد تنقل الدكتور صادق بعد تركه القسم سنة 1978 في مناصب تدريسية خارج العراق فكان أستاذاً للفسيولوجي في الجامعة الأردنية وفي المملكة العربية السعودية ونايجيريا وخبيراً بالتعليم الطبي بمنظمة الصحة العالمية في الاسكندرية وعكف على تأليف عدد من المعاجم في العلوم الطبية الأساسية وشارك في لجان تعريب المصطلحات الطبية .

محمد ياسين أمين آغا

أمين آغا ، كما كان يناديه مسجل الحضور قبل بدء محاضرات الأساتذة ، قدم من الموصل وبدا لنا شاباً دون الوسط طولاً ، محافظاً في مظهره وتصرفاته ولهجته الموصلية ، لطيف المعشر دؤوبا على الدراسة والتحصيل . وفي السنوات المتقدمة نال ثقة الأستاذ هاشم الوتري فقد أظهر ولعاً بالأمراض العصبية وكنا نتوقع ، وقد تخرج ضمن العشرة الأوائل أن يرشحه الأستاذ للعمل معه بشعبة أمراض الأعصاب إلا

أنه ، وبعد أدائه خدمة الاحتياط ، التحق بالمستشفى الملكي في الموصل طبيباً عاماً وزاول المهنة في عيادته الخاصة كذلك . وكانت سمعته العلمية واستقامته قد جعلته من مشاهيرً الأطباء في ذلك اللواء .

سالم فتحي الصايغ

سالم القادم هو الآخر من الموصل كان من الزملاء الذين نطلق عليهم لقب «درّاخ» لكثرة ما يقرأ ويراجع ويطيل التدقيق في المعلومات التفصيلية والحروف الصغيرة أسفل فقرات الكتب . وكان وزميلنا سليم دلالي متلازمين لم يفترقا في كافة مراحل الدراسة في الكلية .

وبعد تخرجه ، ولكونه من العشرة الأوائل ، صدر أمر تعيينه في المستشفى الملكي مقيماً بقسم الجراحة . ثم تنقل في المدن العراقية لكنه ما لبث أن شد الرحال إلى الولايات المتحدة حيث تخصص بالجراحة وعمل في مستشفيات أورلينز طبيباً وباحثاً . وسوف لن أنسى مدى فخري واعتزازي بزميلي سالم الصايغ عندما قرأت اسمه في نشرة «رويترز» اليومية ، وأنا في نادي الجزيرة بالقاهرة سنة 1961 ، وجاء فيها أنه نجح بربط حيوان بجهاز اصطناعي يعمل بدلاً من القلب فدخل اسمه ضمن رواد عمليات القلب الأوائل . وقد دعوناه إلى بغداد لحضور الاجتماع الذهبي سنة 1996 ، لمناسبة مرور خمسين عاماً على تخرجنا من كلية الطب العراقية في مبنى نقابة الأطباء ببغداد ، فاعتذر وأبلغنا أنه قد تقاعد عن العمل بعد بلوغه السن القانونية .

أنيس جميل عبد الكريم (رسام)

وأنيس قدم أيضاً من الموصل وكان ذا طبع هادئ وخلق كريم وميل للدعابة . نُسّب بعد تخرجه للعمل في الطبابة العسكرية ولكنه عمل في الناصرية طبيباً عاماً ، وخلال التحاقه بالدورة العاشرة غير المسلحة في الجيش العراقي اشترك في حركات بارزان وبقي طبيباً في ناحية شقلاوة في لواء أربيل حتى سنة 1952 عندما حصل على زمالة بالأشعة في جامعة «ديوك Duke University» بالولايات المتحدة لفترة سنتين اكتسب فيها خبرة واسعة في مجال اختصاصه عاد بعدها إلى الموصل طبيباً أخصائياً وما لبث أن نقل إلى العاصمة بغداد ليعمل في أكثر من مستشفى حكومي

كان آخرها مستشفى اليرموك واستقال من الوظيفة وعمل في عيادته الخاصة بالتشخيص الشعاعي ويعتبر من الثقاة في مجال اختصاصه .

جميل رؤوف حداد

جميل كان شاباً مرحاً يميل إلى إطلاق النكات ويبدو على الدوام أنيقاً مرتباً ومنظماً وكراساته مكتوبة بخط واضح . وهو وإن لم يكن متفوقاً في الدروس إلا إنه لم يصادف أية عقبة تعيقه بالامتحانات . وقد كان ضمن المجموعة التي ضمتني في تدريبنا السريري بالصف الخامس في المواد الفرعية الطبية .

وكنا نمزح معه كثيراً خاصة عندما علمنا بأن له ولعاً خاصاً بقراءة علم النفس والحياة الجنسية في كلا الذكور والإناث . وبعد سنوات قليلة من تخرجه توجه إلى الولايات المتحدة وتخصص بعلم الأمراض «الباثولوجي» وعمل في مستشفى في مدينة نيويورك .

مهدي مرتضى (الصيدلي)

كان اسم عائلته الصيدلي أثناء الدراسة ولكنه رفع اللقب فيما بعد وأصبح معروفاً لدى الجميع باسمه الحالي دون الصيدلي . وكان مهدي ولا يزال متصفاً بالنشاط والحيوية فاعلاً اجتماعياً صريحاً في أقواله ومبادئه وقد رافقته منذ أن كنا طلابا في الدراسة الثانوية ثم في الكلية الطبية والإقامة ، وبعد زمن تزاملنا تدريسيين في قسم الطب الباطني .

بعد تخرجه صدر أمر تعيين مهدي في مسقط رأسه مدينة كربلاء ولما أنهى خدمة الاحتياط نُسّب مقيماً في الردهة التاسعة بإشراف الأستاذ مهدي فوزي والدكتور عادل دوغرامه جي . وعند انتهاء سنتي الإقامة في المستشفى الملكي سافر إلى الولايات المتحدة للتخصص بالطب الباطني فالتحق بدورة في مستشفى «بيل فيو» الشهير في نيويورك ومنح شهادة الدبلوم انتقل بعدها إلى مستشفى في «نيو أورليانز» ثم عاد إلى العراق وعُيّن طبيباً في مستشفى الكرخ مساعداً للدكتور خليل المصفي . ولم يطل المقام به طويلاً في العراق فعاد إلى الولايات المتحدة والتحق بجامعة «تولين Tulane» مدرساً للطب فيها ونال درجة الماجستير قبل عودته الأخيرة للوطن عام 1956 وليقبل يوم ذاك منصب مدرس لمادة الفسيولوجي والصحة العامة في

كلية الملكة عالية (كلية البنات سابقاً) وليس في كلية الطب ، ربما بسبب اتجاهاته اليسارية . لكنه ، بعد ثورة 14 تموز 1958 ، نقل إلى ملاك كلية الطب مدرساً في قسم الطب الباطني وقد أبدى كفاءة عالية في مجال الممارسة الطبية والتدريس .

كان للأفكار السياسية التي اعتنقها الدكتور مهدي ، التي لم يكن يتردد بالجهر بها ، دور في تنقله الوظيفي ، فقد فصل من وظيفته بعد ثورة 14 رمضان 1963 لكنه عاد إلى الكلية في سنة 1969 علما بأنه كان مدرساً متصفاً بالجدية والاستقامة والحرص على رفع المستوى التدريسي ومشاركا في وضع مناهج الدراسات العليا في القسم مستنداً إلى خبرته التعليمية الواسعة .

ويذكر لزميلنا الدكتور مهدي تمسكه بالنظام وحرصه على أن تكون المناقشات في الاجتماعات والندوات أصولية . وقد غمزه معارضوه بالرأي في اجتماع انتخابي عاصف لنقابة الأطباء جرى في أوائل الستينات ، لأنه اعترض على الفوضى والهرج ونادى بضرورة اتباع مبدأ «روبرت» لدى المناقشة . فاعتبروا ذلك الطلب نوعاً من التساهل أو «العمالة» للغربيين ، ربما لأنهم لم يكونوا قد سمعوا بمبدأ «روبرت» المتبع على النطاق العالمي أو لأن «روبرت» كان رجلاً من الغرب كما هو ظاهر من اسمه .

عبد الأمير عبد الكريم

صاحب شخصية فذّة ومميزة . قصير القامة كبيـــر الرأس يشبـــه الممثل القدير (Edward G. Robinson) وضع رســمــه الكاريكاتوري ، حين كنا طلاباً في الصف الرابع ، على غلاف أحد أعداد النشرة التي كان يقوم بتحريرها زملاؤنا صادق الهلالي ومهدي مرتضى ورضا عجينة .

كان عبد الأمير ذا ذهنية متوقدة قليل الكلام (بصوت مبحوح) وإذا تكلم وجدته ظريفاً وصريحاً وقد دخل في صلب الموضوع . كان يساري النزعة وإن لم يجاهر بذلك علناً ، غير أنه فاجأ الحاضرين في حفلة الجمعية الطبية التي أقامتها لتكريم خريجي دورتنا بآرائه الجريئة وانتقاده أسلوب عمل الوزارة .

تنقل عبد الأمير وظيفياً بعد تخرجه في مختلف نواحي وأقضية العراق لسنوات طويلة ثم عمل في شركة نفط كركوك ممارساً عاماً . وبعد أن نال بعثة للتخصص في التخدير في كوبنهاكن (الدانمارك) وحصوله على دبلوم التخدير استقر به الحال في بغداد ومارس اختصاصه باقتدار في مستشفياتها المختلفة مثل مستشفى الكاظمية

ومستشفى اليرموك ومستشفى التويثة ومدينة الثورة . وبقي في الخدمة حتى تقاعده في أواسط عقد الثمانينات .

سليم جميل دلالي

كنت والمرحوم سليم صديقين منذ تعارفنا على مقاعد الدراسة بالصف الأول في المدرسة الغربية المتوسطة ثم في الثانوية المركزية وكلية الطب وأخيراً لما شاركنا زميلنا الثالث فكتور زعرور غرفة واحدة بدار الأطباء المقيمين في المستشفى الملكي ببغداد .

وسليم من عائلة مسيحية مرموقة بالموصل . كان والده الدكتور جميل دلالي من دعاة القومية العربية والوحدة العراقية (كان عضواً في حزب الاستقلال بالموصل ونشيطاً في الاستفتاء الذي أكّد انضمام لواء الموصل إلى المملكة العراقية سنة 1924) . تخصص بأمراض الأذن والأنف والحنجرة بعد تخرجه من كلية طب الجامعة الأمريكية في بيروت وعُيّن أستاذاً بالكلية الطبية ، غير أنه نقل إلى مستشفى الكرخ بعد ثورة رشيد عالي الكيلاني سنة 1941 لميوله القومية الوطنية . وقد نشأ سليم على مبادئ والده في حب العراق ومبادئ العروبة .

كان سليم دلالي وديعاً بطبعه صريحاً بأفكاره جريئاً بتصرفاته ولكنه كان شديداً على من يخرج على إجماع الزملاء في الصف . وكان يهوى عمل المقالب على أصدقائه الذين لم يغضبوا لعلمهم حسن نواياه وطيبة قلبه .

بعد التخرج اختار سليم العمل في شعبة الأمراض النسائية والتوليد وكان ماهراً في عمله . وفي سنة 1951 توجه إلى الولايات المتحدة للاختصاص في مستشفياتها . وقابلته في نيويورك يوم ذاك وكان قد بدأ المشوار الطويل بالتخصص بالأمراض النسائية والتوليد الذي استمر عندما انتقل إلى ولاية كاليفورنيا وعمل في مستشفياتها الكبرى ، حيث أصاب نجاحاً واسعاً في عيادته الخاصة ، وكان قد كوّن خلالها عائلة صغيرة ضمت ولده الوحيد جميل الذي أصبح بدوره طبيباً مقتفياً طريق جده وأبيه .

وفي كاليفورنيا زاول سليم نشاطه القومي فأسس وترأس الجمعية العربية لأطباء الأمراض النسائية والتوليد في كاليفورنيا التي نشطت بالدفاع عن القضايا العربية . وزار العراق عدداً من المرات خلال الحرب العراقية - الإيرانية (1979-1988) حيث قوبل بحفاوة من قبل السلطات الحكومية في بغداد .

وفي سنواته الأخيرة أصيب سليم بخذلان وظائف الكليتين مما استوجب علاجه فترة طويلة ، أجريت له خلالها عمليتا نقل الكلى غير أنه انتقل إلى رحمة الله تعالى في سنة 1995 بعد فشل عمل الكلية المنقولة الثانية .

عبد العزيز محمود شكري

بعد إكماله الدراسة المتوسطة انتمى «عزيز» إلى المدرسة الثانوية العسكرية في السنة الأولى لإنشائها . وبعد نجاحه من الصف الأول انتقل إلى المدرسة الثانوية المركزية طالباً في الصف الخامس وأصبحنا زملاء في الشعبة (ج) العلمي ، كما عينته إدارة المدرسة «مراقباً» للصف . واستمرت زمالتنا في الكلية الطبية وسنة الإقامة في المستشفى الملكي وأخيراً في هيئة التدريس بالكلية الطبية سنوات طويلة بعدها .

كان عزيز طالباً مجداً ومجتهداً ينال أعلى الدرجات في الامتحانات . وكما ذكرت في سياق هذه السيرة فقد حصل على ثاني أعلى درجة في امتحان الكيمياء بالفصل الأول من السنة الأولى ، بعد زميلنا صلاح تحسين علي ونلت أنا المرتبة الثالثة . وفي الامتحانات النهائية للصف المنتهي كان ترتيبه الثاني بالنسبة لمجموع الدرجات عند التخرج ونال جائزة الطالب المتفوق في الجراحة . وخلال دراستنا الطبية ، عملت وعزيز سوية في المختبرات في الصف الأول وعلى مائدة التشريح بالصف الثاني وبالردهات الباطنية والجراحية في الصف الثالث وأذكر مهارته في التشريح بصفة خاصة . وكان عزيز علاوة على تفوقه الدراسي رياضياً ماهراً يشارك في الفعاليات الرياضية ومنها كرة السلة وكرة الطائرة والتنس وركض المسافات القصيرة .

رغب عزيز ، وقد أعجب أسوة بمعظم طلاب صفنا بأستاذنا الميجر دوغلاس أستاذ الجراحة ، أن يكون جراحاً فأولى الموضوع اهتماماً فائقاً . وعُيّن طبيباً مقيماً في الردهتين 12 و13 بإشراف الأستاذ الميجر روجرز ، الذي يشرف على التدريس والعمل فيهما . وأثبت خلال إقامته في تلك الوحدة ، والتي دامت خمس سنوات ، كفاءة عالية نالت تقدير رؤسائه وحصل خلالها (سنة 1948) على شهادة ماجستير في الجراحة .

وبعد أدائه الخدمة العسكرية عمل خارج بغداد لبعض الوقت ثم سافر إلى بريطانيا وعمل في مستشفياتها الكبرى وقدم لامتحان عضوية كليات الجراحة الملكية

فحصل عليها من لندن ومن أدنبرة بعد فترة وجيزة من وصوله إلى بريطانيا . ولما عاد إلى العراق (1953) عُيِّن جراحاً أخصائياً في مستشفى الفرات الأوسط ثم نقل إلى مستشفى الكرخ الملكي مسؤولا عن القسم الجراحي فيها .

وفي سنة 1959 صدر أمر نقل عزيز محمود شكري إلى الكلية الطبية أستاذاً مساعداً في الجراحة العامة فكان أبرز الجراحين الشبان ومن خيرة المعلمين . وفي عيادته الخاصة نال شهرة واسعة لمهارته وحسن أخلاقه .

نشط عزيز في الجمعية الطبية العراقية وانتخب رئيساً لها للسنوات 1961-1967 . وفي الكلية الطبية منح لقب أستاذ مشارك في كانون الأول (ديسمبر) 1965 ورقي إلى رتبة أستاذ في الجراحة (1966) . وعُيِّن رئيساً للقسم ثم مسؤولاً عن الدراسات العليا في الكلية ورئيساً لتحرير مجلة كلية الطب العراقية ومستشاراً في وزارة التعليم العالي للشؤون الطبية . ولا يزال يمارس اختصاصه والتدريس إلى وقت إعداد هذا الكتاب .

تزوج عزيز من زميلة الدراسة ماركريت فتح الله كساب

ماركريت فتح الله كساب

كان عدد الفتيات زميلاتنا في الصف تسعاً بضمنهن «مس كساب» كما كنا نناديها . وقد رقن قيد سبع منهن في نهاية السنة الأولى وتركت الثامنة الدراسة في الكلية في مطلع السنة الثانية وبقيت المس كساب الطالبة الوحيدة في الصف حتى تخرجنا من الكلية في سنة 1946 .

وماركريت هي من عائلة موصلية معروفة وكانت فتاة محافظة وذكية كسبت احترام وود زملائنا في الصف ونالت في الامتحانات النهائية جائزة أستاذ الأمراض النسائية والتوليد وصدر على إثر تخرجها أمر تعيينها طبيبة مقيمة في قسم الأمراض النسائية والتوليد بالمستشفى الملكي . واكتسبت خلال الإقامة ، التي دامت سنتين ، الخبرة العملية وعُيِّنت مديرة لمدرسة الممرضات .

وفي سنة 1952 منحت إجازة دراسية لمدة سنتين في إنكلترا لتتبع وإكمال دراستها التحقت خلالها بالمستشفيات الكبرى في بريطانيا وحصلت من كلية المولِّدين في لندن على دبلوم الأمراض النسائية والتوليد . وهناك تزوجت الدكتورة ماركريت من زميلنا الدكتور عزيز محمود شكري .

وعند عودتها لم تنتم إلى سلك التدريس بل انصرفت إلى ممارسة اختصاصها في مستشفى الكرخ ببغداد ثم مستشفيات الولادة وعملت في الردهات النسائية في المستشفى التعليمي وكانت طبيبة ماهرة وذاعت شهرتها في عيادتها الخاصة .

خالد عبد العزيز القصاب

تلاقيت وخالد القصاب وأنا في الصف الأول في كلية الطب ، علماً بأني كنت أعرفه طالباً في الثانوية المركزية درس في الشعبة العلمية التي تعلم اللغة الفرنسية لغة أجنبية ثانية بينما انتميت أنا إلى الشعبة التي تعلم الألمانية .

كان خالد في سنوات دراستنا في الكلية الطبية شاباً نحيفاً طويل القامة جم النشاط ومتعدد الهوايات إضافة إلى كونه طالباً مجداً ومجتهداً . فقد كان رياضيا يلعب التنس ويرمي الثقل ويجر الحبل كما كان فنانا يمارس الرسم بالألوان المائية ومحباً للموسيقى الغربية واجتماعياً يشارك في السفرات المدرسية . وكان طليق اللسان وربما اكتسب روح الفكاهة بالوراثة من خاله المرحوم نوري ثابت صاحب جريدة «حبزبوز» الهزلية . كل تلك الصفات قربتني من خالد ، فكنا في الدروس السريرية ضمن مجموعة واحدة طيلة السنوات الثلاث الأخيرة . وقد توثقت صداقتنا عبر السنين الطويلة منذ أن كنا طلاباً ناشئين(*) .

(*) من طريف الذكريات أن أحد المستطرقين إلى مطعم الكلية لطش معطف خالد القصاب (1943) وخفف صديقنا لجدة فتحي صفوة ، الطالب في كلية الحقوق ، لوعة خالد بقصيدة نشرت في جريدة الحوادث بعنوان «فجيعة في معطف– لسان حال الصديق خالد» :

يا معطفاً قــــد خانـنــــي	أي عـــذابٍ سامنـــــي
عفت البكامنذ الصبـــــا	وإذ بـــه قــد عادنــــي
يا مـن رأيت معطفــــي	ومعطفــي قـــد شاقنــي
فحيّـــــه مبلغـــــاً	إيــــاه مـــا أصابنــي
هــــذا الشتـــاء قــارس	وبــــرده قـــد أعاقنـــي
أمـــا رأيــت ذا الـــورى	قـــد هـــزهم ما أصابنــي
ليــــت الــذي يلبســه	يلقـــاه يومـــا دائنـــي
فينبـــري بصفعـــة	تريـــــه مـــا أذاقنـــي

بعد التخرج التحق الدكتور خالد بدورة ضباط الاحتياط الإلزامية العاشرة ثم تطوع للخدمة مع الوفد الطبي لجمعية الهلال الأحمر في اربد ونابلس بفلسطين عام 1948 ونال نوط الهلال الأحمر لخدماته أثناء معركة جنين التي سجل فيها الجيش العراقي نصراً بقيادة القائد عمر علي . وعند عودته من فلسطين عُيِّن في المستشفى الملكي ببغداد جراحا مساعداً للأستاذ ولفرد باربر والدكتور سلمان فائق واكتسب خلال عمله معهما في تلك الوحدة خبرة واسعة أهلته فيما بعد للعمل في المستشفيات البريطانية والحصول على شهادة عضوية كلية الجراحين الملكية في لندن (1954) وعاد إلى بغداد سنة 1955 .

ولما عاد الدكتور خالد إلى العراق في السنة التالية صدر أمر تعيينه جراحاً أخصائياً وأستاذاً مساعداً من الدرجة الثانية في قسم الجراحة فكان مدرساً مثالياً لطلابه ومعلما ماهرا لمساعديه الأطباء الأحداث . وقد نال فيما بعد مرتبة الأستاذية بعد نشره بحوث أصيلة في المجلات الطبية العالمية وانتخب رئيساً لقسم الجراحة في كلية الطب . وعند استحداث الدراسات العليا في كلية الطب كان الأستاذ خالد مسؤولاً عن الدراسات العليا في الكلية .

وفي عمله الجراحي انصب اهتمام الدكتور خالد على الأمراض السرطانية وعلاجها جراحياً ، وقد أوفدته الدولة إلى الولايات المتحدة الأمريكية لغرض الاطلاع على آخر التطورات العلمية في مجال اختصاصه وصار يحضر المؤتمرات الدولية في العراق والخارج فيما كان الرئيس المؤسس لجمعية السرطان العراقية عام 1969 ونائباً لرئيس مجلس السرطان في وزارة الصحة . وفي مجال التعليم الطبي اشترك الدكتور القصاب بوضع المناهج التفصيلية للجراحة لطلاب الطب ودورات الدبلوم الاختصاصية وكليات بريطانيا الملكية للجراحين . وعلى الرغم من انقطاعه عن التدريس بعد إحالته على التقاعد عام 1979 فإن علاقته في مجال الأمراض السرطانية و وبائيتها في العراق استمرت من خلال جمعية السرطان العراقية ودعوته للمشاركة في فعاليات اللجان الوزارية المختصة .

وقد سطع اسم خالد القصاب في عالم الرسم فكان عضواً مؤسساً في جماعة الرواد (1950) وجمعية الفنانين العراقيين التشكيليين (1956) ، ومشاركاً في المعارض الفنية في العراق والبلاد العربية . وانتخب رئيساً لجمعية الفنانين العراقية سنوات عديدة .

حمزة إبراهيم منيب

كان حمزة زميلاً لنا أيضاً في الدراسة الثانوية وكلية الطب ، وكان يجمع في شخصيته بين الجد والمرح وكانت قصصه ونكاته تخفف عنا الإرهاق الذي كابدناه من جراء الدراسة الشاقة والحر الشديد في قاعة التشريح الكبرى في صيف 1942 اللاهب حين لم نملك من وسائل التبريد غير المراوح السقفية .

وكان حمزة أمهرنا بالتشريح وقد نال جائزة الأستاذ في امتحان الصف الثاني لبراعته وإلمامه الواسع بالمادة ، لذا اختار حمزة بعد التخرج التخصص بالجراحة . فبعد أن عمل طبيباً في بعقوبة انتقل إلى الولايات المتحدة وعمل في مستشفياتها جراحاً وحصل على البورد الأمريكي في الجراحة العامة واستقر فيها ولا يزال .

عبد الصمد نعمان الأعظمي

بعد إنهائه الدراسة الثانوية (الفرع العلمي) قبل زميلنا عبد الصمد في كلية الحقوق وداوم فيها واجتاز الامتحانات اللازمة ونجح إلى الصف الثالث . وبدلاً من الاستمرار بالدراسة فيها قرر التقدم إلى الكلية الطبية فقبل في دورتنا . وقد وجدناه زميلاً مهذباً ومثقفاً وطيب القلب يميل إلى المجادلة و الأخذ بالرأي الآخر بمنطق سليم لذا كنا نمازحه قائلين إن مهنة المحاماة خسرته كما ستخسره مهنة الطب في المستقبل وكان يضحك بصوت عال ويسخر من أقوالنا . وقد عرف بأنه من زمرة الطلبة اليساريين في الكلية .

كان عبد الصمد ضمن المجموعة الصغيرة التي ضمتني وإياه وعزيز محمود شكري وحمزة منيب على طاولة التشريح في الصف الثاني . وكان هو يكتفي بالمشاهدة معظم الوقت تاركاً عملية التشريح إلى زميلنا حمزة منيب ومكتفياً بالمشاهدة . وكان يتبجح ويدّعي أمامنا أنه لا يراجع الدروس ولا يعير الدروس العملية اهتماماً ، لكنه مع ذلك كان يحصل في الامتحانات على نتائج جيدة ليس بالتشريح فحسب بل وفي كافة الدروس في السنوات اللاحقة الأمر الذي يفضح مكابرته .

بعد تخرجه عمل عبد الصمد في مجال الأمراض الصدرية طبيباً في مستشفى التويثة ولكنه استقال وانصرف إلى العمل في عيادة خاصة به في الأعظمية وبغداد ونال ثقة مراجعيه وعوائلهم .

طارق جعفر الباجه جي

ينحدر طارق من عائلة ثرية في بغداد ولم يصادف أية صعوبة خلال دراسته الطبية فتخرج عام 1946 وعُيّن طبيباً في مديرية الشرطة العامة والتحق بدورة في الولايات المتحدة للاختصاص في الأمراض الصدرية والتدرن عام 1958 عاد بعدها ليعمل طبيباً في السليمانية وتقاعد عام 1969 . هذا ولم يزاول الدكتور طارق الطب كمهنة حرة بل انصرف لإدارة أعماله وأملاكه .

عبد الفتاح ناجي

كان عبد الفتاح طالباً هادئ الطبع ولطيف المعشر ، يتكلم بصوت واطئ . وبعد تخرجه طبيباً عام 1946 اختار موضوع الباثولوجي لاختصاصه فالتحق بجامعة نيويورك للتدريب والعمل وعاد إلى العراق سنة 1958 بعد ثورة 14 تموز وصدر أمر تعيينه مديراً لمعهد الباثولوجي المركزي وأدخل الكثير من التقنيات الحديثة فيه . وكان كثير الاتصال بالأقسام الجراحية والباطنية خلال عمله في المعهد ويساهم في الجلسات العلمية والسريرية للأقسام المختلفة ويشارك في فعالياتها العلمية وفي مناقشاتها .

وخلال بقائه القصير في العراق انتخب الدكتور عبد الفتاح ناجي رئيساً للجمعية الطبية العراقية سنة 1961 ، إلا أنه ما لبث أن عاد إلى الولايات المتحدة ليعمل في مستشفيات مدينتي كليفلاند ونيويورك وقد زار العراق مراراً خلال العقود الثلاثة الماضية .

مصطفى إبراهيم أدهم

درس مصطفى إبراهيم أدهم معنا في الثانوية المركزية ببغداد لكنه اختار الانتساب إلى الشعبة العلمية التي تدرس الفرنسية لغة ثانية . والتقينا على مقاعد الدراسة بعد تخرجنا من الثانوية في الكلية الطبية . وكانت معرفتي به قليلة في السنين الأولى إلا أنني وخالد القصاب ومصطفى وجورج أوسي وجيروم أوفي وجميل رؤوف حداد وتامي نعوم صخريا اجتمعنا في الدروس الفرعية في الصف الخامس مجموعة واحدة للتدريب السريري في العيادات الخارجية . ولتقارب مستوانا العلمي وتفاهمنا شكلنا خالد ومصطفى وأنا مجموعتنا الخاصة للتدريب العملي في المستشفيات في الصف السادس

(الستاج) . وخلالها توطدت الصداقة مع مصطفى وكنا ندرس سوية في بيت أحدنا أو فرادى . واستمرت صداقتنا في أيام الإقامة بالمستشفى الملكي وبعد ذلك لسنوات طويلة وحتى بعد مغادرته العراق إلى الولايات المتحدة .

كان مصطفى شاباً وسيماً وأنيقاً كثير الاعتناء بمظهره وكان مثقفاً يطالع الكتب الأدبية العالمية ويهوى الموسيقى الغربية الكلاسيكية ويحتفظ بمجموعة كبيرة من الأسطوانات الغربية ويعزف على الفيولا في الفرقة التي ضمته وغانم عقراوي ويوسف عقراوي وسامي الشيخ قاسم . على أن مصطفى كان بالرغم من مجاملته زملاءنا الطلاب ، لا يقيم علاقات وطيدة وصداقة إلا مع من يتفق ومزاجه وأفكاره .

وفي مجال الدراسة كان يحصل على نتائج جيدة وقد جلب انتباه الأستاذ باربر أستاذ الجراحة الذي أولاه عناية خاصة ومنحه جائزة الطالب المتفوق في الجراحة السريرية واختاره بعد تخرجه مقيماً في وحدته . وفي نهاية السنة الأولى للإقامة تقدم لامتحان الماجستير بالجراحة ونال الشهادة التي أهلته للحصول على الاختصاص فيما بعد . وقد حصل على إعفاء من الخدمة العسكرية فنقل إلى كربلاء ليعمل فيها جراحاً . ولم يلبث فيها طويلاً إذ حصل على إقامة في إحدى مستشفيات الولايات المتحدة فسافر سنة 1952 وانقطعت أخباره عنا ولم يزر العراق إلا مرة واحدة لفترة قصيرة جداً سنة 1956 .

وعلمنا من ذويه أنه عمل جراحاً في إحدى مستشفيات مدينة بوسطن بشرق الولايات المتحدة .

يونس مجيد سعيد

كان يونس طالباً مجتهداً هادئ الطبع وكان ضمن الطلاب العشرة الأوائل عند التخرج فاختار العمل في شعبة الأذن والأنف والحنجرة مقيماً ثم مساعداً للدكتور قاسم البزركان اكتسب خلاله خبرة في مجال اختصاصه . وما لبث أن حصل على إقامة في إحدى مستشفيات مدينة بوسطن في الولايات المتحدة الأمريكية فترك العراق عام 1952 واستقر فيها ومنها انتقل إلى ولاية كاليفورنيا وعمل طبيباً في مجموعة طبية رأس شعبة الأذن والحنجرة فيها . واستمر في العمل حتى تقاعده عام 1989 فاستقر مع عائلته في إحدى نواحي سان فرانسيسكو . والدكتور يونس متعلق بوطنه العراق ويزور الأهل في بغداد والموصل بين فترة وأخرى .

أحمد مصطفى السلمان

ذكر اسم البصرة يترافق على الدوام في مخيلتي مع زميلي أحمد مصطفى السلمان ، فهو ابن البصرة وشبيهها باللطف والدعة ودماثة الخلق والاعتدال والتسامح ، وكلها صفات عرف بها البصريون عبر الأجيال . كان دائم الابتسام ضحوكاً ومنشرح النفس مرحاً يرد تحية زميله بتحية أجمل ويداعب الجميع بلطف وأدب . ولا عجب فهو من عائلة عريقة في البصرة الفيحاء وكان لوالده دور وطني مميز خلال فترة تأسيس الحكومة العراقية في عقد العشرينات وما بعدها .

بعد تخرجه في الكلية في سنة 1946 غادرنا أحمد إلى البصرة وبعدها توجه إلى بريطانيا وعمل في مستشفياتها وحصل على شهادة زمالة كلية الجراحين الملكية FRCS من أدنبرة وعاد للبصرة جراحاً أخصائياً في المستشفى وأستاذاً للجراحة في كلية طب البصرة وكان من أساطين فريق التدريس في تلك الكلية .

حسّان الراوي

ولد حسان في راوة وكان هادئ الطبع قليل الكلام . وبعد تخرجه عُيّن في مديرية الصحة العامة طبيباً في العزيزية فالسليمانية ومنصورية الجبل ثم نقل إلى مستوصف المشاهدة بجانب الكرخ ، آثر بعد قضاء سبع سنوات فيه الاستقالة والعمل في عيادة خاصة به كان يؤمها كثير من المراجعين .

جيروم أوفي

ناداه الأستاذ شوكت بك الزهاوي «جاروم» بدلا من جيروم ، وقلدنا بدورنا أستاذنا فكنا نلاطفه في مجموعتنا ونحن طلاب بالصف الرابع والخامس ونبدي له إعجابنا بأناقته ورشاقته وربطات العنق التي يقتنيها من أغلى مخازن بغداد . وكان اجتماعياً ومحط أنظار الجنس اللطيف من عوائل الطائفة المسيحية ومع هذا بقي عازباً فترة طويلة إلى أن وجد ضالته المنشودة وهو يناهز الخمسين .

بعد تخرجه انضم جيروم إلى سلك التدريس في قسم الفسيولوجي وشكّل مع رفاقه صادق الهلالي وفيصل صبيح نشأت وداود الصانع وأحمد نصر الله هيأة للتدريس بقيادة الأستاذ البريطاني Startup . وعملت المجموعة بهمة وجد في ضمان سير التدريس على أكمل وجه وساهمت في تكوين الفكرة العالمية الجيدة عن كلية الطب .

جورج توما أوسي

كان جورج شاباً لطيف المعشر جم الأدب وشديد التدقيق في أعماله وتصرفاته وهي صفات لازمته سنين طويلة بعد تخرجه وأكسبته احترام زملائه والمسؤولين في وزارة الصحة . وقد عُيّن بعد تخرجه وأدائه الخدمة العسكرية الإلزامية طبيباً في بعقوبة . وسرعان ما أوفد إلى القاهرة ضمن وفد طبي سنة 1947 للمساعدة الطبية في السيطرة على وباء الكوليرا الذي اجتاح مصر يوم ذاك .

وقد اكتسب خبرة في أمور الوقاية الصحية وحصل على زمالة للدراسة في جامعة هارفارد الأمريكية والتحق بها سنة 1953 ونال شهادة الماجستير بالصحة العامة عاد بعدها طبيباً لصحة لواء الموصل ثم نقل إلى معهد الأمراض المتوطنة ببغداد خبيراً ثم مديراً لشعبة مكافحة الملاريا . وقد ساهم في تدريس طلبة كلية الطب نظرياً وعملياً في موضوع الصحة العامة والطب الوقائي في السنوات التالية .

وقد طلب إحالته على التقاعد بعد إجرائه عملية إزالة ورم سليم في الدماغ أبلّ منها . إلا أن الوزارة قدرت مواهبه ورفضت طلبه ثم مددت خدمته بعد بلوغه سن التقاعد نظرا للحاجة الماسة إلى خبرته الطويلة في الطب الوقائي .

محمد تاج الدين

زميلنا محمد كان هادئ الطبع وديعاً يتكلم بصوت واطئ قليل الانفعال (على عكس ابن عمه زميلنا السيد سلمان تاج الدين) .

بعد تخرجنا في حزيران 1946 عُيّن طبيباً مقيماً في الرمادي ثم استقال بعد أدائه الخدمة العسكرية وسافر إلى القاهرة والتحق بكلية طب القاهرة وحصل على دبلوم الأمراض النفسية والعصبية ثم توجه إلى بريطانيا وانتمى إلى الدورات التعليمية في مختلف فروع الطب الباطني . وبعد أن فشل في امتحان عضوية كلية الأطباء الملكية تقدم لامتحان الأمراض العصبية فحصل على الدبلوم من جامعة لندن . هذا وقد كرمته كلية الأطباء النفسانيين الملكية في لندن في السنوات الأخيرة فانتخبته عضواً فيها لمكانته العلمية وتطويره إدارة جمعية الأمراض العقلية في العراق ولمكانته العلمية في العراق والخارج .

حاول محمد بعد عودته من بريطانيا الانصراف والعمل في حقل الأمراض العصبية إلا أن وزارة الصحة خيّبت ظنه ورشحته لإدارة مستشفى الشماعية

للأمراض العقلية مديراً وأخصائياً ، فانصرف بكل همة واقتدار لتنظيم المستشفى ونقل المرضى إليه من دار المجانين (في خان كولبنكيان) حيث أن وجودهم فيه كان يثير الحزن والشفقة والعطف . وفي عيادته الخاصة أصبح الدكتور محمد من مشاهير أطباء الأمراض العقلية والنفسية في بغداد .

وبعد اجتماعنا الخمسيني في شتاء 1996 بأشهر قليلة قضى المرحوم الدكتور محمد فجأة إثر حادثة دهس أصابته في أحد شوارع عمّان فراح مأسوفاً عليه وكان فقده خسارة للطب لا تعوّض .

جليل مطلوب

كان جليل من الطلاب المجتهدين أثناء الدراسة ولكنه لم يكن بارزاً بالحصول على الدرجات العالية . وقد لاقيناه في اجتماعنا الخمسيني وقد ازداد وزنه بدرجة مفرطة وأخبرنا أنه افتتح عيادة خاصة بعد تخرجه في الموصل ثم عُيّن طبيباً في الصحة المدرسية في نفس اللواء ومن ثم رئيساً لصحة اللواء (1969) . وكانت آخر وظيفة تسنمها قبل طلبه الإحالة للتقاعد هي مفتش في وزارة الصحة .

فاضل السعيدي

كنت وفاضل السعيدي زملاء في الإعدادية المركزية ببغداد ، وأذكر أنه كان مبرزاً في اللغة العربية وينال أعلى الدرجات عند أستاذنا المرحوم السيد صادق الأعرجي .

وخلال دراستنا في الكلية الطبية عرفته عن كثب طالباً مجتهدًا يتصف بروح مرحة دائم الابتسام وصديقا للجميع . وكان يهوّن على الدوام من صعوبة الامتحانات ويجتازها بسهولة . وبعد تخرجنا سنة 1946 التحق بالدورة العسكرية ثم عُيّن طبيباً في الصحة المدرسية في مسقط رأسه مدينة الكوت حيث كسب احترام الناس بعلمه ومهارته وعطفه على المعوزين من مراجعيه الكثر . وقد تنقل وظيفيا بين الكوت والعمارة وكربلاء قبل أن يستقر في بغداد مديراً لمصرف الدم خلفا للمرحوم الدكتور سليمان الفخري ثم مديراً للمناهج والدراسات الصحية في ديوان وزارة الصحة .

وانتقل المرحوم الدكتور فاضل السعيدي إلى رحمة الله إثر إصابة بخثرة دموية في شرايين الأمعاء (Mesenteric Artery Thrombosis) في أواسط التسعينات .

إبراهيم عمر كشمولة

كان إبراهيم كشمولة ضمن المقبولين إلى الكلية في الدورة الثانية عشرة بخريف سنة 1938 وزاملنا في الصف الثالث ثم تخرج من الكلية في صيف 1947 . وهو موصلي المولد وينتمي إلى عائلة معروفة فيها . وكان يبدو يوم ذاك أكبر من عمره الحقيقي لإصابته بالصلع المبكر . ولم يكن مجتهداً بالدروس إلا أنه كان خفيف الروح وصاحب ذوق في الهندام والملبس .

بعد تخرجه وأدائه الخدمة العسكرية الإلزامية لم يمارس الطب السريري بتاتاً ، بل انصرف في عمله الحكومي إلى الإدارة فكان طبيب صحة الموصل ورئيساً لمديريتها . وفي أواخر العهد الملكي انتخب في مجلس الأمة نائباً عن لواء الموصل وعاد إلى الخدمة بعد ثورة 14 تموز رئيساً للصحة ولكنه فصل منها بعد ثورة الشواف (1959) بسبب الاتجاهات القومية التي عرف بها ولكنه عاد إلى الوظيفة كعميد للمعاهد الصحية العالية في وزارة الصحة . وبعد أن طلب إحالته على التقاعد عمل رئيساً لقسم التفتيش والانضباط في نقابة الأطباء .

أحمد توفيق جلميران

قريبي وزميلي وصديقي أحمد جلميران كان شاباً وسيماً ذهبي الشعر اجتماعي الطبع يطفح حيوية ونشاطاً ضحوكاً ساخراً ومحبوباً من كافة الزملاء دون استثناء . كان مرحاً يحب الحياة والسهر والتدخين ولعب الورق . رافقني بالدراسة والمراجعة مساءً في دارنا طيلة السنوات الشاقة الأولى وكان يحصل على درجات مقبولة أهلته للنجاح دون تعثر ولكنه انفصل عني وانضم إلى مجموعة أخرى فيما بعد وتأخر بعض الوقت قبل أنّ يتخرج عام 1947 .

التحق أحمد بعد إنهائه الخدمة العسكرية بفرع التخدير وتدرب بإشراف الدكتور ستاوت مؤسس شعبة التخدير الحديثة في المستشفى الملكي وأصبح من المخدرين المعروفين في بغداد . خلّده زميلنا طالب الطب المزمن الذي لم يتخرج ، ضياء الدخيلي بأبيات قال فيها :

أحمد جلميران خير أهل الموصلِ
دفع عليّ دفعة المتفضلِ
ست عشرة من فلوس فيصلِ

ترللم ترللم ترللي

مشيراً بذلك إلى قيام أحمد بالتبرع له بأجرة باص استقلاه سوية من الأعظمية إلى بغداد .

رشيد الغبان

كان رشيد قد أعاد السنة الأولى بسبب فشله في امتحان أحد المواد فأصبح زميلنا طيلة السنين التالية التي لم يتأخر فيها عدا سنة التخرج . وكان من الطلاب البارزين في المجال الرياضي وشارك في كافة السباقات التي أقامتها الكلية أو مجمع الكليات العراقية في مختلف أنواع رياضة الساحة والميدان . ونال العديد من الأوسمة كما نال بطولة العراق في سباق الضاحية والركض لمسافات طويلة وكان ضمن فريق صفنا لكرة الطائرة وكرة السلة .

كان رشيد أجش الصوت سريع الكلام حاضر النكتة وكان وجوده يضفي على الحضور جواً من المرح والحبور .

خالد يوسف غنيمة

ينحدر زميلنا خالد من أحد أقدم الأسر النصرانية المعروفة في العراق وكان والده المرحوم يوسف غنيمة من أفاضل الرجال في أوائل الحكم الوطني بالعراق واستوزر مرات عديدة .

محمد محسن أبو طبيخ

محمد كان زميلي في الدراسة الثانوية والصف الأول في الكلية الطبية ، وكان شاباً خجولاً دمث الخلق قليل الكلام وإن تكلم فصوته أشبه بالهمس ، يحب النكتة التي يلقيها بكل حياء وأدب . وقد توثقت صداقتنا ودرسنا وراجعنا محاضراتنا ومدوناتنا سوية في الصف الأول إلا أن الحظ لم يحالفه في امتحان نهاية السنة فرقن قيده من الكلية غير أنه انتقل إلى كلية الطب السورية في دمشق واجتاز امتحاناتها وتخرج منها سنة 1947 .

وبعد عودته إلى العراق وتسرحه من الخدمة العسكرية عمل لفترة وجيزة في معهد الأشعة في بغداد ثم سافر إلى الولايات المتحدة وحصل على خبرة واسعة في

الأشعة والتداوي الشعاعي بعد أن عمل في مستشفياتها وحصل على درجة الماجستير فعاد إلى العراق اختصاصيا بالأشعة وأصبح مرجعاً في اختصاصه ومن مشاهير أطباء الأشعة في بغداد .

شبلي كامل حسن

ينتمي شبلي إلى عائلة ثرية وعريقة في ناحية الأعظمية ببغداد . وقد أرسله والده إلى ألمانيا سنة 1937 بعد إكماله المرحلة الثانوية لغرض دراسة الطب . ولكنه عاد على إثر نشوب الحرب العالمية الثانية وقبل في الصف الأول بالكلية .

وقد نشأت بيننا صداقة دامت سنوات طويلة وحتى أن وافاه الأجل سنة 1995 .

كان شبلي حلو الحديث جم الأدب دائم الابتسام ومحباً للمغامرات ، ولم يكن يوم ذاك راغباً بالدراسة في بغداد بل كان يتوق للاستمرار في الدراسة في ألمانيا ، فكنت أرقبه مثلاً في قاعة المحاضرات لا يدوّن في دفتره إلا ملاحظات عابرة . وفي اجتماعاتنا المسائية للمراجعة في دارنا لم يكن متحمساً للمشاركة بل كان شبه مستمع . على أنه كان يحصل على درجات مقبولة بل أقول جيدة في الامتحانات الفصلية ، وشاهدته ، وكان يجاورني في قاعة الامتحان البايولوجي ، يقضي الوقت برسم جهاز الدوران للضفدع بالألوان ويظلله وينظر إلى لوحته الفنية بين الفينة والأخرى ويتمعنها بإعجاب . وفيما بعد قال لي إنه كان بوده اقتلاع الصورة من الدفتر والاحتفاظ بها داخل إطار بدلاً من تقديم الدفتر الامتحاني للأستاذ!

وعندما نشبت الحرب بين العراق وبريطانيا في مايس 1941 غادر شبلي العراق بصحبة بعض العسكريين الألمان في آخر طائرة عسكرية أقلعت من مطار الموصل . وانقطعت أخباره عنا طيلة سنوات الحرب وعلمنا بعد عودته سالماً في سنة 1949 أنه انتسب إلى كلية طب برلين وواصل دراسته فيها ثم انتقل إلى براغ وتخرج من جامعتها طبيباً واعتقله الجيش الأمريكي ثم تم إطلاق سراحه بعد ثلاث سنوات .

وفي بغداد افتتح عيادة خاصة به في الأعظمية استقطبت المراجعين من كل الطبقات ، وكان الطبيب الأهلي الوحيد فيها فعمت شهرته لمهارته الطبية وحسن معاملته لمراجعيه الكثر .

وقد أصيب بمرض خبيث في القصبات الهوائية أقعده عن العمل في أواخر أيامه .

قتيبة الشيخ نوري (1922-1979)

لم يكن قتيبة من الطلاب المميزين علمياً في الكلية ولكنه كان معروفاً ومحبوباً من معارفه . وقد زاملته على مقاعد الدراسة في الثانوية المركزية ثم في كلية الطب وسنوات عديدة بعدها كنا فيها خير الأصدقاء . وقد اتصف قتيبة بروح مرحة ونفس شابة إضافة إلى حبه المناقشة والجدل . وكان شاعراً رومانسياً وفناناً تشكيلياً عبّر في لوحاته عن مكنون نفسه الطيبة .

أثناء الدراسة كان قتيبة ناشطاً اجتماعياً يرتب السفرات اللاصفية ويشارك في معارض الرسم ولجنة الموسيقى والتمثيل والرقص على المسرح في حفلات الكلية السنوية ، كما كان شديد الولع برعاية الطلاب الأحداث في الكلية من بنين وبنات ويعمل على مساعدتهم على حل المشاكل التي تلاقيهم . وقد كسب ود الكثير من طلاب ذلك الزمان .

بعد تخرجه في الكلية عام 1948 التحق قتيبة بالقوات المسلحة طبيباً ، فأوفد إلى بريطانيا للتخصص بأمراض الأذن والأنف والحنجرة وعاد اختصاصياً بارعاً في عمليات الأذن الدقيقة وكسب شهرة واسعة في حقل اختصاصه .

تعددت هوايات قتيبة فزاول الرسم والتصوير الفوتوغرافي وانتخب رئيساً لجمعية الفنانين التشكيليين في الأعوام 1972-1974 ، وكان قد انصرف إلى العمل في عيادته الخاصة بعد إحالته على التقاعد (بسبب ميوله اليسارية) سنة 1963 فكان طبيباً ناجحاً وموفقاً . ولكن حياته انتهت فجأة في طريقه إلى الكويت في حادث سيارة في نيسان 1979 .

نوري مصطفى بهجت

كان نوري الذي انتمى إلى الكلية في دورتنا بخريف عام 1940 من الطلاب البارزين اجتماعياً لمشاركته في العديد من اللجان اللاصفية ، فقد كان موسيقياً موهوبا ، عازفا على آلة الكمان في فرقة الكوارتيت الوطنية العراقية منذ بداية تأسيسها بالأربعينات وفي الكوارتيت الوتري بالكلية مشاركة مع غانم عقراوي ومصطفى أدهم وسامي الشيخ قاسم ، وفناناً رساماً تشكيلياً يعرض ، ولا يزال ، لوحاته في المعارض الفنية داخل العراق وخارجه ، كما كان رياضياً حاز الأوسمة في لعبتي التنس والركض للمسافات القصيرة .

ونوري شخصية ظريفة ومرحة يتندر وأصدقائه على نفسه خاصة عندما يتصرف بتسرع على الفطرة بدون تردد على أمور غريبة يضحك هو منها فيما بعد عندما يراها معقولة وإن لم تكن مألوفة .

بعد تخرجه من الكلية عام 1948 وعمله في الأقضية والنواحي ، تخصص بالطب الفيزيائي وتدرب تحت إشراف الدكتور بيركر وتدرج وظيفياً فأصبح مديراً لقسم الطب العلاجي ، وأوفد إلى أمريكا سنة 1956 للتخصص والاطلاع . وساهم في إنشاء أول مستشفى متخصص للعلاج الطبيعي في بغداد وكان أول مدير لها .

استقال من الوظيفة عام 1985 وانصرف إلى العمل في عيادته الخاصة وإلى الرسم في أوقات فراغه . وقد نال الدكتور نوري شهرة محمودة في عيادته الخاصة .

سامي الشيخ قاسم

زاملنا سامي في السنة الأولى ، وكان يومها معيداً في درسين من الدروس الثلاثة . ولم يكن فيما بعد طالباً مجتهداً بل تأخر تخرجه حتى سنة 1948 ، ربما بسبب فلسفة خيالية آمن بها يترفع فيها الفرد عن توافه الحياة والتنافس والتكالب .

وبالرغم من ذلك كان سامي طالباً بارزاً في أمور لا تخص الدراسة ومنها أنه كان موسيقياً يعزف على آلة الكمان ويداوم في معهد الفنون الجميلة بعد انتهاء الدوام الرسمي في الكلية ، وعازف الكمان الأول في الفرقة السمفونية العراقية (في بداية تأسيسها) ، ولطالما شارك في فعاليات اللجنة الموسيقية وفي الحفلات الطلابية بالعزف المنفرد أو ضمن مجموعة الكوارتيت الوتري ، كما كان رياضياً ويمارس لعبة التنس .

وعرفنا سامي يوم ذاك شاباً رومانسياً واسع الخيال كثير الشرود و«الدالغات» ، ومن ذلك أنه تعوّد أن يكتب كل ما يقال أثناء المحاضرات تاركاً التفكير فيها إلى ما بعد ، أي عندما يخلد إلى نفسه للمراجعة ويضحكنا عندما يكتشف أنه قد دوّن كل ما فاه به المحاضر بما في ذلك التعليقات وربما النكات التي هي خارج حدود المحاضرة . وكان لا يراجع محاضراته بعد عودته إلى داره كما كنا نفعل بل يؤجلها كلها إلى فترة قريبة قبل الامتحان . وقد نال درجة 25 بالمائة في الأمراض الجلدية التي كان يعتبرها الأستاذ جوبانيان موازية للصفر .

كان سامي معجباً بالألمان والشعب الألماني واثقاً من انتصارهم بالحرب العالمية الثانية ، ولم يصدق أنهم خسروا الحرب بالرغم من خسارته أسطوانات كونشرتو «باخ»

للبيانو نتيجة رهانه مع أحد زملائه ، في زمن كانت برلين تقصف بشدة من قبل الحلفاء وتحاصرها الجيوش من كل جانب .

لم يبق سامي فترة طويلة في العراق بعد تخرجه بل سافر إلى أمريكا وانقطعت أخباره عنا وعلمنا بوفاته إثر نوبة قلبية حادة وسرطان العظم في سني الثمانينات .

الطلاب اليهود

سبق أن ذكرت أنه لم يكن هناك تمييز في قبول الطلاب اليهود في دورتنا من قبل الإدارة ، ولا تحيّز سلبي أو إيجابي من قبل الأساتذة الممتحنين أو من زملائهم الطلاب ، بل كان منهم من هو مجد في دروسه فنجح ومنهم من فشل فرقن قيده من الكلية ، لا فرق بينهم وبين الطلاب من كافة الطوائف . وعلى العموم فإن أكثر الطلبة اليهود من خريجي المدارس الثانوية الحكومية ممن زاملناهم في الدراسة ، ونسبة قليلة منهم درست في المدارس اليهودية الخاصة حيث كان الاهتمام بتدريس اللغات الأجنبية كبيراً . فكان إلمامهم باللغة الإنجليزية ، وهي لغة التدريس في الكلية ، يعطيهم تفوقا نسبياً على زملائهم ونسبة الرسوب أقل . هذا وقد انضم إلى دورتنا اثنان من الطلاب اليهود في السنة الثالثة هما يعقوب كوهين وعزيز كرجية والأخير قدم منقولاً من الجامعة الأمريكية في بيروت .

وكما ذكرت لم تكن هناك حساسية من قبل الزملاء تجاههم بل كان التفاهم والرفقة والاحترام يسود الجو الطلابي ، كما لم نلاحظ أي تصرف منهم ينم على عنصرية صهيونية .

وبعد التخرج كان أحدهم وهو الدكتور فكتور زعرور ضمن العشرة الأوائل فعيّن معيداً بالكلية ومقيماً في الردهة السادسة تحت إشراف الأستاذين عبد الهادي الباجه جي وأحمد الحلواني .

أما مير حاخام ساسون ابن رئيس الطائفة الموسوية في العراق فكان شاباً طيب الخلق وحسن السيرة وقد تأخر تخرجه ثم نُسّب بعد التخرج مع زميله باروخ شالوم أطباء في مديرية الأمور الطبية العسكرية ، الأمر الذي يوضح انعدام الحساسيات تجاه اليهود العراقيين في تلك الأيام .

كما تأخر في التخرج ناظم شاهين وعزيز كرجية ويعقوب كوهين . وأذكر أن إبراهيم سوفير وأدور قحطان قد رقن قيدهما من الكلية لرسوبهما سنتين متتاليتين في

الصفوف الأولى وليس لأي سبب آخر .

وقد غادر كافة الأطباء اليهود الذين رافقونا في الدراسة إلى خارج العراق في أوائل الخمسينات معظمهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية وانقطعت بذلك أخبارهم عنا .

ضياء الدين الدخيلي (1912-1967)

المرحوم ضياء الدين الدخيلي هو الطالب المزمن الذي رافق المسيرة الطلابية زهاء ثلاثين عاماً ولم يتخرج في تالي الأمر طبيباً . فقد انتمى إلى الكلية طالباً في الصف الأول عام 1938 ولكنه فصل من الكلية ورقن قيده مرتين الأولى بعد رسوبه سنتين متتاليتين في الصف الثالث في سنة 1944 والثانية بعد رسوبه في الصف السادس ثلاث سنوات متوالية في أوائل الستينات . ومع هذا فإن الدخيلي كان يشاهد طيلة هذه السنوات في رحاب الكلية متأبطاً كتاب Davidson في الطب الباطني يجول بين ساحات الكلية والمطعم ، يحادث الطلاب والطالبات ، الذين هم بأعمار أولاده وبناته ، وهم مسرورون برفقته وسماع آرائه ، أو كنت تراه جالساً في الصف الأخير من إحدى قاعات المحاضرات لا يفوته حضور محاضرة أي أستاذ زائر أجنبي ليستمع إليه بإصغاء ثم يرفع إصبعه ، سائلاً إياه حال انتهائه من إلقاء محاضرته ، دون إذن من رئيس الجلسة ، سؤالاً قد يكون في صلب الموضوع أو خارجه فيحرج المحاضر وتحصل همهمة بين الحضور من الطلاب والأطباء .

مع هذا كان ضياء الدخيلي رجلاً مؤدباً وذا خلق طيب وله شخصية متعددة الجوانب وينظم الشعر ويكتب في الأدب . ولكنه كان عديم الاهتمام بمظهره الخارجي وتصفيف شعره الذي لا يوحي لمشاهده أنه طالب طب بالرغم من ارتدائه الصدرية البيضاء ، التي استحال لونها وأصبح داكنا ، والسماعة في جيبه الأيمن فكانت ملابسه على العموم رثة وكل ذلك جلب له المشاكل خاصة مع أعضاء الهيئة التدريسية والإدارة التي كانت تصر على وجوب العناية بالهندام .

وعندما أعلنت حكومة الثورة في 14 تموز 1958 اعتبار السنة المذكورة سنة نجاح (أو زحف أو عبور) لكافة الطلاب في العراق بمن فيهم طلبة الكلية الطبية ، عاد الدخيلي إلى مقاعد الدراسة وتقدم للامتحانات النهائية مرات عديدة وكان الممتحنون هذه المرة من زملاء الدخيلي إلا أن الحظ لم يحالفه بالنجاح لأن أجوبته لم

تكن مرضية ولم تؤهله أن يكون طبيباً .

وبينما فشل الدخيلي أن يكون طبيبا ولم ينتم إلى نقابة الأطباء ولم يظهر اسمه وتصويره في كتاب تاريخ أعلام الطب العراقي الحديث لمؤلفه الدكتور أديب الفكيكي (1989) ، فإن اسمه ظهر في موسوعة أعلام العراق في القرن العشرين لمؤلفه السيد حميد المطبعي الذي لم يشر إلى دراسته الطبية في تقريظه لشخصيته وشعره حيث عرفناه شاعراً رقيقاً وأديباً مشهوراً في أوساط مدينتي الكاظمية والنجف الأشرف .

ولا أعلم إن كان الدخيلي قد نشر ديواناً أم لا ، إلا أنه كتب شعراً لكل طالبة من طالبات كلية الطب زاملته يوم ذاك . وما أكثر من افتتن هو بهن فكانت أشعاره تتداول بين الفئة المقربة منه أولاً ثم تنتشر إلى باقي طلاب الكلية الذين يتندرون بها . وأذكر أنه نظم قصيدة طويلة في إحدى الفتيات الجميلات وكان اسمها سميراميس رآها ضمن مجموعة من زملائها وزميلاتها تشجع فريق صفها في كرة السلة وجاء فيها الأبيات التالية :

قد شغلت عنك عيون الجمع
بالأذرع البضة ذات اللمع
واضطرب الصليب في عناقها
يا ليته أصبح من عشاقها
يا ليتني كنت أنا الصليب
أشم نهرا فاح منه الطيب

هذا ما جادت به ذاكرتي عن زملائي الذين شاركتهم مقاعد الدراسة ست سنوات ، رحم الله من قضى منهم وأطال في عمر من بقي بعز وهناء .

الملاحق

1. الملحق الأول حديث مع الأستاذة الدكتورة لمعان أمين زكي.

2. الملحق الثاني تعليق للأستاذ الدكتور خالد القصاب.

ملحق (1)

الأستاذة الدكتورة لمعان أمين زكي

سيرة شخصية

ولدت في بغداد ودرست فيها وتخرجت من كلية طب بغداد ثم حازت على دبلوم صحة الطفل من جامعة لندن وعلى عضوية كلية الأطباء الملكية (لندن) ثم على زمالة كلية الأطباء الملكية (لندن) وعملت في بغداد منذ التخرج .

مسؤوليات اضطلعت بها :

* مديرة مؤسسة لرعاية الأمومة والطفولة في وزارة الصحة العراقية 1953-1958
* أستاذة ورئيسة فرع طب الأطفال في كلية طب بغداد 1969-1979 .
* رئاسة لجنة الدراسات العليا لطب الأطفال ـ جامعة بغداد ـ 1970-1979 .
* عضو اللجنة المشرفة على دراسات التسمم بالزئبق جامعة ماكيل (كندا) .
* رئيسة المؤتمر العاشر لاتحاد جمعيات طب الأطفال لدول الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط 1975 .
* استشارية صحة الطفل في منظمة الصحة العالمية .

عضوية الجمعيات المهنية والجمعيات المعنية بالطفولة :

محلياً

* مؤسسة ورئيسة جمعية أطباء الأطفال العراقية 1967-1979 .
* عضو مؤسس لجمعية رعاية المعوّقين في العراق .
* عضو جمعية حماية الأطفال ، التي منحتها (نوط النجمة الفضية) لأعمالها المميزة في خدمة الطفولة في العراق .
* عضو جمعية البيت العربي ، التي تأسست لرعاية اللاجئين الفلسطينيين ثم حولّت نشاطها إلى تأسيس دور الحضانة لأبناء الموظفات والعاملات .

عالمياً

* عضو الهيئة الإدارية لاتحاد جمعيات طب الأطفال العالمية 1977-1979 .
* رئيسة اتحاد جمعيات طب الأطفال لدول الشرق الأوسط وحوض البحر المتوسط 1975-1978 .
* عضو مجلس كلية طب الأطفال العالمية 1975-1982 .

حديث صحفي

أدناه نص حديث أجراه أحد طلاب الكلية الطبية العراقية ، في نهاية سني الثمانينات ، عن الحياة الدراسية والاجتماعية والثقافية ، وذكريات عن الأساتذة والتدريس ، مع الأستاذة الدكتورة لمعان أمين زكي ، لغرض نشره في عدد خاص من مجلة الكلية الطبية ، بصفتها من أوائل الفتيات اللواتي انتمين إلى الكلية الطبية . ولكن الحديث لم يجد طريقه للنشر مع الأسف .

س1) كيف كان التقبل لدخولك شخصياً ولدخول البنات عامة لكلية الطب في أوساط المجتمع وفي أوساط الكلية نفسها؟

على صعيد المجتمع والأسرة ، كان دخولي كلية الطب هادئاً بعد ما حصل من ضجة أو بالأحرى من ثورة حين دخلت شقيقتي الكبرى إلى الكلية . وشقيقتي هي الدكتورة سانحة أمين زكي أستاذة علم مفردات الطب Materia Medica سابقاً في هذه الكلية .

كان المرحوم والدي معروفاً بثقافته وأفكاره المتحررة وبالاعتزاز ببناته ، غير أن بعض المحافظين من أقاربنا احتجوا على دخول أختي الكلية احتجاجاً شديداً ، ليس على دراسة الطب بالذات بل على الدراسة في كلية مختلطة تجمع بين البنات والأولاد . وكانت جميع الطالبات التي سبقنها في الدراسة غير مسلمات . انهمك أهل بيتنا بهذه القضية أياماً طويلة كانت فيها شغلنا الشاغل ، وقامت حولها مناقشات ومجادلات لن أدخل في تفاصيلها ، فهذه قصة أختي لا قصتي وهي التي تستطيع أن ترويها أحسن مني . إلا أنني أكتفي بالقول بأن عمتي الوحيدة غضبت فلم تطأ قدماها عتبة دارنا طيلة سبع سنين إلى أن أصيبت رحمها الله بمرض البول السكري فتغيّر موقفها وجاءت إلى والدي معتذرة ومعاتبة ومطالبة برعاية ابنة أخيها الطبيبة .

ولابد لي أن أنوّه بموقف المرحوم والدي في هذه المناسبة ، فإنه أصَّرَ بأن القرار ليس بيده بل بيد ابنته هي التي تختار الدراسة التي تريدها وهو موقف نقدّره كثيراً ، ذلك أن كلمة واحدة منه كانت كافية لحسم الموقف سلباً أو إيجاباً لكنه أصرّ أن يكون القرار لفتاته وحدها فألقى بذلك درساً في مسؤولية الفتاة في الاستقلال برأيها

وتأكيد شخصيتها . وكان لموقفه أثره على دراسة الكثير من الفتيات من أقاربنا أو من غير الأقارب . هذا الحادث ردّ عني ما يمكن أن يحصل من تصديع حول دخول الكلية .

ومن جانبنا ، كنا نساير العادات السائدة . كانت جميع الطالبات ملتزمات بلبس العباءة النسائية السوداء في الشارع ، ولم نكن نرفعها عن رؤوسنا قبل أن نصل معهد الأشعة الحالي فقد كانت الكلية الطبية الملكية تشغل مبنى كلية التمريض اليوم . وكنا مثلاً نحضر الحفلات ومسابقات الكرة التي تحصل داخل الكلية ولكننا لم نشارك في السفرات والفعاليات التي تجري خارجها . وهكذا كنا نعيش عملية توفيق مستمرة بين الحياة الجامعية والعادات المرعية .

أما في الكلية وعلى الصعيد الرسمي فقد كنا نحاط بالرعاية والتشجيع وكل الاحترام . كان أساتذتنا فخورين بتفوّق الفتيات في الدراسة . ومنهم من كان ينوّه بذلك في أعقاب كل امتحان . وكان الأجنبي منهم يخاطبنا باللقب الإنكليزي (مس فلان) وكذلك العراقيون . مثلاً ، أستاذنا الدكتور شوكت الزهاوي ، مدّ الله في عمره وألبسه ثياب الصحة ، كان ينادينا بفلانة خانم . وأستاذنا المرحوم الدكتور عبدالهادي الباجه جي كان ينادينا باللقب العراقي التقليدي (فلانة خاتون) وبالجمع خواتين . ومع أن هذا اللقب كان كثير الاستعمال في البيت والسوق في العراق ، إلا أنه كان يضحك بعض الخبثاء من زملائنا الطلبة فيداعبوننا بأهازيج الأطفال من نوع :

يالله مطر يالله طين   دنعبّر الخواتين

أما أستاذنا الدكتور هاشم الوتري ، بحرصه على الفصحى ، فقد كان يؤثر أن ينادينا (آنسة فلانة) . وكانوا جميعاً يحرصون على راحتنا وعدم مزاحمة الطلبة لنا في قاعات الدرس أو في ردهات المرضى ، فقد كان المجتمع محافظاً والالتزام بالأدب وحسن السلوك كان الأساس في المعاملات بين الناس .

س2) لماذا اخترت دراسة الطب دون غيرها من الدراسات؟ وكيف كان وقع الانتقال عليك من الثانوية إلى المحيط الجامعي؟

الحقيقة هي أنني أثناء الدراسة الثانوية لم أكن أخطط لدخول كلية الطب بل كنت أحلم في أن أشدّ الرحال إلى القاهرة لدراسة الأدب على أيدي الذين بهروا

جيلنا بمؤلفاتهم من الأدباء المصريين . وفي الثانوية كنت رئيسة جمعية اللغة العربية وكنت الطالبة المسؤولة عن المكتبة . ولشدّ ما خاب أمل مدرسة اللغة العربية حين وجدت تلميذتها النابهة قد اختارت دراسة الطب . غير أن كلية الطب كانت تاج رأس الكليات العراقية إطلاقاً . والمرحوم والدي ، بأسلوبه اللين الرقيق استطاع أن يقنعني بأن الجمع بين الطب والأدب من السهولة بمكان . وذكّرني بكل من قرأ لهم من الأطباء الأدباء من أنطون شيخوف وآرثر كونان دويل حتى سومرست موم وإبراهيم ناجي وغيرهم كثيرين . فقد كان في خيال والدي صورة مثالية للأطباء وما يتصفون به من رحمة وتضحية وإنسانية . وكان الطبيب في تصوره مزيجاً رومانسياً من عالم وشاعر وقديس . وكان يحب أن يذكر قول الشافعي : «لا أعلم بعد الحلال والحرام أنبل من الطب» . وكذلك كانت فكرة العمل الحر المستقل عن عبودية الوظيفة وعن ربقة الرؤساء والمرؤوسين تروق لوالدي كثيراً ، بل تسيطر على تفكيره . وقد ساعد والدي في هذا المسعى اندلاع الحرب العالمية الثانية ووضع مصر المهدّد في تلك الأيام .

وهكذا اخترت دراسة الطب دون أن تكون عندي فكرة واقعية عن حياة الطبيب وطبيعة مزاولة المهنة ، في زمن كان فيه الفقر المدقع ، بل البؤس ، نصيب أكثر الناس وما يترتب على ذلك من جهل وتخلف لا مفر للطبيب من مواجهتها باستمرار .

اخترت دراسة الطب مدفوعة بمثالية غامضة هي مزيج من الحلم والخيال والآمال ، أو بالتعبير الجميل للدكتور محمد عابد الجابري «بذهن حالم وليس بعقل عالم» . وكنت أرجو أن أجمع بين الطب والأدب! ولم أكن أدرك يومئذ كم يتطلب من فكر المرء وروحه كل واحد من هذين المسلكين .

كان الدوام في الكلية مختلفاً كل الاختلاف عما ألفناه أثناء الدراسة الثانوية . أولاً ، في المدرسة الثانوية كان المحيط كله من الإناث باستثناء مدرس الرياضيات المرحوم الأستاذ علي مظلوم ، في حين أن محيط الكلية كان يسيطر عليه الرجال . والدراسة كانت بالإنكليزية والدرس على شكل محاضرة المتكلم الوحيد فيها هو الأستاذ ودورنا يقتصر على الاستماع .

والجريء الجريء هو الذي يجسر على توجيه سؤال للأستاذ بعد انتهاء المحاضرة . وجميع الكتب والمراجع كانت بالإنكليزية . وقد شقّت الحياة على البعض فتركوا الدراسة في أوائل السنة .

كنا ننتظر الأساتذة تحت شمس الشتاء أو في ظل الأشجار في مدخل الكلية . وكان في مكان المطعم الحالي للكلية رقعة جميلة من الحشيش الأخضر تظللها نخلات باسقات وأشجار نبق عتيقة . وكان الأستاذ منهم يقبل من المستشفى بمعطفه الأبيض فنخفّ نحن لدخول قاعة الدرس ويدخل هو غرفة جانبية يستبدل فيها معطفه الأبيض بالروب الجامعي الأسود المهيب . وكان جميع المحاضرين ملتزمين بارتداء الروب الأسود أثناء المحاضرات وبارتداء المعاطف البيضاء في المختبرات وردهات المرضى . وكان للطلبة تعليقاتهم على سمت كل أستاذ ومظهره في الروب . ذو القامة الفارعة كالأستاذ سندرسن والأستاذ حنا خياط ، كان ينال تعليقات الاستحسان . أما القصير جداً أو السمين أو النحيف وذو البطن البارزة أو المترهل ، فقد كانوا يسلقون بألسنة الشباب التي لا ترحم . وكان الأستاذ يلقي المحاضرة ووسيلة الإيضاح الوحيدة لديه هي السبورة يضع عليها رسومه وشروحه . ولم تكن لهجات الأساتذة وأصواتهم وخطوطهم ورسومهم تنجو أيضاً من التعليق والتصنيف ، الطلبة أيضاً كان لهم زيّهم الذي هو الزي المستعمل اليوم بإضافة شعار كلية الطب مطرزاً على الجيب الأيسر في صدر السترة . وكان ارتداؤه في الأيام الاعتيادية اختيارياً وإلزامياً في الحفلات والمناسبات الرسمية .

هذه بعض الأمور اللطيفة التي ميّزت حياة الكلية . وكانت هنالك جوانب لم أستسغها ، مثل مزاح بعض الطلبة بجثث التشريح كأن يهدد أحدهم زميله بذراع أو ساق! ومثل عملية تعطيل دماغ الضفدع الذي كان يجعلها تصرخ صرخة مؤلمة في درس البايولوجي وقد أنقذني من هذه المهمة زميلي طالب الأسترابادي، أستاذ الفزيولوجي سابقاً ، فقد كان يقوم بها عني وهو يستخف بضعف البنات ورقة قلوبهن . وكنا نطلق عليه لقب (نيتشه) لبعض آراء كان يحب أن يستفزّ بها الأصدقاء .

س3) تقولين بأن الطالبات جميعاً كن ملتزمات بلبس العباءة في الشارع ، كيف إذن نبذت البنات هذه العادة وعمدن إلى السفور؟

بالنسبة لنا ، شقيقتي أ .د . سانحة وأنا ، فإن لذلك قصة قد تستحق الذكر . حصل مساء يوم وكانت أختي في الصف السادس وكنا نترك الكلية إلى البيت وكل منا تحمل عباءتها السوداء على ذراعها حتى تجاوزنا معهد الأشعة وتقبعنا بالعباءة ، وإذا بأستاذنا وعميدنا د .سندرسن باشا ، ولم نكن قد انتبهنا إلى سيره خلفنا ، يضع

ذراعيه على كتف كل منا وبلطفه وأدبه المعهودين يقول « يا بناتي ، أما آن وقت نبذ هذه العادة وأنتن موشكات على التخرج؟» ، قال هذا واتجه نحو مسكنه غير منتظر جوابنا ونحن في قمة الخجل والارتباك المعهودين في الطلبة بحضور أساتذتهم . استثارنا قوله وقطعنا الطريق ونحن ندمدم ونتذمر من هذه العادة التي اعتبرناها رمزاً للجهل والتخلف . وثارت أختي وقالت نفاتح والدي مساء اليوم . وقضينا الوقت نستعد للمناقشة . إذا قال كذا نقول له كيت ، وإذا تذرع بهذا نرد عليه هكذا ..وقد انشغلنا عن الدراسة طيلة تلك الأمسية . حين حضر والدي خفنا ووجلت قلوبنا! ولأنني كنت أثيرة لدى والدي ، فقد دفعتني أختي لكي أذهب وأفاتحه وهي تردد «قولي له كذا وكذا وأجيبيه بكيت وكيت» . ذهبت إليه متهيبة فإذا به ينصت إلى الأخبار من إذاعة لندن فعدت دون أن أقاطعه وأنا مسرورة لتأجيل الموقف! قلت لأختي ندعه يكمل سماع الأخبار . وذهبت إليه ثانية وكان يصغي باهتمام لأخبار أنقرة ثم لتعليق على الأخبار وهكذا إلى أن انتهت أهم البرامج الإخبارية ولم يكن مفر من الإقدام! بدأت كلامي برواية حديث د . سندرسن وهنا أردت أن أطيل لكنه لم يمهلني وقال ما دخل الرجل في هذا ثم ابتسم وقال «حسناً ما المطلوب منا الآن؟» قلت نريد أن نترك لبس العباءة ، قال لا مانع ولكن وأشار إلى ذراعيه وصدره قاصداً ضرورة الالتزام باللباس المحتشم ، وعاد إلى الراديو يدير أزراره على الإذاعات! هكذا بسهولة لا تتناسب مع قلقنا وتوتر أعصابنا وفي دقائق قليلة وكلمات وجيزة انتهت المشكلة التي شغلتنا طيلة المساء! استغربت أختي عودتي السريعة إليها وحين رويت لها ما حدث انخرطنا في ضحك هستيري وعجزنا عن مغالبته لكي لا يصل إلى آذان الوالد العزيز وكان ذلك دون شك ردة فعل لما كابدناه من توتر وانفعال .

س4) من كان أفضل الأساتذة في رأيك؟ وفي أي قسم قام بتدريسكم في الكلية؟ وهل تأثرتم به ولماذا؟

ما أصعب الإجابة على هذا السؤال! لكل أستاذ منهم ميزته ولكل موقعه في النفس ، وإني الآن ، والله ، لأستحييهم من وراء الغيب وكأنهم يقرؤون ما أكتب . دعني أروي لك بعض ما علق في الذاكرة عن أفراد ذلك الجيل الكريم الذي سبقنا ، وإن أطلت عليك الحديث فإن وصفهم لا يتعارض مع الغرض من هذا الكتاب .

المرحوم الأستاذ هاشم الوتري بخلفيات ثقافته الإسلامية العربية وطلعته المهيبة ،

كان يهمه انتقاء الكلمات والتعابير والاستشهاد بأبيات من الشعر العربي ، كما كان يحرص على ذكر ترجمة المصطلح العلمي باللغة العربية ويشرح الأصل والاشتقاق وكثيراً ما كان يستطرد فينقل مناقشاته في المجمع العلمي إلى قاعة الدرس .

ومعه كان الأستاذ صائب شوكت فارسا حلبة وفرسا رهان ، يتنافسان ويتناوبان على عمادة الكلية ولكل منهما أتباعه ومريدوه . كان الأستاذ صائب شوكت ، بشخصيته الطاغية واندفاعه في الوطنية يثير محبة الطلبة ورهبتهم في آن واحد . وكان يراقب دوام الطلبة والمدرسين في الردهات والمختبرات ويحرص على مظهر الطلبة وسلوكهم أيضاً : «ليش شعرك طويل . .أنت بنية؟ . .طلّع أيدك من جيبك حين تكلم أستاذك» . كان يريد من الطبيب أن يسلك سلوك الرجل الكريم ، والأدب كان يقضي أن تكون السترة مزررة واليد خارج الجيب حين يكلم الفتى والده أو من هو أكبر منه . وحين أبعد الأستاذ صائب شوكت من الكلية بعد حركة رشيد عالي ، أبعد معه عدد من الشباب التدريسيين الواعدين لأسباب سياسية صرفة .

وكان للأستاذ شوكت الزهاوي مثل هذا الحرص على سلوك الطلبة كما أنه آثر الانصراف إلى البحث العلمي فلم يفتح عيادة خاصة تدر عليه أرباحاً إضافية .

الأستاذ المرحوم عبدالهادي الباجه جي ، بتربيته الإسطنبولية ودراسته الباريسية ، كان مثال السيد الكريم الدمث الفكه والإنساني المترفع عن الصغائر . كان يلقي درس السريريات الابتدائية بعربية دارجة بغدادية صميمة وبمصطلحات عربية فصيحة وجميلة ، كانت مستعملة في كليات الطب العثمانية التي كانت تتعامل مع اللغة العربية تعامل الغربيين مع اللاتينية ، مع ترديد المصطلحات الأجنبية كما يلفظها الفرنسيون ، فيسر الطلبة بترديد تلك الاصطلاحات على طريقته . وكان يحب أن يتمثل بأقاصيص ملا نصر الدين وغيرها من المأثورات المحلية . وقد كنت في سنواتي المتأخرة منذ أن عاد أخي يوماً في المنزل أخال جميع الأطباء على صورته . فقد انطبع في ذاكرة طفولتي نظيفاً أشقر جميلاً مهذباً حلو المعاملة والتصرف .

ثم المرحوم الأستاذ جلال العزاوي ، كان رقيق القلب مزحاً محباً للأطفال ينتظره كل صباح عدد منهم في مدخل قسم العيون فيوزع عليهم نقوداً معدنية وهو يضحك معهم ويمرح ويمد يده مداعباً شعر هذا قارصاً خد ذاك والكل ضاحك سعيد بمداعباته . ولكن هذه الضجة اليومية كانت تزعج بعض الشباب من التدريسيين في غرفهم مثل المرحوم الدكتور أحمد سهيل المعروف بتصرفه المتحفظ ، فقد كان يعتبرها نوعاً من

الإسفاف . قلت له يوماً «أستاذا ليس كل الذين تمنحهم النقود فقراء» قال «ولكن جميعهم أطفال وأنا أحب أن أدخل السرور على قلوب الأطفال» .

ثم هنالك جماعة الأطباء البريطانيين وعلى رأسهم طبعاً الأستاذ سندرسن بلغته المهذبة المنتقاة وحرصه على سلوك الجنتلمان الإنكليزي . كان يحضر إلى المحاضرة متأخراً وهو يتعلل بكثرة المشاغل ويقول «خير لكم أن أحضر متأخراً من أن لا أحضر» . ومحاضراته تكاد أن تكون على شكل إملاء من دفتر كبير سجل فيه المعلومات . ويكتب على السبورة بخط جميل وكان له حضور مهيب بقامته الطويلة وشعره الفضي وربما لنفوذه الذي يعرفه الجميع أيضاً .

والأستاذ ملز العالم المخلص المجد ، كان يتمسك بسلوك السادة في العهد الفكتوري ، يفتح الباب وينحني لدخول الطالبات ويخاطب الجميع بأدب وظرف جم . وبعد تخرجي اكتشفت فيه صفات أخرى نادرة . مثلاً ، نرسل عينة السائل الشوكي للفحص البكتريولوجي فنستلم مكالمته التلفونية بعد ساعات قليلة ليعطينا نتيجة الفحص المباشر سلباً أو إيجاباً لمساعدتنا على حسن العلاج . ولا أنسى يوم كان التلفون معطلاً فقطع المسافة بين المختبر ومستشفى حماية الأطفال سيراً ليخبرني بأن مريضي كان لديه التهاب السحايا هيبوفيلس ، ولكي يوجهني في علاجه وكان الدوام قد انتهى والأطباء تركوا وأنا طبيبة حديثة التخرج . لقد كان يتمنى أن يكون قبره في بغداد فلم تتحقق له الأمنية ، ولكن وصيته شملت بعض الذين عملوا تحت إشرافه في المختبر المركزي وقد استلموا المبالغ متعجبين .

الأستاذ بيتي كان يدرسنا البكتريولوجي وشيئاً من أمراض الطفيليات . وقد كان ضليعاً في علمه وكانت دروسه شائقة ولذيذة . وهو سكوتلاندي قصير القامة أشقر الشعر جم النشاط والحركة قريب من الطلبة . وزوجته كانت لطيفة ودودة . ولأنها كانت أطول منه قامة ونحيفة جدا فقد أطلق عليهما بعض الطلبة الخبثاء لقب «دودة البلهارزيا» . وحين ترك العراق ، شغل بيتي كرسي البكتريولوجي في كلية طب شفيلد إلى حين تقاعده .

الأستاذ ستيسي ، أستاذ علم العقاقير وفن التداوي ، كان جاداً متحفظاً يغلب على سلوكه الخجل لكنه كان ملتزماً بمواعيد المحاضرات والدروس السريرية . وكانت دروسه شائقة يقبل عليها الطلبة بحماس . وفي وسعي أن أقول بأنه كان من خيرة من درس الطب الباطني في تاريخ الكلية . وكان الطلبة يكبرون فيه علمه وحرصه

وانضباطه وحسن تقييمه للطلبة . وقد شغل منصب أستاذ في كلية طب سنت توماس في جامعة لندن حتى تقاعده . وكانت له مكانة مرموقة بين أساتذتها .

درس النسائيات والولادة كانت تدرسه سيدة سكوتلاندية هي الدكتورة ماكداول ويساعدها في الدروس السريرية د . فؤاد مراد الشيخ والأستاذ الدكتور كمال السامرائي وقد كان شاباً يرتقي العتبات الأولى في المهنة والتدريس . كانت الدكتورة ماكداول خجولة ومتحفظة وأعتقد بأنها لم تجد من معاونيها الدعم والتعاون المألوفين أو هكذا كانت فكرة الطلبة . وأرجو أن لا يكون ذلك لمجرد التمييز الجنسي لكونها امرأة ترأست قسماً مهماً من أقسام الكلية!

ثم هنالك جماعة الرعيل الثاني من الأساتذة العراقيين . كانوا شباباً تخرجوا في بغداد ثم درسوا في بريطانيا وعادوا إلى العراق للعمل بعنفوان الشباب وزهوه واعتداده . بينهم من آثر مظهر التواضع مثل سلمان فائق وعبد الأمير علاوي ومهدي فوزي وعبد الرحمن الجوربه جي وعلي البير . ومنهم من كان فخوراً بشهادته معتزاً بعلمه معتداً برأيه كالمرحوم قاسم البزركان الذي كان ملء قاعات الدرس بصوته الجهوري ومحاضراته الشيقة المطعمة بالنكات والفكاهات البغدادية الأصيلة . والمرحوم أحمد سهيل المدرس البارع الذي لم يكن يفوّت فرصة لذكر أكسفورد حيث نال دبلوم طب العيون . كلاهما كان حاذقاً في فنه متمكناً من علمه بارعا في تدريسه ، ولكن كان بينهما تنافر وقطيعة . وكان بين الشخصيتين تشابه لم يكن يشمل الروح الفكهة التي تميز بها قاسم البزركان دون أحمد سهيل . إلا أن الاثنين لم يعترفا قط بما يسمى بتواضع العلماء . ولم يكن لهما صبر على المريض الغبي أو الجاهل ، وربما وجها إليه الإهانة والإحراج !

مثلهما كان الأستاذ أحمد عزت القيسي في الزهو والاعتداد ، إلا إنه كان أكثر مجاملة وألين عريكة . وكانت دروس الطب العدلي تلقى باللغة العربية . وقد جعلها لذيذة وأشبه ما تكون بقصص شرلوك هولمز وآرسين لوبين .

تعمدت تأخير كلامي عن أساتذتنا في طب الأطفال لأنهم كالعادة كانوا يستلموننا خلال السنوات المتأخرة من الدراسة أولاً ، ثم بعد ذلك أصبحوا زملائي الكبار ورؤسائي في العمل وقد طغت صفة الزمالة هذه على علاقتي بهم . ولابد لي من ذكر ميزة كانت تجمع بين كل أطباء مستشفى حماية الأطفال ، تلك هي حسن الزمالة والتكاتف في العمل أولاً ثم الصبر العجيب على كثرة العمل بصرف النظر

عن ساعات الدوام الرسمي . فقد كانت مشافي الأطفال في القطر قليلة ، وكان طبيب العيادة الخارجية منهم يعالج 300-350 طفلاً في اليوم ، هذا إلى جانب واجباته في الردهات وفي الأعمال الإدارية ، الأمر الذي جعل اهتمام الأساتذة يتركز على المحاضرات النظرية . أما التدريس السريري فقد اعتمد على جهد الطلبة في التعلم . مثلاً ، يدفع لنا الأستاذ بمجموعة من الأطفال ويقول هذه كلها حالات حصبة . فنستلم نحن الأطفال ونقارن أعراضهم بما هو موجود في الكتاب ، أي أننا كنا أقل اتكالية على الأساتذة من الوجبات المتأخرة من الطلبة .

الأستاذ الدكتور عبدالله القصير كان يجمع بين إدارة مستشفى حماية الأطفال وبين عمله كطبيب وكأستاذ . وهو موصلي وواحد من رعيل الأطباء العثمانيين . كان أول من تخصص في طب الأطفال في العراق بعد أن خدم في الجيش خلال الحرب العالمية الأولى ، ثم تقلب في إدارات طبية مختلفة قبل أن يطمئن إلى اختصاص طب الأطفال . وهو أول من عمل على فصل العيادات الخارجية للأطفال عن العيادات العامة في المستشفى الملكي ، ثم أول من تولى مديرية مستشفى حماية الأطفال . وكانت له الريادة في استحداث عدد من مشاريع رعاية الطفولة في العراق بما في ذلك تأسيس جمعية حماية الأطفال . وقد كرمته جامعة بغداد من أجل ذلك بمنحه درجة الدكتوراه الفخرية لمناسبة انعقاد المؤتمر العاشر لاتحاد جمعيات طب الأطفال لدول الشرق الأوسط والبحر المتوسط في بغداد عام 1976 .

كان الأستاذ القصير قصير القامة فعلاً وافر النشاط عصبي المزاج له قدرة على العمل الطويل المتواصل . وكثيراً ما كان يثور على أمهات الأطفال إن لمس منهن إهمالاً أو تأخراً في مراجعة المستشفى . وكانت الأمهات يتقبلن توبيخه كمظهر لاهتمامه بالطفل . دروسه كانت شائقة لما كانت لديه من قصص مستمدة من خبرته الشخصية الطويلة ، بعضها لا يخلو من الغرابة مثلاً ، قصة الرجل الموصلي الذي توفيت زوجته على الولادة فوضع ابنه الوليد على صدره لإسكاته وبعد أيام درَّ ثدي الرجل بالحليب حتى أشبع ولده! ولتوضيح دروس تغذية الأطفال كان يحضر معه علب الحليب المجفف وكمية من الحليب الطازج واللبن الرائب مع زجاجات الرضاعة وفرش تنظيفها الخ الخ . أذكر مرة ، وكنت حديثة التخرج ، أنه عاد من محاضرته مبكراً ومغضباً لأن بعض الطلبة المشاغبين شربوا اللبن والحليب قبل انتهاء المحاضرة . فترك الأستاذ المحاضرة على أن لا يعود إليها إلى نهاية السنة . وحين جاء الطلبة

المشاغبون إلى مستشفى حماية الأطفال معتذرين ومتأسفين رفض مقابلتهم كلياً فقمت بالتوسط بينهم والتمسته لقبول اعتذارهم . وأذكر من بينهم عصام العمري وخليل الشابندر . وقد قبل وساطتي كعادته وسامحهم على أن يعتذروا له أمام الطلبة في المحاضرة . وكان يعلق في هذه المناسبات بقوله «يقولون إن الحكمة والروية صفة الشيوخ وإن الشباب يتميزون بالطيش والعصبية ، وها نحن دوماً على العكس أنا أثور وأحتدم بسرعة وأنت تهدئينني» وقد تقاعد د .بقصير بعد تخرجي بوقت قصير واختير نائباً عن الموصل في مجلس الأمة .

الأستاذ عبد الأمير علاوي كان شاباً نشيطاً له قدرة عجيبة على مواصلة العمل لساعات طويلة مرهقة في الصباح ثم في العيادة المكتظة في المساء ثم في سهر الليالي في مجالات الحياة الاجتماعية النشطة . كان يحضر إلى المستشفى قبل الدوام بأكثر من ساعة لتفقد المرضى في ردهته وتوجيه علاجهم ثم يذهب إلى عيادته الخاصة ثم يعود إلى المستشفى ليفحص مئات من المرضى وليصرف الشؤون الإدارية وغيرها من واجبات كثيرة وهو يمزح ويضحك وكأن قاموسه لم يكن يعرف كلمة التعب . وكانت دروسه السريرية لذيذة وشائقة ولكنه كثيرا ما اضطر على إيكالها لمساعديه ، ومن هنا وجدت نفسي أقوم بتدريس الطلبة في المستشفى منذ التخرج! ولابد لي أن أذكر بأنه كان يمر بالمستشفى بعد الظهر في طريقه إلى العيادة الخاصة ، وكثيراً ما كان يعود إلى المستشفى في الليل حين ينتهي من العيادة . كان مجموع ساعات عمله في المستشفى يفوق عدد الساعات المفروضة للدوام الرسمي وكان يتوقع من كافة العاملين معه أن يفعلوا مثله . وحين استلم وزارة الصحة ، تميزت إدارته بالتقدمية والرغبة في تطوير الخدمات الصحية على ضوء التطورات العصية . وقد كان لمحاضرة ألقاها كوزير للصحة ، مفتتحا الموسم الثقافي للجمعية الطبية العراقية عام 1956 ، صدى استحسان كبير في أوساط الأطباء لما حوت من أفكار لا تختلف كثيراً عن أسس ما يسمى اليوم بالرعاية الصحية الأولية ، ولما كان فيها من تحسس بقضية الأطباء الذين يعملون منفردين في الأرياف في ظروف قاسية . وانتقد جدوى الخدمة التي كانت متبعة يومئذ بإرسال طبيب إلى المناطق النائية يعمل منفرداً دون فريق صحي مساند .

والأساتذة المصريون ، أمين عبد الرحمن الذي نفض الإملال عن درس التشريح العتيد . ومحمد طلعت ذو العلم الغزير والأسلوب الشيق . محاضراته كانت الوحيدة التي يفاجأ الطلبة بانتهائها ويأسفون لذلك . وأحمد الحلواني الذي أخاله يعرف عن

أمراض البلاد الحارة كل ما يمكن أن يلم به إنسان فكان أنسكلوبيديا بشرية . جاونا متحمسين مندفعين تسود دروسهم أجواء المرح والحبور . وكانوا جميعا ذوي علم وطول باع لم يجهدوا أنفسهم بسترها بتواضع العلماء . مثلاً ، شوهد أمين عبد الرحمن يجادلْ سكرتير العميد حول الصيغة التي بها وجهت إليه دعوة لحضور حفلة ما . فقد كان يريدها أن تكون على شكل (حضرة صاحب العزة الأستاذ الدكتور أمين بك عبد الرحمن المحترم) في حين أن الدعوة كتبت على شكل (الأستاذ الدكتور أمين عبد الرحمن المحترم) ذلك أن لقب (البهوية) كان قد أسبغ عليه من قبل ملك مصر تقديراً لجهوده العلمية والتدريسية وما كان لأحد أن يحرمه ذلك الشرف الذي اكتسبه باقتداره . وكانت العادة في الكلية أن تستعمل كلمة بك عند المخاطبة الشفوية : هاشم بك ، صائب شوكت بك . ولكنها لم تكن تكتب في الرسميات بالنظر لإلغاء الألقاب في العراق .

كل هؤلاء ، بما كان لديهم من إيجابيات وسلبيات تركوا آثارهم في نفوسنا الشابة سهلة الانطباع . ولكن هناك أستاذ كانت لي معه لحظات دقيقة ومؤثرة ما زالت عالقة في الذهن راسخة على الأيام . ذلك هو الأستاذ كروكشنك CRUICKSHANK. كان واحداً من أساتذة الجراحة الكثيرين ولا أستغرب أن أغفل ذكره كل من أرّخ لتاريخ الكلية أخاله جاءنا بعد تقاعده فقد كان يبدو أكبر سناً من زملائه . كان ضخم الجسم جهوري الصوت خشن المظهر ولكنه كان حساساً رقيقاً يتجنب إيلام المريض عند الفحص ويحترم حياء العراقيات وحرصهن على إسدال الغطاء على أجسادهن فلا يكشف منها أكثر مما يستوجب الفحص . وكثيراً ما استعان بي في الدرس السريري للوقوف إلى جانب المريضة والإمساك بيدها وتشجيعها على تحمل الموقف . ولم يكن يضيق ذرعاً بما كان يبديه بعض القرويين من جهل شديد في تلك الأيام عكس بعض العراقيين الذين لم يكونوا يتحملون هؤلاء ، بل ربما أهانوهم وأذلوهم . وكان قارئاً للأدب متذوقاً للشعر ، لغته جميلة واصطلاحاته فلسفية . كان شعاره الدائم «قبل كل شيء لا تجعل الحالة تسوء» أو بالإنكليزية First of All Don't Make it Worse أو باللاتينية Premium non nocceri وكان يحب أن يردد على أسماعنا المقولات اللاتينية المأثورة وترجمتها إلى الإنكليزية وكان يكتبها على السبورة ربما لأنه كان يريدنا أن نتعلمها . هو الذي أخبرني بأن شخصية شرلوك هولمز الشهيرة بناها المؤلف حول شخصية الدكتور بيل الذي سمي شلل

العصب السابع باسمه .

انتبه إليّ حين كان يعرض علينا حالة لتشمع الكبد ظهرت على البطن فيها الأوردة المتوسعة المعروفة بعلامة (رأس الميدوسا) وكنت الوحيدة من مجموعتنا من الطلبة التي أجابت سؤاله عن معنى الميدوسا وهي المرأة ذات الشعر المكون من الأفاعي في أساطير اليونان . حدقني بنظره وسأل كيف قرأت الإلياذة فأجبته مترجمة إلى العربية . ضحك بتعجب وقال «مرحى مرحى . عاد العرب إلى ترجمة الأعمال العظيمة» . وكنت قد قرأت ترجمة دريني خشبة للإلياذة في مجلة الرسالة التي كان المرحوم والدي يحرص على مجلداتها . وقد أوقعني هذا الحادث في مواقف محرجة . فكلما استعصت على الطلبة معرفة أمر كهذا ، كان يتوقع مني أن أجيب ويبدي استنكاره إن لم أعرف ! قال لي يوماً وقد درج على إعارتي بعض كتبه الأدبية «قرأت التاريخ الإسلامي قبل قدومي إلى هنا . وقد كدت أيأس من اكتشاف أحفاد أولئك الناس ولكني رأيت فيك أمل التواصل بين ماض مجيد وحاضر واعد ومستقبل أفضل . شيء مقرف» . لم أكن أعرف الاستعمالات الدارجة في الإنكليزية وقد حيرني التباين بين ابتسامته المشجعة ولفظة Disgusting التي استعملها . ورويت الحادث لوالدي فظن أنني لم أحسن سمع الكلمة جيداً ومد يده إلى عدد من أعداد مجلة الرسالة التي كانت مدرسة الجيل حينئذ وجعلني أقرأ جملة مطبوعة تحت اسم المجلة انحفرت في ذاكرتي منذ ذلك التاريخ : «تصل الماضي بالحاضر وتربط الشرق بالغرب على هدى وبصيرة» . طلب والدي أن أسأله أي كتب التاريخ قرأ ، وبدلاً من إجابتي قال «حذار أن تخطئي فهمي . أنا معجب بالإسلام ولكنني غير معجب إطلاقاً بالمسلمين اليوم» .

هكذا كان يتحدى تفكيري ويشحذ فكري دائماً . ويومها أعارني كتاب «قصة سانت ميشيل» لمؤلفها إكسيل مونتي ، الطبيب الذي عمل أثناء وباء للكوليرا في إيطاليا وقال «سوف يعجبك فهو رومانسي سخيف» . كان هذا أسلوبه في الكلام . هذا الرجل نشط في نفسي منذ البداية بذور محاولة التوفيق بين استيعاب حضارتنا والاعتزاز بقيمنا مع الحرص على المواكبة العصرية . فقد كان جيلنا يحب التفرنج بسطحية الكماليين في تركيا . والقوميون منا طغت عندهم نوازع التعصب والتبجح على مشاعر التفهم والاعتزاز . والجيل الذي سبقنا كان بعض مثقفيه يريد أن ينسخ كل ما في الماضي نسخاً ، وأن يقتبس كل ما هو جديد في أوروبا . والذين أحبوا

الترشيد في اقتباس الحضارة مثل والدي ومثل الأستاذ هاشم الوتري رحمهما الله كانوا يفعلون ذلك بتردد وبشبه اعتذار خوف أن يتهموا بالتخلف .

وهكذا كان تأثير هذا الأستاذ الأجنبي الذي تذوق حضارتنا ينمو ويتعمق في نفسي مع الأيام حتى استحال موقفاً وفلسفة حياة .

س5) ماذا كان دوركم في نشاطات الكلية وغيرها من الأمور كالبحوث والاطلاعات خلال سنوات الدراسة؟

كنت نشيطة جداً في المشاركة بالفعاليات الطلابية . كانت هناك جمعيات وفرق رياضية أبدى فيها طلاب صفنا نشاطا كبيراً في كرة السلة والطائرة وكرة القدم كما في التنس والبنج بونج وغيرها ، ذلك حتى ضاق بهم بعض طلبة الصفوف المتقدمة وهتف باستنكار «الصف الأول هذا أمس دخلوا الكلية وصاروا لي أمها وأبوها» . ذكرت هذا بعد سنين طويلة في مجلس الكلية وكان العميد الدكتور داود سلمان علي ، وأكثر من نصف أعضاء المجلس من خريجي صفنا . وكم تضاحكنا لتلك الذكريات البعيدة . وكان من أبطال الرياضة في صفنا الدكتور علي غالب ياسين أستاذ التشريح في هذه الكلية سابقاً والدكتور فاضل يوسف كمال والدكتور رشيد الغبان وفخري الحكيم ، وفي التنس فيضي الزهاوي وداود مسيح وغيرهم كثيرون . أما أنا فلم أكن في حياتي من المندفعين في الرياضة وكنت ألعب البنج بونج والبادمنتون وأشارك في التنس بلعب ضعيف . ولكننا كنا نحضر المسابقات ونصفق لفريق صفنا مشجعات .

جمعية الموسيقى كانت سيدة الجمعيات مستوى وتهذيباً . وكان أعضاؤها يستمعون في اجتماعات أسبوعية إلى غرر فن الموسيقى الكلاسيكية على أسطوانات تستعيرها الجمعية من أعضائها . وكان ذلك يتم حسب منهج يطبع على الآلة الكاتبة . ويسبق كل اجتماع شرح موجز للقطع التي سيتم الاستماع إليها . كان فارس هذه الجمعية الأغر غانم عقراوي أستاذ الجراحة الذي كان ولا يزال من المهتمين بالموسيقى والأدب والثقافة . وكان يعزف على الكمان ومعه سامي الشيخ قاسم المغترب العراقي في أمريكا ، وشقيقه الأصغر ، ابن صفي ، يوسف عقراوي أستاذ الباثولوجي سابقاً وكان يعزف على البيانو . ومن ذوي النشاط في هذه الجمعية كانت سانحة أمين زكي وأمة الزهاوي وآمنة صبري مراد وفيصل صبيح نشأت أستاذ

الفيزيولوجي سابقاً وسالم الدملوجي وخالد القصاب وداود سلمان علي . وكانت في صفنا بعض الأصوات الغنائية الجميلة كصوت آرتين قنطرجيان أستاذ الأمراض العصبية والذي تردد صوته الباريتون الجميل من قاعة الكلية إلى أرجاء منطقة العيواضية كلها وأطرب الكثيرين بأشجى الأغاني الغربية ومثله المرحوم فيضي الزهاوي . ولم تكن ذوات الأصوات الجميلة من البنات يشاركن في الغناء . وكان للكلية فرقة عزف وترية لا بأس بمستواها . كما كانت تحضر معنا نخبة من طلبة الكليات الأخرى منهم من أصبح من المشاهير في مجاله كالقاص المشهور الأستاذ عبد الملك عبد اللطيف نوري والمرحوم الأستاذ مصطفى كامل ياسين والأستاذ نجدة فتحي صفوت .

في صفنا صدر العدد الأول من مجلة «صوت الطلبة» مكتوباً باليد خلال درس من الدروس المملة . وكان العدد يدور بين الطلبة لكي يضيف إليه من يشاء طرفة أو بيت شعر أو فكرة . وكان هاشم بركات ، الذي شغل منصب وكالة وزارة العمل والشؤون الاجتماعية سابقاً ، يتولى تحرير هذه المجلة مع داود سلمان علي العميد الأسبق لهذه الكلية الذي كان يضيف رسومه إلى جانب الكتابة ، وفاضل يوسف كمال اختصاصي الأشعة وغيرهم كثيرون .

وكان بيننا من يعالج الشعر فيجيد نظمه مثل محمد سليمان فيضي وفاضل يوسف كمال وغيرهما . وكم ضيعت دراسة الطب من شعراء واعدين ، وما مثل المرحوم ضياء الدين الدخيلي بقليل . وأحب أن أتوقف عند اسم هذا الطالب المزمن المنكود الحظ ، فقد كان جزءاً ثابتاً من صورة كلية الطب فترة ناهزت العشرين عاماً . دخل الكلية قبلنا بسنوات ومات ولم يتخرج منها قط . ولم يعترف بفصله من الكلية الذي حتّمته الأنظمة ، بل ظل يحضر ما شاء من محاضرات ، سيما محاضرات الضيوف الأجانب . لا تقعده لهجته وضعف إنكليزيته عن إثارة الأسئلة والمناقشات معهم ولو شطّ بها وخرج عن الصدد ورغم من ضاق بذلك من الطلبة والأساتذة .

كان من أهل النجف يحمل تقاليدهم في قرض الشعر وإتقان فنون اللغة والأدب ، دون أن يملك ظرفهم وحسن معشرهم . ولم يكن حظه كبيراً في الخلقة والمظهر والهندام . وقد ظلم موهبته الشعرية الأصيلة بالمكابرة والإصرار على دراسة الطب . كان يحب أن يكون في حلقات الطلبة التي تضم الطالبات إلا أنهن كن يتجنبنه ربما لفجاجة في معاملاته أو ربما لتلك القصائد الجذلة التي نظمها متغزلاً

بطالبات جميلات كانت بعيدة عن الروح الرومانسي العذري الذي كان يتحكم في أذواقهن في تلك الأيام . وهذا لا يعني أننا لم نكن فيما بيننا نقرأ أشعاره ونتضاحك لمعانيه التي اعتبرناها جريئة بمقاييس أيامنا لا بمقاييس ما يكتب في هذه الأيام . وقصائده يحفظها بعض زملائنا مثل الدكتور مهدي مرتضى أستاذ الأمراض الباطنية سابقاً ، وفيها نفس الشاعر والفنان الموهوب . وقد نظم في بعض مناسبات الكلية وفي بعض أساتذتها ولكن تلك لم تكن من غرر أشعاره . خذ مثلاً في مدح العميد :

أحـــيـــيت جـــالينوس يا سندرسن
وأعـــدت بقـــراط الطبـــيب الأول

أو هجاءه للأستاذ «بيتي» أستاذ البكتريولوجي الذي رسب عنده مراراً :

ســتـــأتيك القـــصـــائد هادرات
على بيـــتي وشـــر الناس بيـــتي

في واحد من أحاديثي النادرة معه ، شجعته على الانصراف إلى الأدب وقلت له «أنت عملة نادرة . .أنت شاعر في حين أن الأطباء ما أكثرهم»! لكنه انفعل واعتبر قولي إهانة وقال وهو يزبد . . فلان نجح وعلان أصبح طبيباً ، هل هم خير مني . . وقد لامني بعض الزملاء على هذا التدخل لأن الطب لدى الرجل أصبح هوساً مستحوذاً وهاجساً مستبداً . رحمه الله .

أما النشاط العلمي فقد كان مقتصرا على جمع المعلومات عن موضوع معين من المكتبة ، ولم نكن نقوم بالبحوث الميدانية العملية لأن أساتذتنا أنفسهم كان يشغلهم ضغط العمل في الكلية والمستشفى والعيادات الخاصة عن البحث العلمي والكتابة . لذا كانوا بارعين جداً في التشخيص والسليقة السريرية إلا أنهم للأسف قلما دونوا أعمالهم في النشريات .

س6) بعض الصور والذكريات التي ميزت الحياة الدراسية في الكلية؟

الصور كثيرة جداً وبعضها يظهر في سياق إجابتي على الأسئلة بصورة عامة . كانت العلاقة بين التلميذ وأستاذه أوثق منها في يومنا هذا . وبين الأساتذة من كان يتوقع منا أن نلازمه طيلة فترة العمل . وكانوا يستعينون بنا في العطل وكلما سمحت

لنا أوقاتنا .

كنا جماعة من الأصدقاء استعان بنا الدكتور بيثون رسام رحمه الله في عيادته الخارجية الجراحية ، وقد ارتحنا إلى هدوء الرجل وطول أناته وجميل صبره على المشقات . كنا في الصف الثاني لا نعرف شيئاً عن باثولوجية الأمراض بعد ولكنه علمنا الكثير من الأساليب السريرية . وكنا نحضر العيادة في الصباح الباكر حين يكون هو مشغولاً مع طلبة التشريح نواجه أعداد المراجعين الهائلة التي كانت تبلغ 300-400 مريضا للطبيب الواحد أحياناً . وقد تولدت لدينا قابلية الفرز بين المراجعين بالنسبة لشدة حالتهم . المرضى المدنفون نرسلهم لدخول المستشفى دون تأخير ، وذوي الإصابات الطفيفة ، كجرح قاطع يحتاج قطبتين أو طفل يريدون ختانه أو خراج يحتاج إلى فتح ، كنا نرسلهم إلى قاعة العمليات الصغرى رأساً بأوراق موقعة من قبل أستاذنا سلفاً . كذلك نرسل من يحتاج الفحص الشعاعي أو المختبري لإجراء ذلك . وحين يحضر الأستاذ نكون قد خففنا عنه العدد وأعددنا له الحالات التي تحتاج رأيه وتصرفه .

وكم تعلمنا في هذه العيادات من دروس ثمينة ، لذلك كنت دائماً في مناقشات قسم الطب أحبذ تعريض الطلبة إلى العمل السريري بشكل مبكر . وكم سررت حين جاءتنا النظريات من الخارج تقول بأن الاتجاه الحديث يشجع على ذلك سواء كان الطالب قد درس الباثولوجي أو لم يدرس . غير أن نظريات بعض المحافظين من الأساتذة كانت عادة تنال الغلبة . كذلك اطلعنا في هذه العيادات على صور من بؤس العراقيين وفقرهم لم نكن نحلم بوجودها قبل ذلك . غير أن لهذا الحديث مكاناً غير هذا المكان .

من الأيام التي لا تنسى ، أيامنا في حركة رشيد عالي الكيلاني عام 1941 . تحمس الطلبة أيّما حماس والأكثرية لا تعرف خلفيات الأمر وملابساته ولكن تكفي عبارة محاربة الاستعمار لإلهاب المشاعر الشابة . لبسنا جميعاً الخاكي باختيارنا ولكن الدراسة استمرت بادئ الأمر إلى أن تسلّط علينا طلبة الحقوق . كانوا يقتحمون علينا قاعات المحاضرات ويصرخون أمامنا باللوم بلهجة منبرية حماسية : «أيها الأخوة . . الوطن في خطر وأنتم عنه مشغولون . .الخ الخ» ومن قال لهم أن الدراسة في أوروبا مستمرة رغم الحرب الطاحنة فيها وأراد أن يفهم ما الذي سيفعله الطلبة إن توقفت الدراسة ، اعتبر ذلك منه خروجاً على الوطنية . وإلى جانب ذلك لم يعد الأساتذة يتحملون اقتحام الدروس عليهم ومقاطعتهم وتناسي وجودهم في القاعة . أذكر أنهم

دخلوا علينا يوماً درس الفزيولوجي والأستاذ محمد طلعت يلقي علينا واحدة من محاضراته الشيقات فامتقع وجه الرجل وألقى بالطباشير من يده وغادر القاعة إلى غير عودة وتركنا إلى توبيخ طالب خطيب متحمس من طلبة كلية الحقوق المزمنين . وكان في التاريخ القريب مأساة مقتل أستاذ جليل من قبل طالب حقوق رسب قتل هو أيضاً .

بعد ذلك صار دوامنا اليومي في مطعم الكلية وحول المناضد المنتشرة على رُقعة الحشيش التي ذكرتها سابقاً نقرأ الجرائد ونستمع للراديو يصرخ بأعلى صوته بالموسيقى الحماسية والبيانات العسكرية الملفقة التي كانت تستثير عواطفنا الشابة ونتحمس حتى لتلك التي كانت واضحة الكذب والتلفيق . ومن يمتنع عن الحضور إلى الكلية يعتبر مارقاً على الوطن . وكان الدكتور عبد المجيد القصاب معاون العميد يومئذ أكثرنا حماساً وطالما وبّخنا حول قضايا السير والانضباط باعتباره ضابطاً ونحن جنوداً .

انخرطنا في فرق الإسعاف الأولي والفوري والدفاع المدني واستمعنا إلى محاضرات في ذلك كانت تلقى علينا من قبل الجراحين لفترة ساعة واحدة في اليوم نكون بعدها أحرارا . ومن عجب أن دروسا في مباديء اللغة الروسية واللغة الألمانية أخذت تلقى على الطلبة أيضا ، ربما لارتباط ألمانيا وروسيا بمعاهدة صداقة يومئذ .

وقد برزت قضية المرأة في هذه المناسبة حين وزعت الواجبات وكانت نوبات الطالبات جميعاً أثناء النهار . ارتاحت أكثريتنا لذلك طبعاً ، إلا أن بعض المتحمسات أردن مساواة المرأة بالرجل وطالبن بواجبات الخفارة الليلية مع الطلاب فحسم آباؤنا هذه المناقشة برفضهم القاطع لشيء من ذلك . ولفورة حماسنا اندفعنا في إنجاز أعمال يقترحها أحد الطلبة فنسرع في تنفيذها دون أن ندري أتنفع تلك الفعاليات أم تضر .

كانت كلية الطب تعتبر مركز اجتماع طلبة الكليات الأخرى . وقد زارنا فيها خلال مايس 1941 عدد كبير من الشخصيات العراقية والعربية بينهم الحاج أمين الحسيني مفتي القدس والسيد ساطع الحصري . ولكن الشخصية التي ألهبت حماسنا وأجّجت عواطفنا كان الدكتور مصطفى الوكيل أستاذ الرياضيات المصري الذي لا أظن بأنني سمعت خطيباً أبلغ ولا أفصح منه ولا أقدر على تحريك العواطف ورفع المعنويات .

حتى الجرائم والسرقات توقفت في البلد خلال ذلك الشهر . والقصص كثيرة إلا أنني أكتفي بالقول بأن خيبة الأمل التي أعقبت تلك الحركة كانت هائلة ، وأن ردة

الفعل ومرارة النكسة أفقدت بعضنا إيمانه بكل شيء ودفعته إلى أحضان أحزاب سياسية وجماعات متطرفة فسمح لتلك النكسة أن تؤثر على حياته كلها وعلى مستقبله ومصيره .

بانتهاء الحركة أعلن نجاح كافة طلبة العراق لتلك السنة دون امتحانات ، فإن وقوع الحركة في شهر أيار (مايس) فوّت عليهم وقت الامتحانات ، كما كان ذلك بمثابة رشوة تخفف عن الشباب وقع النكسة ، باستثناء كلية الطب فقد رفض مجلس أساتذتها أن يمرَّ الطلبة دون امتحان . لذا أكملنا الدروس خلال أشهر الصيف وأجريت لنا امتحانات أصولية وواصلنا الدراسة للسنة الجديدة دون أن نتمتع بعطلة صيفية .

من الحوادث التي تذكر وفاة الجراح أبراهام ولم يكن يدرسنا ولكنه أعطانا بعض المحاضرات في التشريح أثناء إجازة لأستاذ التشريح . شيعت الكلية جنازته بموكب مدني وعسكري مهيب . وقد قطعنا الشارع الموازي لحديقة الأمير غازي (حديقة الأمة اليوم) مشياً على الأقدام . الأساتذة بالقلنسوة الجامعية والروب الأسود وفوقه الوشاح بلون براق أحمر أو أخضر يميز الرتبة الجامعية والطلبة بزيهم الموحد المكون من سترة زرقاء وتنورة أو سروال رمادي ، يسيرون جميعاً بانتظام على عزف الموسيقى العسكرية العراقية مع كوكبة من الجنود . فقد كان معظم الأطباء الأجانب من العسكريين الذين دخلوا العراق مع الحملة البريطانية . واحتشد الناس على جانبي الطريق لمشاهدة هذا المنظر المهيب . وتمت مراسيم الدفن في مقبرة اللاتين الواقعة قرب ساحة الطيران بعد أن ألقى العميد الدكتور سندرسن كلمة الوداع وبعد أن أطلقت البنادق تحيتها للميت . على هذه الصورة كانت الكلية تقوم بالواجب الأخير لأساتذتها . إلا أن هذا التقليد نبذ فيما بعد .

هذا الاحتفال تجسم في ذاكرتي بعد سنين طويلة في فترة توتر سياسي في أوائل الستينات عند وفاة أستاذنا الدكتور هاشم الوتري عميد كلية الطب وعضو المجمع العلمي العراقي وزميل كلية الأطباء الملكية في لندن .

أسرعنا ، زوجي وأنا ، إلى داره في الرواف حين كلمتنا ابنته تلفونياً وكان ابنه سعد يدرس في بريطانيا . توقعنا أن نجد دائرة الأطباء التي كانت تدور في فلكه يوم كان ذو حول وطول ، قد سبقتنا إلى هناك . ومن العجب أن أحداً منهم لم يكن حاضرا ، بل إن الطبيب الوحيد الذي خف لإسعافه وحضر لحظة وفاته كان الدكتور علاء الدين الخالدي أستاذ الفرماكولوجي في هذه الكلية سابقاً ، وهو المعروف بدماثة

الخلق والوفاء للمودات . كان وحده يقوم بتهدئة البنات وأمهن وبينهن من لم تكن تمتلك الصحة . ولم يكن وحده الذي استنجدت به خالدة .

وفي حفل تأبين هذا الرائد الذي أقيم في قاعة كلية الطب كان عدد حضور الحفل يُعَدُّ على أصابع اليدين . وألقى عميد الكلية المرحوم الأستاذ أحمد عزت القيسي كلمة خرج فيها عن ما هو مألوف في هذه المناسبات ، كما أبّنه الدكتور سالم الدملوجي ممثلاً للجمعية الطبية العراقية . وحين جاء دور المرحوم الأستاذ منير القاضي عميد*كلية الحقوق الأسبق ، ممثلاً للمجمع العلمي العراقي الذي كان يرأسه ، تعمد أن يضع الأوراق التي أعدها للمناسبة بشكل ملفت للنظر وارتجل كلمة مقتضبة من معانيها أنه حضر وهو يعتقد أنه لن يستطيع أن يصل المنصة لازدحام الأطباء في تأبين عميدهم الذي تخرجت على يده أجيال من الأطباء . وأشاد بجهود الأستاذ في تعريب المصطلحات الطبية وفي أعمال المجمع العلمي . ثم التقط أوراقه وانصرف ولم ينتظر نهاية الحفل التأبيني .

هذه الحادثة حزت في نفسي ،لذا فإنني حين أعلمت بوفاة أستاذنا المرحوم عبدالله القصير ، وهو أول من تخصص بطب الأطفال في العراق ، كلمت العميد الدكتور محمد علي خليل تلفونياً واقترحت عليه أن تشارك الكلية في تشييعه ولو بإكليل زهر يحمل اسمها . وفعلاً قمنا بتنظيم ذلك فكان على جثمانه إكليل يحمل اسم كلية الطب وآخر يحمل اسم جمعية أطباء الأطفال العراقية وإكليل ثالث أرسلته أنا يحمل اسم فرع الأطفال في كلية الطب . ولا أعتقد بأن الكلية التفتت إلى هذه المعاني في المناسبات المشابهة ، وأجر من خدمها على الله .

س7) عند التخرج كيف كانت أموركم؟ ولماذا اخترت فرع الأطفال؟

في العمر أيام لا تنسى ، ومن ينسى بداية أيام الدراسة أو ختامها؟ للاختصار أقول ، بدأت الاستعدادات لحفل الشهادات الذي أقيم تحت رعاية رئيس الدولة في القسم الصفي لقاعة الملك فيصل الثاني (قاعة الشعب اليوم) . وكان هذا القسم الصيفي عبارة عن مدرج دائري مكشوف على طريقة المسارح الرومانية والمسرح في الوسط . وكانت تحيط به أشجار اليوكاليبتوس الضخمة وأحواض الزهور . والمدرّجات كانت مزروعة بالحشيش توضع فوقه المقاعد . كانت حفلة التخرج مناسبة رسمية هادئة يحضرها رئيس الدولة والوزراء . انتظرنا في الداخل ضاحكين مازحين معلقين

على مظهر بعضنا بالروب الجامعي حتى أعلنت موسيقى الجيش أن الوقت قد حان . فدخل أولاً موكب الأساتذة الوقور بالروبات والقلانس السوداء تزين صدورهم الأوشحة مختلفة الألوان . وبعد أن استقروا في مجالسهم دخل موكب الطلبة وكانوا يحاولون اصطناع وقار كوقار أساتذتهم ، فتخونهم نضارة الوجوه ونظرات الحبور التي يجيلونها بحثاً عن مواقع جلوس أقاربهم في الحفلة .

العميد سندرسن ألقى كلمته بإنكليزية فخمة مطعمة بالتعابير اللاتينية وهو يجهد ليرفع صوته على أصوات عصافير المساء التي لم يكن يهمها أن تطمس ذلك الصوت . ثم قام الأستاذ هاشم الوتري بتلاوة اليمين (يمين أبقراط) الذي كنا نكرره بعده جملة بعد جملة . ثم يقدم العميد الطلبة بأسمائهم فرداً فرداً لتسلم الجوائز والشهادات . كل ذلك يجري بما يشبه الطقوس الدينية . وكنت أسترجع كل هذا في حفلات السنوات المتأخرة لجامعة بغداد حين كانت تفور العواطف وترتفع هلاهل الطلبة كلما استدعي موكب من مواكب الكليات ، فأتعجب للسرعة التي حل بها التساهل والانطلاق في هذا المجال محل وقار تلك الأيام .

وكان للجمعية الطبية تقليد جميل هو العشاء السنوي للجمعية . ومن خلاله يتم أيضاً تكريم الخريجين الجدد . كان العسكريون يحضرون بالملابس العسكرية والمدنيون بملابس السهرة السوداء ومنهم من يكتفي ببدلة غامقة ، والسيدات بملابس السهرة الطويلة . وكان يدعى إلى الحفل كبار الأطباء ومن هم في المسؤولية وكبار الممرضات والصحافة أيضاً .

حضرنا نحن البنات بأثواب طويلة (سواريه) وشعور مصففة ، لكننا لم نخرج على عاداتنا في تجنب أصباغ الزينة (المكياج) إذ لم يكن ذلك مألوفاً ولا مقبولاً من قبل الآنسات الصغيرات . ولبس معظم الطلاب البدلات الغامقة ، ومن درس على نفقة وزارة الدفاع حضر بالملابس العسكرية ، وأقلية من الطلبة استعاروا بدلة (السموكنك) من آبائهم رغم أنها كانت تبدو فضفاضة على أجسامهم الشابة النحيفة ، الأمر الذي أثار فيما بينهم المزاح والمداعبات .

وعلى مائدة العشاء كان رئيس الجمعية يلقي الكلمة الرئيسية للحفلة وبضمنها الترحيب بالخريجين الجدد وبالمدعوين . بعد ذلك تلقى خطب الأنخاب والتحيات ، وكانت في العادة نموذجاً جميلاً من أدب المجاملات والممازحات . كما كانت المناسبة فرصة لنا للاختلاط بالأساتذة على الصعيد الاجتماعي والتحدث إليهم في شؤون

بعيدة عن ما ألفناه في الكلية .

أما اختياري لطب الأطفال ، فتلك قصة تتعلق بتاريخي الشخصي وليس بتاريخ الكلية ، ولكن يكفي أن أقول بأنني فكرت لوهلة في العمل في مختبر البكتريولوجي الذي حببني فيه «بيتي» و«ملز» ولكي أتجنب الأحزان اليومية التي كان الطبيب دائم التعرض لها في حياته في مواجهة الناس كل يوم !وفعلاً فاتحت فرحب بذلك ولكنه حذرني بأن لا أتسرع في اختيار الانعزال في العمل المختبري قبل التأكد من رغبتي الصادقة في ذلك . وفعلاً ما كدت أبدأ العمل في مستشفى حماية الأطفال حتى علمت بأن مكاني الطبيعي كان هناك وسط المعمعة وفي زحمة المراجعين بأتراحهم وأفراحهم . وكم أنا سعيدة لأنني اخترت أن أضع حياتي في خدمة أطفال بلدي وغير بلدي . ولي في خدمتهم حوادث وذكريات تغمرني بمشاعر السعادة والاعتزاز .

س8) ما هو رأيكم في مستوى الطلبة خلال سني دراستكم وتدريسكم في الكلية وما بعد ذلك؟ وكيف يقارن مستوى كليتنا بالكليات العربية والعالمية؟

مستوى طلبة كلية الطب كان وما زال جيداً يؤهلهم للعمل بالمستوى المقبول للتطور ومواصلة التعلم . وبالطبع هنالك الأقلية النابهة جداً والمتفوقة في كل المقاييس وعكسها الأقلية الخاملة . وهذه الأخيرة كانت في السابق تستبعد في مرحلة مبكرة من الدراسة فيتسنى لها أن تبدأ دراسة أخرى غير الطب . بعد هذا القول يمكننا أن نحدد أهم سلبيات الطالب العراقي بالاتكالية الكبيرة على التلقين أولا وبالاهتمام برقعات المرضى كما يراها في المستشفى بمعزل عن خلفياتها الاجتماعية والبيئية ثانياً . ولا أبرّيء المناهج الدراسية وأساليب التدريس من شطرها من المسؤولية في غرس هذه السلبيات .

أما مقارنتها بالكليات العربية فقد سمعت من أساتذة أجانب كثيرين في الخارج ثناءً طيباً على الكلية مبنياً على إنجاز الأطباء العراقيين الشباب هناك . وهي اليوم تعتبر واحدة من أحسن كليات الطب في عالمنا العربي وفي العالم الثالث فيما يختص بتدريب الطلبة وأطباء الدراسات العليا .

أما بالنسبة للمراكز الطبية النادرة في العالم فإننا لا نجاريها في جوانب مهمة ، منها تقصيرنا في دراسة المشكلات الصحية المحلية وإمكانات مواجهتها وفي تنظيم

البحوث والدراسات ذات المستوى الرفيع . أي أننا ما زلنا نمثل دور المستهلكين والمستقبلين للعلوم والمعارف المعاصرة وليس دور المنتجين لها .

س9) ما رأيكم في المستوى العلمي والعملي للطالب بعد تخرجه من الكلية؟

بعد التخرج أستطيع أن ألخص رأيي بالأطباء الشباب بقولي أن أكثريتهم الساحقة تعالج المرضى بالمستوى المقبول علمياً ومهنياً وأخلاقياً . وقد شهدت ممارستهم عن كثب في القرى والأرياف وضمن خدمات التأمين الصحي فحصلت لدي قناعة بأن انتشار شبابنا في الريف ساعد على تحسين الخدمات الطبية وعلى تقليص الكثير من الظواهر السلبية السابقة والاستغلال لجهل الناس وبساطتهم .

بين الشباب فئة نابهة جداً ومتحمسة تؤدي أكثر مما يطلب منها من عمل ، مثل ذلك الفتى العزيز الذي نظم حملة صغيرة لمكافحة التدرن في منطقته وأدخل التمنيعات ضد أمراض الطفولة في قرية لم تكن قبله تعرف غير لقاح الجدري . وقد قام بحملة نشطة لقح خلالها عدداً كبيراً من أطفال القرية وما جاورها من المساكن في فترة زمنية قصيرة حرصاً على اللقاحات من مشاكل انقطاع تيار الكهرباء . إلا أن مثل هذه المبادرات كانت مرتبطة بالمبادرة الشخصية وليس ضمن نظام أو سياسة للخدمة الصحية الشاملة .

بعد هذا أقول بأن أهم السلبيات نابعة من طبيعة المناهج والتدريب في الكلية من جهة ، ومن غياب نظام أو برنامج صحي واضح الأهداف يكون فيه الطبيب على رأس الفريق الصحي المؤثر من جهة أخرى . لذا فإن التبرم والضيق بالعمل في ظروف ريفنا العراقي ظاهرة واضحة لدى الشباب ، وهذا خلال فترة التدرج الطبي . أما في المستشفيات ، فإن الشباب يعملون بشكل جيد اعتماداً على مستوى المستشفى وما يتوفر فيها من إمكانيات .

س10) ما هو تأثيركم في قسم الأطفال؟ وهل اضطلعتم برئاسة القسم؟ وإن لم تفعلوا ذلك فما هو سبب امتناعكم؟

القسم الأول من سؤالك لا يخلو من إحراج خشية أن أقع في رذيلة التبجح . والعامة عندنا تقول «أعوذ بالله من قولة أني» . ولعل الأجدر بي أن أبدأ بالتحدث

عن تأثير جيلنا من الأطباء على الكلية أولاً . فأنا فرد من مجموعة من الأطباء لا يستهان بحجمها ، أنهت دراستها في الخارج خلال فترة زمنية متقاربة وعادت إلى الوطن باندفاع الشباب وعنفوانه فكانت عودتها فاتحة مرحلة متميزة من تاريخ الكلية نقلتها إلى مواكبة المستويات العصرية في أساليب التدريس وفي ممارسة المهنة حتى أصبحت واحدة من أحسن كليات الطب في المنطقة . ولا بد لي أن أذكر أن طموح أكثرنا كان في العودة للخدمة في بلدنا لا النزوح إلى الخارج ، فقد كان جيلاً متحمساً لم يتعرض بعد لخيبات الأمل . وكنا رومانسيين في تطلعاتنا الوطنية وفي مشاعرنا وفكرنا ووجداننا . وإلى جانب ذلك لا أستبعد أن الفتاة منا كانت تحمل في لا وعيها وفي قرارة نفسها رغبة في إثبات الجدارة وتحقيق الشخصية . ألم تكن أناشيد المدرسة تقول في نشيد من نظم السيدة نجلاء قرينة الأستاذ الدكتور متى عقراوي :

أرجعي المجد القديم العاليا
واحيي ذكر الخالدين الماضيا
اجعلي الأخلاق رمزا عاليا
وأنيري روح نشء زاهية
أنت ركن الشعب في كل الحقب
أنت نور ساطع منه الأدب
أنت رمز العز والعز نصب
فلتكوني أنت ميثار اللهب
فعلى أوتارك الشتى الطروب
نظمت أمجادها كل الهمم
وعلى مغزلك الزاهي اللعوب
غزلت أعلامها كل الأمم

لقد سنحت لبعضنا فرص ممتازة للعمل خارج العراق وفي المنظمات الدولية إلا أننا آثرنا الخدمة محلياً في ظروف عمل أبعد ما تكون عن المثالية ، وعلى أساس أننا سنحقق الطفرة إلى أمام . فكنا بذلك كأصحاب رسالة وضعوا أمر تحقيقها قبل كل اعتبار .

بعد هذه المقدمة أسمح لنفسي بالتحدث عن نفسي وإن كنت أتمنى لو قام

بذلك غيري .

رئاسة فرع الأطفال لم أمتنع عنها ، بل استلمتها حين شغرت عام 1958 بناءً على انتخاب زملائي في الفرع . فقد كانت إدارة الكلية في تلك الأيام تسير بنوع من الديمقراطية . في البداية كان العميد ينتخبه الأساتذة من بينهم ، ثم ألغي هذا التقليد في فترة مبكرة . ورؤساء الأقسام والفروع كان يتم انتخابهم من قبل أقسامهم وفروعهم وكانوا يمثلونهم في مجلس الكلية . وقد تقلصت هذه الممارسات الديمقراطية تدريجيا واستبدلت بأسلوب التعيين .

كنت أمثل فرع طب الأطفال في مجلس الكلية الذي لم يعرف الخمول ، فقد كنت أشارك في طرح الاقتراحات وفي تطوير الأفكار وصياغة القرارات على ضوء مناقشات أعضاء فرعنا للأجندة التي كانت توزع علينا مسبقاً . وكنا مواكبين لتيارات التعليم الطبي الحديثة في الخارج . وبالرغم من كوننا فرعاً من قسم الطب الباطني (ثم تغير اسم الفرع إلى شعبة!) إلا أننا كنا ذوي نشاط في التدريس وفي المجالات الأكاديمية والبحث العلمي وفي مجالات الخدمة الاجتماعية أيضاً ، حتى صارت لفرعنا شخصية معنوية لا تقل عن أنشط الأقسام بل ربما تزيد .

من فرعنا وصفت أول حالات في العراق لمرض لشمانيا الأحشاء ، ثابتة مخبرياً من قبل زميلي الأستاذ المرحوم سلمان تاج الدين وبمساعدة أستاذ الباثولوجي الدكتور خليل الألوسي . وقبل ذلك كان يقال أن ليس في العراق وجود لهذا المرض . وزميلي الأستاذ عدنان شاكر له بحوث متميزة عالمياً في مجال سوء التغذية ، وقد سمي مقياس محيط ذراع الطفل باسمه (شريط شاكر) .

وأنا ، ولا فخر ، لدي بحوثي ودراساتي . مثلاً ، دراسات التسمم بالزئبق تعتبر من أهم البحوث المعتمدة عالميا في مجالات تلوث البيئة وعلاقتها بالأجنة والرضع والإنجاب عند البشر بصورة عامة .وتلوث البيئة ، كما لا يخفى ، أصبح من أهم مشاكل الصحة العامة في يومنا هذا . واعتمدت تلك البحوث أيضاً في تقرير المستوى المقبول للزئبق في الغذاء أو في التحذير من تناول بعض الأطعمة من قبل فئات معينة من البشر . وهي ليست كل ما قمت به من بحوث .

في عام 1970 ابتدأت الدراسة العليا في الكلية ، وكنت رئيسة لجنة الدراسات العليا لطب الأطفال . وقد قامت اللجنة بتنظيم البرامج وتنفيذها على الأسس التي تضمن حسن تدريس الطلبة وتدريبهم على أفضل وجه تسمح به إمكانات البلد

ومؤسساته من مشافي ومعاهد وغيرها من مؤسسات خدمة الطفولة . كما حرصنا أن تكون أطروحات الطلبة في صميم المشكلات الشائعة في بلدنا . وقد أبدى الكثير من الأساتذة الأجانب إعجابهم بتدريب الطلبة وبمستواهم العلمي . وقد توفق أكثريتهم في الدراسات خارج العراق دون صعوبة . وشهد لي بمستواهم بعض زملائي من الأساتذة الأجانب .

وخير شاهد على بلاء فرعنا ما حصل يوم اجتمع الدكتور سلطان الشاوي ، رئيس جامعة بغداد الأسبق ، بطلبة الدراسات العليا دون الأساتذة لكي يعربوا عن رأيهم بحرية في سير التدريس ولكي يطلع على ما يمكن معالجته من السلبيات . ثم اجتمع بهيئات التدريس لمناقشة الأمر معهم ، وكان ذلك في عام 1979 . وأثناء اجتماعه بقسم الطب ، وكنا كما أسلفنا فرعاً من ذلك القسم ، فاجأني حين قال على رؤوس الأشهاد بأن الدراسة الوحيدة التي كان الطلبة فيها يشعرون بالرضا وبأن أوقاتهم مفيدة ومثمرة هي دراسة الأطفال ، ولم يذكروا أية سلبيات لأنهم قالوا أنهم يحلون مشاكلهم بمساعدة رئيسة الفرع مباشرة . ولقد سرني ذلك فقد كان شهادة غير متوقعة لزملائي في الفرع ولشخصي . وبعد تلك الجلسة مباشرة ، اقترحت على العميد شفوياً ، وكان يجمع بين رئاسة الطب الباطني وبين العمادة ، أن يوجه كتاب شكر لفرع الأطفال تشجيعاً للزملاء على حسن عملهم دون ذكر الأسماء فكان جوابه أن لا شكر على واجب . وهو صادق في هذا طبعاً ، إذ أننا لم نكن نقوم بأكثر من الواجب .

كنت أحرص على الكلية واسمها قبل كل شيء . مثلاً ، في أوائل عقد السبعينات كنت في لندن أقلب صفحات كتيب يصدره مجلس الامتحانات الإنكليزية فاستوقف انتباهي عدم وجود اسم العراق بين البلاد التي يعترف المجلس بالتدريب في مشافيها لغرض الامتحان . فاتصلت على الفور بسكرتير المجلس وعرفته بنفسي ثم زرته في نفس اليوم في مركز الامتحانات في ساحة الملكة Queens Square . وملأت هناك استمارة طلب الاعتراف بمشافي الأطفال في بغداد مع أسماء من يستطيع أن يزكيها من الأساتذة البريطانيين . وبعد عودتي أخبرت العميد فبارك الخطوة . وسروري بما حقق ذلك من تيسير لأمور الأطباء الشباب وبرؤية اسم العراق في ذلك الكراس كان أقصى ما طمحت إليه .

و لكن ، وأهم من كل ذلك في مجرى حياتي العملية ، هو صبري وطول نفسي

وطريقتي الشخصية في ممارسة المهنة وعلاقاتي الوثيقة مع الأطفال وعوائلهم . وأستطيع أن أدعي ، وليسامحني الله إن بالغت ، بأنني أعطيت المهنة من قلبي وعواطفي القدر الذي جعلني صديقة حميمة لأسر الأطفال الذين كانوا برعايتي بصرف النظر عن المستوى الثقافي والاجتماعي للأسرة ، بل ربما كانت علاقتي أوثق بالبائسين والمحرومين من بينهم . وربما أيضاً كنت الوحيدة من الأساتذة التي قامت متطوعة بزيارة الأطفال في منازلهم ودراسة خلفيات حالتهم ضمن أسرهم وفي وسطهم الاجتماعي والاقتصادي . وكان ذلك قبل أن يبدأ الحديث عن طب المجتمع وقبل أن تصبح ممارسة ذلك مهنة واختصاصا . أولاً ، من خلال عملي في إدارة رعاية الأمومة والطفولة وبعد ذلك كجزء من بحوثي ودراساتي في المناطق الريفية والقروية . ولي في مساكن الطين التي تسكنها تلك العوائل مكان الترحيب وتربط بيني وبينها أخوة في الله ما زالت متصلة ، يتفقدونني ويسألون عني ومنهم من يكتب إليّ وأنا خارج الوطن . وكل أملي أن أكون قد وفقت في أن أغرس في نفوس الشباب من زملائي ممن ساعدوني في عملي مثل هذه القيم والاتجاهات ، بل إن آخر عمل لطلابي أشرفت عليه في الكلية في أواخر 1979 كان دراسة صحية اجتماعية مبنية على زيارة المنازل في مدينة الثورة وضعت أسسها وتفاصيلها مع ممثل الطلبة ورافقهم في تنفيذها من التدريسيين تلميذي وزميلي الكريم عبد الجليل البرزنجي . وحين نشرت نتائج تلك الدراسة كانت أيامي في الكلية قد انقطعت والنتائج قرأت عنها في الصحف المحلية فقرت عيني بنجاحها .

أما الصبر وطول النفس فترى بعض مظاهرها عند قراءة بحوثي المنشورة . مثلاً ، عند دراسة أسباب التخلف العقلي الشديد في العراق ، خططت لدراسة ما لا يقل عن ألف حالة . وجمعت أكثر من ذلك بفضل زملاء كرام كانوا يحيلون إلي كل حالة تصلهم . ويعرف الباحثون ما يتطلبه من المرء جهد كهذا . ومن فريق الباحثين الذي تشكل لدراسة التسمم بالزئبق عام 1971 بقيت أنا الوحيدة بين الزملاء أتابع المرضى الذين التزمت بمسؤوليتهم وأزورهم في مساكنهم الريفية بيتاً بيتاً مرتين في كل عام حتى تعذر ذلك علي لأسباب خارج إرادتي . ونشرت وما زلت أنشر حول نتائج ذلك الحادث الفاجع بحوثاً استغرقت سنوات عديدة ، كما سينشر غيرها في المستقبل إن شاء الله . لقد قرأت مؤخراً متابعة حالات التسمم في تركيا بعد مضي خمسة وعشرين عاماً على ذلك الحادث ، فشعرت بالسرور إذ أننا نستطيع أيضاً أن ننشر نتائج

عشر سنوات متواصلة من العمل الدؤوب .

في المؤتمر السنوي للجمعية الطبية العراقية كان لأعضاء فرعنا دوماً وجود جيد وكذلك في المؤتمرات الإقليمية والعالمية ، حتى قبل أن تتعهد الجامعة بتكاليف المشاركة في تلك المؤتمرات . من هنا كان اختياري لعضوية اللجنة الدائمة لاتحاد جمعيات طب الأطفال العالمية ، وهو شرف لفرع طب الأطفال ولجمعية أطباء الأطفال أعتز به .

س11) هل تفضلون الجانب الإداري بالإضافة إلى مهنتكم الطبية ولماذا؟

بمرور السنين في علاج الوقعات المرضية المختلفة وممارسة المهنة الطبية وتدريس الطلبة ، ومن طول القراءة والمشاركة في الحوار والمناقشات يتجمع لدى المرء مخزون كبير من الأفكار والخبرات حول المشكلات الصحية وخلفياتها وحول الدراسة والتدريس وما تعلم المرء إجمالا في مدرسة الحياة وجامعة التجربة والخطأ . وهذا المخزون باعتقادي يشكل رصيداً ضخماً ثميناً لابد أن ينتفع البلد بما فيه وبما هو بحاجة إليه . والتفريط بهذا الرصيد لا يخدم المصالح العليا للعمل . من هنا كان قبولي لرئاسة الفرع ولعضوية اللجان المختلفة . فقد كنت أشعر بأنني أستطيع الإسهام فيها بشكل بناء مفيد . ولا يفوتك بأن قبول المسؤولية لا يخلو من تضحية . ففي الوقت الذي ينجز زملاؤك شطرهم من الواجب وينتهي دورهم يكون عليك إلى جانب ذلك ، كرئيس للفرع ، أن تنسق وتوفق وأن تقوِّم هذا السؤال وتحسّن هذه اللغة إلى جانب العمل لتوفير أفضل ظروف العمل والدراسة و تنسيق العلاقات بين الجهات المختلفة . هذه كلها جهود غير مشكورة ونصب لا يحظى بالتقدير . فضلاً عن كونك واجهة الفرع والدرع الذي يتلقى نقدات المنتقدين . نعم كان يسرني أن أشارك بفعالية في مجلس الكلية وفي اجتماعات الفرع والقسم وفي اللجان التي ترسم السياسة المهنية والتدريسية . أما الإدارة بجوانبها الأخرى فلم أكن أرغب فيها . مثال ذلك ، حين شغرت مديرية مستشفى حماية الأطفال ، الذي كان المستشفى التدريسي الوحيد في تلك الأيام ، باستلام أستاذنا الدكتور عبد الأمير علاوي مهام وزارة الصحة ، ضقت ذرعاً بإدارة المستشفى في الفترة القصيرة التي استلمتها فيها ، وضاق بها بعدي زميلي المرحوم سلمان تاج الدين . فإن مشاكل الدوام والنظافة والأرزاق والمتعهد وغيرها لم تكن تروق لي فاعتذرت عنها واعتذر زميلي . فعرضت الإدارة

على أخينا الدكتور عبد الحميد البستاني فاعتذر أيضاً على أساس أنه لا يريد أن يتخطى القدم ويستلم الإدارة دوننا . ولم يقبلها إلا بعد إلحاحنا عليه وإظهار رضانا وثقتنا بقدرته أن يجمع بين الإدارة والعمل ، وبعد أن هدد الوزير بتعيين مدير غريب عن محيطنا قد لا ننسجم معه في العمل . هذه القضية تجسم لك جوانب الإدارة التي تروق لي والتي لا تروق أولاً ، ثم طبيعة العلاقات بين الزملاء كما كانت في تلك الأيام ثانياً .

س12) ما الذي تفتقر إليه الكلية على ضوء طول تدريسكم فيها ؟ وما هي العلاجات التي اشتركتم بها لتلافي هذه الحالة ؟

سؤالك محرج بعض الشيء ولكنني سأجيب عليه ، ولن أدخل في التفصيلات والصغائر أو أقول ما لا يحسن أن يقال وسأكتفي بذكر بعض الخطوط العريضة والمبادئ العامة . من كلامي السابق يفهم أن الكلية ومستوى التعليم فيها بألف خير . وهي كذلك ، إلا أن هذا الخير ناتج عن المحاولات الفردية والتشبثات الشخصية للأساتذة والطلبة وليس عن وجود تخطيط واضح ورؤية مسبقة للأهداف . فالقضية في نظري هي قضية الموقف الفكري أو العقلية التي ترسم سياسة الكلية وفلسفة التعليم فيها . والمشكلة هي كيف يمكن إعادة النظر في نمط التفكير وفي الدوافع التي تؤثر على سير العمل وبناء المناهج وتطويرها . أذكر لك بعض الأمثلة :

أولاً : إن الكلية إلى يوم الناس هذا تفتقر إلى برنامج تدريسي شامل ومتكامل ، مرسوم على ضوء أساليب التعليم الطبي الحديثة ، موجه نحو خصوصية احتياجات البلد ، ذي مرونة تسمح له بأن يتطور على ضوء الخبرة المكتسبة عند التطبيق العملي مع ضمان أفضل مستوى لتدريب الطلبة . ذلك ليس لأن الكلية تفتقر إلى ذوي الكفاءة والمقدرة فيها ، بل لافتقارها إلى أسلوب تجنيد الكفاءات لخدمة الغرض الواحد . وللتاريخ أذكر ، مثالاً لا حصراً ، عميد الكلية الأسبق الدكتور داود سلمان علي الذي تفرغ لشؤون التعليم الطبي حتى أصبح من أبرز الخبراء العرب فيه ثم اضطلع بأمانة سر اتحاد كليات الطب في الشرق الأوسط . هذا العميد تناول الأمر بالأسلوب العلمي فكان أول من شكل لجنة دائمة لتطوير المناهج وتقييمها وموازنة سلبياتها بالإيجابيات بالتعاون مع التدريسيين في أقسام الكلية المختلفة . إلا أن جهود

تلك اللجنة اصطدمت للأسف بعقبات بعيدة عن مصلحة الكلية والطالب . هذا لا يعني بأنه العميد الوحيد الذي حاول ، أو أنه وحده الذي اصطدم بالعقبة الكؤود العتيدة . إن جميع من استلموا مسؤولية العمادة كانوا يملكون تشوقات إلى الإصلاح ، ولكن بعضهم عجز عن ترجمة ذلك إلى ممارسة عملية ، فذلك يستوجب امتلاك مخزون ثقافي من نوع معين وخبرة وممارسة واتصال بتيارات التعليم العالمية . لذا فإن بعض التغييرات التي كانت تجري كثيراً ما اتصفت بالمزاجية المتسرعة والارتجال . والتغيير ليس مرادفاً بالضرورة للتحسين ، كما لا يخفى .

ثانياً : إن العلاقة بين كلية الطب ووزارة الصحة ، وهي المستفيدة من خدمات الخريجين ، يجب أن تنسق على أسس ثابتة وفعالة وليس بالشكل الموجود حالياً ، والذي يعتمد على العلاقة الشخصية بين الوزراء والتدريسيين . هنالك حاجة إلى تنسيق وثيق فعال بين هاتين الجهتين وإلى التعاون والانسجام بينهما في الإفادة من خبرة الخبراء وفي توجيه البحوث العلمية والدراسات المتعلقة بالمشاكل الصحية المحلية وفي أساليب تدريب الكوادر للخدمات الصحية المطلوبة . أما التنافس الحالي الموجود بينهما ، فإنه بعيد كل البعد عن «مقتضيات المصلحة العامة» العتيدة .

ثالثاً : العلاقات بين الطالب وأستاذه ضعيفة وهي تزداد ضعفاً بمرور الزمن . ويتعمق ذلك أكثر بالنسبة للطالب الخجول أو الضعيف أو المريض أو ذي المشاكل . والذي يكون أحوج من غيره إلى رعاية الأستاذ وتوجيهه . وقد كان لتضاعف عدد الطلبة وزيادة نسبتهم بالنسبة إلى عدد الأساتذة دوره في هذه المشكلة ، كما كان لفترة الصراعات السياسية التي مرت بها الكلية دورها في ابتعاد الأستاذ وتحفظه . ولا أشك في أن الزمن كفيل برتق هذه العلاقة .

رابعاً : إن فقدان الاستقرار المهني والأمن الوظيفي والضمان المادي للتدريسيين لا يخدم حسن قيامهم بالواجبات المطلوبة منهم .

هذا بعض ما أستطيع أن أذكر من أمور حاولت مع غيري تذليلها حين كنا في خدمة الكلية . وقد أصابت بعض تلك الجهود توفيقاً محدوداً ، وأخطأ الحظ بعضها كما هو معروف .

س 13) نسمع كثيرا بأن الأطباء العراقيين يبدون التفوق عند الدراسة والعمل في المراكز العلمية الكبيرة في الخارج أكثر منهم في العراق . فما هو السر في ذلك؟

في ظني أن هذا السؤال وما يتعلق به من تساؤلات يرتبط بأكثر من سبب واحد يستحق كل منها الدراسة والتمحيص ، فالعوائق والتحديدات التي يتعرض لها العلماء العراقيون لم تعالج بغير التجاهل والإهمال .

من الأسباب التي تذكر أن أساليب التربية عندنا في جميع المستويات لا تهتم كثيراً بغرس أنماط السلوك والعادات التي تنمي نزعة الاطلاع وفن البحث عن الحقيقة من مصادرها . ومنها أن الطبيب محلياً مرهق بكثرة المتطلبات الآنية ، مهنية كانت أم غير مهنية ، ومن الضغوط على أوقاته المحدودة . وهناك عوامل أخرى كثيرة .

داعب أستاذ منا تلميذه وهما يشاهدان بستانياً يشذب سياجاً من النبات «أرأيت أي الغصون يقص؟ تلك التي ترتفع كثيراً أو تبرز . . ونصيحتي إليك لاءات ثلاثة وهي : لا تتفوق لا تتميز لا ترتفع»(*)

وفي الخارج يعلم الطبيب العراقي ، وهو خامة ممتازة منتقاة من بين المتفوقين في الدراسة الثانوية وقد تدرب جيداً في كلية الطب ، بأن نيله لغرض العمل والتقدم لا يعتمد على شيء سوى مستواه العلمي والخلقي وإتقانه لمهنته . ولأنه أجنبي ، فإنه يحتاج إلى أن يضاعف جهوده لكي ينافس ابن البلد في عملية التسابق والتنافس . لذا تراه منصرفاً إلى علمه وعمله .

كما أن الجو الذي يعيشه في المراكز العلمية الأجنبية ، حيث يتسابق الجميع للاطلاع على الجديد في العلم ، تجعله يندفع في التيار ويتشبع بمعلومات يكتسب بعضها بالاستماع إلى المقابسات والمناقشات .

نعم ، إن الطبيب العراقي مبرز في الخارج والشهادات على ذلك كثيرة جداً . قال لي زميل أجنبي عن أحد طلابي بأن وجوده في قسم المواليد والخدج يعد كسبا للأستاذ والقسم! وقال أستاذ كبير آخر التقيت به مؤخراً في أحد المؤتمرات بأن إحدى طالباتي تعتبر خير دعاية لكليتها ولبلدها ، علماً وخلقاً والتزاماً . ولكن ما يكاد الفرد منهم يعود إلى بلاده حتى تظهر عليهم علامات الفتور والإحباط شأنه شأن أبي

(*) المعنى مأخوذ من شكسبير .

الطيب إذ يقول :

يقــول لي الطبــيب أكلت شــيـئــا
وداؤك فـي شـــــرابـك والـطـعــــام
ومـــــا في طبــــه أني جــــواد
أضــر بجـــســمــه طول الجـــمــام
تعـــود أن يغـــبـــر في الســرايا
ويدخل من قـــتـــام في قـــتـــام
فـــأمـــسـى لا يطـال له فــيــرعى
ولا هـو فـي الـعـلـيـق ولا الـلـجـــام

س14) من هو زوجكم وهل هو من الكادر الطبي؟ وهل تعرفت عليه قبل الزواج؟ وعدد الأولاد والبنات حفظهم الله؟

زوجي هو الأستاذ الدكتور سالم فاروق الدملوجي رئيس قسم الطب سابقاً في كلية طب جامعة بغداد . قبل الزواج كانت بيننا صداقة زمالة واهتمامات فكرية متشابهة بالفنون والآداب . وكانت بين المرحومين والده ووالدي علاقة صداقة ومودة .

لنا من الأبناء ثلاثة ،ولدان هما في مرحلة الدراسة العليا وبنت واحدة ما زالت طالبة جامعية .

س15) ما هو تأثيركم على زوجكم وتأثيره عليكم؟ وهل اشتركتم في بحوث ودراسة معينة؟

العشرة الطويلة لابد وأن تؤدي إلى تأثيرات متبادلة وتفاهم في الأفكار وانسجام في الآراء والأذواق بين الأزواج بدرجة أنهم حتى حين يجلسون معاً صامتين ، فإن في صمتهم نوعاً من الرفقة الحميمة والتناغم الروحي لا يعرفه من لم يجربه . من هنا قالوا أن الأزواج ، بمرور الزمن ، يبدون متشابهين في أمور كثيرة تشمل حتى الشكل والصورة! وهذا لا يعني ، بطبيعة الحال ، ذوبان الشخصية أو انعدام الفردية . أما تأثيري على زوجي فأحرى بالسؤال أن يوجه إليه . ولكن ربما صح أن أقول بأنني علمته أن يعد العشرة قبل أن يندفع في قول أو عمل! أما عن تأثري به فقد كان كبيراً ، سيما بقابلياته التنظيمية وترتيبه ومنهجيته وتمسكه بالحق بجرأة وبسالة .

لقد تعاونا في عدد من الدراسات ونشرنا عدداً من البحوث المشتركة . وإلى جانب ذلك فلا أظن بأن أحدنا قام بنشر شيء لم يخضع لدراسة الآخر وتمحيصه .

س16) حادث محرج أو طريف في حياتك التدريسية؟

قبل التعيين على ملاك التدريس ، كان يفترض أن يقوم الأساتذة باختبار قابليات الشباب التدريسية ولم يكن جميع الأساتذة يلتزمون بهذا النظام . إلا أن الدكتور عبد الأمير علاوي كان يلتزم بذلك . وقد أخبرني يوماً بأنه سوف يحضر تدريسي لطلبة الصف الخامس صباح اليوم المقبل . فأعددت له طفلاً مصاباً بانسداد بواب المعدة ولديه كل الأعراض والعلامات الكلاسيكية المذكورة في الكتب ، وعرضته على طلبة الصف السادس أولاً للتدرب عليه . ولكن في اليوم التالي ، وبحضور الأستاذ ، وأنا أحاول أن أتكلم بطلاقة وأشرح الحالة حاولت أن أعرض تقلصات المعدة على الطلبة فلم تظهر . وقمنا بكل ما يجب في هذه الحالة من إعطاء الطفل زجاجة الإرضاع وجس البطن لتشجيع التقلصات دون طائل . فسال العرق من جبيني واحتقن وجهي وأسقط في يدي . عندئذ بدأت التقلصات بالظهور واضحة قوية أشبه ما تكون بالكرات الصغيرة ، فتنفست الصعداء وأغرق أستاذي في الضحك .

هذا في أول العمر حين كانت المشاكل بسيطة لا يتعذر حلها بين الزملاء . ولكن بمرور الزمن وتطور المسؤوليات تتعقد المواقف أيضاً . خذ مثلاً حدثاً أحرجني كثيراً مع أخ عزيز وزميل كريم ، حصل خلال العام الدراسي 1958-1959 أي سنة الثورة التي تقاعد فيها الأستاذ الدكتور عبد الأمير علاوي . اتفقنا على اقتسام المحاضرات فيما بيننا بالتساوي . وكان أحد زملائنا عالماً فاضلاً وطبيباً ممتازاً ، إلا أنه كانت لديه صعوبة بسيطة في النطق امتعض منها الطلبة وشكلوا وفداً ذهب إلى العميد بالشكوى . كانت الثورة حديثة العهد والأعصاب هائجة والتطلعات كبيرة . طلبني العميد الأستاذ الدكتور أحمد عزت القيسي وشرح لي الأمر وطلب مني إلقاء كافة المحاضرات النظرية بنفسي . عبثاً حاولت إقناعه بتغيير رأيه أو على الأقل بتكليفي أمام زملائي لكي لا يساء فهمي لكنه خشي أن يسأل عن السبب ، فجنب نفسه الإحراج . وقد شعرت بالغبن لهذا التمييز ولكن الإحراج أمام زملائي كان أكبر . وحاول الزميل المقصود معرفة السبب مني بحكم ثقة كانت بيننا ، فلم يطاوعني قلبي

على ذكره له أو لغيره . وطلبت منه أن يسأل العميد . ولعله فعل ذلك فقد أردت حسن ظنه اعتزازاً مني بصداقته وأخوته . وإن لم تخنني الذاكرة فإن زميلتي د . سعاد خنده ، الاختصاصية بطب الأطفال كانت ضمن الوفد الطلابي الذي قابل العميد ، وهي أعرف مني بفورات الطلبة وبتطلعاتهم في تلك الأيام .

حادث آخر ربما جمع بين الغرابة والطرافة والإحراج ، أو ربما كان له وصف آخر لا أعرفه :

كانت منظمة الصحة العالمية تنظم دورة طولها سنة واحدة في معهد صحة الطفل في جامعة لندن لتدريب مدرسي طب الأطفال في العالم الثالث على أساليب التدريس العصرية . وأول شروط القبول فيها كون المرشح على ملاك التدريس وأن يقوم بالتدريس الفعلي للطلبة . وقد طمح زميل لنا من خارج هيئة التدريس بهذه الزمالة اعتماداً على مساندة صديق له ذي نفوذ في وزارة الصحة وأعطى اسمي كمرجع لتسميته للدورة . وكانت كلية طب الموصل قد سمت مرشحها للزمالة في تلك الدورة . هذا الزميل ، سامحه الله أراد مني أن أكتب وبصريح العبارة بأنه على ملاك التدريسيين في كلية الطب . اعتذرت لأن وضع معلومات منافية للحقيقة يفقد تزكيتي قيمتها ، وكتبت له توصية ممتازة زكيته فيها علمياً ومهنياً وخلقياً أيضاً . وقد أطلعته على ما كتبت ، رغم أن هذه التوصيات يفترض فيها السرية ، ليقيني بأن ما كتبت سوف يرضيه . وكنت مخطئة لأن الرجل لم يكن يرضى بغير المعلومات المنافية للحقيقة واعتبرها عرقلة له شخصياً . وحين تم قبول مرشح كلية طب الموصل في الدورة ، حرض صديقه في وزارة الصحة فكتب إلى المنظمة وإلى معهد صحة الطفل في لندن بأن الوزارة لا تؤيد ذلك الترشيح . وخسر الاثنان الزمالة . وقد زارني مرشح الموصل في مكتبي ، وكان في منتهى الألم والتأثر ليس لضياع الزمالة بل لفكرة غير مشرفة قد تؤخذ عنه في معهد صحة الطفل حيث سبق له أن درس وتدرب . طمأنته بأن الإساءة حصلت لسمعة البلد وليس لشخصه ، وأنهم هناك أدركوا بأنه ليس من أصحاب الحظوة . وقد عاتبت ذا النفوذ في وزارة الصحة وسألته لم لم يرشح صاحبه لإحدى زمالات المنظمة التي كانت تفوت هدراً كل عام ويترك الثانية للرجل المؤهل لها؟ أجابني بأن زميلنا اعتبر الأمر تحديا له شخصياً ولزميله ذي النفوذ ، وسبحان الله في خلقه! هل أقول أن هذا الزميل تعين على ملاك إدارة مؤسسة مدينة الطب في أواخر أيامنا فيها وأنني رأيت منه ما يدل على أنه لم ينس ما حصل حول هذه الزمالة .

س17) حادثة طريفة تستحق الذكر خلال ممارستكم الطب؟

الحوادث كثيرة وبعضها يمثل شطراً من حياتي عزيزاً جداً على نفسي فدعني أرو لك قصة تفيد أغراضكم .

عند أول تخرجي وقبل شيوع استعمال البنسلين بكثرة ، كان الناس يخشون من حقن الإبر . وأهل مرضانا في مستشفى حماية الأطفال كانوا يعتقدون بأن لدينا إبرة يسمونها (ابرة مال موت) يعطيها الطبيب ليعجل موت الطفل الميؤوس من حالته . وربما كان الكورامين الذي كنا نؤمر بإعطائه للمريض المشرف على الموت مسؤولاً عن هذه الفكرة . وكم كنت أحاول التملص من إعطائه وما زلت أنفر من اسم الكورامين حتى يومنا هذا .

وفي يوم أدخل عندي طفل مصاب بذات الرئة الفصي مع عجز القلب وكانت حرارته مرتفعة ووضعه سيئاً جداً . وكان البنسلين من جملة ما أعطيناه (حقنة واحدة كل ثلاث ساعات للمستحضرات القديمة) والأم تبكي وتولول على أساس أننا نعطي ابنها (إبر الموت) ، وأنا بصبري وطول أناتي المشهورين أحول أن أفهمها ماذا أفعل . وقد استجاب الطفل للعلاج وتحسن كثيراً بانقضاء اليوم الأول . فسمعت الأم تتحدث مع بقية الأمهات في الردهة بسرور وتقول «يد الله فوق كل يد والحي ما يقتله قاتل ، كم إبرة أعطوه ولكن الله حفظه» . ورويت القصة وأنا أضحك في جمعية حماية الأطفال فتحمس أمينها العام ، يومئذ المرحوم اللواء بهاء الدين نوري . والأستاذ عبد الأمير علاوي . وبحثنا نحن الثلاثة سبل تحسين الوعي الصحي بين الناس فتوصلنا إلى فكرة لإصدار مجلة الأم والطفل وتقدمنا بطلب إصدارها فوراً وهي ما زالت تصدر مرة كل شهر . ولأن ميزانية جمعية حماية الأطفال يومها كانت محدودة فقد كنا نقوم بكتابتها وتحريرها وبكل أوجه العمل فيها . وكثيراً ما أعدنا كتابة ما يرسل إلينا من مواد لم تكن بالمستوى المقبول ثم ننشرها باسم صاحبها . ولأنني كنت أصغر الثلاثة سناً ومركزاً فقد وقع على عاتقي معظم أشغال «العنقرة» من كتابة وتنظيم وتصحيح مسودات المطبعة وإلى ما هنالك . وكم يسعدني أن المجلة ما زالت تؤدي رسالتها منذ ما يزيد على الأربعين عاماً .!

حادث طريف آخر حصل مع سيد من أسرة معروفة في النجف احتاج ولده إلى نقل الدم بصورة مستعجلة ، وكنا يومها نعتمد على نزلاء مستشفى دار الشفاء للأمراض العقلية . ولكن السيد أبى ذلك بإصرار ، ثم رفض دم متبرع آخر على

أساس أنه يأبى مزج دم ولده ، وهو سيد وابن رسول الله ، بدم العوام! وأخيراً استطعت أن أقنع زميلي الكريم الدكتور سليمان الفخري ، وكان كثير التبرع لأطفال المستشفى بالدم ، أقنعته وهو سيد أعرجي أيضاً بالتبرع بدمه للطفل رغم اعتراضه على المبدأ . عندئذ فقط ارتضى والد الطفل أن نقوم بنقل الدم ، وحضر شخصيا عملية سحب الدم واطمأن قلبه ذلك .

وحادث ثالث أذكره لأهمية بطله المرحوم الأستاذ فهمي المدرس . كنت طالبة منهمكة في الاستعداد للامتحان حين اتصلت شقيقته بوالدتي وطلبت مساعدتي لأن الأستاذ كان مريضاً . ذهبت إليه فإذا هو في حالة حماض بسبب مرض السكر الذي كان يقاسي منه منذ سنين ، وكانت لديه ، في أعلى الظهر ، جمرة كبيرة وفظيعة .

قلت له يا عمي أنا طالبة طب ولست طبيبة والحالة خطيرة تستوجب العلاج الفوري في المستشفى ، لكنه رفض بإصرار . اقترحت عليه استدعاء أستاذنا ستيسي لعلاجه فانزعج كثيراً . كان الرجل مقتنعاً بأن أي إنكليزي سوف يعمد إلى التخلص منه بسبب مواقف سياسية له سابقة . رفض ستيسي وسندرسن وعدداً من الأساتذة العراقيين اقترحت أسماءهم قائلاً هذا أتعس وهذا أنجس! إلى أن ذكرت له اسم الأستاذ شوكت الزهاوي فقبل به . سألني أستاذي لم لم أستدع له أحد الباطنين فشرحت له الموقف ، وقد حاول المستحيل لإقناعه بدخول المستشفى . وقد توفي رحمه الله بعد ذلك بأيام قليلة .

أمثال هذه الحوادث كثيرة وهي التي جعلتني أوافق على تقديم برامج صحية في وسائل الإعلام المختلفة ، فالناس كانوا بحاجة ماسة إلى التوعية الصحية بالأسلوب المبسط المفهوم ، وأنا كنت أشعر بأن من واجب الطبيب في بلادنا ، ولاسيما طبيب الأطفال أن يخدم في المجال الطبي والصحي والاجتماعي والتعليمي لا أن ينكمش في ردهته في المستشفى .

س 18) هل هناك ما تودين أن تقولينه للطلاب وللأطباء الشباب كخاتمة لهذا الحديث؟

ربما كان من المفيد أن أكرر ما كتبته في مناسبة سابقة فأذكّر الشباب بأننا أصحاب مهنة لها خصوصية حساسة ، تلك هي شرف مشاركة الناس في دموعهم

وخضوعهم ولهفتهم ولوعتهم وأدق أسرارهم . لذا كنا معشر الأطباء من أقصر الفئات عمراً وأسرعهم هرماً وأكثرهم إصابة بأزمات القلب وغيرها من الأزمات . وهذه الحقيقة تفرض حقيقة أخرى هي أن الطبيب ، بقدر حاجته إلى التزود بعلوم الطب ومعارفه ومواكبة كل ما هو حديث ، فإنه يحتاج إلى أن يمارس الطب بنوع من التبتل والتفاني . وما أجمل الحكمة التي تقول «يريد الله من المؤمن أن يتعشق عمله» .

ملحق (2)

الأستاذ الدكتور خالد القصاب

سيرة شخصية

ولد في بغداد عام 1924 وتخرج في كلية الطب الملكية العراقية (1946) وعمل في العيادة الخارجية الجراحية بالمستشفى الملكي ثم تطوع للعمل جراحاً في مستشفى الهلال الأحمر العراقي في نابلس إبان الحرب العربية الإسرائيلية سنة 1948 . عين بعد عودته طبيباً مقيماً ومساعداً للأستاذ باربر في المستشفى التعليمي ببغداد والتحق بعدها للعمل في المستشفيات البريطانية فحصل على شهادة FRCS من كلية الجراحين في لندن (1954) . وعند عودته إلى العراق انضم إلى الهيأة التدريسية في الكلية الطبية ونال مرتبة الأستاذية (1970) وكان مسؤولاً في الدراسات العليا بالكلية كما انصب اهتمامه الجراحي في علاج الأمراض السرطانية فكان الرئيس المؤسس لجمعية السرطان العراقية ومستشاراً في منظمة الصحة العالمية . والدكتور القصاب عضو مؤسس في جمعية الرواد الفنية وكان رئيسا لجمعية الفنانين التشكيليين العراقية .

الـولاء للـذكرى
زوال الظـلال الـوارفـة لشجـرة السـدر

بقلم الأستاذ الدكتور خالد عبد العزيز القصاب

انتصبت الشجرة العملاقة فوق فضاءات الكلية تفخر بأصلها وتمد أغصانها في أعماق السماء وجذورها في جوف التاريخ الطويل ، الذي ربما قد عاصر اليوم الذي وضع فيه الملك فيصل الأول حجر الأساس لبناية الكلّية عام 1927 . يسميها العراقيون شجرة النبق وقد زرعوها في بغداد منذ العهد العباسي في باحات دورهم تيمناً وبركة .

من موقع شجرتنا هذه نشاهد بنايتين توأمتين تحيطان بالساحة الرئيسية صممهما معمار الدولة «الميجور ولسن» بأسلوب رومانسي وبأعمدة إغريقية تحيط بمداخلها . خصصت إحداهما لتكون كلية للطب ، فيها رواق طويل يفصل بين قاعاتها ومختبراتها وتزيّنه تماثيل لمشاهير الأطباء وتغطي جدرانه ألواح الشرف بأسماء المتفوقين من خريجيها والجوائز الممنوحة لهم .

النهار في كلية الطب يبدأ مع الصباح الباكر وينتهي مع المساء المتأخر . عمل دؤوب كما في خلية للنحل بجو مشبع بأبخرة الكلور والكبريت والفورمالين . الطلاب في رواح ومجيء ، مارين بشجرة الكلية بزمر ومجاميع لها معالم واضحة : فهذه عصبة منهم بصدارٍ ملطخة بالية ، وهم من الصف الأول ، وآخرون صداريهم مبقعة بألوان المحاليل الكيمياوية الفاقعة وكأنها «باليت» رسام وهم من الصفوف الثانية والثالثة ، ومجاميع بصدارٍ ناصعة البياض تتدلى من جيوبها «السماعات» تفاخر بأنها في الصفوف المتقدمة وقد تسربلت بقواعد المهارات السريرية من ردهات المستشفى .

كان لهذا الجو سحر غريب ، استقطب الطلاب بحب وانتماء وبمناهج دراسية صارمة تلتهم ساعاتهم ودقائقهم وهو مشبع بالخوف من مقصلة الامتحانات المسلّطة فوق رؤوسهم .

كيف كان ممكناً للطلبة أن يخترقوا أسوار واجباتهم العالية هذه لينفذوا إلى ساحات الرياضة وقاعات الرسم والمسرح والموسيقى؟

للإجابة على ذلك ليس لدي إلا ما تبقى عندي من أوراق يومياتي الصفراء : لنتابع مبادرات الطلبة بتشكيل اللجان المختلفة للقيام بفعاليات رائدة أصبحت نقاطا مضيئة مع الزمن في تاريخ بغداد الحضاري .

***

منذ كنا في الصف الأول (عام 1940) ، وجدنا طريقنا إلى ساحات التنس المهملة الثلاث ، نسطح أرضها المتعرجة ونخططها ، ثم نراوغ ونقتحم الغرف الطينية المجاورة لنأخذ من خزينها الشِباك الممزقة والمضارب المتهرئة ، تركها الأساتذة الإنكليز ومن تبعهم من الهنود ، لنتمتع بلعبة صرفنا جهودنا للاستعداد لها . وما أن تشكلت لجنة خاصة للرياضة حتى تبدل شكل الساحات وازدحمت بالمتنافسين لسباق بطولة «مسز سندرسن» ، زوجة العميد .

وشهدت سنتنا الأولى بدايات متواضعة أخرى في محاولاتنا لتشكيل فريق لكرة القدم والذي ما إن ولد حتى مات . طلبنا من الدكتور الشاب نجدة سليمان أن يرعى فريقنا ، وتهيأنا للعبة مع فريق مدرسة الأيتام المجاورة . وانتظرناه تحت شجرة النبق . وفي الوقت المحدد جاءنا الدكتور بكامل لباس اللعبة الأنيق ، وما أن رآنا ونحن بلباسنا وأحذيتنا المعتادة حتى كرّ راجعاً غاضباً . إلا أن ذلك لم يفتّ من عزيمتنا . ومضينا في اللعبة : أنا في قلب الهجوم وعلى يميني علي غالب ياسين وعلى يساري نوري مصطفى بهجت وخلفي فاضل يوسف كمال في الدفاع وآخرون طوى أسماءهم النسيان . بقت هذه المحاولة الهزيلة وحيدة في تاريخ الكلية الرياضي الطويل ولم يكن لنا فريق آخر بعده .

وكان حظ كرة الطائرة أحسن من ذلك بكثير . سباقات مستمرة بين الصفوف ، أذكر منها حصولنا على الكأس ونحن في الصف الرابع . وفي السنة نفسها(1944) ، لعبت الطالبات هذه اللعبة لأول مرة وسط حماس وتشجيع الطلبة . حدث ذلك في وقت كن فيه لا يتركن الحجاب[1] إلا في مدخل الكلية . وكانت لعبتهن هذه من

---

(١) وهو أنثذ العباءة السوداء التي تنسدل بجمال من الرأس إلى القدمين بامتداد الظهر دون تغطية الوجه ، وليس الحجاب المعهود الآن .

البوادر الأولى التي حطمت فيها الفتاة العراقية الشرنقة القاسية التي أحيطت بها .

وفي الثاني من نيسان من السنة نفسها ، حقق فريقنا للساحة والميدان مركزاً مرموقا في سباق الكليات السنوي . وخصنا العميد «سندرسن» بلقاء خاص قبل السباق حثنا فيه على الفوز . وفي اليوم المحدد ، شحنونا في سيارة إسعاف إلى ساحة الكشافة .

كان لي في ذلك السباق شرف حمل علم الكلية . وازدحمت المدرجات بمشجعينا ، وعند بداية السباق صرخت حناجرهم : (إعسيلّة . .إعسيلّة) تشجيعا لنوري مصطفى بهجت في سباقنا الأول للمائة متر . وإعسيّلة هي فرس سباق شهباء سريعة كانت مشهورة في بغداد . وقيل لنا أن فوز نوري لم يحسب لأن ركضتهُ كانت على شكل «زك زاك ZIG ZAG » . ولم نكن نعرف معنى الكلمة حتى قيل لنا أن معناها أنه ركض وهو في غمرة التشجيع والحماس في مسار متعرج ، وقد جاوز مضماره إلى مضمار آخر . وفي السباقات اللاحقة ، حصدنا بعض الأوسمة الفضية : عزيز محمود شكري في سباق الموانع ونوري مصطفى في الأربعمائة متر ورشيد الغبان في الألف وخمسمائة متر ، ويوسف النعمان الرابع في رمي الثقل .

وفي السنين اللاحقة وصلت كليتنا إلى القمة وتراكم الذهب على صدور أبطالنا : بديع صبحية وكلارنس فنسنت في الزانة والطفر العالي ، ولبيب حسو وبيترعجو وبعدهم شهاب أحمد القيسي وعلي القلمجي في سباقات المسافات القصيرة ، ثم كان لنا شرف لن ينسى عندما مثل لبيب وبيتر بلادنا في أولمبياد لندن عام 1948 .

وقبل أن نغلق ملف الرياضة ، علينا أن لا ننسى أسماء لامعة أخرى : حسام النجم بطل العراق في ملاكمة الوزن الخفيف ، وصادق الشمري بطل القطر في الغطس ، وهاشم مكي وفيصل النقيب في بطولات الكرة الطائرة ، وسعد الوتري في قيادة الطائرات وآخر ، لا يحضرني اسمه ، في القفز بالمظلات «البراشوت» .

بلغت الروح الرياضية أوجها عندما أشرك الطالب ريتشارد نبهان الأساتذة وأعضاء الهيئة التدريسية مع الطلاب في سباقات عامي 1960 و1961 . وركض العميد أحمد عزت القيسي مع كمال السامرائي وسلمان فائق وعبداللطيف البدري وسالم الدملوجي وعزيز شكري وطارق حمدي و«هينز HAINZ» وأوهانسيان في سباق المائة متر ، وهاشم مكي وتحرير الكيلاني وهادي السباك في سباق المسافات

الطويلة ، وخالد القصاب ويوسف النعمان في رمي القرص والثقل ، ومحمد حسن عبدالعزيز و«هل Hill» في جر الحبل . واشتركت السيدات من الهيئة التدريسية كآنا ستيان وسعاد القصاب .

قد تغفل الذاكرة الكثير من الوقائع والأسماء ، إلا أن الروح الرياضية التي كان يتحلى بها الجميع ستبقى معنا إلى الأبد .

***

منذ لقائي في السنة الأولى بنوري مصطفى بهجت ، وجدنا طريقنا مع الفنانين الرواد إلى رسم الطبيعة على شواطئ دجلة في الأعظمية والكرادة وغابة الملك حول بغداد . وكان رسمنا متواضعا ، اقتصر على التخطيط بالقلم وبالألوان المائية . وفي عام 1944 ، أبدى الطلبة رغبة في القيام بمعرض للرسم . كان نوري مؤيداً وكنت أنا معارضاً غير مقتنع بعرض أعمال تفتقر إلى المهارات الأساسية ، فاقتصرت مشاركتي في عمل من الجبس لقرية نموذجية لمرضى التدرن .

افتتح المعرض عميدنا «سندرسن» في الحادي عشر من شباط ولاقى نجاحاً كبيراً أثبت أن موقفي منه كان خاطئاً . زار المعرض رئيس الوزراء حمدي الباجه جي والوزراء وأعضاء السلك الدبلوماسي ، وعلقت الصحف عليه بالإعجاب والتقدير . كما زار المعرض الرسام الإنكليزي المعروف ، الجندي العريف «كنث وود Keneth Wood» الذي خصّ العارضين بنقد موضوعي رصين . وحاز صديقي نوري مصطفى على الجائزة الأولى .

كان هذا هو المعرض الأول من نوعه ، أكدت عليه كليتنا بمعرض كبير ثان في 26 نيسان 1949 ، سمي بمعرض الأسرة الطبية ، افتتحه العميد هاشم الوتري . اشتركت هذه المرة بأعمال كثيرة وحزت على الجائزة الأولى .

***

اختصت إحدى لجان الطلبة بالفعاليات الاجتماعية كإقامة احتفالات سنوية والحفلات الراقصة والموسيقى الشائعة . وهذا منهج حفلتها في 22 نيسان 1944

بفقراته الممتعة التالية :

1 . رقصة المقابر (باليه للموسيقار الفرنسي سانت سان) ، قام بالرقص خليل الشابندر في دور عزرائيل وقتيبة الشيخ نوري في دور الشيخ العجوز .

2 . مشهد مخيم الغجر مع غناء آرتين قنطرجيان (باريتون) .

3 . أغنية «قل لي نعم أو لا « Should say yes or no» ، قام أدور زيا بغناء حوار بين رجل وامرأة في وقت واحد ، فارتدى نصفه ثياب رجل والنصف الآخر ثياب امرأة . وكان يحصر جسمه بين ستائر المسرح بوضع جانبي ليغني دوراً ثم يدور على نفسه ليعطي المنظر الجانبي ليغني الدور الآخر .

4 . مشهد بحارة الفولغا Volga boatmen مع غناء آرتين قنطرجيان .

5 . عزف منفرد على الكمان «فانتازيا» لسامي الشيخ قاسم .

6 . عزف بيانو لأرمان بحوشي وسلفا بوغوصيان .

7 . أغنية حب للهنود الحمر Indian love call لآرتين قنطرجيان .

8 . فصل تمثيلي كوميدي : في عيادة طبيب .

كان علينا أن نعترف ، ونحن في لجنة الموسيقى الكلاسيكية المنافسة ، أن غريمتنا لجنة الاحتفالات قد أجادت في عرضها المنوع Variety show ، ولو أننا لم نبخل عليها بمداعبات خبيثة من موقعنا المتعالي باعتبارنا (لجنة الموسيقى الرفيعة!) ذلك ،كما حدث في إحدى الحفلات عندما كان أرمان بحوشي يعزف بشدة وعنف إيقاعات «الجاز» الحارة ، والبيانو يرتجف ويهتزّ ، خرج يوسف عقراوي عضو لجنتنا على المسرح بصورة مفاجئة وأزاح بتوتر مزهرية ورد كانت تتأرجح على سطح البيانو وأنقذها من السقوط . وكان ذلك إشارة نقدية جارحة لعزف أرمان العشوائي أثارت الكثير من الضحك .

***

بدأنا التفكير في كانون الثاني 1944 لتشكيل لجنة للموسيقى الكلاسيكية . وراودتنا الشكوك في تقبل الطلاب الاستماع إلى الموسيقى بجدية وهدوء . وأقمنا حفلة للشاي لشرح أهدافنا ، ثم ألفنا لجنة من : غانم عقراوي «كمان» ، سامي الشيخ قاسم «كمان» ، مصطفى أدهم «فيولا» ، نوري مصطفى «كمان» ، يوسف عقراوي

«بيانو» ، سهيل الهاشمي «بيانو» ، فيصل صبيح نشأت «كمان» وخالد القصاب . وقدمت اللجنة منهجاً طموحًا حافلاً يحتوي على محاضرات أسبوعية تصاحبها أمثلة على الأسطوانات ، وعلى عروض موسيقية حية ، مرة كل شهر .

وعند المحاضرة الأولى لغانم عقراوي ، أطفئت أضواء القاعة وارتفعت الأنغام الرائعة من الغرامفون القديم وساد هدوء مطلق واختلط دخان السجائر بالظلام . مددت يدي آنذاك لأشدها على يد صديقي سهيل طه الهاشمي وهمست في أذنه : لقد نجحنا . . وفرحنا فرحاً عظيماً وتبددت مخاوفنا .

حاضر غانم في «مقدمة للموسيقى» وسامي الشيخ قاسم «ما هي الموسيقى» ومصطفى أدهم «أنواع الموسيقى» وخالد القصاب «الشكل الموسيقي» ونوري مصطفى «تاريخ الموسيقى» وغانم عقراوي «بيتهوفن» وخالد القصاب «هايدن» ومحاضرات كثيرة أخرى . وعرضت اللجنة رائعة «ولت دزني» الفلم الموسيقي «فنتيزيا» ، الذي ساعد بألوانه وصوره المتحركة تذوق الموسيقى .

وفي الحفلات الشهرية قدم عازفونا لأول مرة في بغداد ثلاثيات ورباعيات «موتزارت وبيتهوفن وهايدن وبراهمز» ، اشترك فيها غانم وسامي ومصطفى ونوري ومحمود الأوقاتي . وفي حفلة شهرية أخرى قدم مدير موسيقى الجيش «البير شفو» محاضرة عن الآلات الموسيقية وصاحبته فرقته في العزف .

وفي نهاية عام 1945 ، حققت اللجنة أعظم إنجازاتها عندما قدمت أول أوركسترا تشهدها بغداد . فرقة سمفونية كاملة شارك فيها أكثر من خمسين عازفا ، الوتريات بأنواعها ، والهوائيات خشبية ونحاسية ، والطبول . قاد الأوركسترا «المسيو جميل» الجزائري-الفرنسي ، أستاذ الكمان في معهد الفنون الجميلة ، وازدحمت حدائق الكلية بالمستمعين وافترش البعض منهم الأرض الخضراء ودوّت روائع «موتزارت» في أرجاء الكلية في ليلة لا تنسى .

لقد ساعد في نجاح لجنة الموسيقى دراسة أعضائها في معهد الفنون الجميلة مساءً من غير أن يؤثر ذلك على مسيرتهم الدراسية . كان غانم عقراوي عازفاً على الكمان من الطراز الأول بصفاء وبراعة كفلت له المركز الأول في الأوركسترا في الوقت الذي حافظ فيه على مركزه الأول على صفه طيلة سنوات الكلية . وكذلك كان شأن مصطفى أدهم ويوسف عقراوي ، أما سامي الشيخ قاسم فكان عازفا من الطراز الأول ، عاطفياً و«دالغجياً» غارقاً في هوايته مما أثر في مسيرته الدراسية .

كان بيته مجاورا لبيتنا في كرادة مريم على ساحل دجلة . وفي إحدى الليالي سهرنا حتى الصباح نحضّر لامتحان التشريح في اليوم التالي . وعند الفجر أبحرنا في زورقنا في دجلة ونحن متعبون ، وأخذ سامي يعزف ألحانه العذبة وأنا أزوده بالإيقاع من صرير مجدافي والزورق الذي نسميه في بغداد «البلم» ينساب على سطح المياه المرتجفة بنسيم الفجر . وما أن عزف لحن «كومبرسيتا» ، التانغو الشائع حتى أطلت علينا رؤوس الجنود الإنكليز النائمين على السطوح صائحين Swing it boy, swing it, كان ذلك عام 1942 . يا ترى ماذا كان يعني ذلك الفجر البغدادي الحالم لهم ، وهم في انتظار مطحنة القتال في عمق الصحراء .

انتهى الفجر وبدأ الامتحان ، وإذا بسامي يكبو مرة أخرى ويفهم السؤال بصورة معكوسة ويخسر الامتحان .

وعلى صعيد آخر ، ما كان لحناجر هواة الغناء في كليتنا لتتخلف أوتارها عن أوتار الكمان . أذكر هنا تنافساً كان مسرحه امتداد نهر دجلة في ليلة فضية توسّطها القمر . مغنينا «الباريتون» أرتين قنطرجيان يغني «البلالايكا» من بلمنا في جانب الرصافة متحديا عبد الملك عبد اللطيف نوري من كلية الحقوق ، يردد الأغنية نفسها من الجرف المقابل من النهر .

ولم تخل ذكرياتنا الموسيقية من مثالب طريفة و«مكاسير» تذكرنا بين الآونة والأخرى بصبغة الهواية لعازفينا ، منها ما وقع لصديقنا آرام بابوخيان عندما انتصب على المسرح ، مرفوع الرأس وكمانه ممتد من تحت حنكه ليعزف وحيداً رائعة «باخ» «الكونسرتو بمقام (لا) الصغير» ، والتي تبدأ بثلاثة مقاطع قصيرة هي الفاتحة الدرامية لهذه القطعة الخالدة ، وإذا بقوس كمان آرام يشحط عند المقطع الثاني فتتحول الفاتحة الدرامية إلى مأساة قاتلة .

وفي مناسبة أخرى توقف يوسف عقراوي عن عزفه قطعة بيانو لـ«شوبرت» بصورة مفاجئة وترك كرسيه متأبطاً نوطاته وغادر المسرح . سألناه ما السبب؟ قال : بدأت بسلم (أوكتاف) أوطأ مما يجب بأصابعي اليمنى وفوجئت بأصابعي اليسرى المصاحبة تذهب تائهة في الهواء في الجهة الأخرى ، ولم يكن لي بدّ إلا أن أتوقف .

***

لاحظت عند دراستي مع سامي في الشرفة المطلة على النهر ، اهتمامه بمكالمات هاتفية غامضة يعزف أثناءها ألحاناً عاطفية على الكمان ، مكرراً بصورة خاصة لحناً جميلاً ساحراً من الدور الثاني لـ«كونسرتو تشايكوفسكي» سمي بـ«كانزونيتا» . وأسَرّني بأنه قد ألف رواية عاطفية مأساوية بطلها عازف كمان يعاني من لوعة الفقر والغرام ، يموت أخيراً بالسل .

ولإقناع أستاذ التمثيل حقي الشبلي ، ادّعى سامي أن الرواية هي من تأليف الكاتب القصصي الفرنسي «غوستاف لوبون» الحائز على جائزة نوبل ، بالرغم من أنه لم يعرف بكتابة الروايات . ووافق الأستاذ على إخراجها ، مقتنعاً أو مشجعاً ، ورفعت الستارة عنها في قاعة المسرح .

قام سامي طبعا بدور البطل ، وطلب من صديقنا مصطفى أدهم القيام بدور الأم . ومصطفى شاب أنيق ذو سحنة بيضاء وشعر مصفف حالك السواد تؤكد على جماله شوارب ثخينة . كان من الطبيعي أن يرفض هذا الدور بسبب شواربه ، إلا أن سامي تمكن من إقناعه بأن إخفاءها لن يكون صعباً على عامل المكياج ، ومن السهل تغطيتها بالشريط اللاصق وأحمر الشفاه . جاءت الفترة الحرجة بعد نهاية الدور الأول ، وعمّت الفوضى خلف الكواليس والجمهور ينتظر ، وشوارب مصطفى النافرة ترفض اللاصق بإصرار ولا تلين ، وتوترت الأعصاب والدقائق في تناقص مستمر ، حتى قبِل مصطفى الخيار الوحيد مرغماً وحلقت شواربه .

وفي الفصل الأخير أشرف البطل على الموت ، وهو يعزف الـ«كانزونيتا» على التلفون ، وانزلق قوس الكمان عند نهاية اللحن ليسقط على الأرض . وهنا يأتي دوري القصير كطبيب أضع سماعتي على صدره ثم أهز رأسي معلناً بصمت النهاية المحزنة . وتنزل أخيراً الستارة على المأساة .

كنت واثقاً ذاك المساء أن من كتبت الرواية من أجلها كانت قابعة في أحد أركان القاعة المظلمة واختفت عند انتهائها من القاعة ومن حياة سامي كلها ، وبقي شبحها لغزاً لنا ، ولم يبق لمؤلفها الهاوي نجاحاً إلا حلاقة شوارب غريمه وصديقه مصطفى أدهم .

وفي مسرحيات أخرى ، الهدف كان أكثر وضوحاً . أذكر منها طلال ناجي شوكت من صفنا الأول يقف لوحده ، في دوره التمثيلي ، تحت شعاع مسلط على وجهه المشوه وهو يندب حظه بكلمة مطولة لإصابته بالسفلس .

وفي الصف الرابع (1944) ، عرضت مسرحية رصاصة في القلب لتوفيق الحكيم مثّل دور البطلة فيها خيري الدباغ ، الذي عرف بصوته الرفيع ، ومسرحية عطيل لـ«شكسبير» قام بدورها الرئيسي وليد شوكت الخيال . وهناك مسرحيات أخرى وأدوار فكاهية صغيرة برع فيها الطلبة بتقليد أساتذتهم ، أذكر منها جعفر الحسني في دور الأستاذ جوبانيان وعصام الدملوجي بدور الأستاذ جاك عبودي .

لم يكتب الطلبة عن فعالياتهم إلا القليل ، مِن ذلك صدور أول صحيفة في عام 1944 سميت بـ«زهر الربيع» قام بتحريرها صادق الهلالي وسالم الدملوجي ومهدي مرتضى من طلاب صفنا الرابع ، وأتحفها الشاعر والطالب المخضرم ضياء الدخيلي بشعر غزل رقيق . (مات الدخيلي بعد أربعين عاماً ولم يتمكن من الحصول على شهادة الكلية) .

احتوت الصحيفة على حكايات طريفة ، منها عن محاولة عبد الأمير عبدالكريم ، القصير القامة الكبير الرأس ، لتفهم أدوار الولادة عند المرأة ، بتقمص دور الجنين والانقلاب فوق كرسي قديم مهشم القاعدة ، دافعاً برأسه في فجوة القاعدة لينحشر فيه وليعلو صراخه ، وكيف أخذه رفاقه إلى قسم الولادة كحالة ولادة مستعصية!!

***

بعد ثلاثين عاماً كلفت بعمادة الكلية وكالة . وجاءني طلبة من الجامعة مكلفون بتنظيم نواد طلابية صيفية في الكلية مبتدئين بكلية الطب كنموذج . وسألوني إن كنت أرغب بإلقاء كلمة بهذه المناسبة ورحبت بالاقتراح .

كانت كلمتي موجزة لم يتجاوز إلقاؤها خمس دقائق . قلت فيها إن للكلية تاريخاً عريقاً في الفعاليات غير المنهجية ، فقد قام طلابها بأول معرض للرسم في الكليات وأول عزف أوركسترالي في بغداد ، ووصل طلابها إلى أولمبياد لندن . قام الطلاب بكل ذلك بمبادراتهم الشخصية ومن غير مساعدات مالية ، والآن ، تغدق الجامعة عليهم بالألبسة الرياضية والساحات وأحواض السباحة وحتى أصباغ وقماشات الرسم ، فما على الطلاب إلا الحفاظ على تراثهم والارتفاع بمستوى احتفالاتهم من روح الفوضى والضياع إلى النظام والإبداع .

***

تركت القاعة حالماً متأثراً ، ووقفت تحت شجرتنا العملاقة ، واسترجعت ذكريات عصرنا الذي اندثر ، ومرت أمامي أشباح أبطاله ، وأدركت أن عالمنا قد ولى وذهب مع الريح .

***

فهرست الاسماء

(أ)

(ب)

(ت)

(ج)

(ح)

(خ)

(ز)

(س)

(ش)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ن)



المؤلف

عمداء الكلية الطبية الملكية العراقية الثلاثة الكبار



الاستاذ الدكتور هاري سندرسن
١٩٢٧-١٩٣٤/١٩٤١-١٩٤٦



الاستاذ الدكتور صائب شوكت
١٩٣٩ - ١٩٤١/١٩٥٣-١٩٥٨

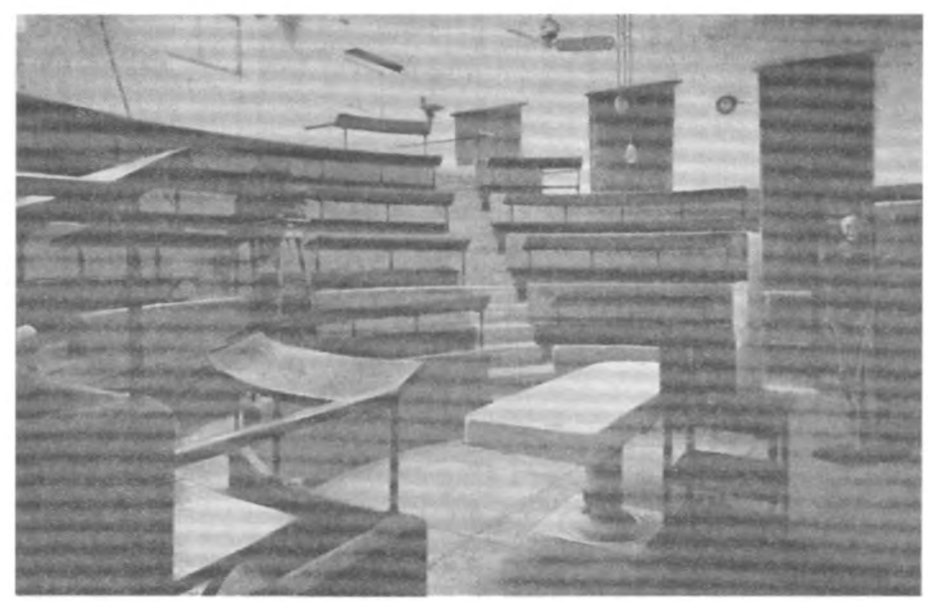


الاستاذ الدكتور هاشم الوتري
١٩٣٧-١٩٣٩/١٩٤٦-١٩٥١



طلبة الصف الاول في الكلية الطبية الملكية العراقية - عام ١٩٤٠ / ١٩٤١
يتوسطهم أساتذة المرحلة

من اليمين إلى اليسار :
الصف السابع : عزيز محمود شكري ، باروخ شالوم ، عبد الفتاح ناجي ، حسين الاورفلي ، الصف السادس : خالد القصاب ، سلمان تاج الدين ، مصطفى ابراهيم ادهم ، عبد اللطيف العاني ، نوري مصطفى بهجت ، فاضل علي . الصف الخامس : صلاح الدين تحسين علي ، فاضل السعيدي ، عبد الصمد الأعظمي ، طارق الباجه جي ، احسان رفعت . الصف الرابع : حكيم بوشه ، جورج أوسي ، خالد غنيمه ، الصف الثالث : .... ياسر كنفاني ، قتيبه الشيخ نوري ، بشير رسام ، ناظم شاهين ، رؤوف الاستربادي ، أدور قطان ، محمد تاج الدين ، مهدي مرتضى ، احمد السلمان ، صادق الهلالي ، عاصم القيسي ، جواد كمال الدين ، مير سا سون ، حمزة منيب ، خليل جميل ، سعد الله جردق ، جميل رؤوف حداد ، فخري حاج سري . طه حسين فوزي . الجالسون على الكراسي : .... الدكتور عبد المجيد القصاب (معاون العميد) ، صبرية عزيز نوشي ، سعاد توفيق محمود ، اقبال خليل اغا ، الاستاذ يوسف عزيز ، الأستاذ ، سي بوزويل ، الدكتور صائب شوكت (العميد) ، الاستاذ أي . هوكنز ، الدكتور امين بك عبد الرحمن ، ماركريت كساب ، علية الراوي ، شبلي كامل حسن ، نزيهه مخلص ، خالد الدملوجي .
الجالسون على الارض : بهاء الدين أوجي ، ابراهيم عبد الله ، فكتور زعرور ، محمد أبو طبيخ ، عبد الوهاب الصالح ، اسحاق سوفير ، صبحي البصام ، أحمد جلميران ، سالم الدملوجي ، سالم الصائغ ، سليم دلالي ....



احدى قاعات المحاضرات في الكلية الطبية الملكية العراقية



حدائق الكلية



رقم البطاقة ٢٢٢

التاريخ ٢٧/١٠/١٩٤٢

الاسم سالم فاروق الدملوجي

اللقب

العنوان

محل وتاريخ الولادة الموصل - ٩٢٢

العلامات الفارقة —

الشعر اشقر

العينان زرقاوان

رقم دفتر النفوس ٤٢٧٩

رقم دفتر الجنسية ١٥٦٥١

رقم جواز السفر

طالب في الصف الرابع

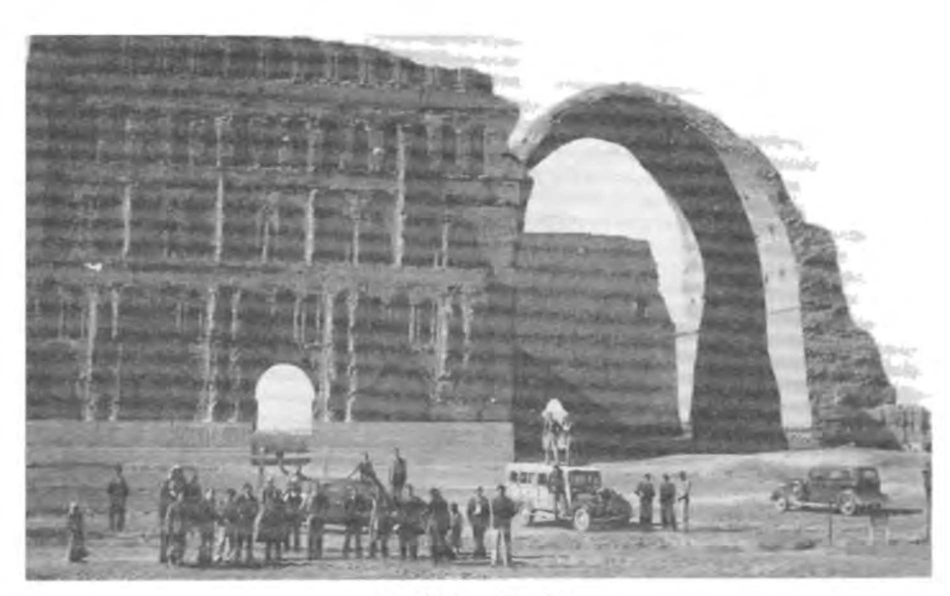
الملاحظات

توقيع الطالب   توقيع عميد كلية الطب

بطاقة انتماء إلى الكلية الطبية



في الردهة الرابعة تموز ١٩٤٥



سفرة إلى سلمان باك



سفرة إلى سلمان باك وطاق كسرى (ربيع ١٩٤١)

من اليمين إلى اليسار - الجالسون : حسن جرجفجي ، ارتين قنطارجيان ، زهير الدملوجي ، بيتر عجو سالم الدملوجي ، غازي حلمي ، الصف الثاني : خالد الدملوجي ، خيري الدباغ ، نجيب شكري ، الواقفون : صالح القرغولي ، قتيبة الشيخ نوري ، عزيز شكري ، سامي يحيى ، سالم الحيدري ، عدنان شاكر ، نصرة عبدالحميد ، ارمان بحوشي ، اواديس اوانسيان ، يونس نادي ، ادمون خياط ، شبلي كامل حسن .



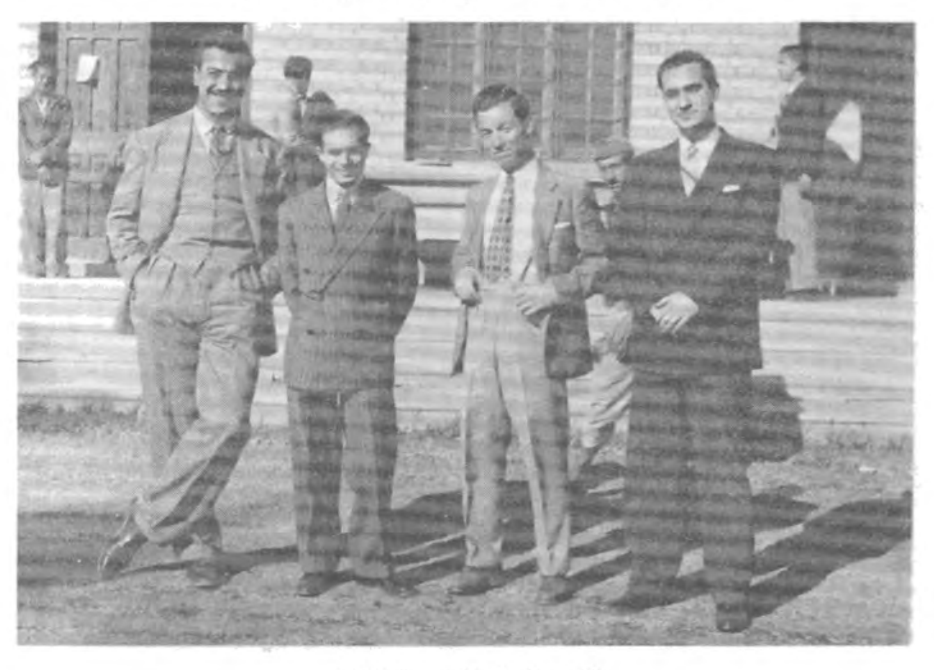
سفرة إلى سلمان باك وطاق كسرى (ربيع ١٩٤١)
من اليمين إلى اليسار - الواقفون : اواديس اوانسيان ، نصرة عبدالحميد ، عزيز محمود شكري ، قتيبة الشيخ نوري ، ارتين قنطارجيان ، سالم الدملوجي ، زهير الدملوجي ، امين محضر باشي ، بيتر عجو ، غازي حلمي ، عدنان شاكر . الجالسون - شبلي كامل حسن ، خالد الدملوجي ، سامي يحيى ، حسن جرجفجي ، يونس نادي ، نجيب شكري ، صلاح القرغولي .



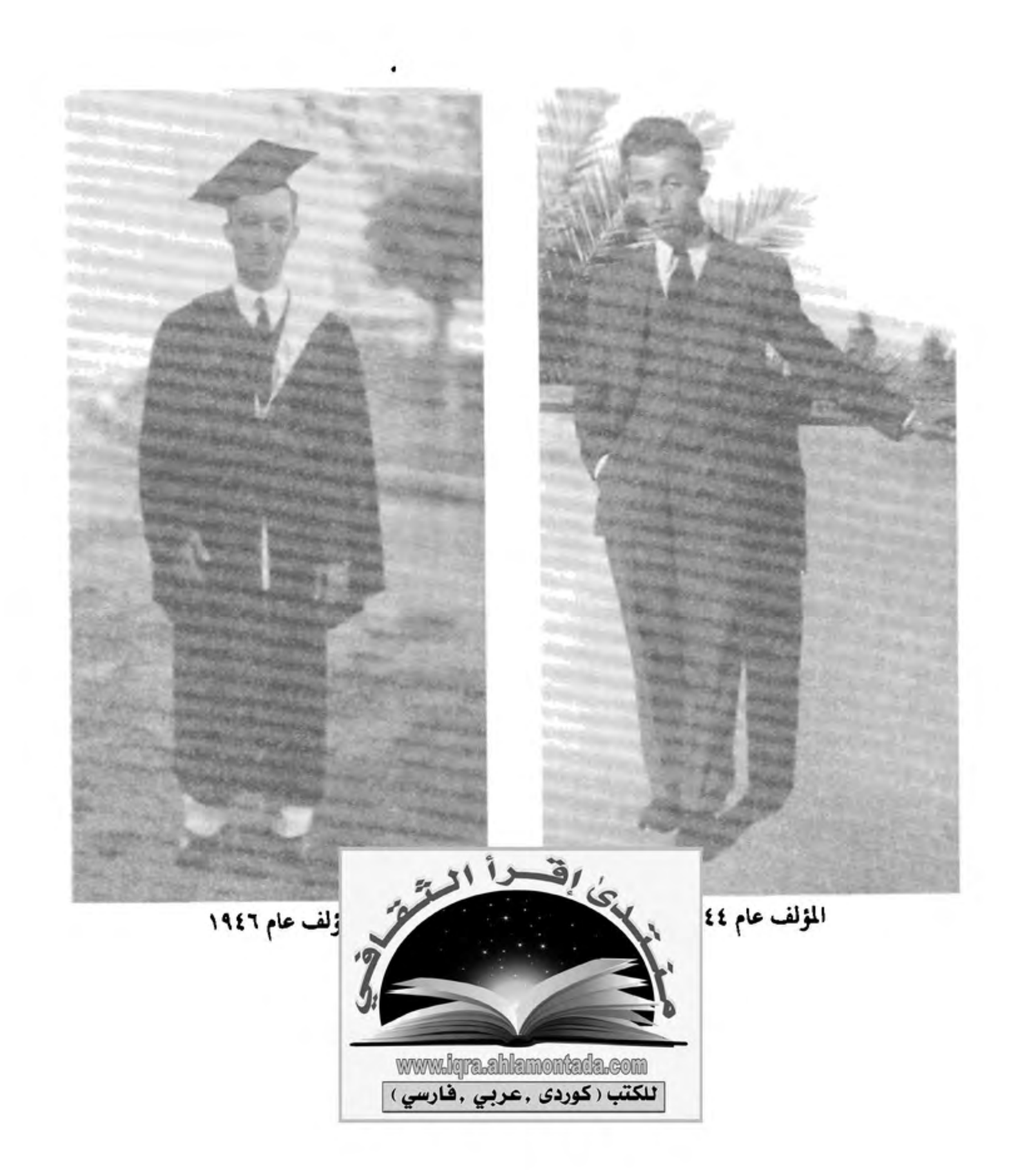
سفرة إلى سلمان باك وطاق كسرى (ربيع ١٩٤١)
من الامام إلى الخلف : الجالسون في اليمين - ارمان بحوشي ، غازي حلمي ، زهير الدملوجي ، شبلي كامل حسن ، الواقفون في اليمين - سالم الحيدري ، ادمون خياط ، عدنان شاكر ، نجيب شكري ، سالم الدملوجي ، الجالسون في اليسار - سامي يحيى ، امين محضر باشي ، نصرة عبدالحميد ، بيتر عجو ، قتيبة الشيخ نوري ، الواقفون في اليسار ، خيري الدباغ ، ارتين قنطارجيان ، حسن جرجفجي ، اواديس اوانسيان ، صالح القرغولي ، خالد الدملوجي .



سفرة إلى بساتين ديالي (١٩٤١)
ويظهر الدكتور نجدت سامي سليمان على يمين الصورة



طلاب الصف المتقدم (١٩٤٥)
من اليمين : مصطفى إبراهيم ادهم ، سالم الدملوجي ، خيري الدباغ ، خالد القصاب

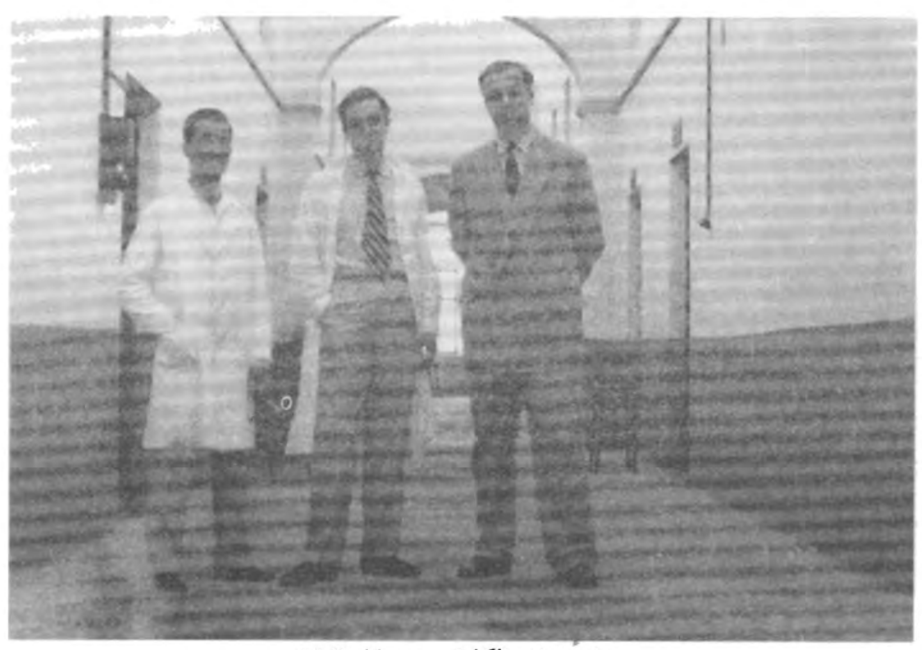


المؤلف عام ٤٤

ؤلف عام ١٩٤٦



في مستشفى الحميات (العزل) كانون اول ١٩٤٥
من اليمين - خالد القصاب ، سالم الدملوجي ، ادور يوسف عرب ، مصطفى ادهم .



وداعا ممرات الكلية - حزيران ١٩٤٦
من اليمين : خالد القصاب ، مصطفى ادهم ، سالم الدملوجي

تحت رعاية حضرة صاحب السمو الملكي الأمير زيد نائب سمو الوصي المعظم



يتشرف عميد الكلية الطبية ومدير المستشفى التعليمي بدعوتكم لحضور حفلة توزيع الشهادات والجوائز على خريجى الكلية الطبية لهذا العام وذلك فى حدائق الكلية الطبية يوم الاثنين المصادف ١ تموز سنة ١٩٤٦ فى الساعة السادسة بعد الظهر .

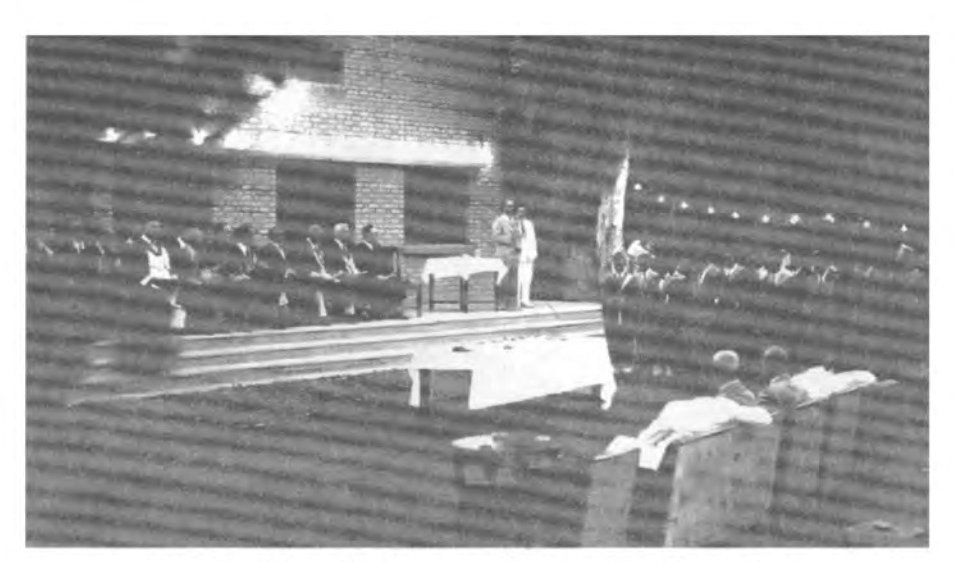
البطاقة شخصية

بطاقة الدعوة لحضور توزيع الشهادات والجوائز



حفلة التخرج

كبار المدعوين يتقدمهم الامير زيد بن الحسين ورئيس الوزراء السيد ارشد العمري والسفير البريطاني



مدير الصحة العام الدكتور عبدالله برصوم يحلف الخريجين قسم ابو قراط
وعلى المنصة اساتذة الكلية



الخريجون يتوسطهم العميد هاشم الوتري
من اليمين إلى اليسار : الصف الرابع - جميل حداد ، خالد القصاب ، حسين الاورفلي ، الصف الثالث - جيروم أوفي ، طارق الباجه جي ، حسان الراوي ، فكتور زعرور ، ناظم شاهين ، الصف الثاني - مصطفى ادهم ، صادق الهلالي ، عبدالله الخضير ، سليم دلالي ، الصف الامامي - سالم الصائغ ، عزيز محمود شكري ، ماركريت كساب ، الاستاذ الدكتور هاشم الوتري (العميد) ، سالم الدملوجي ، مير ساسون ، محمد امين ياسين آغا .



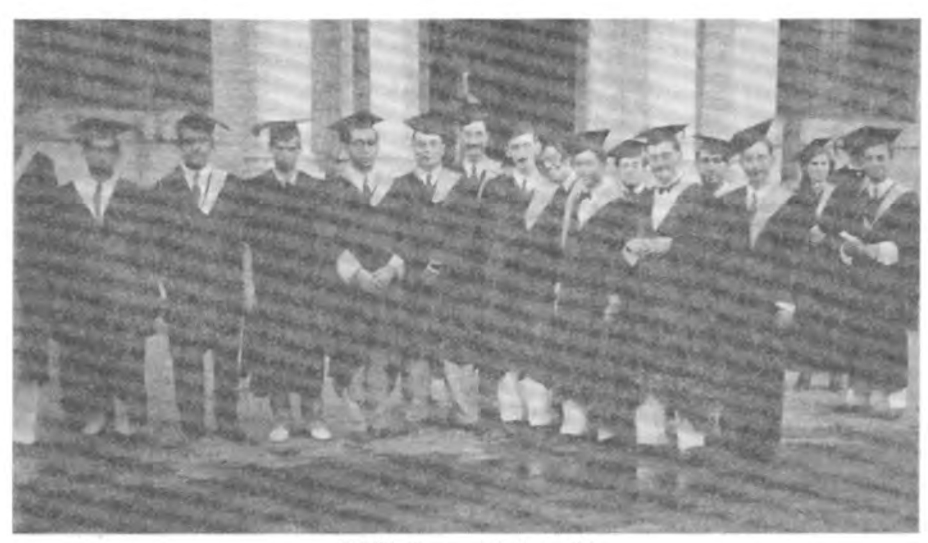
لفيف من خريجي الدورة الرابعة عشر

من اليمين إلى اليسار : طارق الباجه جي ، عزيز محمود شكري ، ماركريت كساب ، جيروم اوفي ، سالم الصائغ ، فكتور زعرور ، صادق الهلالي ، سالم الدملوجي ، حسين الاورفلي ، سليم دلالي ، مير ساسون ، جميل حداد ، ناظم شاهين ، محمد ياسين امين آغا ، خالد القصاب ، حسان الراوي .



حفلة التخرج حزيران ١٩٤٦

من اليمين : حسان الراوي ، مصطفى ادهم ، احمد مصطفى السلمان ، صادق الهلالي ، عبدالفتاح ناجي ، حسين الاورفلي ، عبدالامير عبدالكريم ، سالم الصائغ ، محمد تاج الدين ، جميل حداد ، باروخ شالوم ، سلمان تاج الدين ، جليل مطلوب ، يونس مجيد سعيد ، ناظم شاهين



الخريجون امام مدخل الكلية

من اليمين إلى اليسار :
الصف الخلفي - سالم الدملوجي ، ماركريت كساب ، سالم الصائغ ، جيروم اوفي ، صادق الهلالي ، سليم دلالي . الصف الامامي - فكتور زعرور ، طارق الباجه جي ، حسين الاورفلي ، جيمل حداد ، مير ساسون ، ناظم شاهين ، حسان الراوي ، عبدالله الخضير ، محمد ياسين امين آغا ، خالد القصاب .



الثلاثة الصغار
مصطفى ادهم ، سالم الدملوجي ، خالد القصاب



الحكومة العراقية

ROYAL COLLEGE OF MEDICINE,
BAGHDAD, IRAQ.

العدد No. 560 نمرة

التاريخ Date: 14th. August 1950. قلم

الموضوع

TO WHOM IT MAY CONCERN.

Dr. Salem Farook Damluji graduated from the Royal College of Medicine, Baghdad, Iraq in 1946 with the degree of M.B., Ch.B, obtaining the following marks during six years of studies in this college.

Subjects	Marks.	
Chemistry	88	(Eighty eight)
Biology	85	(Eighty five)
Physics	88	(Eighty eight)
Anatomy	87	(Eighty seven)
Elementary Clinics	95	(Ninty five.)
Physiology	76	(Seventy six)
Pharmacology	82	(Eighty two)
Bacteriology	68	(Sixty eight)
Parasitology	77	(Seventy seven)
Pathology	85	(Eighty five)
Public Health and Hygiene	88	(Eighty eight)
Forensic Medicine	91	(Ninty one)
Medicine	77	(Seventy seven)
Surgery	77	(Seventy seven)
Gynecology & Obstetrics	84	(Eighty four)

(Passing mark 60)

He was awarded the following prizes:

1) Iraqi Medical Association prize for the most distinguished student of the second year (1942).

2) Prof. Mills prize for the most distinguished student in Publ Health and Hygiene(1944).

3) Bank of Iran prize for the most distinguished student of the fourth year (1944).

4) His Majesty the King's prize for the first graduate of the year (1946).

5) Amana prize for the distinguished graduate of the College (1946).

Dr. Salem was of good conduct and behaviour. He was liked in the college for his pleasant personality.

F. AKRAWI, M.D.,
DIRECTOR,
ROYAL COLLEGE OF MEDICINE

شهادة التخرج من الكلية الطبية



لفيف من الخريجين في الاحتفال الخمسيني (١٩٩٦)
امام مدخل الجمعية الطبية العراقية
المنصور بغداد

من اليمين إلى اليسار :
الصف الخلفي : توما كافي الموت (١٩٤٤) ، مهدي مرتضى ، خالد القصاب ، انيس رسام ، كرستين رسام (خريجة بيروت) . حسان الراوي ، محمد تاج الدين .
الصف الامامي : جورج اوسي ، سالم الدملوجي ، جليل مطلوب ، ابراهيم كشمولة ، صادق الهلالي ، عبدالامير عبدالكريم ، حسين الاورفلي .

يبحث مؤلف هذا الكتاب الأستاذ الدكتور سالم فاروق الدملوجي تطور الكلية الطبية الملكية العراقية بعد مرحلة التأسيس من خلال سيرة ذاتية وهو طالب فيها (١٩٤٠ ـ ١٩٤٦). كما يلقي الضوء على النظام التدريسي الذي أتبعه الأساتذة العراقيون والبريطانيون ولاسيما الثلاثة الكبار: سندرسن، صائب شوكت وهاشم الوتري، من أجل تزويد المجتمع بأطباء أكفاء يصلحون ما كان يعانيه العراق من نقص في الكادر الصحي في العهد السابق للحكم الوطني. وتهيئة من خريجيها جيلاً جديداً من الأساتذة الأكاديميين الذين تسلموا مسؤولية التدريس فيما بعد فأصبحت الكلية (في الستينات والسبعينات من القرن الماضي) من أبرز الكليات الطبية في الشرق الأوسط.

كما يروي المؤلف ذكرياته عن الحياة الطلابية والاجتماعية والفعاليات الصفية واللاصفية والأفكار السياسية الرائجة أيام الحرب العالمية الثانية، ويوثق منجزات زملائه طلاب دورته النجباء بعد تخرجهم.

كما أن المؤلف كان يأمل في إصدار الجزء الثاني عن الفترة (١٩٤٧ ـ ١٩٦٥) قضاها في رحاب الكلية مدرساً للأمراض الباطنية والصدرية، والجزء الثالث (١٩٦٥ ـ ١٩٧٩) أستاذاً ورئيساً لقسم الطب الباطني في الكلية.



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي،
هاتفاكس: ٧٥١٤٣٨/٧٥٢٣٠٨